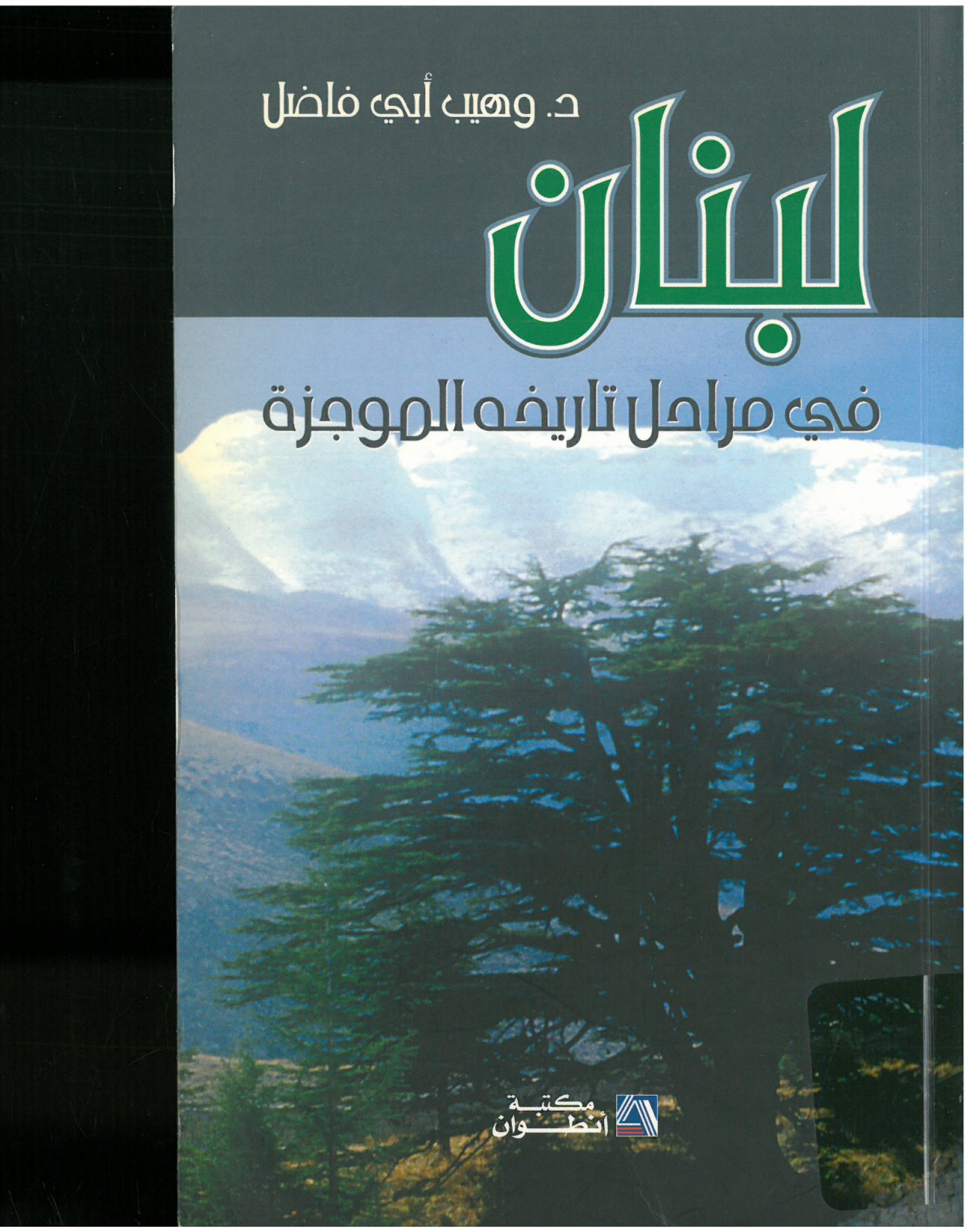

د. وهيب أبي فاضل
لبنان
في مراحل تاريخه الموجزة
مكتبة
أنطوان

د. وهيب أبي فاضل



في مراحل تاريخه الموجزة

طبعة جديدة منقحة وموسعة



الطبعة الأولى: ١٩٩٤
الطبعة الثانية: ٢٠٠٤

المحتويات

مقدمـــة

من أبسط واجبات الإنسان، بل من حقوقه، لا سيما المثقف، أن يعرف تاريخ البلاد التي يعيش فيها، ويفهم المجتمع الذي هو منه. إن معرفة جغرافية البلاد وتاريخ شعبها ليست مجرّد ظاهرة ثقافية، بل هي واجب وضرورة، حتى ينشأ المواطن الصالح الذي يحب بلاده عن قناعة، ويخدمها بمعرفة، وحتى يعرف كيف يتعامل مع الآخرين.

إن برامج التاريخ المدرسية في لبنان تعالج مواضيع من التاريخ العالمي، والإقليمي، ومن تاريخ لبنان، وهي توزّع هذه المواضيع على سنوات التدريس في المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية، فلا يتأمن الوقت لإعطاء دراسة متكاملة عن تاريخ لبنان، لذا رأينا مفيداً بل ضرورياً أن تتأمن دراسة مبسطة لتاريخ لبنان تتناول أخبار الماضي منذ القديم حتى اليوم، بصورة موجزة وواضحة، حتى يعرف أبناؤنا ما لا يجوز أن يجهلوه من تاريخ

بلادهم. ومن أراد منهم مزيداً من التفصيل يرجع إلى المراجع الموسّعة. كذلك بإمكان كل مهتم بلبنان أن يقرأ هذا الكتاب ويطلع على الخطوط الكبرى لتاريخه بصورة دقيقة وواضحة لا سيما في القرن العشرين.

يقع لبنان على شاطئ البحر المتوسط الشرقي، في مكان استراتيجي من الشرق الأوسط العربي، وعلى طريق مرور بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب. إنه ملتقى حضارات بين قارات آسية وأفريقية وأوروبة، وملتقى الديانات السماوية. وهو يتكون من شريط ساحلي وسهل خصب، ومن الجبال الغربية السلسلة الحصينة والتي لا تشكل حاجزاً مانعاً للمرور بين الشاطئ والداخل، بل تجتازها ممرات عرضانية تسلكها طرق المرور بين الساحل والداخل، وقد لعبت هذه الجبال دور الحصن والملجأ عبر العصور. ويمتد في الداخل منخفض البقاع، ذلك السهل الفسيح الخصب، الذي يفيض بالغلال. وتمتدّ حدود لبنان شرقاً إلى قمم السلسلة الشرقية. مناخ لبنان معتدل وجميل، إنه بلد الإشتاء في الشتاء والاصطياف في الصيف.

لم يكن لبنان دائماً بحدوده الحاضرة، ولا بتركيب سكانه، ولا بنظامه السياسي، بل عرفت أرضه، عبر التاريخ، شعوباً متعددة، وحضارات مختلفة. تبدّلت حدوده وأنظمة الحكم فيه مرات عديدة، تعرّض لغزوات، وحكمته شعوب. لكن ظلّت له

شخصية معيّنة تميّزه... كانت نواة الشعب منذ قبل التاريخ، ثم مع الفينيقيين، ثم تلاحقت شعوب وحضارات، تفاعل معها اللبناني فأخذ منها وأعطى، واستوعبها بالنهاية حتى أصبح لبنان كما هو اليوم.

سنرافق في هذه الدراسة الموجزة قصّة البلاد التي أصبحت لبنان، منذ أقدم العصور حتى اليوم. نتمنى أن يعرف أبناؤنا من خلالها موجز تاريخ بلادهم، فيقدروا جهود أجدادهم ويتعلقوا أكثر ببلادهم، ويعملوا لحاضر مستقر ولمستقبل أفضل.

د. وهيب أبي فاضل
الريحانة - جدايل ٢٠٠٣

إنسان ما قبل التاريخ في لبنان

كان لبنان آهلاً بالسكان منذ عصور بعيدة نسميّها عصور ما قبل التاريخ، ترجع إلى ألوف السنين، وجمع العلماء أخبارها من خلال الآثار والبقايا التي أمكن اكتشافها. وقد وُجدت في مناطق متعددة من لبنان، لا سيما في المغاور وقرب الأنهار، آثارٌ تدل على أن الإنسان عاش منذ العصر البليوليتي المتوسط، كذلك وُجدت بقايا طفل قرب إنطلياس عاش منذ نحو ٣٥ ألف سنة. كان الإنسان أولاً يعيش كما تفرض عليه الطبيعة، يسكن المغاور والكهوف، يقتات مما يصطاد، ومما يجمع من نبات وثمار، كانت أدواته وسلاحه من الحجارة ومن غصون الشجر، ومن عظام الحيوان. ولبسُه من جلد الحيوان. توصّل مع الوقت إلى بعض المعارف فطوّرها حتى أصبح شيئاً فشيئاً يفرض نفسه على الطبيعة، عرف النار فكانت له مساعداً ثميناً، تؤمن الدفء والضوء، وطهي الطعام، وتخويف الحيوان، ثم توصل إلى النطق فالكلام.

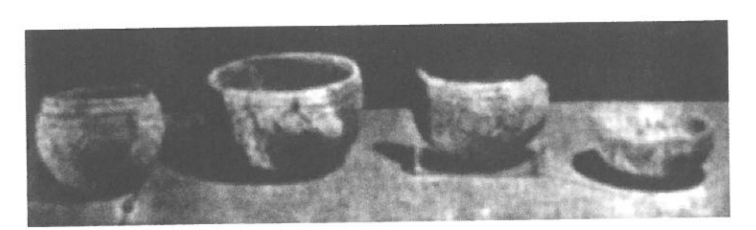
وتوصل منذ الألف الثامن ق.م. إلى معرفة الزراعة وإلى تدجين بعض الحيوانات وتربيتها، وإلى صنع الفخار وتأمين المسكن فبدأ الحياة المستقرة. وتوصل في الألف الخامس إلى معرفة النحاس، ثم البرونز فبدأ ما نسميه بالعصر الأنيوليتي، وكانت في لبنان مراكز سكنية عديدة خلال العصر الحجري، لا سيما في وديان أنهار قاديشا وإبراهيم والكلب والأولي والليطاني... وعلى الساحل لا سيما في عمشيت وجبيل وعدلون وصيدا وبيروت.

أما عصر التاريخ فبدأ في لبنان منذ الألف الرابع، وهو الوقت الذي بدأ الإنسان فيه يترك آثاراً مكتوبة، أصبحت مستندات للتاريخ. وخلال عصور التاريخ عرفت أرضُ لبنان شعوباً مختلفة، وأن معظم هذه الشعوب تركت من آثارها وسوف نتعرّف بها.

عصور ما قبل التاريخ: La Préhistoire

تمتد من ظهور الإنسان على الأرض منذ نحو سبعة ملايين سنة حتى بدء الكتابة في الألف الرابع ق.م. وتنقسم في أوروبة الغربية ومنطقة المتوسط إلى قسمين: العصور الحجرية القديمة البليوليتية Le Paléolithique والحجرية الحديثة النيوليتية Le Néolithique. أما البليوليتية فتنقسم إلى ثلاثة أقسام هي البليوليتية القديمة حتى ١٠٠ ألف سنة ق.م. البليوليتية الوسيطة من ١٠٠ ألف حتى ٣٠ ألف سنة ق.م، أبرز ممثليها إنسان

نياندرتال... البليوليتية الحديثة من ٣٠ ألف إلى ١٠ آلاف، تركّز فيها الإنسان العاقل Homo-Sapiens . أما العصور النيوليتية فتمتدّ في الشرق الأوسط من ٨ آلاف حتى ٤ آلاف سنة ق.م. تعرّف فيها الإنسان إلى الزراعة وتدجين الحيوان وبناء البيوت وحياة الاستقرار.



أواني فخارية من العصر الأنيوليني

لبنان في عصور التاريخ

بدأ عصر التاريخ في لبنان مع الكنعانيين منذ الألف الرابع ق.م. يغلب الظن أنهم ساميّون خرجوا من الجزيرة العربية ووصلوا إلى ساحل المتوسط الشرقي، وسكنوا من مصب العاصي شمالاً إلى جبل الكرمل جنوباً واختلطوا بالسكان الأصليين. وأطلق عليهم اليونان اسم «الفينيقيين» وأصبحوا يُعرفون بهذا الاسم. كانوا بدواً ثم تحضروا وأنشأوا المدن. ولم يتوحدوا في دولة واحدة، إنما شكلوا دولاً مستقلة. كانت المدينة الكبيرة تشكل دولة مع الأرض القريبة منها.

إنما نذكر أن عدداً من علماء الآثار يقول أن الكنعانين هم الشعوب الأصلية التي سكنت المنطقة وأطلق اليونان على بعضها اسم «الفينقيين» في القرن العاشر ق.م.

الأجناس البشرية في الشرق القديم

عرف الشرق القديم شعوباً عديدة، تلاحقت وتمازجت فيما بينها، وتركت حضارات متنوعة. قسّم العلماء هذه الشعوب إلى المجموعات التالية:

الشعوب القديمة

وهي التي عاشت منذ أبعد العصور ولم يعرف العلماء إلى أي أصل تنتسب. فسمّوها بشعوب العصور الحجرية، وقد خضعت فيما بعد لشعوب غازية واختلطت بها وذابت فيها.

الشعوب المتوسطية

وقد عاشت في مناطق البحر المتوسط، وهي تنقسم إلى مجموعتين كبيرتين: الشعوب الحاميّة، نسبة إلى حام بن نوح، موطنها مصر حيث الفراعنة والأقباط، وفي مناطق شمال أفريقية الأخرى ومنهم البربر. ثم الشعوب السامية نسبة إلى سام بن نوح ويعتبر العلماء أن هذه الشعوب خرجت من الجزيرة العربية على دفعات، واتجهت إلى المناطق الخصبة وأبرزها البابليون والكنعانيون ومنهم الفينيقيون، الأراميون، العبرانيون ومنهم اليهود، وفيما بعد العرب.

الشعوب الجبلية

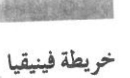
يُطلق هذا الاسم على الشعوب التي خرجت من منطقة القوقاس واتجهت إلى آسية الصغرى ومنها الحثيون والأرمن.

الشعوب الأسيانية

وتُعرف أيضاً بالهندية – الأوروبية، أو بشعوب الشمال، وهي أجناس متعددة خرجت من أواسط آسية وانتشرت في أماكن واسعة من الهند إلى أوروبة. ومنها الكلتيون (Les Celtes) اليونانيون من أيونيين ودوريين، السكيت، الجرمان، الميديون، الفرس، الأفغان، الهنود.

الكنعانيون أو الفينيقيون

بدأ تاريخ لبنان مع الكنعانيين منذ الألف الرابع ق.م. هناك رأيان حول أصلهم، منهم من قال أنهم السكان الأصليون. وثمة من قال أنهم قبائل سامية خرجوا من الجزيرة العربية ووصلوا إلى ساحل المتوسط الشرقي. وسكنوا من مصب نهر العاصي شمالاً إلى جبل الكرمل شمال فلسطين جنوباً، اختلطوا بالسكان الأصليين، وقد أطلق عليهم اليونان اسم الفينيقيين، وأصبحوا يُعرفون بهذا الاسم. كانوا بدواً ثم



خريطة فينيقيا

استقروا وتحضروا، وانتشروا تدريجاً، من الساحل إلى الجبال فالداخل، وأنشأوا المدن. لم يتوحدوا في دولة واحدة، بل كانت المدينة الكبيرة تشكل دولة مستقلة. وأهم هذه (المدن – الدول) هي أرواد، جزيرة قبالة الساحل السوري يتبعها منطقة برية، ثم جبيل (بيبلوس) المدينة المقدسة ومهد الكتاب والحرف، صيدون، كذلك صور بقسميها البرّي والبحري. كذلك كانت للفينيقيين مدن ثانوية أهمها عمريت، سميرا، طرابلس، البترون، بيروت، صرفند، عكا، وفي الداخل بعلبك.

الفينيقيـون والشعـوب الأخـرى

إن لبنان، بحكم موقعه، كان عبر التاريخ يتأثر بشعوب أخرى قريبة منه وبعيدة عنه. كان محطّ أنظار الآخرين، ولم تكن لديه دائماً قوةٌ عسكرية كافية لصدّ الغزاة، لذا تعرّض الفينيقيون لغزوات شعوب عدّة، منها كلٌّ من المصريين والأشوريين والكلدان والفرس، وبعدهم اليونان ثم الرومان...

الفينيقيون والمصريون

تأسست في وادي النيل دولة الفراعنة، وعرفت حضارة راقية جداً. وكان للفينيقيين معها علاقات مهمة بدأت في الألف الثالث ق.م. مع الدولة الفرعونية القديمة بمبادلات تجارية، يشتري المصريون الخشب والزيت والخمور وبعض المصنوعات من الفينيقيين، ويشتري الفينيقيون من منتوجات

مصر، ثم توقفت العلاقات خلال غزوة قامت بها على مصر شعوبٌ مختلفة زحفت من بلاد ما بين النهرين عبر فلسطين وسيناء، ووصلت إلى الدلتا في مصر وعُرفت بالرعاة أو الهكسوس، وسيطرت على مصر منذ أواسط القرن الثامن عشر حتى مطلع السادس عشر (١٧٦٠ – ١٥٨٦). لكن المصريين أعدوا جيشاً وحاربوا الرعاة وأخرجوهم من ديارهم، وأسسوا الدولة المصرية الحديثة ١٥٨٦ – ١٠٨٠. وقاد الفرعون المصري تحوطمس الثالث حملة قوية. وانتصر في مجدو شمال فلسطين (١٥٧٩)، ووصل إلى نهر الفرات، وسيطر على فينيقية. أحسن المصريون معاملة الفينيقيين، تركوا لهم الحرية السياسية والدينية، وظلّ الحكام الوطنيون في مراكزهم، ولقاء هذا أخذ المصريون الضريبة من الخشب والزيت والخمر وبعض المصنوعات. كذلك أخذ المصريون بعض أبناء الحكام والأسر الفينيقية الغنيّة، بحجة تربيتهم في مصر واطلاعهم على لغة مصر وحضارتها، لكنهم في الواقع جعلوهم رهائن حتى يضمنوا هدوء الفينيقيين وموالاتهم لمصر.

لكن في القرن الرابع عشر ق.م. وقعت في مصر ثورة دينية اجتماعية قام بها الفرعون أمينوفيس الرابع (١٣٧٢ – ١٣٥٤) الذي اتخذ لقب أخناتون. وفرض عبادة – أتون – أو قرص الشمس محل عبادة أمون آله طيبة. فقاومه الكهنة، وانشغلت مصر، فتقلّص نفوذها شرقي المتوسط. فيما قوي نفوذ الحثيين في آسية الصغرى، وقد حالفهم ملك دمشق الأرامي عبدا عشرتا ثم ابنه عزيرو. وضغط على المدن الفينيقية التي انقسمت، فأيدت صيدون وأرواد دولة

الحثيين، فيما ظلت جبيل وصور صديقتين لمصر، وأرسلتا الرسائل تعلن ولاءهما لمصر وتطلب منها المساعدة، وقد عُرفت برسائل تل العمارنة.

استمر الوضع مضطرباً في مصر حتى وفاة أخناتون وعودة العبادة القديمة – أي عبادة أمون إله طيبة، وظهر في مصر ملك قوي هو رمسيس الثاني، الذي قاد حملة قوية، واجتاز الساحل الفينيقي ونقش ذكرى حملته على صخور نهر الكلب، فكان عمله بداية تقليد اتبعه معظم الذين دخلوا لبنان، حتى أصبح في منطقة نهر الكلب مجموعة لوحات نادرة تشكل متحفاً في الهواء الطلق هو فريد من نوعه في العالم.

وتابع رمسيس الثاني الزحف، حتى وصل إلى نهر العاصي، فحارب الحثيين في قادش (١٢٩١) وكاد ينهزم لولا وصول فرقة فينيقية في الوقت المناسب قلبت سير المعركة لمصلحة مصر. وبعد هذه المعركة تبدّلت الأوضاع السياسية في الشرق، تعرّض الحثيون لضغط الأشوريين الذين كانوا في شمالي العراق. وتعرضت مصر لضغط قبائل نزحت من جزر بحر إيجه وعُرفت بالفلسطو، وقد نزلت هذه القبائل خلال القرن الثاني عشر في ليبيا وفي فلسطين فشغلت مصر من جديد، وضغطت على الفينيقيين وغزت صيدا وخرّبتها، ثم تلاشت وزال خطرها. مهما يكن من أمر، فقد تقلّص نفوذُ الحثيين ونفوذ مصر في مطلع القرن الثاني عشر ق.م، فاستقل الفينيقيون وكان عصرهم الذهبي، فنشطت حركتهم في التوسع والانتشار وبلغوا الذروة في حضارتهم.

فينيقية وبلاد ما بين النهرين

إن بلاد ما بين النهرين – العراق الحالي – سهول واسعة ترتفع الجبال شمالها وشرقها، وتمتد الهضاب والبوادي العربية – السورية جنوبها وغربها، تطل على الخليج العربي ويجتازها نهرا دجلة والفرات من الشمال إلى الجنوب، ويجعلان منها واحة خصبة كما يفعل النيل في مصر. سكن الإنسان في هذه البلاد منذ القديم، وتلاحقت شعوب ودول أهمها السومريون والأكاديون، والبابليون، والآشوريون، والكلدانيون وأخيراً الفرس. وتوصلت هذه الشعوب إلى حضارة راقية نذكر من أعمالها الكتابة المسمارية، وطرق الزراعة وتنظيم الري، وتنظيم المجتمع ومجموعة قوانين حمورابي، والنحت والبناء ومن نماذجه الزقورة ومثلها برج بابل.

كان كلٌّ من هذه الشعوب، إذا قوياً عسكرياً، سيطر على البلاد، وسعى للتوسع غرباً حتى الوصول إلى شاطئ المتوسط، إن سرجون الأكادي مؤسس دولة الأكاديين في مطلع القرن الثامن والعشرين، وصل إلى مياه المتوسط وأخذ الخشب من جبال لبنان.

وبعد زمن عاد الأشوريون إلى سياسة التوسع، وكانوا في شمالي العراق منذ الألف الثالث، وعاصمتهم نينوى. تميّزوا بالقوة العسكرية والقساوة، سيطروا على آسية الصغرى، وزحفوا غرباً فأوقفهم الفينيقيون وحلفاؤهم على نهر العاصي، في معركة قرقر ٨٥٤ ق.م. لكنهم عادوا، بعد نحو مئة سنة، وزحفوا غرباً فاحتلوا فينيقية ووصلوا إلى مصر.

دفع الفينيقيون الجزية، ليتجنبوا شرّ الغزاة، وحتى يؤمنوا مصالحهم التجارية، واستفادوا من أسواق الأمبراطورية الأشورية الواسعة. لكن عندما زاد الأشوريون وطأة الضرائب ثارت المدن الفينيقية مرات، دفاعاً عن حقّها وكرامتها رغم الخسائر.

ضعف الأشوريون، وسيطر عليهم الكلدانيون في أواخر القرن السابع ق.م. واحتلوا عاصمتهم نينوى (سنة ٦١٢) وأتموا السيطرة على البلاد، ثم زحفوا غرباً صوب المتوسط، ووصلوا إلى فينيقية. لكن مدينة صور قاومتهم ببسالة، وصمدت ثلاث عشرة سنة في وجه ملكهم نبوخذ نصر (٥٨٥ – ٥٧٢) لكن الكلدان فرضوا سيطرتهم حتى انتصر عليهم الفرس.

الفينيقيون والفرس

إن الفرس شعب هندي – أوروبي، كانوا قبائل متفرقة تعيش على هضاب إيران، وحّدهم الملك كوروش، واحتل مدينة بابل (٥٣٩) وسيطر على العراق وعلى آسيا الصغرى، قُتل في إحدى المعارك، فخلفه ابنه قمبيز (٥٢٩) فزحف غرباً، وحالفه الفينيقيون وقدموا له مساعدة بحرية، والأسطول الفينيقي زعيم البحار في ذلك العصر، سيطر قمبيز على مصر، وتوقف عن الزحف صوب قرطاجة حتى لا يُغضب الفينيقيين.

مات قمبيز في ظرف غامض، خلفه داريوس الكبير (٥٢١ ق.م) فنظم الأمبراطورية، جعلها ٢٣ إقليماً أو مرزبة، وكانت صيدا

عاصمة إقليم، وملكُها قائد الأسطول الفارسي، وكان مستشاراً لملك الفرس. أحسن الفرس معاملة الفينيقيين، فتركوا لهم الحرية السياسية والدينية والاقتصادية، كما احترموا لغتهم وتقاليدهم وملوكهم. وانفتحت أمام التجارة الفينيقية أسواق الأمبراطورية الفارسية الواسعة. من شاطئ المتوسط إلى حدود الهند، ومن آسية الصغرى إلى مصر ومنها إلى قرطاجة ففرنسا أو غالة فإنكلترة. كما ازدهرت صناعة الفينيقيين وتنوعت، وحمل التجار المصنوعات الفينيقية الفاخرة إلى الأسواق العالمية.

تابع خلفاء داريوس الحرب ضد اليونان، وقدّم لهم الفينيقيون المساندة البحرية، وكان ملك صيدا قائد الأسطول. لكن اليونان وقد تميّزوا بحسن التنظيم والتدريب العسكري المتفوق، وبالدفاع المستميت عن أرضهم، أحرزوا انتصارات كبيرة على الفرس أبرزها معركة المراتون البرية (٤٩٠ ق.م) ومعركة سلامين البحرية (٤٨٠ ق.م) حيث ارتكب ملك الفرس غلطة عسكرية رغم نصيحة القائد الفينقي. وبدأت العلاقات تسوء بين الفينيقيين والفرس.

ضعف الفرس منذ القرن الرابع، واختل الأمن، وزادوا الضرائب، وحدّوا من امتيازات الفينيقيين، لذا نقمت المدن الفينيقية، ودافعت عن كرامتها، وثارت مدينة صيدا، فزحف ملك الفرس أرتحشتا بنفسه وحاصر المدينة بجيش جرار، رأى أهل صيدا أن سقوط مدينتهم أمرٌ لا بد منه، ففضلوا الموت بكرامة على مذلة الاستسلام للعدو المستبد، فأحرقوا المدينة بمن فيها (٣٥٩ ق.م) ووقف الفرس أمام أطلال مدينة تلتهمها النار.

وظل الوضع سيئاً في فينيقية حتى انتصر الاسكندر المكدوني على الفرس، وسيطر على الشرق بما فيه بلادنا كما سنرى.

الفينيقيون واليونان

لليونان تاريخ قديم، عاش الإنسان في تلك البلاد منذ عصور ما قبل التاريخ، وبلغ حضارة راقية منذ الألف الثالث لا سيما في جزيرة كريت، وما زالت بقايا قصر كنوسوس في شمال الجزيرة تشهد على رقي تلك الحضارة، لا سيما في عصر الملك مينا بن أوروبا الفينيقية وأخت قدموس.

تعرضت بلاد اليونان منذ مطلع الألف الثاني (ق.م) لهجمات الشعوب الهندية الأوروبية، وتمثلت طلائعها بالأيونيين، ومنذ القرن الثاني عشر وصلت قبائل هندية – أوروبية جديدة هي الدوريون، ومع الأيام اختلط الأيونيون والدوريون وشكلوا الشعب اليوناني أو الإغريقي، الذي انتشر من آسيا الصغرى حتى جنوبي إيطاليا. وبلغ درجة عالية جداً من الرقي، وبلغ ذروة الحضارة في القرنين الخامس والرابع ق.م. واشتهرت مدن عدة في طليعتها كل من أسبرطة وطيبة وأثينا.

أراد الفرس أن يسيطروا على بلاد اليونان، استعانوا بالأسطول الفينيقي، فوقعت حروب طويلة انتهت بانتصار اليونان بزعامة أثينا، فدفعوا الخطر عن أرضهم. لكن الخطر الأكبر الذي هدد الشعب اليوناني هو الحرب الداخلية بين المدن اليونانية التي

أضعفتها جميعاً، فيما قويت دولة مكدونيا شمال البلاد، وتمكن قائدها فيليبس المكدوني من الانتصار على المدن اليونانية سنة ٣٣٨ ومن السيطرة الكاملة على بلاد اليونان.

اغتيل فيليبس سنة ٣٣٦ ق.م. وخلفه ابنه الاسكندر وهو في العشرين من عمره. قاد القائد الشاب جيشاً كبيراً وزحف على الشرق، اجتاز آسية الصغرى، وانتصر على الفرس في معركة إيسوس سنة ٣٣٣ ق.م. وسار على الساحل الفينيقي حتى لا يترك البحر بيد الأسطول الفينيقي حليف الفرس، استقبلته المدن الفينيقية بالترحاب، وقدّمت له الهدايا. لكن كانت له قصة مع صور، فقد أراد أن يدخل صور البحرية، وان يُقدم الذبيحة في معبد ملقارت، فرفض الصوريون طلبه، لأنهم لا يريدون أن يدخل غريب صور البحرية حصنهم الحصين، وقالوا إن الذبيحة لملقارت لا يقدمها إلا ملك صور، وهم لا يسمحون لغير ملكهم تقديم الذبيحة. غضب الاسكندر واعتبر ذلك إهانة، وقرر دخول المدينة عنوةً. قاومه الصوريون ببطولة، وأظهروا مقدرة عسكرية رائعة. أصر الاسكندر على احتلال المدينة، عبقرية اليونان، وتنظيمهم، وشجاعتهم تعمل ليل نهار لردم البحر والوصول إلى صور البحرية، يواجههم الصوريون ببسالة ودهاء، أقوى أسطول وأمهر البحارين في مواجهة أكثر جيوش العصر خبرة وأحسنها تنظيماً. صراع الغرب مع الشرق أمام صور دام ثمانية أشهر، أطول معركة خاضها الاسكندر في حياته، انتهت بانتصار الاسكندر. دخل صور البحرية ونكّل بأهلها...

ثم تابع الاسكندر الزحف، فدخل مصر وقدّم الذبائح في

معابدها، واعتبره المصريون ابن الإله. ثم عاد إلى الشرق فانتصر على الفرس، وسار حتى حدود الهند، ورجع إلى بابل ومات فيها ٣٢٢. وبعد موت الاسكندر عاشت الأمبراطورية سنوات اضطراب، حتى تم تقسيمها بين القادة إلى ثلاثة أقسام: سيطر السلوقيون على أسية الصغرى، والبطالسة على مصر، والأنتيغونيون على بلاد اليونان.

عرف الشرق بعد حملة الاسكندر حضارة جديدة هي مزيج من الفكر الشرقي والفكر الإغريقي، هي الحضارة الهللنستية. أما بلادنا فقد تنازعها البطالسة والسلوقيون، دارت معارك طويلة حتى سيطر عليها السلوقيون. تعلم الفينيقيون اللغة اليونانية بجانب لغتهم الآرامية، وتأثروا بحضارة اليونان لمدة طويلة، ونشأت مراكز للحضارة الإغريقية لا سيما في صور وصيدا، وبرز علماء وشعراء وفلاسفة كثيرون أتقنوا لغة اليونان وعلومهم. والجدير بالذكر، ثقةُ الفينيقيين بأنفسهم وتعلّقهم بأرضهم، وقدرتهم على التجديد وإعادة البناء، ولا أدلَّ على ذلك من إعادة بناء صيدا بعد أن احترقت في أيام الفرس، وتجديد صور بعد أن دمرها الاسكندر.

الفينيقيـون والحضـارة

كان الفينيقيون شعباً نشيطاً، وقد اتصلوا بالشعوب التي عاصرتهم، أعطوها الكثير، وأخذوا منها، وهضموا ما أخذوا حتى بنوا حضارة متطورة. بلغوا درجة عالية في التنظيم، وفي الاقتصاد، وفي الفكر والفن، وكانوا بحق أسياد البحر وأرباب التجارة.

المجتمع ونظام الحكم

لم يعثر المنقبون على مستندات تصف المجتمع الفينيقي، إنما من خلال أقوال القدماء، ومن بعض النصوص استخلص المؤرخون أن الفينيقيين كوّنوا مجتمعاً منظماً، فيه طبقتان، لا تقومان على المولد أو على الدم، بل على الثروة والنجاح في العمل، هما الأرستقراطية وعامة الشعب. أما طبقة الأرستقراطية فتتكون من الأغنياء من تجار ورجال أعمال وكبار الملاكين،

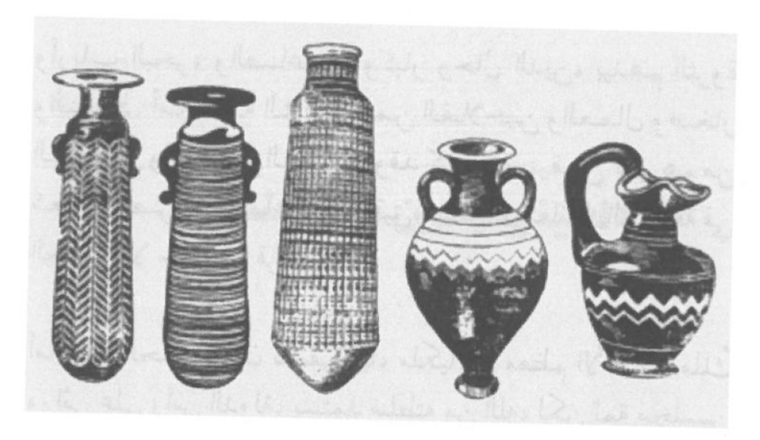
وأرباب البحر، والصناعيين، وكبار رجال الدين، بيدهم الثروة والنفوذ. أما عامة الشعب فمن الفلاحين والعمال وصغار الملاكين والتجار والبحّارة. وقد كان للفينيقيين كغيرهم من شعوب عصرهم، جماعة من الرقيق... كما استعانوا بالمرتزقة في الجيش، لا سيما في قرطاجة.

أما نظام الحكم فكان ديمقراطياً، ملكياً في معظم الأحيان، ملكٌ وراثي على رأس الدولة، يستمد سلطته من الله، لكن ثمة مجلسين يعدّلان هذه السلطة. مجلس الأعيان (أو الشيوخ) يمثل الأرستقراطية، ويتراوح عدد أفراده بين ١٠٠ و ٣٠٠ عضو. ومجلس العامة (النواب) يمثل الشعب. ونشأت أحزاب تمثل الأرستقراطية، وأحزاب تمثل عامة الشعب. كذلك كان لكل جماعة من العمال هيئة تدافع عن مصالحها، مثل النقابات في عصرنا. هذا وقد عرفت صور، في بعض الأوقات، نظاماً جمهورياً. وفي قرطاجة كان المجلس ينتخب حاكمين، ولمدة محددة، يُعرف الواحد منهما بالسافط (أو القاضي) وذلك تجنباً للديكتاتورية.

الاقتصاد: الزراعة، الصناعة، التجارة

أتقن الفينيقيون حقول الاقتصاد، وبرعوا فيها، فقد حرصوا أن يؤمنوا مستوى عيش راقٍ.

كانت الزراعة مورد عيشهم الأول، انتشروا من الساحل إلى الداخل، وزرعوا السهول وأنشأوا الجلول على المنحدرات.

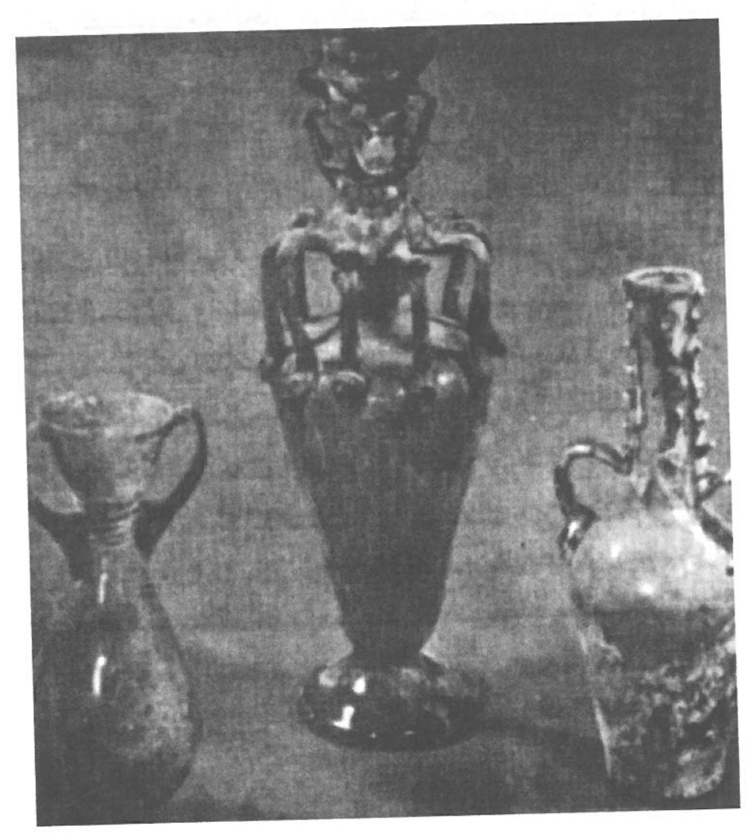


آنية فينيقية

كانوا في البدء يعتمدون على سواعدهم وحدها، ثم سخّروا الحيوان في العمل، وتعرفوا إلى أدوات تسهل عملية الزراعة، فتوصلوا إلى صنع معظم الأدوات التي ما زال فلاحنا يستعملها اليوم في بعض المناطق، تعرفوا إلى المحراث، والسكة وكانت من الخشب ثم أصبحت من المعدن، وإلى المعول، والفأس، والرفش، والمنجل، والنورج، والمذراة، والجرن والجاروشة، والمعصرة. وربّوا البقر والماعز والغنم واستفادوا من لحمها وحليبها وجلودها ومن الشعر والصوف. واستخدموا البقر للحراثة، والحمير والخيل والجمال للنقل. زرعوا معظم الزراعات التي نزرعها اليوم، واستغلوا غابات لبنان، وكان الخشب من أهم صادراتهم، والمادة لبناء السفن.

وكانت الصناعة الركن الثاني في اقتصادهم. اقتبس الفينيقيون صناعات كثيرة وحسّنوها، واستنبطوا صناعات. لم تقتصر الصناعة عندهم على تأمين الحاجة المحلية، بل أنتجت مادة

للبيع، وكان للمصنوعات الفينيقية شهرتُها العالمية، حتى أن الإغريق كانوا في حفلاتهم الكبرى يوزعون الهدايا من مصنوعات فينيقية، واختار هوميروس السفن الفينيقية لأبطال ملحمته «الرحلات». كانت الصناعات الفينيقية كثيرة، ومتقنة، وصل بعضها إلى مستوى العمل الفني الراقي، نذكر أنواع الزجاج، والفخار، والصباغ الأرجواني، وصهر المعادن، والحلي، والنسيج والملبوسات، كذلك الخمر والزيت وشهرة



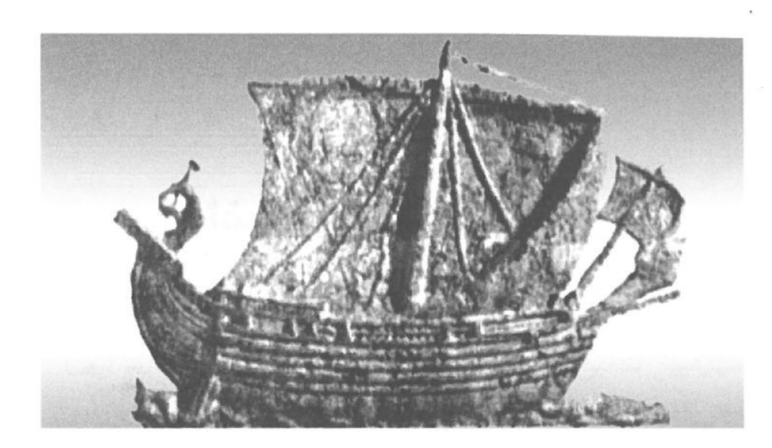
زجاج فينيقي

معاصر العنب والزيتون. ولا ننسى صناعة السفن والأسطول الفينيقي، التجاري والحربي، أعظم أساطيل العالم في عصره وظل كذلك حتى حملة الاسكندر.

لعل التجارة كانت أبرز نشاطاتهم، حتى أصبح اسم «فينيقي» مرادفاً لرجل الأعمال وللتاجر الناجح. لم تكن التجارة عند الفينيقيين لتأمين الحاجة المحلية فقط، إنما كانت للربح أيضاً. تاجر الفينيقيون مع الخارج، طبّقوا نظام التجارة المثلثة، أي أنهم أصبحوا الوسيط التجاري بين شعوب عصرهم، يشترون منتوجات هذا ويبيعونها لذاك. أمّنوا وسائل النقل في البحر وفي البر. سارت سفنهم في البحر إلى بلدان آسيا وأوروبا وأفريقيا، وضربت قوافلهم في البر عبر سوريا فوصلت إلى الجزيرة العربية جنوباً وآسيا الصغرى، والقوقاس شمالاً، وإلى بلاد ما بين النهرين فإيران فالهند شرقاً. نقلوا كافة منتوجات عصرهم وتاجروا بها. تعاطوا نظام المقايضة، توصلوا إلى استعمال العملة، إذ كانت أولاً من جلود الحيوانات، ثم قطعة من معدن، ومنذ العهد الفارسي أصبحوا يسكّون النقود.

الفينيقيون والبحر

لم تقم شهرة الفينيقيين على التجارة وحدها إنما على البحر أيضاً، هم أبرز شعوب البحر، وما زال المؤرخون حتى اليوم يصفون البحّار الناجح بأنه «فينيقي» عصره. لم يحصر الفينيقيون نشاطهم على أرضهم، وقد رأينا نشاطهم التجاري، وخبرتهم في بناء السفن، فقد استفادوا من البحر المتوسط، فبدأت سفن جبيل وصيدا وصور منذ أواخر الألف الثاني تطوف المتوسط الشرقي، وصلت إلى مصر وإلى قبرص وآسيا الصغرى، وجزر كريت ورودس وبحر إيجه فبلاد اليونان، ونزلت جاليات التجار في هذه البلدان وأنشأت المحطات التجارية. ومنذ القرن التاسع، بدأ اليونان ينافسون الفينيقيين في المتوسط الشرقي، فتوجهوا إلى المتوسط الغربي، وقد حسّنوا سفنهم، فوصلوا إلى جزر مالطا وصقلية وسردينيا وكورسيكا والباليار... وإلى جنوب إيطالية. كذلك إلى شمال أفريقيا وإلى إسبانيا وأنشأوا المحطات التجارية.



سفينة فينيقية

واحتاجوا إلى قاعدوة حصينة وثابتة لمواجهة تحديات اليونان فأنشأت صور مدينة قرطاجة في أواخر القرن التاسع ق.م (٨١٤) لتكون قاعدة يلجأ إليها تجار الفينيقيين وينطلقون منها، فنمت القاعدة حتى أصبحت مدينة عظيمة، استقلت في القرن الخامس ق.م. وأصبحت قلب أمبراطورية واسعة. تمتد من وسط أفريقيا جنوباً، إلى قلب إسبانيا شمالاً. وتسيطر على معظم جزر المتوسط الغربي، ويمتدّ نفوذها التجاري عبر غالة (فرنسا) حتى انكلترا. وخاضت حروباً طويلة ضدّ اليونان ثم ضد الرومان، واشتهر منها قادة عسكريون، في طليعتهم هملقار برقا وابنه هنيبعل.

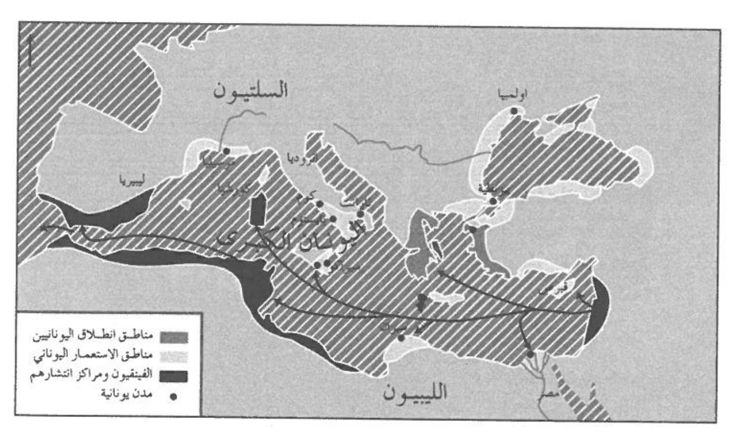
ومع هذا التوسع انتشر الفينيقيون، في جميع مناطق المتوسط، حتى أنشأوا عالماً فينيقياً في شمال أفريقيا، كان بداية امتداد عالم الشرق صوب الغرب، وصورة لاغتراب اللبنانيين وانتشارهم في العالم، وكثرت الأساطير حول هذا الانتشار، نذكر منها اسطورتي أليسار، وقدموس.

تدور أسطورة أليسار حول تأسيس قرطاجة. وقع خلاف بين أليسار بنت ملك صور وأخيها بغماليون، فتركت المدينة مع جماعتها وذهبت إلى شمال أفريقيا، واتفقت مع ملك تلك الديار أن يعطيها أرضاً مقدار جلد ثور، قطّعت الجلد قطعاً دقيقة وأحاطت بأرض واسعة، وبنت البيوت لمرافقيها فنشأت قرطاجة.

وتروي أسطورة قدموس أن إله اليونان زفس تحول إلى ثور وجاء إلى شاطئ صور وخطف أوروبا بنت ملكها أغنور، فأرسل الملك ابنه قدموس حتى يبحث عن أخته، وأمره بألا يرجع إلا مصطحباً أخته. أخذ معه أمه وأخويه تاسوس وسيلكس. لم يلتق قدموس أخته، علماً أن الإله تزوج منها وكان من أولادها مينا أشهر ملوك كريت، وأعطت اسمها لقارة أوروبا. أما قدموس فأقام في بلاد اليونان، علّم الأبجدية والقراءة وباقي علوم الفينيقيين وبنى المدن وأشهرها طيبة. هذه الأسطورة تشهد على ترابط العائلة عند الفينيقيين، وعلى الاغتراب والانتشار ودور اللبنانيين التحضيري في العالم.

الفينيقيون يكتشفون البحار

وكان البحارة الفينيقيون أول من حقق كشوفات واسعة في البحار، فطافوا البحر المتوسط، وعبروا مضائق الدردنيل والبوسفور إلى البحر الأسود، ثم اجتازوا مضيق أعمدة هرقل –



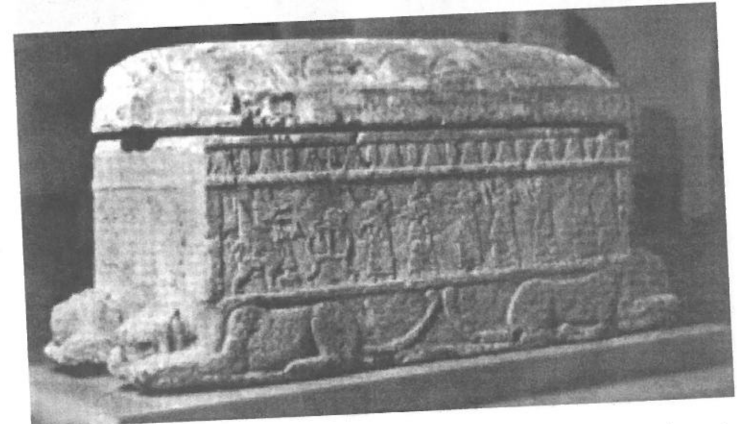
خريطة الانتشار الفينيقي

جبل طارق فيما بعد. دخلوا المحيط الأطلسي، ووصلوا إلى جنوب انكلترا وإيرلندا وإلى بحر البلطيك. وفي آخر القرن السابع (٦٠٠) أتمّ بحارةٌ فينيقيون، لحساب نخاو ملك مصر، دورةحول أفريقيا متوجهين من الشرق إلى الغرب. وفي القرن الرابع (ق.م) قاد البحار القرطاجي حنّون حملة من قرطاجة إلى غرب أفريقيا حتى وصل إلى خليج غينية، وترك وصفاً مثيراً لرحلته تلك. وفي الشرق قام بحارة الفينيقيين برحلات مثيرة، فقد نقلوا الخشب من لبنان، وبنوا السفن على شاطئ البحر الأحمر واتجهوا شرقاً ووصلوا إلى الخليج العربي، وتركوا آثاراً غنيّة يحفظ منها متحف البحرين آثاراً مهمة. وتابع البحارة الفينيقيون الإبحار شرقاً، اجتازوا بحار الهند ووصلوا إلى شواطئ أندونيسيا. ووُجدت آثارٌ فينيقية على شواطئ القارة الأميركية، على شواطئ البرازيل في الجنوب (صخرة براهيبيا) وعلى سواحل الولايات المتحدة (دايتون في ولاية مساشوستس).

قدّم الفينيقيون الأبجدية للعالم، وفي ذلك خدمة رائعة، أوجدوا للعالم طريقة عملية وسهلة لتصوير الفكرة وحفظها. استنبط المصريون الطريقة التصويرية للكتابة (الهيروغليف) واختزل أهل بلاد ما بين النهرين صور الكتابة (الطريقة المسمارية). أما الفينيقيون فقد وضعوا صوراً للنبرات الصوتية، وضعت جبيل ٢٢ صورة تصوّر جميع الكلمات، فأصبحت الأبجدية الجبيلية أم الأبجديات في العالم، وأقدمها محفور على ناووس الملك أحيرام الذي عاش في جبيل في القرن الثالث عشر ق.م. والناووس موجود في المتحف الوطني في بيروت.

اللغة والأدب

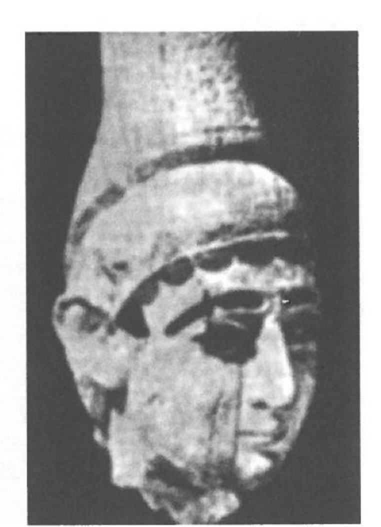
تكلّم الفينيقيون لغة سامية تشبه السريانية، وكتبوها، وقد توصل العالم الفرنسي، الأب برتلمي، إلى قراءة نص فينيقي وترجمته.



ناووس أحيرام

أما في حقل الأدب فلم يبق من أعمال الفينيقيين إلا القليل، وذلك لأن بلادهم تعرّضت للغزوات والتخريب، ولأنهم كتبوا على ورق البردي فلم يقاوم التلف.

تحدث اليونان والرومان عن شعراء ومؤرخين فينيقيين. ووجد المنقبون في رأس شمرا، أوغريت، بقايا مكتبة فينيقية فيها لوحات من الآجر، تتناول مواضيع حسابية ومدرسية تعليمية، ودينية من أناشيد وتراتيل، وملاحم. وكان للفينيقيين أغانٍ وأناشيد وألحان تأثرت بها شعوب عصرهم في الشرق وفي الغرب. لم يبق محفوظاً من أسماء مفكري الفينيقيين إلا الذين كتبوا باليونانية أو باللاتينية ومنهم العالم موخوس الصيدوني، والشاعر أنتيباتر، والفيلسوف زينون، وعالما الزراعة القرطاجيان هملكون وماغون، وترجمت روما كتبهما.



وجه من العاج



إمرأة فينيقية وُجدت في أسبانيا

واعتمدها الأوروبيون حتى القرن الميلادي الخامس. ورسم مارينوس الصوري الخرائط ووضع خطوط الطول والعرض. ولا ننسى أن عدداً من فلاسفة اليونان هو من أصل فينيقي منهم فيثاغوروس وطاليس.

الفنون

كانت الفنون مرتبطة بالدين وبالاقتصاد وبالحياة الاجتماعية. وقد اطلع الفينيقيون على فنون عصرهم واستوحوا منها، وأوجدوا فناً خاصاً بهم. بنوا المعابد ونحتوا التماثيل، ورسموا اللوحات وأتقنوا الصناعة حتى بدت معظم مصنوعاتهم عملاً فنياً جميلاً.

الديانة

كان الفينيقيون وثنيين مثل شعوب عصرهم، لكنهم توصلوا إلى درجة متقدمة من التوحيد، فقد أصبح إيل الإله الأكبر خالق السماء والأرض وسيّد الآلهة. تليه آلهة أخرى من ذكور وإناث. كان لكل مدينة إله أو أكثر. احترموا الآلهة وأعطوها الألقاب، ونسجوا الأساطير، وبنوا المعابد، وخصصوا لها الأعياد، وأقاموا الاحتفالات الدينية، وقدموا النذور والأضاحي من منتوجات زراعية وحيوانية، حتى قدموا أضاحي بشرية في الظروف الصعبة ليكسبوا عطف الآلهة ويدفعوا عنهم الشر. وأشهر آلهتهم بعد أيل، كان ملقارت إله صور، أشمون إله صيدا، أدونيس إله جبيل،



آثار فينيقية في جبيل

شمش إله الشمس والحياة، عشتروت آلهة الخصب والجمال، بعل إله المطر، موت إله الموت، رشف إله الحرب.

الانتشار الفينيقي خارج فينيقية

بدأ الانتشار الفينيقي في حوض المتوسط في أواخر الألف الثاني (ق.م) فقد ضاقت البلاد بالفينيقيين، واختاروا أن يتوسعوا في الخارج. عبروا البحر المتوسط إلى بلدانه البعيدة. فأسسوا أول الأمر قواعد تجارية، تحولت مع الوقت إلى مراكز سكنية ثابتة، فإلى مدن، فدولة، فأمبراطورية فينيقية عاصمتها قرطاجة، استمرت حتى منتصف القرن الثاني ق.م.

منذ القرن الثاني عشر ق.م. أبحر إلى قبرص بحارة من جبيل وصيدا وصور وأقاموا فيها، فأنشأوا محطات تجارية في لارنكا وليماسول وتاماسوس، وحصلوا على النحاس لصناعة البرونز. وبعد قبرص وصلوا إلى رودوس، أكبر جزر الدوديكانيز وأجملها، وما زال فيها آثار فينيقية حتى اليوم. كذلك ذهبوا إلى كريت، وأقاموا في وسطها الشرقي لا سيما في فايستوس Phaestos، ومنها انتقلوا إلى بلاد اليونان وتاجروا معها، وتابعوا الإبحار في البحر الأدرياتيكي، ونزلوا على شاطئ دلماسيا، وأنشأوا مدينتي أبيدور Epidaure وبيتو Butoë. ووصلوا إلى جنوب إيطاليا، وإلى صقلية وأقاموا هناك، ثم انتشروا في جزر ليباري شمال صقلية، وبصورة خاصة في ليباري وفولكانو، ووجدوا هناك الصخور البركانية التي جعلوا منها مادة أولية لصناعات عدة، فنحتوا منها العلب والحلي والخناجر والسكاكين وأدوات الصيد من حراب وسهام.

وتوسعوا على شاطئ إيطاليا الغربي حتى خليج بوزول Pouzzole شمال نابولي. واستثمروا خيرات تلك الديار لا سيما الكبريت. ونزلوا في الجزر الباقية وسيطروا عليها وأبرزها سردينيا وكورسيكا والبا، وسيحتفظون بها لعدة قرون.

وبالمقابل كانت بعثات فينيقية أخرى تبحر على شاطئ المتوسط الجنوبي، فأنشأت قاعدة نوكراتيس في دلتا مصر. كما سيطرت جاليات أخرى على شاطئ ليبيا وتونس حيث أقامت قواعد عدة أهمها أوتيكا وبنزرنا وكامبا.

وأبحرت بعثات أخرى صوب الغرب، فاجتازت المضيق الذي

يصل المتوسط بالمحيط الأطلسي، وأطلقت عليه اسم أعمدة ميلقارت وسماه اليونان فيما بعد بأعمدة هرقل، حتى أطلق عليه العرب اسم جبل طارق في مطلع القرن الثامن للميلاد وما زال يحتفظ بهذا الاسم. والجدير بالذكر أن الفينيقيين كانوا أول شعب متحضر آنذاك يجتاز هذا المضيق ليصل إلى المحيط الأطلسي. ومن المحيط انفتحت أمامهم الطريق إلى بلدان الأطلسي، في غرب أفريقيا، وفي شمال أوروبا حتى انكلترا وبحر البلطيك، كذلك إلى القارة الأميركية.

قرطاجة ٨١٤ - ١٤٦ ق.م

ظلّت الساحة زمناً طويلاً، خالية أمام الفينيقيين في حوض المتوسط الغربي، والأسواق حرّة لاستقبال بضائعهم. لكن منذ القرن العاشر ق.م. بدأت ترتسم في وجههم مزاحمة أجنبية، وتشتدّ مع الوقت. ففي الشرق برز الأشوريون، واكتسحوا بلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى. وعطّلوا قسماً من أسواق الفينيقيين في البرّ. فاضطر الفينيقيون أن يتوسعوا في الغرب. كذلك بدأ اليونانيون يتوسعون في المتوسط الغربي، وقد توجهوا إلى جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية حيث أنشأوا ما عرف بـ «اليونان الكبرى».

أدرك الفينيقيون أنهم لا بدّ أن يواجهوا مقاومة من سكان شمال أفريقيا. فعزموا على إنشاء محطة دائمة تكون مركزاً ثابتاً وقوياً، يقيمون فيه. ينطلقون منه ويلجأون إليه عند الحاجة. فاختاروا لذلك منطقة شمال أفريقيا الشمالية الشرقية –أي تونس الحالية–

لم يكن هناك مزاحم قوي بعد. والمنطقة قريبة من أوروبا. ويمكن أن تكون صلة وصل بين الشرق وأفريقيا وأوروبا الغربية. وكان الفينيقيون كما ذكرنا، قد أنشأوا قواعد تجارية منذ القرن الثاني عشر ق.م. أهمها أوتيكا وبنزرتا وكامبا. وتعرفوا إلى أهل البلاد، وأقاموا معهم علاقات تجارية.

أسس الفينيقيون قرطاجة في أواخر القرن التاسع (٨١٤ ق.م) وأطلقوا عليها اسم «قرت حدشت» أي القرية أو المدينة الحديثة، وتحولت إلى قرطاجة، دارت الأساطير حول تأسيس قرطاجة، حسب التقليد القديم حيث كان لتأسيس كل مدينة أسطورة. احتفظ اليونان ببعض هذه الأساطير، وأبرزها أن أليسا بنت ملك صور اختلفت مع أخيها بيغماليون فغادرت المدينة على رأس الحزب الموالي لها. ذهبت إلى قبرص، ومن هناك إلى شمال أفريقيا حيث أسست مدينة قرطاجة التي كتب لها أن تصبح مدينة عظيمة وعاصمة أمبراطورية واسعة.

إن قرطاجة لم تنشأ صدفة بسبب خلاف بين أهل صور. بل نشأت تلبية لحاجة ملحة. درس الفينيقيون موضوع إنشائها بدقة. فقد اختاروا مكاناً جغرافياً مناسباً، يشبه موقع صور إلى حدّ بعيد. هو شبه جزيرة متقدمة في البحر، يصلها بالبر برزخ يتراوح عرضه بين ٢ و ٣ كلم. على شاطئ مناسب يمكن إنشاء المرفأ عليه. ويرتفع قرب المكان هضبة إلى ٥٠٠ م. تشرف على البحر، ويستطيع المراقب من فوقها أن يكشف البحر حتى الأفق البعيد. ويوجد وراء البرزخ عدد من المستنقعات، وبحيرة غنية بالأسماك، وماء حلوة تؤمن حاجات المدينة.

ازداد سكان قرطاجة بسرعة، وأصبحت المدينة المركز الذي يرتبط به جميع الفينيقيين المنتشرين في حوض المتوسط الغربي. كذلك ظلّت على اتصال دائم بأمها صور حتى سقطت هذه الأخيرة بيد الاسكندر المكدوني ٣٣٢ ق.م.

زاد سكان قرطاجة على ٧٥٠ ألف نسمة. وارتفعت فيها الأبنية العالية، حتى بلغ بعضها سبع طبقات. وشق القرطاجيون الطرق، وأنشأوا الشوارع والأحياء المتشعبة منها. وأقاموا الساحات وبرك السباحة وزرعوا الحدائق. كما بنوا مرفأً عظيماً فيه حوضان أحدهما للتجارة وآخر للحرب. أصبحت المدينة خلية بشرية متعددة النشاطات. فيها أحياء المتاجر والمصانع ذات المهمات المنوعة. كذلك اعتنى القرطاجيون بشؤون الفكر فطرحوا علوم عصرهم من كافة جوانبها: الأدب، الشعر، الفلسفة، العلوم المختلفة. وعرضوا الكتب. اهتموا بالنشاطات البشرية كافة منها الأناقة حيث كانت محلات بيع الزهور وأدوات التجميل والرسوم والأواني الفنية الجميلة. والتقت في المدينة شعوب العصر من مختلف الأجناس والألوان تتزيا بأزيائها الخاصة، وتتكلم لغاتها. يفد الألوف إليها يومياً من أفريقيا ومن خارجها، يبيعون ما يحملون من منتوجاتهم، ويشترون ما هم بحاجة إليه. كانت قرطاجة المدينة الأعظم والأغنى في عصرها. كأنها باريس أو لندن أو نيويورك في عصرنا. كلما زارها زائر أعجب بها لا سيما اليونان والرومان من بعدهم. الذين حسدوا المدينة وتمنوا أن تتشبه بها مدنهم، ووصل الحسد لدى البعض إلى درجة الحقد والعداوة، وأضمر الشر لقرطاجة.

ارتأت قرطاجة أن تحمي نفسها من مخاطر يمكن أن تقع في المستقبل، سواء من جيرانها الأفارقة – بدو الصحاري – أم من الخارج سواء من اليونان أو من الرومان. فباشرت إقامة التحصينات. فبنت أول الأمر حائطاً يحمي جنائن المدينة، كما أقامت مراكز الحراثة ومراقبة الداخلين إلى المدينة والخارجين منها. وأقامت، جهة البحر سلسلة حصون، ما زال باق من آثارها حتى اليوم.

> فيما بعد أحاطت المدينة نفسها بأسوار منيعة وصفها المؤرخ الفرنسي غوستاف فلوبير في كتابه Salambo كما يلي: «إن القرطاجيين حفروا خندقاً، ثم بنوا مترسة فسوراً بعلو ثلاثين ذراعاً، مزدوج الطبقات، مرصوف الجنادل، يحوي أسطبلات لثلاثمئة فيل. وفيه مخازن للمؤونة وأسطبلات أخرى تتسع لأربعة آلاف حصان مع العدد. وثكنات لعشرين ألف جندي مع أسلحتهم وجميع أعتدة الحرب. وترتفع على الطبقة الثانية أبراج مجهزة بشرف تحمل في خارجها دروعاً من الشبه معلقة بالكلاليب. وعاش القرطاجيون بسلام داخل مدينتهم».

أصبحت قرطاجة عاصمة أمبراطورية واسعة. فقد سيطرت على القواعد التي أسسها الفينيقيون في المتوسط الغربي، بسطت نفوذها على جزر المتوسط، وأقامت القواعد التجارية والعسكرية في جزر الباليار وكورسيكا وألبا وسردينيا وغرب صقلية والجزر القريبة منها، كذلك جزيرة مالطا. وتخطت سفنها أعمدة ملقارت (جبل طارق) ووصلت إلى شاطئ إسبانيا الغربي،

وجعلت من ترشيش قاعدة لها. كما سيطرت على معظم شبه جزيرة إيبيريا. وأبحرت سفنها في المحيط الأطلسي، وأنشأت قواعد على السواحل فوصلت إلى بلاد كورنواي جنوب غرب إنكلترا، كذلك وصلت إلى بحر البلطيك. وأبحرت مراكب جنوباً قبالة سواحل أفريقيا الغربية حتى خليج غينية. كذلك كانت السفن القرطاجية على اتصال دائم بشواطئ أوروبا الجنوبية لا سميا في إيطاليا وفرنسا. ومن هناك تذهب القوافل البرية داخل أوروبا حتى تصل إلى شواطئ بحر المانش وبحر الشمال وتلتقي السفن الذاهبة إلى إنكلترا وبحر البلطيك.

ونشط بحارة قرطاجة فقادوا الحملات الاستكشافية. ولمعت أسماء بحارة عدة أبرزهم ملخوس وهسدرو بعل وهنيبعل.. وأشهرهم جميعاً حنون الذي أبحر من المتوسط حتى طنجة واجتاز مضيق أعمدة ملقارت (جبل طارق) على رأس حملة تزيد على الستين سفينة. وسار قبالة ساحل أفريقيا الغربية حتى خليج غينية.

قرطاجة في مواجهة اليونان ثم الرومان

فيما كان القرطاجيون أقوياء ويتوسعون ويؤسسون الأمبراطورية. كان غيرهم يتطور ويؤسس أمبراطورية.. كان هذا شأن اليونان ثم الرومان. فاصطدموا بقرطاجة ونشبت حروب طويلة.

إن بلاد اليونان جبلية مثل فينيقيا وسهولها ضيقة. كثيرة التعاريج متداخلة مع البحر، وتنتشر الجزر حتى آسيا الصغرى. وكما

توجه الفينيقيون صوب البحر، هكذا فعل اليونان. كانت بلاد اليونان آهلة بالسكان منذ القديم. ومنذ مطلع الألف الثاني ق.م. وصلت إليها قبائل هندية أوروبية قوامها الآخيون. وفي القرن الثاني عشر وصل اليها الدوريون، وتمازج الشعبان وشكلا الشعب الإغريقي أو اليوناني. وسيطر على البلاد اليونانية بكاملها، وعلى الجزر كذلك على آسيا الصغرى حتى البحر الأسود. ومنذ القرن التاسع توجه اليونان صوب الغرب فنزلوا في جنوب إيطاليا وفي غرب صقلية. كما وصلوا إلى جنوب فرنسا وأسسوا مدينة مرسيليا.

بدأ التنافس بين القرطاجيين واليونان فأصبحت الحرب حتمية. بدأت قرطاجة تعد الجيش ومعظمه من المرتزقة، فيما قيادته وسلاحه من قرطاجة. وتعاونت قرطاجة مع الأتروسكان المقيمين في إيطاليا منذ القرن التاسع ق.م. وبدأ القتال بين اليونان والقرطاجيين وحلفائهم الأتروسكان. منذ مطلع القرن السادس ق.م. واشتد في عهد ملك الفرس داريوس الكبير (٥٢١ – ٤٨٥) الذي حاول احتلال بلاد اليونان وتحالف مع الفينيقيين في الشرق وفي الغرب. فوقعت حروب طويلة بين القرطاجيين واليونان في جزر المتوسط الغربي. وتمكن القرطاجيون وحلفاؤهم من إخراج اليونان من كوم شمال نابولي ومن وسط إيطاليا. كذلك أحكم القرطاجيون السيطرة على جزيرة سردينيا، كما حصروا اليونان في مرسيليا، وأوقفوا توسعهم في إسبانيا. وتقاسموا معهم جزيرة صقلية، فسيطر اليونان على شرقها فيما احتفظ الفينيقيون بغرب الجزيرة، واستمر الصراع. فتفوقت قرطاجة واحتفظت بالسيطرة على المتوسط الغربي. عندئذٍ

استعان يونانيو إيطاليا (حيث أطلقوا على منطقتهم اسم اليونان الكبرى). استعانوا بملك دولة الأبير بيروس (وقد نشأت هذه الدولة في القرن الخامس بين ألبانيا واليونان) لمواجهة خطر القرطاجيين والأتروسكان. فلبى بيروس الطلب، وقاد حملة إلى صقلية وجنوب إيطاليا في مطلع القرن الثالث ق.م. لكنه اختلف مع اليونانيين أنفسهم ورجع إلى بلاده. وتخلّصت قرطاجة من خطر اليونان.

الحروب بين قرطاجة وروما – الحروب البونية

لم يكن لقرطاجة قبل حروبها ضد اليونان جيش قوي، منظم. لكنها استفادت من هذه الحروب – لا سيما من حربها ضد بيروس – حتى تعيد تنظيم جيشها وتطوير سلاحها. فأدخلت الفيلة، وجعلتها سلاحاً فاعلاً مثل المدرعات في عصرنا، وقد أتت بالفيلة من أفريقيا. وأعادت النظر في تنظيم الجيش وتدريبه، وزادت من قوة أسطولها الحربي. وأصبح عليها أن تواجه خصماً جديداً وقوياً هو روما.

تأسست روما في أواسط القرن الثامن على ضفة نهر التيبر في وسط إيطاليا، ونمت بسرعة، وتوسعت حتى سيطرت على شعوب إيطاليا بكاملها. وأتمت هذه السيطرة في مطلع القرن الثالث بانتصارها على اليونان الكبرى في جنوب إيطاليا. وبدأت تخطط للتوسع خارج إيطاليا. فاتجهت أولاً إلى حوض المتوسط الغربي، فاصطدمت بقرطاجة.

والرومان شعب عملي وواقعي، نشيط وقوي. متعصبون لوطنهم، ويموتون من أجله. جعلوا من حزمة القضبان شعاراً لهم، وذلك تعبيراً عن أن القوة تكون بالتعاون. كانت القوة العسكرية أساس عظمة روما، جعلت روما من جميع أبنائها مقاتلين، يعملون في أرضهم ومصالحهم وهي تستدعيهم للتدريب وللقتال عند الحاجة.

كانت قرطاجة تسيطر على حوض المتوسط الغربي بكامله. فعندما اتجهت روما صوب هذا الحوض أصبحت الحرب حتمية. دارت حروب طويلة، هي صراع بين أقوى دولتين في تلك المنطقة، ومظهر من مظاهر الصراع بين الشرق والغرب. مرّت بثلاث مراحل وعرفت بالحروب البونية: الحرب البونية الأولى بين سنتي ٢٦٤ و ٢٤١. والحرب البونية الثانية بين سنتي ٢١٩ – ٢٠١. والحرب البونية الثالثة بين سنتي ١٤٩ – ١٤٦ التي أدت إلى سقوط قرطاجة ونهايتها.

الحرب البونية الأولى ٢٦٤ – ٢٤١

بعد ان انتصرت روما على اليونان في جنوب إيطاليا، اتجهت إلى المتوسط الغربي تحارب قرطاجة. بدأ القتال في صقلية. ففهم القرطاجيون أن روما لا تطمع بصقلية وحدها بل بحوض المتوسط بكامله. فأرسلت حملة إلى صقلية، وكان أسطولها يسيطر على البحر. أدركت روما من جهتها، أنها لا تستطيع مواجهة قرطاجة إلا إذا أعدت الأسطول. حصلت على حطام

سفينة فينيقية، نقلتها إلى شاطئ إيطاليا، وأنشأت الأحواض لصناعة السفن حسب النموذج الفينيقي. فبنت أسطولاً قوياً، لكن الأسطول القرطاجي حطّم معظم قطع الأسطول الروماني في معركة ليبارا في البحر التيراني. لم تيأس روما بل جددت الأسطول فخاض معارك ضد الأسطول القرطاجي أبرزها معركة ميلا. لكن الأسطول القرطاجي ظلّ سيد البحر. كان هملقار برقا على رأس القيادة العسكرية في قرطاجة. أراد أن يطور الجيش ويدربه على الطريقة المكدونية. وأن يجعل معظم عناصره من القرطاجيين لأن جيش المرتزقة يحارب من أجل الأجرة وليس من أجل الوطن. ليست له قضية يدافع عنها، لكن الأغنياء في قرطاجة لم يتحمسوا لتطوير الجيش. رغم هذا حرّك هملقار برقا روح الشجاعة والعنفوان في جيشه، واحتفظ بالتفوق العسكري.

ظل الرومان يراقبون بدقة سياسة هملقار. وفهموا أن الحرب ضد قرطاجة ستكون طويلة، وسيكون للأسطول الدور الكبير. ورغم النكسات السابقة بنت روما أسطولاً جديداً. انتصر على الأسطول القرطاجي سنة ٢٤١. وبدأت زعامة البحر تميل إلى الرومان. رغم هذا ظل أغنياء قرطاجة يعارضون الحرب، ويفضلون دفع ضريبة لروما لشراء السلام ولتأمين مصالحهم التجارية. فدخل هملقار في مفاوضات مع روما وعقد معاهدة صلح. وانسحب القرطاجيون من صقلية.

قبل هملقار شروط روما، إنما عمد إلى تقوية جيشه ضمن إمكاناته. لكن الجنود المرتزقة قاموا بثورة كبيرة ضد قرطاجة وساعدتهم روما. تمكن هملقار من إخماد الثورة. وجعل صهره

هسدرو بعل مساعداً له. وأراد أن يعوّض لقرطاجة ما خسرته في صقلية. فراح يتوسع في إسبانيا، ورافقه النجاح حتى اغتيل في إحدى المعارك سنة ٢٢٩ ق.م. فخلفه صهره هسدروبعل في قيادة الجيش وتابع العمل بنجاح حتى اغتيل سنة ٢٢١. فخلفه هنيبعل بن هملقار برقا.

الحروب البونية الثانية ٢١٩ - ٢٠١ ق.م

استلم هنيبعل قيادة الجيش وهو في الرابعة والعشرين من عمره، وقيل أنه عندما كان في الثامنة من عمره أدخله أبوه أحد معابد قرطاجة وأقسم اليمين على محاربة روما. تمرّس هنيبعل منذ صغره بالحروب وبرزت عبقريته العسكرية باكراً. أدرك أن الحرب ضد روما حتمية ورأى أن روما آلة حرب تتحمل القتال لمدة طويلة، فيما قرطاجة قوة اقتصادية تزدهر في وقت السلم، ومعظم جيشها من المرتزقة. فهي لا تتحمل الحرب لمدة طويلة. لذا رأى أن يضرب روما بسرعة وفي عقر دارها، حتى يفرض عليها السلام. ووافقه على ذلك الحزب الديمقراطي – حزب الشعب – الذي ينتمي اليه. فيما كان الحزب الأرستقراطي – حزب الأغنياء – لا يقول بالحرب، بل بدفع ضريبة لروما، ليشتري السلام.

اتصل هنيبعل بأعداء روما في غالة وفي إيطاليا، وتوسع في إسبانيا، فحركت روما الموالين لها في إسبانيا ضد هنيبعل، فضربهم واحتل مدينة سجنتا الموالية لروما على نهر الإيبر. فاحتجت روما وأرسلت وفداً إلى قرطاجة يطالب بعزل هينبعل

عن قيادة الجيش في إسبانيا، وهددت قرطاجة إن لم تعزله وخيّرتها بين الحرب والسلم. وكان في قرطاجة، اتجاه للانتقام من روما، فرفضت إنذار روما.

أصبحت الحرب حتمية، فأعد هنيبعل جيشاً قوامه ستون ألف مقاتل منهم عشرة آلاف خيال. تدعمه قوة من الفيلة بلغت ٣٧ فيلاً. وقاد هنيبعل الحملة، فاجتاز جبال البيرينه، وجنوب غالة (فرنسا) ثم اجتاز جبال الألب رغم صعوبة الطريق، لكنه خسر الفيلة، وخسر قسماً كبيراً من جيشه. وعندما وصل إلى شمال إيطاليا انضم إليه الألوف من أعداء روما. وكان مطلعاً على وضع روما، ويعرف أنها قادرة على إعداد جيش يبلغ ٧٥٠ ألفاً. والرومان مقاتلون أشداء، يموتون ولا يستسلمون.

أما روما فأعدت الجيش، ووجهته لملاقاة هنيبعل. فوجهت فرقة استطلاع تختبر خطط هنيبعل. فقاتلتها فرقة قرطاجية وانتصرت عليها. وراقب هنيبعل سير المعركة، حتى يفهم مقدرة الرومان وخططهم. ثم تقدم هنيبعل إلى نهر تريبيا Trébia أحد روافد نهر البو، وانتصر على جيش روماني كبير سنة ٢١٨ ق.م. وتابع الزحف جنوباً، فأحرز نصراً كبيراً عند بحيرة ترازيمان، حيث قتل أكثر من ١٥ ألأف جندي روماني، وأسر عدداً مماثلاً. عندئذ سلمت روما القيادة إلى قنصل واحد يتخذ لقب ديكتاتور هو كونتس فابيوس مكسيموس لمدة ستة أشهر، معروف بالحكمة والروية. قرر عدم مواجهة القرطاجيين في معركة فاصلة، بل اعتماد حرب العصابات والاستنزاف لإرهاق القرطاجيين، لأن جيش روما دون جيش قرطاجة قوة، وليس عندها قائد بمستوى هنيبعل.

تابع هنيبعل الزحف، فاجتاز جبال الأبنين إلى شاطئ البحر الأدرياتيكي، فتصدى له جيش روماني في ممر فولتورنو الضيّق. وانتصر هنيبعل وتابع الزحف. واستمر فابيوس في سياسته الحذرة، واعتمد سياسة الأرض المحروقة، فيحرق كل شيء حتى الأعشاب حتى يضيّق على خيول القرطاجيين واستمر كذلك حتى آخر ولايته.

بعد نهاية ولاية فابيوس انتخب الرومان قنصلين جديدين هما لوسيوس اميليوس بولوس عن الحزب الأرستقراطي، وكايوس ترنتوس فارون عن الحزب الديمقراطي. وقرر القنصلان مواجهة هنيبعل في معركة فاصلة، فجمعا أكثر من سبعين ألف مقاتل. فيما كان جيش هنيبعل لا يتعدى الخمسين ألفاً منهم ١٠ آلاف خيال. وقعت المعركة في كاني جنوب شرق إيطاليا سنة ٢١٦ ق.م. برزت فيها عبقرية هنيبعل العسكرية. فانتصر انتصاراً ساحقاً، وأباد معظم الجيش الروماني، وفي اليوم الثاني طاف هنيبعل أرض المعركة فتأثر لهذه المجزرة البشرية، وتأثر تأثراً عميقاً من أنين الجرحى الباقين على أرض المعركة.

رغم هذا لم تستسلم روما. ولم يزحف هنيبعل لمحاصرتها، نصحه الكثيرون باحتلال روما، لكنه أجاب «أن الأمر يحتاج إلى تفكير عميق». لم تكن لديه الأدوات الكافية للحصار. وهو لا يريد أن يجري مذبحة بشرية في روما. وقد آلمه ما رآه في أرض معركة كاني.

كانت روما في ساعاتها العصيبة تستعين بأهل الحكمة والكفاءة

فاستدعت الشيخ فابيوس مكسيموس من جديد. دعا الرومان إلى الهدوء والروية، رفع معنوياتهم، دعاهم إلى العمل لإعادة البناء، لإعداد جيش يعادل جيش قرطاجة، وتهيئة قائد بمستوى هنيبعل. وبانتظار ذلك عمدت روما إلى حرب العصابات، وتطبيق سياسة الأرض المحروقة للتضييق على القرطاجيين واستنزاف قواهم.

روما تنقل الحرب إلى أفريقيا

ظل هنيبعل في إيطاليا، في حالة لا حرب ولا سلم، وقعت مناوشات، ومعارك جانبية في إيطاليا وفي إسبانيا، وقام هنيبعل بمحاولات للتعاون مع شعوب إيطاليا، وأجرى اتصالات خارجية مع السلوقيين في آسيا الصغرى، ومع اليونان في مكدونيا.

أما روما فأعدت جيشاً كبيراً، وسلمت قيادته إلى شاب كفوء من أسرة تتقن الحرب والقيادة، هو فابيوس كورنيليوس شيبيو الذي عُرف بالإفريقي، درس خطط هنيبعل فأطلق عليه لقب «هنيبعل روما» أرسلت روما حملة كبيرة إلى أفريقيا سنة ٢٠٤ ق.م. بقيادة شيبيو. وانضمت إليها قبائل من البربر. فاستدعت قرطاجة قائدها هنيبعل، فرجع إلى بلاده. وواجه الرومان في معركة زاما سنة ٢٠٢ ق.م. لكنه انهزم فيها. ووضعت روما الشروط على قرطاجة ومن أبرزها أن تدفع قرطاجة ضريبة كبيرة لروما، وتسلمها قطع الأسطول الحربي، والسلاح، وتتوقف عن محاربة روما، ومقابل ذلك تحتفظ باستقلالها وبمستعمراتها في أفريقيا.

قبلت قرطاجة هذه الشروط، وسلمت حكم المدينة للقائد هنيبعل. فبدا رجل الدولة والعمران والسياسة، كما كان رجل القيادة والحرب. أعاد الثقة إلى النفوس، جدد الاقتصاد، دفع الضريبة لروما، استعاد عظمة قرطاجة. لكن الرومان قلقوا من سياسته. فضغطوا على قرطاجة لأبعاده. خاف من أن يأخذه الرومان أسيراً، غادر إلى الشرق، زار مدينة صور، وذهب منها إلى آسيا الصغرى يحرّض السلوقيين ضد روما. ولما لم ينجح انتقل إلى جزيرة كريت، ثم إلى نيكوميديا على شاطئ بحر إيجه وكان الرومان يلاحقونه، فتجرع السم ومات سنة ١٨٣ ق.م. حتى لا يقع بيد الرومان. وقد اعتبره المؤرخون واحداً من كبار القادة العسكريين الذين عرفهم التاريخ، أمثال الاسكندر المكدوني ونابوليون بونابرت.

الحرب البونية الثالثة ١٥٠ - ١٤٦

تجددت قرطاجة، رجعت مدينة البحر والاقتصاد غزت منتوجاتها الأسواق. قلقت منها روما، ووجدت أنها تعجز عن مجاراتها في وقت السلم. فقررت القضاء عليها نهائياً. خلقت لها المصاعب، حركت ضدها قبائل البربر. أرسلت اللجان لمراقبة ما يجري في قرطاجة، واللجان ترفع التقارير المقلقة لروما، والتي تحذر من ازدهار الاقتصاد القرطاجي وما يشكل من خطر على روما وتنصح بتدميرها.

راحت روما تنتهج سياسة إضعاف قرطاجة، والدولة الفينيقية

تستجيب لمطالب منافستها حتى تحافظ على السلام وظروف العمل. أخيراً كشفت روما عن نيتها الحقيقية، فطلبت إلى القرطاجيين أن يتركوا مدينتهم، ويبنوا مدينة أخرى تبعد ١٥ كلم عن البحر. فتأكد القرطاجيون أن روما تريد القضاء عليهم. فقرروا الحرب، والموت بشرف في ساحة القتال، بدل الموت البطيء في المنفى الذي أرادته لهم روما.

سيّر الرومان حملة كبيرة إلى قرطاجة فابحر الأسطول لمحاصرتها سنة ١٥٠ ق.م. حاصروا المدينة من البر والبحر. قاوم القرطاجيون ببطولة، وظل الرومان يرسلون الحملة تلو الحملة، وقرطاجة صامدة حتى استسلمت في مطلع سنة ١٤٦ ق.م. فأمر الرومان بتخريب المدينة، وزرعوا الملح في أرضها. وقالوا أن هذه الأرض ستظل مقفرة إلى الأبد. وتوزع القرطاجيون في شمال أفريقيا وفي جزر المتوسط، وفي إيطاليا حتى في روما نفسها. واستقبلهم الناس حتى يستفيدوا من خبرتهم ونشاطهم.

هكذا انهزمت قرطاجة بعد أن عاشت ستة قرون ونصف، سيدة مستقلة، قلب أمبراطورية واسعة، وأم حضارة غنية. انهزمت، دمرها عدوها، تبنّى حضارتها، ألصق بها التهم، كتب سيرتها كما يريد، كما ألجاني يصف الجريمة، لكن كل المحاولات لم تلغ عظمة قرطاجة. فإن حضارتها استمرت سواء في أفريقيا أو في أوروبا، حتى في روما نفسها. فإن قبائل البربر اقتبست حضارة قرطاجة، وتكلمت اللغة الفينيقية، اقتبست الكتابة الفينيقية، ومظاهر الحضارة. كذلك اعتنقت شعوب شمال أفريقيا الديانة

الفينيقية بالإضافة إلى العادات والتقاليد، حتى أن روما نفسها أخذت الكثير من قرطاجة. ترجمت الكتب القرطاجية إلى اللغة اللاتينية منها كتب ماغون عن الزراعة وهي أول كتب من نوعها في العالم، تعلمت منها تقنيات الصناعة لا سيما صناعة السفن. وذهب القرطاجيون إلى روما، أنشأوا أحياء خاصة بهم، انتشروا في أنحاء الأمبراطورية الرومانية. وكان لهم دور كبير في الاقتصاد والعمران والجيش والسياسة. حتى أن كثيرين من القرطاجيين وصلوا إلى مراكز كبيرة في القيادة وفي السياسة حتى أصبح منهم أباطرة نذكر على سبيل المثال الأمبراطور سبتيموس سفيروس (١٩٣ – ٢١١ م) الذي كان يتكلم القرطاجية والفينيقية بطلاقة ولدى تسلمه الحكم قيل فيه «إن قرطاجة انتقمت لنفسها من روما».

لبنان والعهود الرومية

بعد أن انتصرت روما على قرطاجة، وسيطرت على حوض المتوسط الغربي توسعت في المتوسط الشرقي، فسيطرت على



هياكل بعلبك

بلاد اليونان، وعلى آسيا الصغرى وشرقي المتوسط وجنوبه، حتى أتمت السيطرة على حوض المتوسط بكامله، وتوسعت عبر غاله أي فرنسا، وغزت إنكلترا. حتى امتدت أمبراطوريتها من إنكلترا غرباً إلى حدود العراق شرقاً. وفرضت السلم الروماني. وقدمت للعالم أشياء كثيرة: اللغة اللاتينية، القوانين، مفهوماً جديداً للدولة وللمواطنية، نمطاً للإدارة والتنظيم، وشكلاً للفنون يتميز بالعظمة وبالتناسق. بالإضافة إلى هندسة بناء تميزت بالعظمة وصنعت أدوات عدة لتحسين طرق العيش. وفي عهدها ظهرت المسيحية.

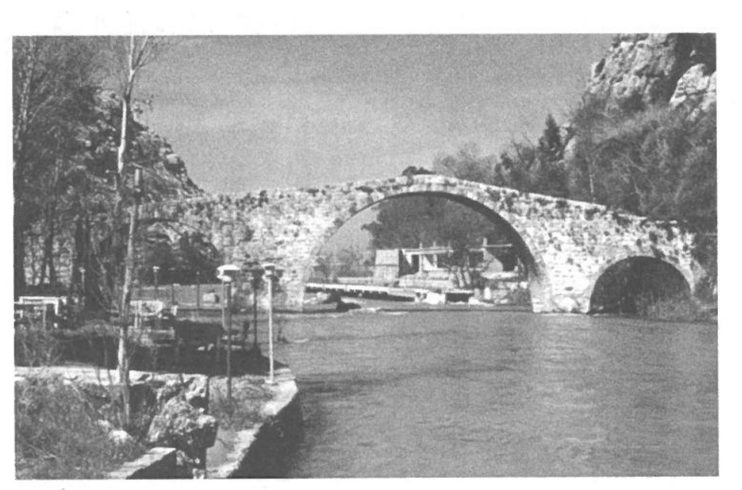
لبنان والرومان

سيطرت روما على بلادنا سنة ٦٤ ق.م. عندما قام القائد الروماني بومبيوس بحملة ناجحة على الشرق، وعيّنت حاكماً عاماً على شرقي المتوسط مركزه أنطاكية. ترك الرومان للمدن الفينيقية حرية السياسة والاقتصاد والدين، وظل الحكام الوطنيون في مراكزهم، على أن يعترفوا بسلطة روما، ويُخلصوا لها، وازدهرت مدن الساحل لا سيما طرابلس وجبيل وصيدا، وقد خصّ الرومان مدينتي بيروت وبعلبك بامتياز خاص. منحوا أهلهما المواطنية الرومانية، ثم منحوها لجميع اللبنانيين. عرفت بيروت ازدهاراً اقتصادياً وفكرياً عظيماً، أصبحت مركز التجارة الأول بين الشرق والغرب، فيها قاعدة بحرية للأسطول، ومركز عسكري، بالإضافة إلى دورها الحضاري والعلمي، فنشأت المدارس وأبرزها مدرسة الحقوق التي حظيت بشهرة عالمية. وعُرفت بيروت بأم الشرائع. وشارك علماؤها بوضع قانون يوستينيانوس.

أما بعلبك فأصبحت مركزاً دينياً وشهدت بناء الهياكل الفخمة، أعظم ما بناه الرومان في أمبراطوريتهم الواسعة. وفي القرن الميلادي الأول قسّم الرومان كلاً من لبنان وسورية إلى قسمين: غربي أو فينيقية، وشرقي أو داخلي هو سورية المجوفة. وفرض الرومان النظام والأمن حتى ضُرب المثل بالسلم الروماني، وسمحوا للبنانيين وللسوريين بدخول الجيش، فبلغ كثيرون مراكز عالية حتى مركز الأمبراطور مثل كركلا والكسندروس سفيروس.

الاقتصاد والفكر

بفضل الأمن والاستقرار واتساع الأمبراطورية، ازدهرت كافة حقول الاقتصاد في بلادنا من زراعة وصناعة وتجارة، فاضت الغلال من حبوب وزيتون وعنب وفواكه، وازدهرت صناعات



جسر ذو نمط روماني على نهر الكلب

الغزل والنسج والصباغ والفخار والزجاج، واستعادت التجارة نشاطها السابق. فأتت القوافل من الداخل إلى مرافئ لبنان، كما أتت السفن، والتقت على شاطئنا منتوجات الشرق والغرب. وأقامت الجاليات اللبنانية في أنحاء الأمبراطورية، فأنشأت أحياء السكن ومراكز التجارة حتى في روما نفسها.

واشتهر الرومان بالعمران والبناء، وأصاب بلادنا كثير منها: طرقات، جسور، حمامات، قناطر وأقنية الماء، ساحات عامة، معابد. وما تزال آثار رومانية كثيرة في لبنان تشهد على عظمة الفن الروماني وتنوع أشكاله، وعلى أهمية لبنان في تلك الأمبراطورية، في بعلبك ونيحا، وفقرا، وبيت مري، وصور، وبيروت، وجبيل، وجسر المعاملتين...

أما في المجال الفكري فقد ظلّت اللغة الآرامية لغة الشعب، واليونانية لغة الأدب والفلسفة، فيما أصبحت اللاتينية لغة الإدارة والقانون. وازدهرت المدارس في صور وصيدا وجبيل وفي بيروت حيث مدرسة الحقوق ووضع الشرائع، وقد شارك معلموها في وضع قانون يوستينيانوس.

الدين: من الوثنية إلى المسيحية

كان دين الرومان وثنياً، وقد تأثر الرومان باليونان كثيراً كما تأثروا بالفينيقيين. لكن في عهد أوغسطس قيصر وُلد السيد المسيح في بيت لحم، وبدأ التبشير في الثلاثين من عمره. دعا إلى عبادة إله

واحد، وإلى المحبة بين البشر، والمساواة والرحمة، والاهتمام بالروح وبالقيم الإنسانية. ووعد المؤمنين بالحياة الثانية. رفض اليهود والرومان تعاليم المسيح وحكموا عليه بالموت. فصُلب وقُبر، لكنه قام من الموت وصعد إلى السماء كما جاء في الكتب.

وذهب تلاميذ المسيح يبشرون في الشرق وفي الغرب، ووصل مار بطرس ومار بولس إلى روما. حاربت السلطات الرومانية المسيحية بقساوة قلما عرف التاريخ مثلها. لكن المسيحيين صمدوا حتى انتصروا، وأعلن قسطنطين الكبير حريّة العبادة سنة ٣١٣ م. واعتنق هو المسيحية وجعلها ديانة الأمبراطورية. كان للمسيحية تأثير عميق جداً في حياة البشر. نجحت بفضلها فكرة المساواة والعدالة والمحبة واحترام القيم الإنسانية، وتلطيف الأخلاق، والحد من القساوة. وتفضيل الروحانيات على الماديات، وفتحت الطريق لتغيير وجه المجتمع القديم، وبنائه على أساس مفاهيم جديدة تقوم على القيم الأخلاقية والمساواة والأخوة بين البشر.

أما في لبنان فدخلت المسيحية شيئاً فشيئاً. وصل السيد المسيح إلى جنوبي لبنان وتجول فيه، كما زاره تلاميذه. تقدمت المسيحية حتى سيطرت نهائياً منذ القرن الخامس، وتأسست الكنيسة، كانت لغتها السريانية واليونانية واللاتينية، ونشأت حركة الرهبانيات والتنسك. وظهر قديسون منهم مار سمعان العمودي، ويوحنا فم الذهب ومار مارون الذي ينتسب إليه الموارنة، وقد عاش في القرن الخامس. وكثر أتباعه على نهر العاصي في سورية، وعندما تعرضوا للضغط انتقلوا إلى شمالي

البقاع، ثم إلى جبل لبنان ونشروا المارونية فيه. وكان مار يوحنا مارون أول بطاركتهم، وبدأوا يلعبون دوراً بارزاً في حياة لبنان. وتميّز لبنان بانه بلد النسّاك وعاش فيه عدد من الصالحين والقديسين آخرهم كل من شربل، والحرديني ورفقة.

لبنان والعهد البيزنطي ٣٩٥ - ٦٣٨

تفاقمت المخاطر على الأمبراطورية الرومانية في الشرق وفي الغرب. فأقام الأمبراطور قسطنطين في بيزنطية أو القسطنطينية،



دير بيزنطي في أميون مبني على صخر علوّه ٤٠ متراً

ثم قسّم الأمبراطور تيودوسيوس الأمبراطورية سنة ٣٩٥ بين ولديه إلى قسمين غربي عاصمته روما وشرقي عاصمته بيزنطية. أصبح لبنان تابعاً لبيزنطية، واستمر وضعه كما كان في العهد الروماني. لكن فيما بعد ساء الوضع في الأمبراطورية ووقعت خلافات داخلية، كما تعرضت الحدود لغزوات خارجية، وأبعد البيزنطيون اللبنانيين عن الجيش. وتعرّض الشرق لغزوات كان أخطرها غزوات الفرس خاصة سنة ٦١٤ عندما اجتاز كسرى أبرويز سورية ولبنان وفلسطين، ووصل إلى القدس، وأخذ خشبة عود الصليب، فحاربه هيرقليوس البيزنطي، واستعاد عود الصليب في ١٤ أيلول. فعمت الفرحة أنحاء الأمبراطورية، وما زال المسيحيون يعيّدون هذه الذكرى – عيد الصليب – ويضرم المسيحيون اللبنانيون حتى اليوم النار على المرتفعات تخليداً لتلك الذكرى. وتعرضت البلاد لهزات أرضية أخطرها سنة ٥٥٥، خرّبت قسماً كبيراً من مدن الساحل، خاصة بيروت، بما في ذلك مدرسة الحقوق.

وفي القرن الخامس، قسم الأمبراطور تيودوسيوس (٤٠١ – ٤٠٥) فينيقية إلى مقاطعتين: فينيقية اللبنانية قاعدتها حمص، وتضم المدن والمناطق الداخلية، وفينيقية البحرية وقاعدتها صور وتضم مناطق الساحل ومدنه.

ظل اللبنانيون يعتمدون على الزراعة والصناعة، ودخلت تربية دود القز حيث نقل أحد الرهبان سراً بذور أو بيوض القز من الصين داخل قصبة، فأصبح التوت زراعة لبنان الأولى، والحرير موسمه المفضل، لمدة طويلة. وظلت التجارة

مزدهرة واللبناني وسيط تجاري بين مناطق الأمبراطورية، وتمكن لبناني من بعلبك اسمه هللينيكس من اختراع نار حارقة، عُرفت بالنار الإغريقية، استعملها البيزنطيون بنجاح في حروبهم لمدة طويلة.

أنطاكية: أسسها سلوقس نيكاتور ٣٠٧ ق.م. قريباً من مدينة بناها سلوقس الأول أصبحت عاصمة السلوقيين وواحداً من أكبر مراكز الحضارة الهللينية. سيطر عليها الرومان سنة ٦٤ ق.م. ومنحوها نظام المدينة الحرة، وأصبحت مركزاً اقتصادياً كبيراً وعاصمة الولايات السورية. وكانت كذلك مركزاً دينياً منذ وصل اليها مار بولس ثم مار بطرس وأنشأ فيها أول كرسي للبطريركية. احتلها العرب سنة ٦٣٨، واسترجعها البيزنطيون، ثم احتلها السلاجقة سنة ١٠٨٤ فالصليبيون سنة ١٠٩٨ وجعلوها عاصمة دولة لاتينية. ثم سيطر عليها المماليك فالعثمانيون ١٥١٧، وبعد الحرب العالمية الأولى أتبعها الفرنسيون بسوريا ثم تنازلوا عنها لتركيا سنة ١٩٣٩. يعتبرها المسيحيون في الشرق مركزاً دينياً وما زال بطاركتهم يحتفظون بلقب «بطريرك انطاكية وسائر المشرق».

لبنـــان والعــرب

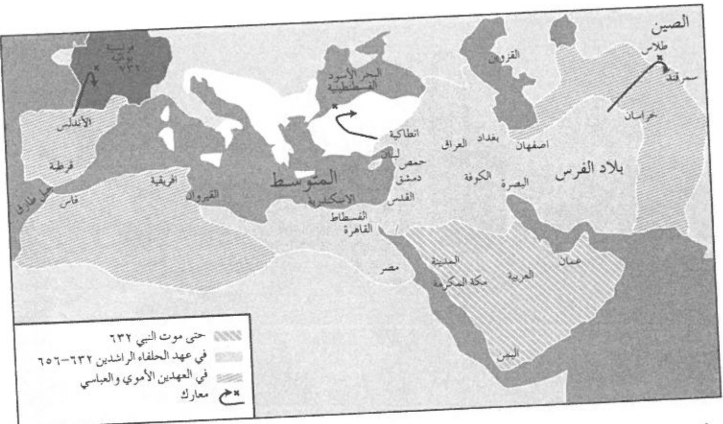
العرب – عاش العرب منذ القديم في شبه الجزيرة العربية، وفرضت عليهم البيئة نمطاً معيناً من العيش. فكان معظمهم بدواً يبحثون عن المراعي لماشيتهم. وكان الآخرون حضراً يعيشون في الواحات والمدن من الزراعة وبعض الصناعات ومن التجارة. كانت ديانتهم وثنية، وقد دخلت إليها اليهودية والمسيحية وانتشرتا في بعض المناطق، لا سيما في اليمن وفي المدن.

ظهر في الجزيرة نبيٌّ وحّد القبائل هو محمد بن عبد الله من قبيلة قريش، وُلد في مكة سنة ٥٨٠م. مات والداه، فكفله جدّه ثم عمه أبو طالب. عندما كبر تعاطى التجارة ثم انقطع إلى التأمل، حتى دعا إلى عبادة الله الواحد وترك الأوثان. فعارضه أهل مكة، ولجأ إلى مدينة يثرب سنة ٦٢٢ وأصبح هذا التاريخ بداية التقويم الهجري. التف أهل يثرب حول النبي فحارب أهل مكة، حتى

انتصر عليهم، فدخلوا الإسلام. واتسعت الدعوة للدين الجديد حتى عمَّ الجزيرة العربية.

مات النبي سنة ٦٣٢، فخلفه أربعة من صحابته عُرفوا بالخلفاء الراشدين هم على التوالي أبو بكر، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب. تمت في عهدهم معظمُ الفتوحات العربية الإسلامية. فقد انتصر العرب على البيزنطيين في معارك عدة أشهرها اليرموك سنة ٦٣٦ واحتلوا بعدها مناطق سورية ولبنان وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا. كما حاربوا الفرس وانتصروا عليهم، فاحتلوا العراق، وإيران، وامتدّ نفوذهم حتى حدود الهند والصين.

وما لبثت أن وقعت خلافات بين العرب أنفسهم، وقُتل الإمام علي، وتمكّن والي الشام، معاوية بن أبي سفيان، من أن يصبح خليفة سنة ٦٦١ فأعلن الخلافة الأموية، ومركزها الشام، واستمر



الأمبراطورية العربية الإسلامية

خلفاؤه بالوراثة حتى انتصر عليهم العباسيون سنة ٧٥٠ ونقلوا مركز الخلافة إلى بغداد.

وضع لبنان

دخل العرب البقاع، ثم سيطروا على الساحل بسهولة سنة ٦٣٨. لكنهم لم يتسلقوا الجبال. أحسن معاوية معاملة اللبنانيين، إذ احترم وضعهم واستقلالهم الذاتي، فأيدوه وساعدوه في بناء أسطول لمحاربة البيزنطيين. لكن بعد معاوية، أرسل البيزنطيون قوماً، شديداً ومحارباً، إلى جبال لبنان لمحاربة العرب هم المردة وظلوا يقاتلون حتى عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٧٠٥ – ٧١٥ الذي اتفق مع البيزنطيين، لقاء مبلغ من المال، على وقف الحرب وسحب المردة من لبنان، فوقف القتال، ورجع قسم من المردة إلى حيث أتوا فيما اختلط الباقون بسكان لبنان.



آثار عنجر من العصر العربي والبيزنطي

قبل الفتح العربي، كانت القبائل العربية تنزح عن الجزيرة صوب الأرض الخصبة في الشمال، ووصلت إلى لبنان. وازداد نزوح القبائل العربية بعد الفتح، فتوزعت في مناطق لبنان لا سيما في البقاع ومنه إلى بعض مناطق الجبال. كذلك على الساحل، وبدأ اللبنانيون يدخلون الإسلام. وإذا استثنينا قضية المردة، فقد أحسن الأمويون معاملة اللبنانيين، واستمر الازدهار الاقتصادي في لبنان.

لكن الوضع ساء في مطلع العهد العباسي، فقد اعتبر العباسيون اللبنانيين موالين للأمويين، ففرضوا ضرائب عالية، ورأى اللبنانيون الفرصة المناسبة للاستقلال بعد أن انتقل مركز الحكم من الشام إلى بغداد وابتعد عن لبنان، فقاموا بثورات ضد العباسيين أهمها ثورة المقدم الياس في البقاع سنة ٧٥٣، ثم ثورة المنيطرة. حيث رفع أهل المنيطرة الصليب علماً، وزحفوا على البقاع سنة ٧٥٩، لكن جيشاً عباسياً كبيراً انتصر عليهم ولاحقهم إلى المنيطرة، ونكل بالجميع دون تمييز بين الثائرين والآمنين. فاحتج الإمام الأوزاعي، وانتقد تصرف الجيش العباسي، وقال لا يحمل إنسان مسؤولية عمل إنسان آخر «لا تزر وازرة وزر أخرى» ودعا إلى التساهل وإلى العدل.

أما الوضع الاقتصادي فلم يعرف تغييراً يُذكر. ظلّ اللبنانيون يعيشون من الزراعة ومن تربية الماشية ويتعاطون بعض الصناعات، أما التجارة فلم يعد لها مجدها السابق. وبدأ اللبنانيون شيئاً فشيئاً يتكلمون اللغة العربية، كذلك أصبحوا يترجمون من اليونانية أو من السريانية إلى العربية. وقد اشتهر عالمان من لبنان هما الإمام الأوزاعي (٧٠٧ – ٧٧٤) ولد في

بعلبك عُرف بحبه للعلم وتمسكه بالحق واشتهر بالفقه. وقسطا بن لوقا من مواليد بعلبك، توفي سنة ٩١٢، نقل كتباً عدة من اليونانية إلى السريانية فالعربية.

عهد الدويلات

ضعف العباسيون، وبدت رغبة في التخلص من الحكم العربي خاصة عند الفرس، ثم عند الأتراك الذين أتوا من داخل آسيا إلى الأمبراطورية العربية ودخلوا الإسلام، وأصبحوا قوة عسكرية فاعلة، بل موجهة للسياسة، وقائدة لها. ظهرت الحركة الشعوبية، أي تكتل شعوب غريبة ضدّ سلطة العرب، وخرجت مناطق عدة على سلطة العباسيين، حتى أن أسراً استقلّت في بعض المناطق، وشكّلت الدويلات. منها دولة البويهيين الفرس في إيران والعراق، دولة الحمدانيين في حلب، دويلات السلاجقة الأتراك في إيران وفي العراق، كذلك الطولونيون ثم الأخشيديون فالفاطميون في مصر.

وقعت حروب طويلة بين الدويلات، وظهرت حركات سياسية – دينية خاصة عند الشيعة. وقام البيزنطيون بغارات عدة وصلوا في بعضها إلى مدن لبنان. ووقعت اضطرابات وثورات في لبنان أهمها ثورة صور ضد الفاطميين، قام بها ملاح اسمه علاّقة، حرّضه البيزنطيون، فاستقل بمدينة صور سنة ٩٩٧. وصك نقوداً كتب عليها «عزّ بعد فاقة الأمير علاّقة» لكن الفاطميين انتصروا عليه وقتلوه، ونكلوا بأهالي صور وجوارها.

سيطر الفاطميون على لبنان وهم من الشيعة، فنشطت الدعوة الشيعية، وحكم آل عمار مدينة طرابلس، فازدهرت في عهدهم، وعرفت حركة علمية ناشطة. ودخلت الدعوة الدرزية إلى لبنان، وانتشرت في مناطق وادي التيم والشوف، فقد أرسل الفاطمي، الحاكم بأمر الله (٩٩٦ – ١٠٢١)، موفداً إلى لبنان لنشر الدعوة اسمه الدَرَزي، لكن هذا دعا باسمه وليس باسم الحاكم، فعُرف أتباعه بالدروز علماً أنهم يفضلون اسم الموحدين. وسوف يلعبون دوراً بارزاً في تاريخ لبنان كما سنرى.

الحركـة الصليبيـة
١٠٩٥ - ١٢٩١

عرف الشرق في عهد الفاطميين والسلاجقة، موجة من التعصب والعنف، وتعرّض المسيحيون للضغط خاصة في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٩٩٦ – ١٠٢١). كذلك تعرّض الحجاج الأوروبيون لسوء المعاملة، وتخرّبت كنيسة القيامة في القدس. وكان الغرب يعيش عصراً من الإيمان المسيحي العميق، وازدهرت حركة الحج إلى القدس، فدعا عددٌ من الحجاج، بعد أن رجعوا إلى أوروبا، إلى احتلال القدس، وتأمين طريق الحج، ومنهم الراهب الفرنسي بطرس الناسك. رئس البابا أوربانوس الثاني مؤتمراً في كلرمون، فرنسا، لهذه الغاية. ومن جهة ثانية كانت أوروبا تجتاز مرحلة من الضيق الاقتصادي، وكثيرون من الغرب يحلمون بجمال الشرق وبغناه الاقتصادي، كما كان عدد من الإقطاعيين والحكام يحلم باحتلال الشرق، وإيجاد أسواق للتجارة وإنشاء إمارات فيه.

اجتمعت الأسباب الدينية والاقتصادية والسياسية، وسرت دعوة لإعداد حملة عسكرية. كانت الحملة المنظمة الأولى بقيادة عدد من أمراء أوروبة وملوكها. سلكت طريق البرّ عن طريق آسية الصغرى، اجتازت ساحل لبنان، ولم تحاصر مدن الساحل، حتى وصلت إلى القدس واحتلتها (١٠٩٩) بقيادة غودفروا ده بويون. ثم عاد الصليبيون واحتلوا مدن الساحل، ونظموا المناطق المحتلة، فأنشأوا مملكة القدس، وإمارات الرها وأنطاكية وطرابلس. كذلك أقاموا القلاع والحصون وبنوا الكنائس الفخمة وما زال معظمها يشهد على مقدرتهم في هندسة البناء. قبل الحروب الصليبية كان الشرق المسلم متفككاً وضعيفاً، لكن المسلمين تكتلوا لمواجهة الحركة الصليبية، فنشأت دولٌ إسلامية قوية، في طليعتها السلاجقة والأتابكة والأيوبيون والمماليك، ووقعت حروب طويلة بين الصليبيين والمسلمين،



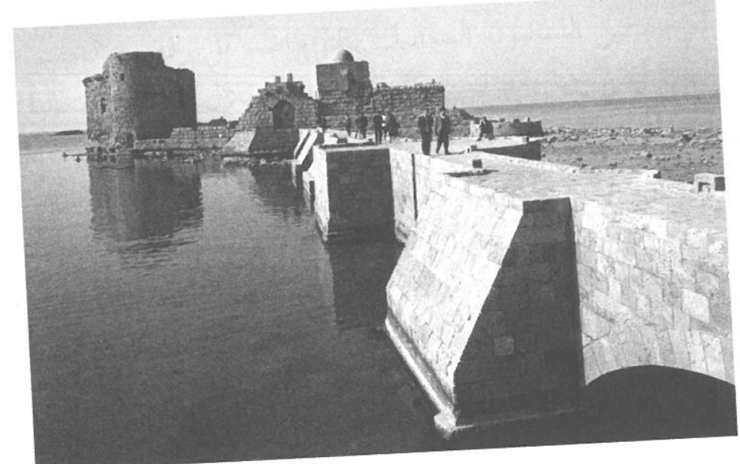
كنيسة مار يوحنا الصليبية في جبيل

سقطت إمارة الرها بيد آل زنكي المسلمين سنة ١١٤٤، فوجّه الصليبيون حملة جديدة لكنها لم تسترجع الرها، ثم سقطت القدس بيد صلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطين (١١٨٧)، وأرسل الصليبيون، الحملة الثالثة، وتتالت الحملات حتى بلغت السبع. أخيراً أنشأ المماليك دولة قوية في مصر، وحاربوا الصليبيين حتى انتصروا عليهم نهائياً، وأخرجوهم من الشرق في آخر القرن الثالث عشر.

لبنان والصليبيون

سيطر الصليبيون على ساحل لبنان وجباله الغربية، وبنوا فيه عدداً من القلاع والكنائس. وأنشأوا إمارة طرابلس في الشمال، وبارونية صيدا في الجنوب وكانت تتبع مملكة القدس، وأقامت أسرٌ صليبية في مدن الساحل وتولت إدارتها، وكان ملك القدس يشرف على السياسة العليا في لبنان وفي جميع المناطق التي يديرها الصليبيون، فيما كان النظام إقطاعياً كما كان في أوروبة.

أما السكان فكانوا من الأوروبيين خاصة من الطليان والفرنسيين والألمان لهم تقاليدهم ولغاتهم، ومن الوطنيين الشرقيين، وهم غالبية السكان، من مسيحيين ومسلمين، يتكلمون لغاتهم السريانية والعربية، كما تعرفوا إلى اللغات الغربية خاصة اللاتينية والفرنسية، وبحكم الوضع السياسي، نشأت علاقات بين الشرق والغرب خاصة بين المسيحيين الموارنة والفرنسيين، كما تسهلت العلاقة بين الموارنة والفاتيكان وتوطدت أكثر..



قلعة صيدا الصليبية

ونشط التبادل التجاري بين الشرق والغرب، وازدهرت المرافئ والمدن الساحلية، وأمّتها السفن، وتكدست البضائع الغربية والشرقية في الأسواق، لا سيما في طرابلس والبترون وجبيل وبيروت وصيدا وصور. كذلك نشط التبادل الحضاري، وكان الشرق متقدماً، فأخذ منه الغرب كثيراً، وكان الغرب متقدماً في فنّ البناء، وأبدى الصليبيون نشاطاً كبيراً في حقل البناء العسكري والديني، فشيدوا القلاع الكبيرة، والكنائس الفخمة في مناطق عدة من سورية ولبنان، ما زال معظمها قائماً حتى اليوم. كذلك كان التأثير متبادلاً بين العالمين الشرقي والغربي في العادات والتقاليد والأزياء والفكر، كما كان في الاقتصاد، ونشأت صداقات وتزاوج فنشأ جيل أقل تعصباً، لكن الكسب الحضاري هذا لا يعادل الخسائر التي سببتها الحرب، فكان يمكن للعالمين الشرقي والغربي أن يلتقيا، ويتبادلا المعرفة عن غير طريق الحرب.

لبنان والمماليك
١٢٩١ - ١٥١٦

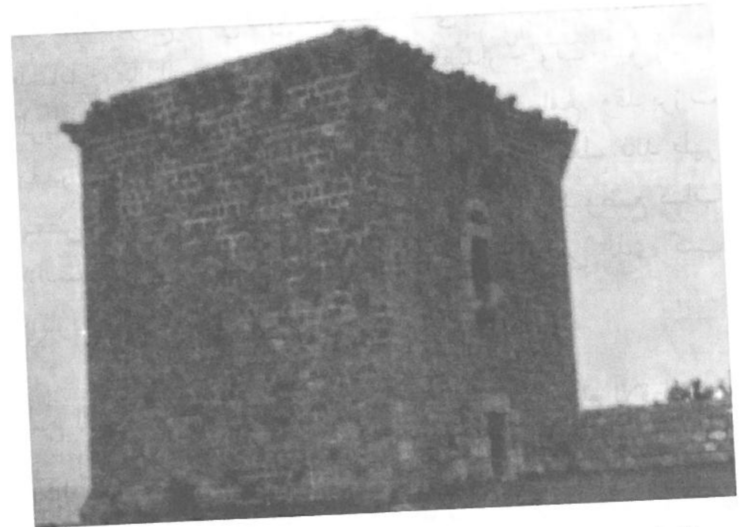
المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧)

المماليك، جمع مملوك، استخدمهم الأيوبيون، حكام مصر، في خدمة بيوتهم وأرضهم وفي الجيش. كانوا من أجناس مختلفة، خاصة من الأتراك والشركس. بلغ عددهم الألوف، فأصبحوا قوة كبيرة في مصر حتى استلموا الحكم، وأعلنوا قيام دولة المماليك سنة ١٢٥٠، وازدادت سطوتهم بعد ان انتصر قائدهم الظاهر بيبرس على المغول سنة ١٢٦٠ في عين جالوت قرب الناصرة في فلسطين. وأصبح سلطاناً، وحارب الصليبيين، وتابع خليفتاه الأشرف قلاوون ثم الأشرف خليل الحرب ضدّ الصليبيين، حتى تم إخراجهم نهائياً من الشرق سنة ١٢٩١، فذهبت فلولهم إلى قبرص وإلى أوروبة، فيما أحكم المماليك السيطرة على مصر وفلسطين ولبنان وسورية.

لم يستقبل اللبنانيون المماليك بالترحاب، بل رفضوا الخضوع لهم، ليس حباً بالصليبيين إنما طلباً للاستقلال. فجرّد المماليك سلسلة حملات على لبنان، وقاومهم المسيحيون والدروز والشيعة بضراوة، ووقعت معارك عدة خاصة ببين سنتي ١٣٠٥ و ١٣٠٦.

كان المماليك يخافون من عودة الصليبيين، لا سيما وأن جزيرة قبرص كانت ما تزال بيدهم، فخرّبوا مدن الساحل، وردموا المرافئ وأسكنوا قبائل موالية لهم على الساحل. وأرادوا أن يبنوا أسطولاً فقطعوا الأشجار من حرج بيروت، لكنهم لم يتابعوا المشروع، فتوقفوا عن العمل ومنعوا التجارة بين الشرق والغرب.

كان التجار الغربيون معتادين على التعامل مع الشرق، وكانت مرافئ شرقي المتوسط مسرح التبادل التجاري، فعندما أوقف



برج الفيدار من عهد المماليك

المماليك التجارة عن طريق هذه المرافئ انتقل التجار إلى مرافئ آسيا الصغرى. لكن المماليك أدركوا أن البلاد تخسر كثيراً إذا انقطعت التجارة، فعادوا وسمحوا للتجار الأوروبيين بالمجيء إلى مرافئ مصر، وأعطوهم امتيازات معيّنة لتشجيع التجارة، ثم سمحوا لهم بالمجيء إلى جميع مرافئ شرقي المتوسط. فتجدد نشاط مرافئ لبنان لا سيما مرفأ بيروت الذي ازدهر بسرعة لحسن موقعه، مشرفاً على البحر ويمكن ربطه بالداخل حتى دمشق. ونمت بيروت وظلت تتقدم وتنمو، حتى أصبحت في القرن العشرين، من أعظم مدن شرقي المتوسط.

تحققت في عهد المماليك بعض الأعمال العمرانية مثل شق الطرقات، وترميم الجسور، مثل جسر الدامور وجسر نهر الكلب، وأنشأ المماليك نظاماً للبريد، وأقاموا على طول الساحل سلسلة أبراج يطل الواحد منها على الآخر، وذلك لمراقبة الشاطئ، ما زال بعضها قائماً مثل برج الفيدار جنوب جبيل وبرج الريحانة شمالها. وبنى المماليك عدداً من الجوامع. وقد برزت مقدرتهم في البناء لا سيما العقد. ورغم تأخر العلم فقد ظهر بعض المفكرين مثل المقريزي البعلبكي وقد وضع كتاب «السلوك» في تاريخ المماليك، وصالح بن يحيى الذي كتب «تاريخ بيروت».

من الوجهة الاجتماعية والإدارية، تركّز النظام الإقطاعي في لبنان، ونظّم المماليك مناطق نفوذهم على الطريقة الإقطاعية، أنشأوا نيابات دمشق وحماه وحلب وطرابلس وصفد والكرك.

أما لبنان فقد توزع بين نيابات ثلاث

بين جسر المعاملتين وصيدا تبع نيابة دمشق.

من المعاملتين حتى عكار تبع نيابة طرابلس.

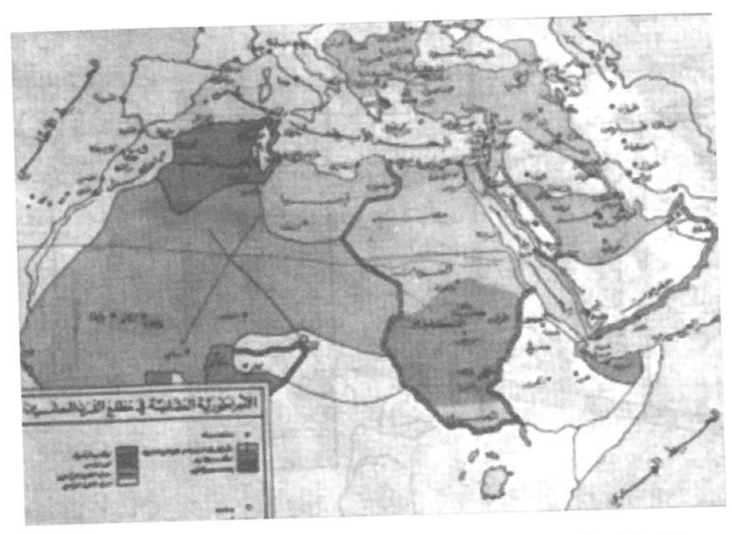
كانت المناطق الممتدة جنوب صيدا تتبع نيابة صفد.

وتقاسمت الأسر الإقطاعية حكم لبنان وأشهرها: التنوخيون من نهر الكلب شمالاً حتى جسر الدامور جنوباً. الشهابيون في وادي التيم. العسافيون في كسروان. بنو بشارة في جبل عامل. بنو الحنش في شمالي البقاع. بنو الحمرا في رأس بيروت. بنوا أبي الجيش في ضواحي بيروت ومن أحفادهم الإرسلانيون. بنو سيفا في عكار. بنو رمطوني في ضواحي بيروت. المعنيون في الشوف. وانقسم اللبنانيون بين اتجاهين حزبيين: القيسية واليمنية.

لبنان والعثمانيون
١٥١٦ - ١٩١٨

العثمانيون هم في الأصل قبائل تركية، نزحت مع الموجات التركية من وسط آسية. دخلوا آسية الصغرى في القرن الثاني عشر، عملوا تحت سيطرة البيزنطيينن زاد عددهم وتوسعوا على حساب البيزنطيين. في أواخر القرن الثالث عشر استقلّ زعيمهم عثمان، فعُرفوا باسمه «العثمانيون» ورافقهم هذا الاسم حتى غيّره مصطفى كمال ١٩٢٣. وفرض اسم الجمهورية التركية بدل السلطنة العثمانية. واصل العثمانيون تقوية جيشهم، واستمر البيزنطيون في خلافاتهم وجدلهم العقيم، حتى احتل العثمانيون مدينة بيزنطية ١٤٥٣، عاصمة البيزنطيين، آخر دولة مسيحية في شرقي المتوسط، وجعلوا اسمها إسلام بول أي مدينة الإسلام ثم أصبح اسطنبول، وأصبحت عاصمة السلطنة العثمانية.

توسع العثمانيون في الشرق، وتوسعوا في الغرب، حتى أبواب فيينا، أنشأوا أمبراطورية واسعة، تحوي شعوباً متعددة اللغات



خريطة السلطنة العثمانية

والديانات والمذاهب والقوميات. ولا رابط بين هذه الشعوب سوى شخصية السلطان، وقبضة الجيش.

في الشرق كان العثمانيون السنّة على خلاف مع الفرس الشيعة، وقف المماليك السنّة بجانب الفرس. خطط العثمانيون لاحتلال الشرق، فاتهموا المماليك بمساعدة الفرس ضدّهم، وبالعجز عن حماية الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز. فاستدرجهم السلطان سليم إلى الحرب، وانتصر عليهم في مرج دابق قرب حلب، سنة ١٥١٦. وانحاز إلى العثمانيين بعضُ أنصار المماليك مثل والي حلب ووالي دمشق جانبردا الغزالي، كذلك فخر الدين الأول أمير المعنيين. سيطر العثمانيون، بقيادة السلطان سليم على سورية ولبنان وفلسطين، وزحفوا على مصر فهزموا المماليك واستولوا على وادي النيل سنة ١٥١٧.

ظلّ الغزالي والياً على دمشق، ويحكم مناطق واسعة، ثم ثار سنة ١٥٢١ سعياً للاستقلال عندما مات السلطان سليم، لكن السلطان العثماني الجديد سليمان القانوني، ابن السلطان سليم، قضى على الغزالي، وقسّم المنطقة حتى لا تظل قوية بيد حاكم واحد، فأنشأ ولايات دمشق وحلب وطرابلس. وفي سنة ١٦٥٠ انشأ العثمانيون ولاية صيدا لمراقبة حكام لبنان، وقسّموا كل ولاية إلى عدة سناجق.

مصير لبنان

حكم العثمانيون لبنان أكثر من أربعة قرون، تبدّل نظامه خلالها مرات عدة: عهد الإمارة المعنية ثم الشهابية – عهد القائمقاميتين والفتن – عهد المتصرفية.

بعد مرج دابق، دخل لبنان تحت السيطرة العثمانية، وقد أدرك السلطان سليم واقع لبنان من حيث طبيعة أرضه الجبلية، وتكوين سكانه وتعدد الطوائف، والتمسك بالاستقلال والحرية. ترك للبنان استقلالاً ذاتياً وظل الأمراء اللبنانيون في مراكزهم يمارسون الحكم على ان يدفعوا الضريبة للدولة، ويعلنوا الطاعة لها. ويحكم الأمراء لبنان كما يجدون مناسباً، ولا علاقة للدولة بشؤون لبنان الداخلية. لكن السلطان سليم قدّم المعنيين على سواهم، لأن الأمير فخر الدين وقف بجانبه في مرج دابق.

ظل نظام الحكم إقطاعياً. واللبنانيون يتألفون من عامة

الشعب ومن الأعيان. أما عامة الشعب فهم غالبية السكان، ويعيشون من الزراعة وتربية الماشية، ويتعاطى قليل منهم الصناعة والتجارة.

أما الأعيان فهم الأمراء والمقدّمون والمشايخ. وهم أصحاب الحكم والوجاهة، ولكل منهم دورُه وطريقته في المعاملة واللقب والكتابة. وكان الأمير هو الحاكم على رأس هذا الهرم.

أما الأسر الحاكمة فهي من الأمراء وأشهرها:

التنوخيون

من أصل عربي، أتوا إلى لبنان في القرن الثامن لحماية السواحل، أصبحوا دروزاً، وكان مقرّهم في عبيه، وينتسب إليهم البحتريون والأرسلانيون وآل علم الدين. أما الأرسلانيون فأصبح مركزهم في الشويفات. أما آل علم الدين فأصبحوا زعماء الحزب اليمني واستمروا حتى قُضي عليهم في معركة عينداره ١٧١١.

آل العساف

من التركمان، سكنوا في غزير منذ سنة ١٣٠٦ وامتد نفوذهم من بيروت حتى عرقا شمالاً، قضى عليهم آل سيفا سنة ١٥٨٠.

آل الفريخ

مركزهم البقاع، قضى عليهم فخر الدين الثاني سنة ١٥٩٢.

آل الحرفوش
شيعة، مركزهـم بعلبك.

آل سيفا
سنّة، مركزهـم حلبا في عكار، امتدّ نفوذهـم إلى بيروت بعد أن انتصروا على آل العساف ١٥٨٠.

أمـا أعظـم الأمـراء أثـراً في لبنـان فكان المعنيون والشهابيون كمـا سنـرى.

أما المقدّمون فأشهرهـم آل بلّلمع مركزهـم كفرسلوان والمتين، أصبـحـوا أمـراء بـعـد مـعـركـة عينداره، كانـوا دروزاً ثـم اعتنقـوا المسيحية المارونية.

المشايخ
أشهرهـم آل الخازن، موارنة، كانوا في بلاد جبيل وانتقلوا إلى كسروان. آل حمادة شيعة، كانوا في منطقة جبيل العليا وانتقلوا إلى البقاع. آل العماد في العرقوب، آل نكد، آل تلحوق وهـم من الدروز.

بالإضافة إلى التقسيم الإقطاعي، عرف اللبنانيون توزيعاً طائفياً. ففي الشمال أي من جبة بشري حتى كسروان غلب المسيحيون لا سيما الموارنة وتقدموا جنوباً إلى المتن فالشوف فإلى مناطق مـختـلـفـة مـن لـبـنـان. الأرثـوذكـس في الـكـورة وفي بعض مدن الساحل وبعض قرى منطقة جبيل. الدروز في المتن والشوف.

الشيعة في جبل عامل وجرود كسروان وجبيل ومنطقة بعلبك. السنة في مدن الساحل وفي بعض قرى البقاع والشوف.

بالإضافة إلى تعـدد الطوائـف، انقسـم اللبنانيـون إلى حزبين همـا القيسيـة واليمنيـة، ويرجـع أصلهمـا إلى الفتـح العربـي، ولم يكن للحزبية عقيـدة سياسيـة أو اجتماعيـة، إنمـا هي مجرّد تـكـتـل قـبـائـل وعـائـلات ومـصـالـح. بـعـد هـزيـمـة اليـمـنيـة في عينـداره وانتصار القيسية سنة ١٧١١ انقسم اللبنانيون من جديد إلى اليزبكية والجنبلاطية، وقد تعدّت هذه الحزبية الدروز إلى باقي الطوائـف.

المناطق اللبنانية في عهد الإمارة

كان لبنان يتألف من معاملتي طرابلس وصيدا يفصل بينهما جسر المعاملتين.

أولاً: معاملة طرابلس من شرق طرابلس شمالاً إلى جسر المعاملتين جنوباً وفيها ثماني مقاطعات هي:

١- الزاوية بين نهري البارد وأبي علي – أشهر قراها عرجس، وأردي وداريا.

٢- الكورة وهي قسمان العليا والسفلى. أما العليا فأشهر قراهـا أميـون وكسبـا وكفـر حزير، كفـر

عقا. أما الكورة السفلى فأشهر قراها القلمون وبسرما والبلمند.

٣- القويطع بين نهري عصفور والجوز أهم قراها وجه الحجر ورأس نحاش وتعبورا.

٤- جبة بشري قاعدتها بشري ومن قراها حصرون وحدشيت وبقاع كفرا وسبعل والديمان...

٥- بلاد البترون قاعدتها البترون بين نهر الجوز ووادي المدفون ومن البحر إلى الجبل، أشهر قراها بقسميا وعبرين وبشعلة وتنورين وحلتا وكفر حي، ودوما، وكفيفان وتولا والدوق.

٦- بلاد جبيل من المدفون إلى وادي الفيدار ومن البحر إلى الجبل قاعدتها جبيل، من قراها عمشيت، المنصف، غرزور، الريحانة، جدايل، حاقل، لحفد، حصارات، غلبون، مشمش، إهمج، ترتج، جاج، العاقورا، معاد وبجه وعلمات.

٧- المنيطرة من وادي الفيدار إلى نهر إبراهيم ومن البحر إلى الجبل، أشهر قراها المنيطرة وأفقا وقهمز وقرطبا ومزرعة السيّاد...



خريطة لبنان الإقطاعي

٨- الفتوح، من نهر إبراهيم إلى وادي المعاملتين، أشهر قراها طبرجا، البوار، الغينة، الكفور، ويحشوش، وغدراس...

ثانياً: معاملة صيدا من المعاملتين إلى الأولي، فيها ١٦ مقاطعة هي من الشمال إلى الجنوب:

١- كسروان من نهر إبراهيم إلى نهر الكلب، قاعدته جونية، من قراه المعاملتين وغزير وزوق مكايل ودرعون وغسطا وعشقوت وجعيتا وبكركي و فاريا وريفون وعجلتون وحريصا، وحراجل...

٢- القاطع من نهر الكلب إلى نهر أنطلياس، قاعدته بيت شباب، من قراه بكفيا وبحر صاف وقرنة شهوان.

٣- المتن، من نهر أنطلياس إلى نهر بيروت إلى سطح الجبل، أشهر قراه: المتين وترشيش وبسكنتا وبتغرين والخنشارة والشوير وبعبدات وبرمانا وقرنايل والدكوانة وبرج حمود...

٤- ساحل بيروت، من نهر بيروت إلى نهر الغدير، أهم قراه الحدث وبعبدا ووادي شحرور وكفرشيما والشياح وحارة حريك...

٥- الغرب الأسفل، من الشويفات إلى طريق دير القمر، من قراه عرمون وعين كسور وبشامون وعين عنوب...

٦- الغرب الأعلى من طريق دير القمر إلى عاليه إلى نهر الغابون، قاعدته عيتات ثم عاليه، من قراه بيصور، وشملان ودفون ورمحالا وبخشتيه وبدادون وبسوس والكحالة وسوق الغرب...

٧- الشحار بين الدامور وجسر القاضي، قاعدته عبيه، من قراه الناعمة والدامور وكفر متى.

٨- الجرد من الغرب إلى الغابون إلى نهر الصفا والمديرج قاعدته بشاثر، من قراه: بحمدون وشانيه وشرتون ورشميا وعين تراز.

٩- المناصف من جسر القاضي إلى وادي بتدين، قاعدته دير القمر من قراه كفر قطرة وبشتفين.

١٠- العرقوب، من المعاصر إلى سطح جبل الباروك ومن وادي الست إلى أول الشوف، قاعدته عين زحلتا، من قراه: الباروك وبتلون والفريديس وبريح وعينداره وكفر نبرخ...

١١- الشوف، من نهر بتدين إلى سطح الجبل، وهو قسمان: الشوف الحيثي وقاعدته المختارة، والشوف السويجاني وقاعدته بعقلين من قراه جباع ومجدل معوش وكفرنيس ونيحا والسمقانية...

١٢– إقليم جزين، قاعدته جزين، من قراه بكاسين وقيتولة وروم وعازور.

١٣– الشوف البياضي، غربي البقاع، قاعدته زحلة، من قراه جديتا وتعلبايا وتعنايل وقب الياس وعيتنيت ومشغرة وصغبين...

١٤– إقليم التفاح، أشهر قراه البرامية ولبعا وكفر جرة وجون وكرخا وكفر فالوس وبرتي...

١٥– إقليم الخروب، قاعدته شحيم، فيه مزبود وعانوت والبرجين وعلمان وبرجا وكترمايا.

١٦– جبل الريحان، قاعدته الريحان من قراه العيشية والزغرين وعرمتا.

عن كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان

طنوس الشدياق

مطبعة العرفان، ١٩٥٤، ص ١٨

لبنـان في عهـد الأسـرة المعنيـة

تساءل المؤرخون عن أصل المعنيين هل هم من الأتراك أم من الأكراد أم من العرب؟ المؤكد عنهم أنهم كانوا في جهات حلب، اعتنقوا الدرزية، وانتقلوا إلى لبنان في القرن الثاني عشر، أقاموا في الشوف، وانتموا إلى الحزب القيسي. برز أميرهم فخر الدين الأول في مرج دابق، وقابل السلطان سليم العثماني في دمشق، فقدّمه على أمراء لبنان، وكان أميراً عاقلاً، متّزناً، أحبّه مواطنوه، وبعد موته خلفه ابنه قرقماس، فسار على سياسة أبيه، ومات قتلاً إثر حادثة عكار كما سنرى، فخلفه ابنه فخر الدين الثاني أعظم أمراء المعنيين، بل أعظم أمراء لبنان.

الأمير فخر الدين الثاني ١٥٧٢ – ١٦٣٥

هو ابن الأمير قرقماس المعني والسيدة نسب التنوخية، وُلد في

بعقلين، مات أبوه إثر حادثة عكار ١٥٨٤، وخلاصتها أن اللصوص سطوا على قافلة عثمانية في عكار، اتهم العثمانيون المعنيين بحماية اللصوص. فهاجموا الشوف وقتلوا الأمير قرقماس. خبأت السيدة نسب ولديها، فخر الدين ويونس، عند آل الخازن في كسروان. وفي سنة ١٥٩٠ استلم فخر الدين إمارة المعنيين، وكانت تنحصر بين نهري الدامور والأولي، وضع فخر الدين خطة جريئة لتوحيد لبنان والاستقلال عن السيادة العثمانية. وقد حقق القسم الكبير من سياسته، واعتبره اللبنانيون واحداً من كبار رجال السياسة والحكم الذين عرفهم لبنان، كما يعتبرونه مؤسس لبنان الحديث. يمكننا أن نعتبر حياته مأساة من فصلين، يفصل بينهما خمس سنوات قضاها منفياً في أوروبة.

حادثة عكار

سنة ١٥٨٤ نُهبت خزنة السلطان مراد في جون عكار أمر السلطان إبرهيم باشا والي مصر أن يجمع العساكر من مصر وقبرص ودمشق وحلب ويحضر لمقاصة آل سيفا وامراء لبنان فحضر بالعساكر ونزل في مرج عرجموش تحت زحلة وأرسل يطلب الغرماء من الأمير قرقماس ومسك طريق البحر والبقاع على الدروز وقتل خلقاً كثيراً. فخاف قرقماس وفرّ إلى مغارة تيرون التي تحت جزين وتوفي فيها وله ولدان صغيران الأمير فخر الدين والأمير يونس. وأما إبرهيم باشا فحين بلغه قرار الأمير قرقماس نهض بعسكره إلى عين صوفر فقدم إليه

عقال دروز الشوف وقدموا له تقادم ليرضى عنهم. ولما أراد النهوض من هناك غدر بهم وقتل منهم نحو ستمائة رجل، ثم اعتقل الأمراء الذين قدموا إليه... ولما اشتد الخوف طلبت السيدة (نسب) زوجة الأمير قرقماس من الحاج كيوان الماروني الديراني أن يخبئ ولديها عند أحد الأمناء بكسروان فأجابها ونهض بهما ليلاً ومعهما والدتهما إلى كسروان وخبأهما في بلونة عند إبرهيم بن سركيس وأخيه رباح الخازن.

وبعد ست سنين لما صارت الراحة في لبنان دعا الأمير سيف الدين التنوخي الأمير فخر الدين وأخاه الأمير يونس ابني اخته إلى عبيه وأخذهما إليه ورباهما ولما بلغا أشدهما سلمهما ولايتهما في الشوف فاستدعى الأمير فخر الدين إليه إبني سركيس الخازن وجعل عنده إبرهيم مديراً».

طنوس الشدياق

أخبار الأعيان في جبل لبنان، الجزء الأول

مكتبة العرفان، ١٩٥٤، ص ٢٩٣

أعمال فخر الدين قبل المنفى ١٥٩٠ - ١٦١٣

أراد فخر الدين أن يستقلّ بلبنان، فبدأ بتوحيد البلاد، وبتقويتها داخلياً، فسيطر على الأسر الإقطاعية تباعاً، واعتمد لذلك

وسائل مختلفة. منها المحالفات، والمصاهرة، ودفع المال. وحيث لم تنجح هذه الوسائل عمد إلى الحرب. قاومته أسرتان قويتان هما آل الفريخ وآل سيفا. أما آل الفريخ فكانوا في البقاع، خطط فخر الدين للقضاء عليهم، اتفق مع والي دمشق مراد باشا ١٥٩٢ وقضى على آل الفريخ، وضم البقاع. أما آل سيفا فكانوا في عكار، وامتدّ نفوذهم إلى بيروت، ولزعيمهم يوسف باشا سيفا صداقات في السلطنة. خطط فخر الدين لمحاربته، كسب ودّ العثمانيين حيث أرسل الهدايا والضرائب. ثم تحالف مع علي جنبولاد أو جنبلاط حاكم كلّس شمال حلب. (آل جنبلاط من أصل كردي كانوا يحكمون شمال حلب ومركزهم في كلّس، اعتنقوا الدرزية، وانتقلوا إلى لبنان في القرن السابع عشر فلعبوا دوراً كبيراً وما زالوا أصحاب وجاهة ونفوذ).

حارب فخر الدين آل سيفا مرات عديدة وانتصر عليهم. تحالف يوسف سيفا مع والي دمشق، حافظ باشا، الذي حلّ محل مراد باشا، لكن فخر الدين وحليفه علي جنبلاط انتصرا، ودخلا دمشق، ثم انسحبا منها حتى لا يُغضبا العثمانيين، ثم عقد فخر الدين صلحاً مع آل سيفا.

في هذه الأثناء، كانت السلطنة العثمانية منشغلة في حروبها ضد إيران، وعندما انتهت من تلك الحروب، أرسلت جيشاً إلى حلب بقيادة مراد باشا صديق فخر الدين، فأرسل الأمير الهدايا إلى مراد باشا ١٦٠٩ واتفق معه. لكن مراد باشا مات ١٦١١، وخلفه نصوح باشا في مركز الصدارة العظمى (رئاسة الوزراء) وكان

يكره فخر الدين، ومن جهة ثانية، كان والي دمشق الحافظ باشا يراسل الدولة العثمانية ويحذّرها من فخر الدين، ويدعو للقضاء عليه، اقتنعت الدولة وأرسلت حملة إلى لبنان وكلفت الحافظ باشا بقيادتها. أدرك فخر الدين الخطر، فعقد مؤتمراً في الدامور سنة ١٦١٣، ليتشاور مع الزعماء اللبنانيين، فوجد أنهم لا يريدون الحرب، فغادر البلاد إلى إيطالية. وترك الحكم بيد ابنه علي وأخيه يونس.

زحف الحافظ باشا على الشوف بجيش زاد على الخمسين ألفاً. صمدت القلاع ولم يتمكن الجيش العثماني من دخولها، لكنه خرّب البيوت، وقطع الأشجار، ونكّل بالأهالي، فذهبت السيدة نسب، والدة فخر الدين، إلى معسكر الوالي، وعاتبته بجرأة على تخريب البلاد، وأقنعته بوقف القتال وبالانسحاب من لبنان لقاء ٣٠٠ ألف قرش.

سفر فخر الدين إلى إيطاليا

«جمع الأمير القرايب وهم حضرة أخيه الأمير يونس والأمير منذر والأمير ناصر الدين من إمارة الشحار وجميع مشايخ الأربع بلدان والخوازنة من بلاد كسروان وغيرهم من الأباعد والأجانب على نهر الدامور فرأى من الجميع قلّة تصلب وكثرة تراخي وكبرت عليهم الأمور من تزايد العدد وكثرة المدد من العساكر السايرة إليهم فشار عليه الحاج كيوان بالنزول

في البحر... من ضيق الوقت وافقه الأمير على ذلك ونزل عياله (إلى المركب) وتوكل الأمير على الله تعالى ورسم لحضرة أخيه الأمير يونس بالسكنى في سراياه الكاينة بدير القمر».

أحمد الخالدي الصفدي

لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني

منشورات الجامعة اللبنانية، ص ١٧

أما فخر الدين فوصل إلى مرفأ ليفورنو، ثم إلى فلورنسا عاصمة توسكانا، وقابل حاكمها وأقام فيها. ثم انتقل إلى صقلية فإلى نابولي، واطلع على مظاهر العمران في إيطاليا، وهي في أبان النهضة، وظلّ ينتظر الوقت المناسب حتى يرجع إلى لبنان، عرضت عليه الدولة ولاية في اليونان فرفض العرض. وتبدّلت السياسة في الشرق بتغيير والي دمشق الحافظ باشا، فرجع فخر الدين إلى البلاد سنة ١٦١٨ وتسارع الأعيان لاستقباله ولتقديم الهدايا.

أعمال فخر الدين بعد عودته ١٦١٨ - ١٦٣٣

بعد أن رجع الأمير إلى البلاد، جدّد العلاقة مع حلفائه، وحارب الذين اعتدوا على إمارته في غيابه، فانتصر على آل سيفا (١٦١٨ - ١٦١٩) وضم مناطق طرابلس وعكار، فأصبح يسيطر على لبنان كما هو بحدوده اليوم.



فارس لبناني من عهد الإمارة

حاول والي الشام، مصطفى باشا، أن ينتزع البقاع، وزحف بحملة بلغت ١٢ ألف مقاتل، لاقاه فخر الدين بأربعة آلاف، وقدّم حلفاؤه الشهابيون ألف مقاتل، وقعت المعركة في مجدل عنجر (١٦٢٣) فانتصر فخر الدين انتصاراً كاملاً، ووقع الوالي نفسه اسيراً، لكن فخر الدين عفا عنه، بل كرّمه وأطلق سراحه، واحتفظ فخر الدين بالبقاع، ومنحه السلطان العثماني لقب سلطان البرّ.

وتجدّدت الحرب بين الدولة وإيران، فطلب السلطان العثماني من فخر الدين بأن يحكم بلاد «عربستان» أي الممتدة من حلب شمالاً إلى القدس جنوباً، ومن البحر غرباً إلى تدمر شرقاً. فسار فخر الدين بجيشه وسيطر على تلك المناطق، وفرض فيها الأمن والنظام، وأدارها بحكمة، وحسّن الاقتصاد، ورمّم القلاع. فنعمت بالأمن والاستقرار.

معركة مجدل عنجر ١٦٢٤
كما وصفها طنوس الشدياق

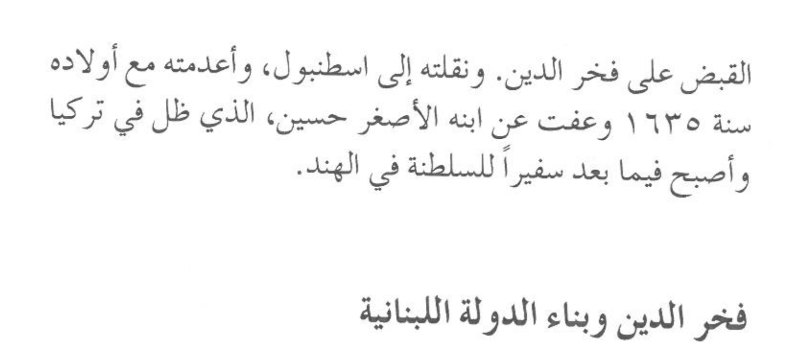
أما الوزير (مصطفى باشا) فظل سايراً إلى النبع وخيّم هناك وكان عسكره اثني عشر ألفاً. ولما وصل الخبر إلى الأمير زأر كالأسد الرئبال وزحف حالاً بجيشه طالباً النزال، وكان عسكره خمسة آلاف. فقسمه ثلاثة أقسام له الميسرة ولأخيه ومدبره الميمنة ولولده القلب، فاختار أن يكون معه طائفة السكمان الجديدة وفرسان الأمير مدلج الحياري ورجال الغرب والمتن وأرسل مع ولده الأمير علي طائفة السكمان القديمة ورجال الجرد. وأرسل مع أخيه الأمير يونس مدبره ورجال الشوف ورجال المتاولة أما الأمير علي فزحف بعسكره إلى المجدل فالتقاه الشهابيون من البرج وهجموا على عسكر الوزير بالرصاص فانهزم من القرية إلى عنجر. أما الأمير فلما أقبل بجيشه على عنجر ورأى الفيالق أمران ينشروا البيارق ويشنوا الغارة ويندفقوا اندفاق الماء من

شفير شاهق وينقضوا انقضاض الصواعق. ثم أطلق الأمير على عسكر الوزير مائتي فارس سوابق وأطبق عليهم الباقون اللواحق. فانذعر الوزير أي انذعار وأدبر عسكره طالباً الفرار. ولم يمر برهة حتى أحاطتهم الفرسان كالسوار. فما كانت ترى إلا فارساً مجندلاً وراجلاً بدمائه مزملاً فمزقوهم كل ممزق ونثروهم في كل رابية وخندق، وقبضوا على مائة عند الطاحون ثم قبضوا على الوزير ومعه عشرة من خواصه وردا له أسلابه. وأمر الأمير أحد خواصه أن يركبه جواداً ويسيره بجماعته وغنم عسكر الأمير بخيلهم وسلاحهم وأمتعتهم وبغالهم وجمالهم وبيارقهم... وندم الوزير وأنعم على الأمير بولاية مقاطعة غزة وسنجقية صفد وأنعم على الأمير منصور بسنجقية الجون وعلى مدير الأمير بسنجقية نابلوس. ولما أراد المضي إلى دمشق قدم له الأمير خيلاً ومالاً وأرسل معه مائتي فارس يوصلونه إلى دمشق.

طنوس الشدياق – أخبار الأعيان

الجزء الأول، ص ٢٤٥ – ٢٤٦

لكن الدولة العثمانية كانت تخاف من قوة فخر الدين، وهي لا تدع حاكماً يبلغ قوة تهدد أمن الدولة، فبعد أن انتهت من حرب إيران، أرسلت حملة إلى لبنان بقيادة والي دمشق، أحمد الكجك باشا، وأرسلت أسطولاً إلى شاطئ لبنان سنة ١٦٣٣. وألقت



القبض على فخر الدين. ونقلته إلى اسطنبول، وأعدمته مع أولاده سنة ١٦٣٥ وعفت عن ابنه الأصغر حسين، الذي ظل في تركيا وأصبح فيما بعد سفيراً للسلطنة في الهند.

فخر الدين وبناء الدولة اللبنانية

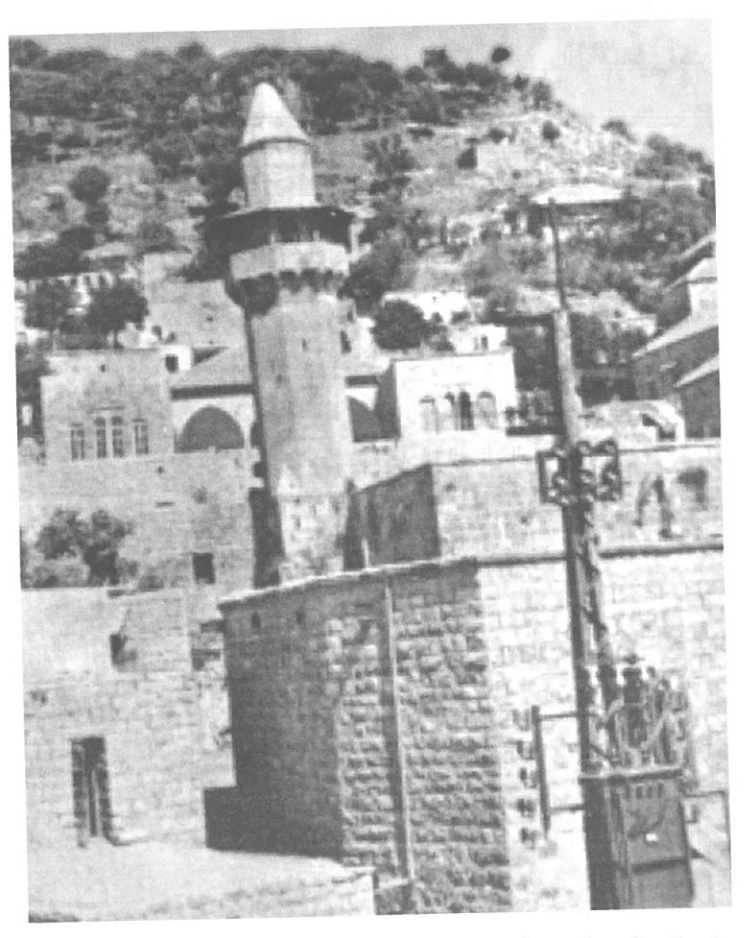
أراد فخر الدين أن يبني دولة حديثة، لا سيما بعد رجوعه من أوروبة وقد شاهد فيها مظاهر التقدم والعمران. فأتم توحيد لبنان، واعتنى بشؤون الاقتصاد والعمران والجيش والسياسة.

أما لتوحيد لبنان، فقد طبّق سياسة مرنة ومتسامحة ساوى بين اللبنانيين جميعاً، لم يفرّق بين الطوائف، بل أشرك الجميع في الواجبات وفي المسؤوليات. صاهر بعض الأسر وهي آل شهاب، وحرفوش، وبلّلمع، وسيفا. وحالف أسراً أخرى أو





رسم فخر الدين الثاني وزوجته خاصكية الظافري



جامع فخر الدين في دير القمر

أعطاها المساعدات، وحارب أسرتين حتى انتصر عليهما هما آل الفريخ وآل سيفا حتى سيطر على مناطق البقاع وكسروان وجبيل والبترون وطرابلس وعكار. وسلك سياسة مرنة تجاه الدولة العثمانية وولاتها، فدفع الضرائب وأرسل الهدايا، فكسب صداقة الولاة، وحصل على صيدا وملحقاتها أي صور وجبل عامل

وعكا (١٥٩٣). ورسم خريطة لبنان كما هي اليوم بل أكثر اتساعاً صوب الجنوب والشرق.

وضع لبنان في عهد فخر الدين

«كان لبنان مؤلفاً من مقاطعات مستقلة، ولكل منها أميرها ونظامها وجيشها الوطني، ولم يكن للأمير علاقة بالدولة العثمانية سوى بتأدية المال المعين على مقاطعته، يورده رأساً إلى الباب العالي أو على يد والي دمشق وكيله في القسم الجنوبي من سورية. وفي ما عدا ذلك كان الأمير مستقلاً عن الدولة العثمانية يحكم في مقاطعته حسب التقاليد المرعية في أسرته وبلاده. وكان لكل مقاطعة أسرة عريقة في لبنانيتها توارثت الحكم فيها... وكان له من كواخيه وقواده شبه مجلس شورى يأخذ رأيه في المهام الخطيرة والأوقات العصيبة».

الخوري بولس قرألي – فخر الدين المعني الثاني

الجزء الثاني، ١٩٣٨، ص ٨٩

العمران والاقتصاد

نظّم فخر الدين المدن لا سيما دير القمر وبيروت وصيدا وصور، ورمّم مرافئ صيدا وصور وبيروت، وأنشأ الحدائق،

وشقّ الطرقات وبنى الجسور. واهتم اهتماماً خاصاً بالزراعة، فأتى من إيطاليا، بمزارعين وبمهندسين، وبأنواع من النصوب. شجّع زراعة الحبوب والقطن والتوت والزيتون واعتنى بها عناية خاصة فأدخل طريقة تقليم (تشحيل) الزيتون. وفرض الأمن وأبعد خطر قطّاع الطرق في البرّ والقراصنة في البحر، وشجّع التجارة بين الشرق والغرب، فأتت القوافل من البرّ والسفن من البحر، والتقت في مدن لبنان وعلى أرصفة مرافئه بضائعُ الشرق والغرب، وتبادلها التجار ونعموا بعطف الأمير وبسهره على الأمن والنظام.

ورأى فخر الدين أن القوة ضرورية لأمن البلاد وحمايتها، فاهتمّ بالجيش وأدخل فيه شبّان اللبنانيين كما أتى بالمرتزقة، حتى أصبح بإمكانه عند الحاجة حشد جيش من ستين ألف مقاتل، فيه المشاة والخيالة، وحماة القلاع. وقد اشترى المدافع والبارود والبنادق والسيوف، واستعان سرّاً بخبراء في الحرب، ورمم القلاع الموجودة في لبنان.

جيش فخر الدين

كان من ثلاث فئات: وطني ومأجور ومساعد. أما الجيش الوطني فكان مؤلفاً من اللبنانيين، خاصة من عنصريهم الكبيرين: الماروني والدرزي وذكر الدويهي والخالدي بين صفوف هذا الجيش فرقتين من شيعيي الجنوب والبقاع. وبعد السنة ١٦٢٧، التي استولى فيها

الأمير على طرابلس والكورة، نرى في جانبه فرقة من الملكيين، وكانت هذه الفرق تقاتل تحت ألوية أمرائها ومقدميها ومشايخها، ويخضع قوادها لأوامر القيادة العامة، التي كان يتولاها الأمير أو ابنه علي، وأحياناً أخوه يونس، وفي آخر عهده جعل فخر الدين أبا نادر الخازن قائداً عاماً لجيشه».

الخوري بولس قرأ لي
فخر الدين المعني الثاني
الجزء الثاني، ١٩٣٨، ص ٦٩

اهتم الأمير بالعلم، فشجع طلاب الموارنة على الذهاب إلى المدرسة المارونية في روما التي تأسست بمساعدة قداسة البابا سنة ١٥٨٣، وتخرّج منها الكهنة والمعلمون، واشتهر منها كثيرون، علّموا في الغرب وفي لبنان وكانوا بداية النهضة التي عرفها لبنان، وانطلقت منه إلى العالم العربي خلال القرن التاسع عشر. وفي عهد فخر الدين دخلت أول مطبعة إلى الشرق هي مطبعة دير مار قزحيا في شمال لبنان (١٦١٠) وبعثة كبوشية للتعليم (سنة ١٦٢٠).

وكان فخر الدين يعرف أنه بحاجة إلى صداقة دولة أوروبية لمواجهة السلطنة العثمانية في الظروف الصعبة، فنشأت صلات بينه وبين عدد من الدول الأوروبية مثل إسبانيا وفرنسا وإنكلترا واتصل بقداسة البابا واتفق مع توسكانة – إحدى الدول

الإيطالية، وعقد معها معاهدة تجارية في الظاهر، لكنها حوت سراً بنوداً عسكرية تقضي بتقديم مساعدة عسكرية ضدّ الدولة العثمانية، وبوضع سفن تحت تصرّف الأمير لاستخدامها عند الحاجة. لكن توسكانا لم تكن الدولة القوية التي تستطيع مواجهة السلطنة العثمانية. فلم تتمكن من مساعدة الأمير في مواجهة الحملة العسكرية العثمانية.

شخصية فخر الدين الثاني

اختلفت آراء المؤرخين في فخر الدين، نقل بولس قرأ لي بعض ما قيل فيه وهذا بعض ما قال عنه الخالدي معاصره ومترجمه: «صاحب هذه السيرة سليم الصدر، صافي السريرة. متواضع بشوش. وهو في حلبة الطعان عبوس، حليم عند الغضب. يصغي إلى المظلوم فينصفه. ربع القامة. حنطي اللون، مهاب. جليل، يباشر تدبير مملكته بنفسه ويضبط أموالها. يعطف على الغني ويحنو على الفقير. مطيع لله وللسلطان».

وهذا بعض ما قال طبيبه الخاص الأب روجيه: «كان شجاعاً، ميالاً إلى العلم، متضلعاً في معرفة النجوم والفلسفة الخفيّة، التي أخذها عن والدته. منكباً على درس الكيميا. عرّب عن الإيطالية كتاب ماتيولي وعلّق عليه. كان يهوى تشييد القصور الفخمة والجنائن الغناء. كلّف مصوراً فرنسياً أن يرسم له الحشائش

والنباتات فرسم له منها ألف وخمسمائة بألوانها الطبيعية الزاهية».

الخوري بولس قرألي

فخر الدين المعني الثاني

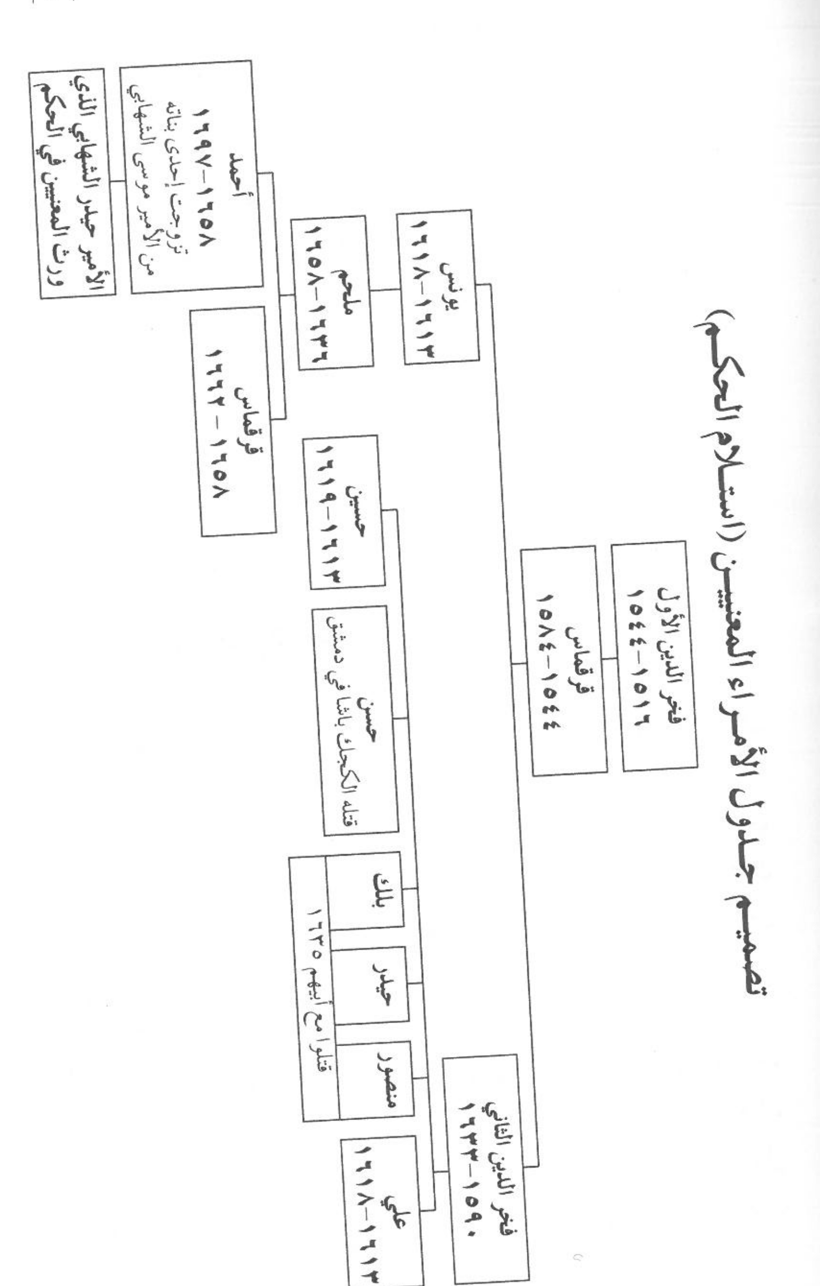
الجزء الثاني، ١٩٣٨، ص ٢٢ - ٢٣

نهاية المعنيين

بعد سقوط فخر الدين، استلم الحزب اليمني الحكم، لكنه لم يتمكن من فرض النظام، فرجع المعنيون إلى الحكم وتوالى الأمراء ملحم بن يونس، ثم قرقماز، ثم أحمد الذي مات ١٦٩٧ بدون ولد يخلفه فانتقل الحكم إلى الأسرة الشهابية.

السلاطين العثمانيون الذين عاصرهم المعنيون

سليم الأول ١٥١٢ - ١٥٢٠، سليمان القانوني ١٥٢٠ - ١٥٦٦، سليم الثاني ١٥٦٦ - ١٥٧٤، مراد الثالث ١٥٧٤ - ١٥٩٥، محمد الثالث ١٥٩٥ - ١٦٠٣، أحمد الأول ١٦٠٣ - ١٦١٧. مصطفى الأول ١٦١٧ - ١٦١٨، عثمان الثاني ١٦١٨ - ١٦٢٢، مراد الرابع ١٦٢٢ - ١٦٤٠، إبراهيم ١٦٤٠ - ١٦٤٨، محمد الرابع ١٦٤٨ - ١٦٨٧، سليمان الثاني ١٦٨٧ - ١٦٩١، أحمد الثاني ١٦٩١ - ١٦٩٥، مصطفى الثاني ١٦٩٥ - ١٧٠٣.



لبنــان في عهـد الشهابييـن
١٦٩٧ - ١٨٤١

الشهابيون يخلفون المعنيين

الشهابيون أسرة عربية من بني قريش، ينتسبون إلى مالك بن الحارث الملقب بشهاب. قدموا من الحجاز إلى حوران خلال الفتح العربي، وانتقلوا إلى وادي التيم في لبنان في القرن الثاني عشر، وشاركوا بالحروب ضدّ الصليبيين، كانوا مسلمين سنّة، تزاوجوا مع المعنيين فانتقل إليهم الحكم بعد انقراض الأسرة المعنية.

مات الأمير أحمد المعني ١٦٩٧، ولم يكن له ولدٌ ذكرٌ يخلفه، بل أخت وبنت، تزوجتا من أميرين شهابيين. اجتمع الأعيان اللبنانيون في مرج السمقانية، بين دير القمر والمختارة لاختيار حاكم جديد للبنان. وقع اختيارهم على بشير الشهابي بن أخت أحمد المعني. لكن الدولة العثمانية، استشارت الأمير حسين بن

فخر الدين الثاني وقد أصبح متقدماً بالسن، فنصح باحترام نظام الوراثة، واعتبر أن حيدر الشهابي بن بنت أحمد المعني أحقّ بالوراثة. وبما أن حيدراً كان قاصراً، تسلّم بشيرٌ الحكم بالوصاية ريثما يبلغ الأمير حيدر سنّ الرشد.

واقع السلطنة العثمانية وتأثيره على لبنان

لم يكن للسلطنة العثمانية دستور، ولا مجالس تقيّد سلطة السلطان، بل كان نظام الحكم وراثياً فردياً يحكم السلطان كما يريد، وتوالى على العرش منذ القرن السابع عشر سلاطين ضعاف، فعظم شأن الوزراء وأفراد الحاشية، وتطاولوا على الحكم، واهتموا بجمع المال، فباعوا المناصب وظلموا الناس. واغتنم الوضع عددٌ من الحكام والمغامرين، وانطلقوا من لا شيء، ووصلوا إلى مراكز عالية. منهم مثلاً علي بك الكبير في مصر، وظاهر العمر، والجزار في عكا. وكان لهم تأثير في لبنان. وفيما كانت السلطنة في انحطاطها المستمر، كانت الدول الأوروبية تتطور بسرعة، وفي كافة الحقول. فعلى الصعيد السياسي تبلورت الحياة البرلمانية في إنكلترة. ووقعت الثورة الكبرى في فرنسة (١٧٨٩) فكرست المساواة وحقوق الإنسان والمواطن. كذلك عرفت أوروبة نهضة علمية وصناعية واسعة، فتحققت اكتشافات علمية واختراعات كثيرة، ونشأت المصانع الآلية، وازداد الانتاج بشكل لم يسبق له مثيل. وتفوقت أوروبة اقتصادياً وعسكرياً، وبحثت عن الأسواق لتحصل على المواد الأولية ولتبيع المصنوعات، وحوّلت الأسواق إلى مستعمرات،

فبدأت تنشأ الأمبراطوريات الاستعمارية، وتدخلت الدول الكبرى بشؤون السلطنة فنشأت المسألة الشرقية.

أما «المسألة الشرقية» فهي اسم أطلقه المؤرخون على مسلسل الأزمات التي عرفتها السلطنة العثمانية والمناطق الخاضعة لها نتيجة تدخل الدول الأوروبية الكبرى وتضارب مصالحها. منها مثلاً حركة علي بك الكبير في مصر، وحملة نابليون بونابرت على الشرق (١٧٩٨ – ١٨٠١)، وحركة محمد علي في مصر (١٨٠٥ – ١٨٤٠)، وحرب القرم (١٨٥٤ – ١٨٥٦) وأحداث لبنان ١٨٤١ – ١٨٦٠، وحفر قناة السويس، وما رافق ذلك من أحداث. وقد تأثر لبنان بهذا الواقع كما سنرى.

كيف حكم الشهابيون لبنان؟
وما كان الواقع العام في بلادنا؟

استلم الشهابيون الحكم في لبنان بعد المعنيين، وانتقلوا إلى الشوف، وتابعوا سياسة المعنيين بالتساهل والتعاون مع جميع اللبنانيين.

كان الشهابيون سنّة، ثم أصبحوا زعماء الدروز، وأحسنوا معاملة الجميع، ومالوا إلى المسيحيين، وقد أصبح هؤلاء يشكلون نسبة كبيرة من السكان في الشوف، وأصبحوا قوة لا يستغني عنها الحاكم في لبنان، ثم اعتنق معظم الشهابيين الديانة المسيحية المارونية. وكان لبنان منذ الفتح العثماني يتمتع بوضع خاص، ظلّ

حكامه الوطنيون يحكمون البلاد على الطريقة الإقطاعية، وقد احتفظوا باستقلال داخلي، كانوا في العهد المعني يُرسلون الضرائب مباشرة إلى الباب العالي في اسطنبول. لكن العثمانيين لم يطمئنوا إلى سياسة أمراء لبنان الاستقلالية، فأنشأوا ولاية صيدا (١٦٥٠) لمراقبة حكام لبنان. وأصبح أمراء لبنان يرتبطون بالولاة العثمانيين في طرابلس ودمشق ووالي صيدا الذي انتقل فيما بعد إلى عكا. وتضايق اللبنانيون، حكاماً وشعباً، من طمع الولاة وتدخلهم المستمر بشؤون لبنان لا سيما واليي دمشق وعكا. ظلّ نظام البلاد إقطاعياً، وظل اللبنانيون يتكونون من الأعيان، أمراء، مقدمون، مشايخ. ومن عامة الشعب ومعظمهم فلاحون. وظلت الطوائف تحتفظ بأماكنها مع تسجيل زيادة عدد المسيحيين – لا سيما الموارنة – ونزوح الكثيرين منهم إلى الشوف والجنوب.

استمر الشهابيون في سياسة الانفتاح والاستقلال. كان الأمير الحاكم من الأسرة الشهابية دون سواها، وتمتد سلطته من جبل عامل جنوباً إلى النهر البارد شمالاً، وتشمل البقاع وبعلبك ومشارف السلسلة الشرقية بما في ذلك حاصبيا وراشيا. لكن الأمراء الشهابيين أصبحوا لا يتصلون مباشرة بالباب العالي كما كان وضع المعنيين، بل يتصلون بالوالي العثماني. فيرجع الأمير الحاكم إلى والي صيدا فيما خصّ المناطق الممتدة من جسر المعاملتين إلى نهر الأولي، وإلى والي طرابلس فيما خص المناطق الممتدة بين جسر المعاملتين والنهر البارد، وبوالي دمشق فيما خص البقاع. ويقوم الأمير الحاكم على رأس السياسة، فيقيم في دير القمر ثم في بيت الدين، ويجمع المساعدين والمستشارين والحاشية. ويجبي الضرائب. ويفرض النظام ويؤمن العدالة. ولم تسمح الدولة

العثمانية للأمراء بإنشاء جيش دائم، لكن الأمير الحاكم كان عند الحاجة يستدعي أنصاره للقتال، فيلبون الدعوة، ويأتي المقاتلون حيث يدعوهم الأمير، وكلٌّ منهم يحمل سلاحه. كان الأعيان خيالة، فيما كان عامة الناس من المشاة. وظل النظام إقطاعياً، ولرجال الإقطاع امتيازات لا يجوز تخطيها. فلا يُقتل الإقطاعي ولا يُحبس ولا يُضرب. وكان الإقطاعيون على خلاف دائم فيما بينهم، فيتحزبون ويحركون الفتن ضد الأمير الحاكم، ويتدخل الولاة في شؤون البلاد ويبتزون الأموال. أما الحزبية فلم تكن على فلسفة سياسية أو على عقيدة بل كانت تكتل عائلات ومصالح.

واقع اللبنانيين كما رآه فولني

زار الرحالة الفرنسي فولني الشرق بين سنتي ١٧٨٣ – ١٧٨٥ وترك وصفاً دقيقاً لمشاهداته في مصر وفلسطين ولبنان وسورية في كتابه «رحلة إلى الشرق» ومما قاله عن الموارنة: «يمكن أن نعتبر الأمة (المارونية) مقسومة إلى طبقتين الشعب والمشايخ وتعني كلمة مشايخ الأعيان الذين ينتسبون إلى أسر عريقة ويتمتعون بشيء من البحبوحة. يعيش الجميع في الجبل في قرى ومزارع وحتى في بيوت معزولة عكس ما هو الحال في السهل. والناس جميعاً يعيشون من الزراعة، يستثمر كل منهم قطعة الأرض الصغيرة التي يمتلكها أو التي يستغلّها بالحصة. والمشايخ أيضاً يعيشون من الأرض ولا يتميزون عن عامة الشعب إلا باقتناء الحصان وبفارق

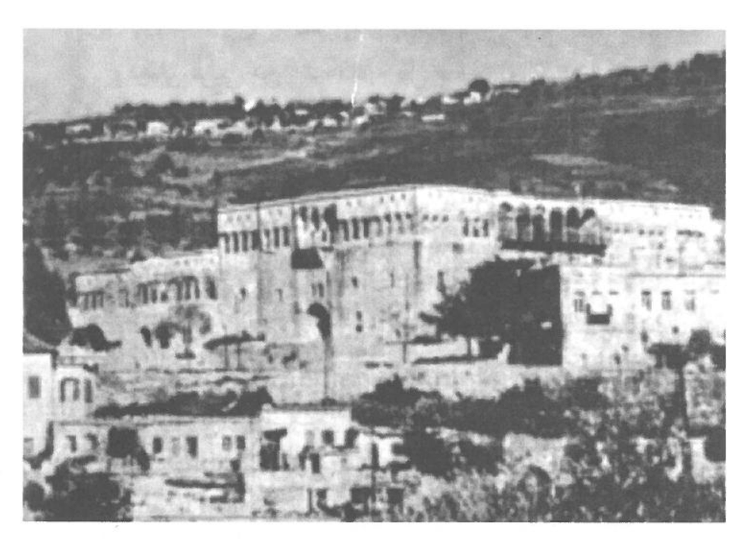
بسيط بطريقة العيش. ويعيش الجميع بتقشف ولكن ليس بحرمان. الطائفة فقيرة إجمالاً لكنها ليست محرومة من الضروري، وإذا رأينا شحاذاً في الجبل فهو آتٍ من مدن الساحل. الملكية مقدسة في لبنان كما هو الحال في أوروبة، لا نجد التعديات والبلص كما هو الحال في الولايات التركية، يمكن التنقل في الجبل ليل نهار دون خوف غير ما هو الحال في مناطق السلطنة الأخرى. يجد الغريب في الجبل ضيافة كريمة كما هو الحال عند جميع العرب... حسب عادة المسيحيين يتزوج الماروني امرأة واحدة. يتزوجها دون أن يعاشرها، وأحياناً دون أن يكون قد رآها... جميع الرجال يحملون السلاح. قد يكون حمل السلاح عادة سيئة لكنهم يحسنون استعمال سلاحهم عند الحاجة.

ودهش فولني من شدة الشبه بين الدروز والموارنة في أساليب العيش وفي نظام الحكم وفي اللهجة والعادات والآداب العامة، ولاحظ ان عائلات درزية ومارونية تعيش جنباً إلى جنب بصفاء ومودة. وقال: «قد نعتقد للوهلة الأولى أن الدروز أعداء الموارنة بسبب اختلاف دينهم لكن الأمر غير ذلك، فالمصلحة تفرض عليهم التسامح والتعاون المتبادلين. والدروز مثل الموارنة ينقسمون إلى طبقتين هما الأعيان والمشايخ. وهم جميعاً يعيشون من الأرض أكانوا ملاكين أم فلاحين.

C.F. Volney - Voyage en Egypte et en Syrie (1783 - 1784 - 1785) T2

لماذا يكثر السكان في الجبل

تساءل فولني لماذا يكثر السكان في الجبل على أرض ضيقة وفقيرة. وبعد التحليل قال: لم أجد سبباً سوى شعاع الحرية الذي يسطع في الجبل، حيث، وبعكس مناطق الأتراك، كل شخص مطمئن إلى أمنه وملكيته وحياته، إن الفلاح في الجبل ليس أغنى من الفلاح في المناطق الأخرى لكنه مطمئن لا يخشى من الآغا أو القائمقام أو الباشا ومن أن يرسلوا الجنود لينهبوا بيته ويخطفوا عائلته ويجلدوه... لا وجود للتطاول على الحريات. فالأمن والحرية هما السبب الأول لكثرة السكان. يأتي المسيحيون من المناطق المجاورة فيستقبلهم المسيحيون بعامل الأخوة الدينية ويستقبلهم



قصر شهابي في حاصبيا

الدروز بعامل التسامح وحتى يزداد عدد مساعديهم. ويعيش الجميع بسلام. ويتمتع الدروز بإحدى الميزات العربية ألا وهي الكرم وحسن الضيافة. فمن طرق بابهم قدموا له المساعدة وما يحتاج إليه حتى أنهم يعطونه لقمة الخبز وإن لم يكن عندهم غيرها، كم سمعتهم يرددون: «الله كريم وعطوف والناس جميعهم أخوة».

C.F. Volney - Voyage en Egypte
et en Syrie (1783 - 1784 - 1785) T2

أعمال الأمراء الشهابيين

توالى على الحكم حتى سنة ١٨٤١ كل من الأمراء الشهابيين بشير الأول – حيدر – ملحم – أحمد ومنصور – يوسف – بشير الثاني الكبير – بشير الثالث.

بشير الأول

استلم بشير الحكم بالوصاية كما تقرر في مؤتمر السمقانية. أقام في دير القمر، وأحسن السياسة تجاه والي صيدا وساعده لإخماد ثورة وقعت في جبل عامل، فأقطعه الوالي منطقة صفد في فلسطين. وعيّن الأميرُ على صفد الشيخ عمر الزيداني والد ظاهر العمر الذي استقلّ بعكا فيما بعد.

كان الأمير بشير متجهاً إلى صفد سنة ١٧٠٦، ومرّ على حاصبيا

حيث تناول قرصاً من الحلوى دسّ فيه خصومه السم، فمات مسموماً وخلفه الأمير حيدر.

الأمير حيدر ومعركة عيندارا

بعد موت الأمير بشير ذهب جماعةٌ من أعيان البلاد إلى حاصبيا ودعوا الأمير حيدر إلى استلام الإمارة، فانتقل إلى دير القمر ومارس الحكم. كان اللبنانيون منقسمين بين الحزبين التقليديين: القيسي واليمني، والمنافسة شديدة بينهما. وكان الوالي العثماني في صيدا يتدخل بشؤون لبنان ويشجّع على الخلاف. وسلخ جبل عامل عن سلطة الأمير حيدر، لكن الأمير ذهب إلى هناك، وثبّت سلطته، وعيّن متسلماً من قبله هو محمود أبو هرموش. لكن والي صيدا اتصل بأبي هرموش، وأتى له من الباب العالي بلقب باشا حتى لا تكون للأمير سلطة عليه. وحرّض الوالي للثورة في الشوف ضد الأمير حيدر، وشارك فيها أبو هرموش، وأرسل والي صيدا جيشاً يساعد الثائرين. فغادر الأمير حيدر الشوف. وذهب إلى كسروان ومنه إلى شمال البقاع، واستلم يوسف علم الدين اليمني الحكم. فرض ضرائب مرتفعة فأغضب الناس. عندئذ جمع الحزب القيسي صفوفه، واتصل بالأمير حيدر، فرجع إلى الشوف وجمع أنصاره، ووقعت معركة طاحنة بين الفريقين في عينداره ١٧١١، وأحرز حيدر نصراً ساحقاً قبل وصول جيش من قبل واليي صيدا ودمشق. وكان لمعركة عينداره نتائج كبيرة، فقد تفرّد الحزب القيسي بالحكم، فيما ذهب اليمنيون إلى جبل حوران وأسسوا جبل الدروز. وأعاد الأمير حيدر توزيع الأقطاع في لبنان. وظلّ قوياً حتى تنازل عن الإمارة لإبنه ملحم سنة ١٦٢٩.

أعاد الأمير حيدر توزيع الأقطاع. رفع اللمعيين من مقدمين إلى أمراء، وأقرّهم على المتن. أقطع آل جنبلاط منطقة الشوف. وبني نكد المناصف. وبني العماد العرقوب. وعبد الملك الجرد. وبني تلحوق على الغرب الأعلى. وحصر اليمنيين في ساحل الشويفات تحت سلطة آل أرسلان. وأقرّ آل الخازن على كسروان، وآل حمادة على جبة المنيطرة. وآل الضاهر على الزاوية. وآل العازار على الكورة. وجعل قبلان القاضي على جزين.

الأمير ملحم

خلف أباه، خفّض الضرائب وأقام العدل، فأحبّه الناس، وأصبحت له شعبية كبيرة. وفي عهده استولت أسرة العظم على ولايتي دمشق وصيدا فأحاطت بالشهابيين. لكن الأمير حيدر عرف بالدهاء وبالقوة، أن يدفع الخطر، فاحتفظ بالبقاع وتوسع فيه، وأعطى المال لوالي صيدا فحصل على مدينة بيروت، وجعلها عاصمته الثانية، وأصبح له منفذ مهم على البحر، بعد أن حرم العثمانيون أمراء لبنان من هذا المنفذ بعد سقوط فخر الدين الثاني.

وطمع والي دمشق أسعد باشا العظم بالبقاع، فحاربه الأمير ملحم، وانتصر عليه انتصاراً كبيراً في برّ الياس سنة ١٧٤٨. وصفه طنوس الشدياق كما يلي: «نزل الأمير ملحم بجيشه إلى برّ الياس، ووصل إليها وزير دمشق، واصطفّ الفريقان للحرب والطعان عند طلوع الشمس، وخطب بينهم البارود، وعند الظهيرة هجم الأمير عليهم كالأسد، فانكسر الوزير وعسكره فتتبعهم الأمير فاتكاً بهم فأهلك منهم خلقاً كثيرا».

الأميران أحمد ومنصور

مرض الأمير ملحم، فضغط عليه أخواه أحمد ومنصور فاستقال، واستلما الحكم (١٧٥٤) وحكما معاً. وفي أيامهما تجدد الصراع الحزبي، وانقسم اللبنانيون إلى حزبين جديدين. فقد التف جماعة حول الشيخ عبد السلام عماد اليزبكي وعُرفوا باليزبكية، والتف آخرون حول الشيخ علي جنبلاط وعُرفوا بالجنبلاطية وامتد التقسيم الحزبي إلى جميع اللبنانيين على مختلف طوائفهم، فكانت العلاقات بينهم تتمّ على أساس حزبي لا على أساس طائفي.

وما لبث الأخوان، أحمد ومنصور، أن اختلفا، وحاول كل منهما أن يتفرّد بالحكم، فاعتمد أحمد على اليزبكية وأقام في دير القمر، واعتمد منصور على الجنبلاطية وأقام في بيروت، واستعان بوالي صيدا، وعزم على مهاجمة أخيه، وتدخّل المصلحون، وبدا للأمير أحمد عجزهُ عن مواجهة أخيه، فاستقال وانفرد الأمير منصور بالحكم حتى استقال ١٧٧٠ وخلفه الأمير يوسف كما سنرى.

أمراء لبنان بين الدولة والولاة

كانت السلطنة العثمانية في ضعف مستمر، وقد انشغلت بمشاكل البلقان وبحروب مرهقة ضد روسية. فاستغل الوضع عددٌ من الزعماء والمغامرين، فاستقلوا بولايتهم عن السلطنة ومنهم علي بك الكبير في مصر، وظاهر العمر ثم أحمد باشا الجزار في عكا، وقد تأثر لبنان كثيراً بهؤلاء الولاة.

أما علي بك فهو بالأصل مسيحي يوناني اسمه يوسف بن داود، كان أبوه كاهناً أرثوذكسياً، حرص على تعليمه وتربيته تربية دينية صحيحة. كان يوماً في رحلة صيد على شاطئ البحر الأسود، فاختطفه تجار الرقيق وباعوه في الاسكندرية في مصر إلى أحد أغنياء المماليك سنة ١٧٤٣، فاعتنق الإسلام. واتخذ اسم علي. تميّز بالذكاء وبالرصانة، وأتقن الفروسية وعدداً من العلوم فبدا مميزاً ومتفوقاً، فأعتقه سيّده. ترقّى في المناصب حتى أصبح والياً على مصر سنة ١٧٦٠، فنظم الإدارة وفرض العدالة وأعدَّ جيشاً، واعلن الاستقلال عن السلطنة العثمانية.

في هذه الأثناء كانت كاترينا الثانية على عرش روسية، تخطط للتوسع في الشرق على حساب السلطنة العثمانية، فأرسلت أسطولها إلى مياه المتوسط، واتصل ممثلوها بعدد من القادة يعرضون مساعدة روسيا لهم للاستقلال عن السلطنة، ومن أبرزهم علي بك الكبير والي مصر، وظاهر العمر والي عكا، واستجاب الواليان وأعلنا الاستقلال. وقدّمت روسية المساعدة لعلي بك فاحتل الحجاز، وتحالف مع ظاهر العمر وأرسل جيشاً إلى سوريا لمحاربة واليها عثمان باشا.

قال مخايل الصباغ مؤرخ تلك الحقبة: «انقسم الشرق إلى معسكرين أحدهما في الشرق والشمال بزعامة عثمان باشا ويؤيده العثمانيون، والآخر في الجنوب والغرب أي مصر وفلسطين يساعده الروس. أما لبنان المنيع بجباله العزيز برجاله فقد ظلّ متوسطاً بين الفريقين كأنه ميزان السياسة».

وبالواقع فقد أرسل علي بك دعاته إلى سورية فلاقوا تأييداً كبيراً، ثم سيّر حملة من أربعين ألف محارب بقيادة صهره محمد أبو الذهب، فاجتاز فلسطين ووصل إلى دمشق، فانتصر على واليها عثمان باشا واحتلّها. لكن ممثلي الدولة العثمانية، بما هم عليه من الدهاء، اتصلوا بأبي الذهب، ووعدوه بالعفو وبالحكم على مصر وبرضا السلطان. فانقلب على سيّده، وانسحب من سوريا راجعاً إلى مصر حيث ظل يحارب سيده علي بك، ويتآمر عليه حتى قتله واستلم الحكم مكانه.

وكان لتلك الأحداث أثرها على لبنان، فإن الأمير منصور لم يقف على الحياد، بل انحاز إلى أبي الذهب لأن عثمان باشا يتدخل في لبنـان، وأرسل لـه الهـدايا، وهـذا يعني أنه وقف ضدّ السلطنة العثمانية، لكن بعد انقلاب أبي الذهب، أصبح وضعه حرجاً، فدعا أعيان البلاد، وقال لهم أنه أصبح مريضاً وعاجزاً عن الحكم، لذا فهو يستقيل لمصلحة الأمير يوسف بن أخيه ملحم. وكانت للأمير الشاب شعبية كبيرة في البلاد وقد جرى ذلك ١٧٧٠.

أما ظاهر العمر فهو ابن عمر الزيداني الذي ولاّه الأمير بشير الأول على صفد. خلف ظاهر أباه ثم نقل مركزه إلى مدينة عكا على شاطئ المتوسط.

كان عاقلاً، متساهلاً، محباً للعمران. خفف الضرائب وفرض الأمـن، جـدد أسوار عكـا فنمت المـدينة وازدهرت وأصبحت مركزاً للتجارة واللقاء بين تجار الشرق والغرب، كما كانت صيدا في عهد الأمير فخر الدين الثاني اللبناني.

قلقت الدولة العثمانية من تزايد قوة ظاهر العمر، فطلبت إلى عثـمـان بـاشـا والي دمشق مـحـاربته، وأعطته ولايتي طرابلس وصيدا، ودارت حروب بين الفريقين في فلسطين وفي لبنان لا سيما في جبل عامل وحول صيدا، واستعان ظاهر العمر بالأسطول الروسي، وحالف الشيعة في الجنوب، واحتل صيدا وعيّـن عليهـا حاكماً من قبله. وأتى بعناصر من المرتزقة ليزيد من قوة جيشـه. لكـن بعـد أن انتهـى العثمانيـون من حربهـم ضـد إيران، أرسلوا إلى عكا جيشاً برياً وأسطولاً بحرياً فحاصروا المدينة وشددوا عـليهـا الحصار وحركوا جواسيسهـم داخـل المـدينـة، فوقعـت خيانـة في جيـش ظاهر العمر وقتله أحـد جنـوده سنـة ١٧٧٥. وانتقلـت عكـا إلى مغامر اسمه أحمد باشـا الجـزار.

أحمد باشا الجزار

أصله مسيحي من البوسنة في يوغسلافيا، اختلف مع أهله، وانتقل إلى اسطنبول، واعتنق الإسلام، وباع نفسه لتجار الرقيق، فباعوه في مصر وأصبح من مماليك علي بك الكبير.

استلم ملاحقة المجرمين، فقتل الكثيرين بدون شفقة حتى عُرف بالجزار. أخيراً اختلف مع علي بك فهرب من مصر إلى اسطنبول، ثم رجع إلى لبنان، وزار الأمير يوسف الشهابي أمير لبنان الذي استقبله بالإكرام، ثم ذهب إلى دمشق وتعرّف بواليها عثمان باشا.

كان الأسطول الروسي في مياه المتوسط، يساعد ظاهر العمر، فـأرسل عـثـمـان باشا حـمـلة إلى الساحـل بقيادة الجـزار، وبعد الحملة اتصل الجزار بالأمير يوسف، فعيّنه على مدينة بيروت

لكنه ما لبث أن استقل بالمدينة وأعلن العصيان على الأمير يوسف، فاستعان الأمير بظاهر العمر، حتى اتصل بالأسطول الروسي الذي ألقى القنابل على المدينة، فهرب منها الجزار، ولجأ إلى عكا، ثم هرب منها إلى دمشق.

قدّر العثمانيون شخصية الجزار، فعيّنوه والياً على صيدا سنة ١٧٧٦، ثم نقل مركزه إلى عكا، فرمم الحصون التي تهدمت، وفرض السخرة على الأهالي، وأعدّ جيشاً من المرتزقة، وفرض سلطته على فلسطين بكاملها، وجمع المال الكثير ولم يرسل منه إلى اسطنبول إلا القليل. كان مستبداً ظالماً، يقتل الناس بدون سبب، وبلا شفقة، حتى يلقي الرعب في النفوس. لا يتردد عن إرسال جنوده إلى شوارع المدينة أو إلى الريف، حتى يلقوا القبض على أناس أبرياء ويلقوا بهم في السجن ثم يأمر بتعذيبهم أو بقطع أعضائهم أو قتلهم، ليفرح بتعذيب الناس. واستمر في الحكم حتى وفاته سنة ١٨٠٤.

تأثر لبنان كثيراً بسياسة ولاة العثمانيين، لا سيما واليي دمشق وعكا. حتى أصبح أمراء لبنان رهينة بيد الولاة، وهؤلاء يفرضون الضرائب، ويبتزون المال، يحرّكون الأحزاب ضد بعضها ويثيرون الفتن، يعزلون أميراً ويعيّنون آخر لا لسبب سوى ابتزاز المال. وقد بلغ تعنّت الولاة ذروته في عهد الأميرين الشهابيين يوسف وبشير الثاني.

الأمير يوسف

هو ابن الأمير ملحم الشهابي، اعتنق المسيحية، وأصبح متسلماً

لمنطقتي جبيل والبترون منذ سنة ١٧٦٢. أحسن الحكم فأحبه الناس، حتى أصبح له حزب قوي في البلاد، استلم الإمارة بعد استقالة عمه منصور سنة ١٧٧٠ وأقام في دير القمر، واجه الصراع بين عثمان باشا والي دمشق، وسيّد عكا ظاهر العمر، وقف بجانب الوالي، فأثار ظاهر العمر المصاعب في وجهه في جبل عامل، حتى في الشوف. لكن الأمير يوسف، رغم المصاعب، بسط سلطته على الشوف وامتدّ نفوذُه إلى الشمال حتى جبة بشري.

ارتكب الأمير يوسف غلطة سياسية كبيرة، أدّت إلى نهايته يوم وافق على تعيين الجزار متسلماً لبيروت، فإن هذا المغامر حارب الأمير، ولم يغادر بيروت إلا بعد تدخل الأسطول الروسي، ثم أصبح والياً على صيدا، فما لبث يضغط على الأمير يوسف، ويفرض الضرائب ويبتزّ المال، ثم عزله عن الإمارة، وسجنه في عكا ١٧٨٨، وظل يرضى عنه أو يغضب عليه حتى أمر بشنقه، لقاء مبلغ من المال حصل عليه من خصوم الأمير يوسف، فشنقه مع مدبره غندور السعد سنة ١٧٩١ في مدينة عكا.

الأمير بشير الثاني الكبير ١٧٦٧ – ١٨٥٠

ولد بشير في غزير سنة ١٧٦٧، مات أبوه قاسم وكان قد اعتنق المسيحية، فاعتنى بالأمير الصغير وبأخيه الأمير حسن كلٌّ من منصور الشدياق ثم الشيخ بطرس الخازن، وتزوجت أمهما فاهتمت بهما خادمة أبيهما واعتنت بهما عناية فائقة.

عندما شبّ بشير، ذهب إلى دير القمر، وبدأ يتعاطى السياسة، فاستدعاه الأمير يوسف، وجعله في بطانته. وكان يوكل إليه المهمات الصعبة وهو يحلّها بنجاح، حتى اتجهت إليه الأنظار. وفيما كان يقوم بإحدى المهمات تعرّف بالست شمس أرملة أحد الأمراء الشهابيين، وكانت ثرية. تزوج منها، فنظم أموره الإدارية والسياسية، واشترى أرضاً في بيت الدين. ورُزق منها ثلاثة أولاد هم قاسم وأمين وخليل. وبعد موتها تزوج من



الأمير بشير الثاني

الشركسية حسن جهان، ورزق منها أولادا كبيرتهم سعدى التي أحبها كثيراً وأحب أن يُكنّى «بأبي سعدى».

الأمير بشير في الحكم ١٧٨٨ - ١٨٤٠

اشتدت المعارضة على الأمير يوسف، كما نقم عليه الجزار، ففضّل ترك الحكم لمصلحة الأمير بشير، سنة ١٧٨٨. واستطاع بشير، بالقوة حيناً وبالدهاء أحياناً، أن يفرض الأمن ويستمر في الحكم مدة طويلة، فقد واجهته مصاعب كثيرة، وترك الحكم أكثر من مرة وعاد إليه، حتى أصبح أكبر حاكم في لبنان من الأسرة الشهابية، كما كان فخر الدين الثاني أكبر حاكم من الأسرة المعنية. يمكن أن نقسم تاريخ بشير في الحكم إلى ثلاثة أدوار:

في عهد الجزار ١٧٨٨ - ١٨٠٤ كان الأمير تحت رحمة طاغية عكا.

عهد القوة ١٨٠٤ - ١٨٣١ بلغ بشير ذروة القوة، بل أصبح ميزان السياسة في المنطقة، وعاصره في عكا الواليان سليمان باشا ثم عبد الله باشا.

العهد المصري ١٨٣١ - ١٨٤٠. احتل إبراهيم باشا بن محمد علي عزيز مصر، بلادنا، والاه بشير، لكن السياسة الدولية أخرجت المصريين من بلادنا، فترك بشير الحكم سنة ١٨٤٠، وذهب إلى المنفى ومات بعيداً عن البلاد سنة ١٨٥٠.

بشير على عهد الجزار

بعد أن سلّم الجزار الأمير بشير الحكم، فرض عليه المهمات الصعبة، فقد طلب إليه طرد قريبه الأمير يوسف من البلاد، وفُرضت الحرب بين الأهل حتى غادر يوسف لبنان إلى سجون عكا. ثم راح الجزار يُرهق الأمير بالضرائب، والشعب يتململ ويحتج، ويتزايد خصوم الأمير ويعرضون المال على الجزار لاستلام الحكم، فيعزل بشيراً ثم يعيده إلى الإمارة، هكذا تلاعب الجزار بأمراء لبنان وابتز منهم الأموال.

في أواخر حزيران من سنة ١٧٩٨ وصل إلى مصر القائد الفرنسي نابوليون بونابرت على رأس حملة فرنسية، فانتصر على المماليك واحتل مصر، ثم سار إلى فلسطين، وحاصر عكا. وتشكل حلفٌ دولي ضد فرنسا ضمّ كلاً من انكلترا والنمسا وروسيا والسلطنة العثمانية. وتوجهت جيوشٌ تركيّة وسفنٌ انكليزية لمحاربة الفرنسيين.

اتصل القائد الفرنسي بالأمير بشير، فأرسل له سيفاً ورسالة يطلب فيها المساعدة ضد الجزار ويعده بالمساعدة السخية وبالاستقلال، كما طلب إليه بأن يسمح لمن يشاء من اللبنانيين بأن ينقل إلى الفرنسيين الخمور والمؤونة لقاء أسعار حسنة.

كذلك طلب الجزار المساعدة من الأمير لمحاربة الفرنسيين، ووعد بإعادة بيروت إليه وكان قد انتزعها منه.

وقف الأمير بين الفريقين: الجزار طاغية لا ضمير له ولا ذمّة. وبونابرت قائد شاب ربما مغامر. والمعركة غامضة المصير بعد تكتل الدول ضد الفرنسيين... فاختار الأمير سياسة الحياد ريثما ينجلي الموقف. رَدّ على الجزار بأن اللبنانيين لا يطيعونه بأمر الحرب، وردّ على القائد الفرنسي بأنه لا يستطيع مساعدته، وألقى أنصار الجزار القبض على حامل الجواب إلى نابوليون وأخذوا الرسالة إلى الجزار فاطمأن قلبه.

تراجع الفرنسيون عن حصار عكا، واتصل قائد الأسطول الانكليزي في المتوسط، الأميرال سدني سميث، بالأمير بشير، ثم زاره في لبنان وبحث معه في أمور السياسة. كذلك سار الصدر الأعظم العثماني يوسف ضيا باشا على رأس جيش لمحاربة الفرنسيين، فقدّم إليه الأمير الهدايا والعلف للخيل وطلب بأن ترفع الدولة يد الجزار عن لبنان، وأن يتصل الأمير مباشرة بالباب العالي كما كان الأمر في عهد المعنيين. فوعد الصدر الأعظم بالإيجاب... لكن الوعد لم يتحقق.

وما إن ابتعد الأسطول الانكليزي والجيش العثماني، حتى أرسل الجزار جيشاً إلى لبنان، وغادر الأمير البلاد وظل خارجها حتى صفا خاطر الجزار، فرجع إلى الحكم.

الأمير وعصر القوة ١٨٠٤ - ١٨٣١

مات الجزار ١٨٠٤ فساد الفرح، وانبرى الشعراء يصفون الحدث

السعيد، ويهنئون الشعب بموت الطاغية. وتخلّص الأمير بشير من هذا المستبد، وكان قد نضج سياسياً وازداد حنكة ومهارة، ومعرفة بسياسة الدول، وأصبح له نفوذٌ كبير في البلاد وقوة عسكرية يعتمد عليها، فأصبح بالتالي سيّد الحكم في لبنان ومرجعاً سياسياً مهماً في المنطقة، وقد عاصره في عكا الوالي سليمان باشا (١٨٠٤ - ١٨١٩) ثم عبد الله باشا (١٨١٩ - ١٨٣١).

كان الوالي سليمان باشا بحاجة إلى مساعدة الأمير بشير، فأمده الأمير بالمال والرجال، حتى أصبح له فضلٌ عليه، فأصبح حراً في حكم البلاد، وضرب خصومه السياسيين من أقاربه الشهابيين وعدد من الإقطاعيين، ضرب أولاد الأمير يوسف وآل باز، وآل نكد، وآل العماد.

تمخضت الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر بحدث ديني وسياسي مهم. فقد نشأت في نجد حركة دينية سياسية عُرفت بالوهابية نسبة إلى مؤسسها محمد بن عبد الوهاب. ووصل دعاتها إلى مكة المكرمة، وهددت طرق الحج. فعيّنت الدولة العثمانية والياً على دمشق هو يوسف الكنج، وأفهمته أن مهمته هي مواجهة الوهابيين وتأمين طرق الحج، فشل يوسف الكنج في مهمته فراح يضايق المسيحيين في دمشق، وتدخل في البقاع وطالب بمناطق البترون وجبيل. امتعض منه الأمير بشير، وبات ينتظر الفرصة المناسبة لضربه، ولاحت الفرصة، إذ كلّفت الدولة سليمان باشا بولاية دمشق، ورفض يوسف الكنج تسليمه إياها، فسار الأمير بجيشه وقهر يوسف الكنج، وسلم الولاية لسليمان باشا، ورجع إلى لبنان بالعز والإكرام، وانصرف إلى تنظيم شؤون البلاد، فأعاد الذين

عزلهم يوسف الكنج إلى مراكزهم ومنهم مصطفى بربر في طرابلس، ولم يعد أحد من الولاة يتطاول على الأمير.

الأمير يساعد عائلات درزية
للحضور إلى لبنان...

سنة ١٨١١ أرسل دروز الجبل الأعلى الذي عند حلب يستغيثون بالأمير من أعدائهم الذي جرى بينهم وبينهم حروب كثيرة فأغاثهم وأرسل إليهم فارس الشدياق بجماعة وأرسل معه الشيخ بشير جنبلاط من الدروز رجلاً اسمه حسون ورد بجماعة وكتب الأمير إلى سعيد آغا والي أريحا وطلب أن يساعد المرسلين لإحضار الدروز إلى بلاده. فذهب المرسلون وحضرت الدروز معهم إلى البلد وكان عددهم أربعمائة بيت فأعطاهم الأمير مائة ألف غرش وفرقهم في مقاطعات مناصب الدروز.

طنوس الشدياق، أخبار الأعيان،
الجزء الثاني، مطبعة العرفان، ص ١٣٣

مات سليمان باشا سنة ١٨١٩ وخلفه في عكا شاب مغرور، لم يتجاوز الثانية والعشرين من العمر هو عبد الله باشا. وطمع بولاية دمشق بالإضافة إلى ولاية عكا، ومن جهة ثانية، ادعى والي

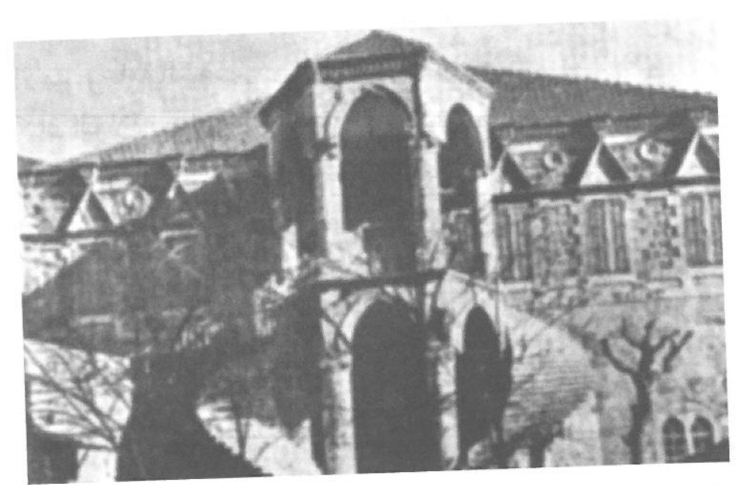
دمشق درويش باشا أن الدولة كلفته بولايتي صيدا وطرابلس، واتصل كل من عبد الله باشا ودرويش باشا بالأمير بشير يطلب منه المساعدة، ويغدق عليه الوعود.

مال الأمير إلى عبد الله باشا، وزحف بجيشه على دمشق واحتلها ١٨٢٢، لكن الباب العالي غضب من الأمير واعتبره متمرداً وأمر واليي حلب وأدنة بمساعدة والي دمشق ضد الأمير بشير.

تشاور الولاة الثلاثة، وقرّ رأيهم على مفاوضة الأمير بشير لتفادي محاربته، وبالواقع تنازل الأمير واختار أميراً مكانه، وسافر إلى مصر. وفور وصوله اتصل به حاكمها محمد علي باشا المُلقّب بالعزيز. وتباحث معه في شؤون لبنان والمنطقة. وتدخل لدى الباب العالي، وأتى بالعفو عن الأمير. فرجع بشير إلى البلاد معززاً مكرماً في ربيع سنة ١٨٢٣، وعظمت قوته، وتخلص من أعظم خصومه في الشوف الشيخ بشير جنبلاط، وظلت بيده القوة العسكرية الأهم في المنطقة، يستعين به الولاة، وهو يساعدهم بنجاح، فعندما ثار أهل سانور سنة ١٨٢٩ على الوالي عبد الله باشا وعجز عن إخضاعهم استعان بالأمير بشير، فسار على رأس ألفي مقاتل لبناني إلى الناصرة ونابلس، وحاصر قلعة سانور وأخضع الثائرين.

سياسة الأمير بشير الداخلية

خلال المدة الطويلة التي قضاها في الحكم، قام الأمير بشير بأعمال مهمة داخل البلاد، فقد ضرب الإقطاعية، وركّز السلطة.



مدخل قصر المختارة

واجهته مقاومة شعبية أو عاميات، لكنه تغلّب عليها. فرض الأمن واهتم بالعمران وبالعلم.

الأمير والإقطاعية

كان الإقطاعيون، رغم إخلاصهم للبلاد، يتقاتلون ويحيكون المؤامرات ضد الأمير للوصول إلى الحكم أو لنيل المكاسب. فاستغلّ ولاة العثمانيين هذا الواقع للضغط على الأمير الحاكم ولابتزاز المال. واجه الأمير بشير سياسة الإقطاعيين، وعمل لإخضاعهم ولتركيز سلطته، فضرب الإقطاعيين بعضهم ببعض. استعان بالجنبلاطيين وبالعماديين وضرب النكديين. ثم ضغط على آل العماد وأفقرهم. وضيّق على آل تلحوق، وعبد الملك، وأرسلان. وطارد أقاربه من الشهابيين لا سيما أولاد الأمير يوسف. وأخيراً نكب آل جنبلاط بضرب زعيمهم الشيخ بشير. كان الأمير قاسياً في سياسته هذه لكنه ركّز السلطة.

الأمير وعامة الشعب

كان الولاة يطلبون المال والأمير يفرض الضرائب. فاحتج الشعب ووقعت ثورات شعبية أو عاميات أهمها عامية انطلياس (١٨٢٠) ثم عامية لحفد. لم يتمكن الأمير من إخضاعهما إلا بصعوبة كبيرة. وقد برز زعماء من الشعب جمعوا شعبية وأصبحت لهم وجاهة وقوة سياسية، أبرزهم آل باز، فضرب الأمير زعماءهم.

العاميات: أنطلياس، لحفد

كان عبد الله باشا والي عكا طماعاً يطلب المال باستمرار والأمير بشير يفرض الضرائب والشعب يحتج. ففي سنة ١٨٢٠ رفض أهالي المتن زيادة الضرائب وانضم إليهم أهالي كسروان. وتم اجتماع كبير في أنطلياس وأعلن المجتمعون رفض دفع ضرائب إضافية واقتدت بهم مناطق أخرى حتى أصبحت حركة الاحتجاج واسعة وشاملة وعينوا فضل البدوي الخازن شيخاً عليهم. وانضم أعداء الأمير بشير للعامية وشجعوها، فترك الأمير بشير الحكم. وسلم عبد الله باشا الحكم إلى الأميرين الشهابيين حسن علي وسليمان سيد أحمد. لكنهما عجزا عن الحكم فرجع الأمير بشير إلى الحكم.

أرسل الأمير ابنه قاسماً إلى بلاد جبيل ليجبي الضرائب.

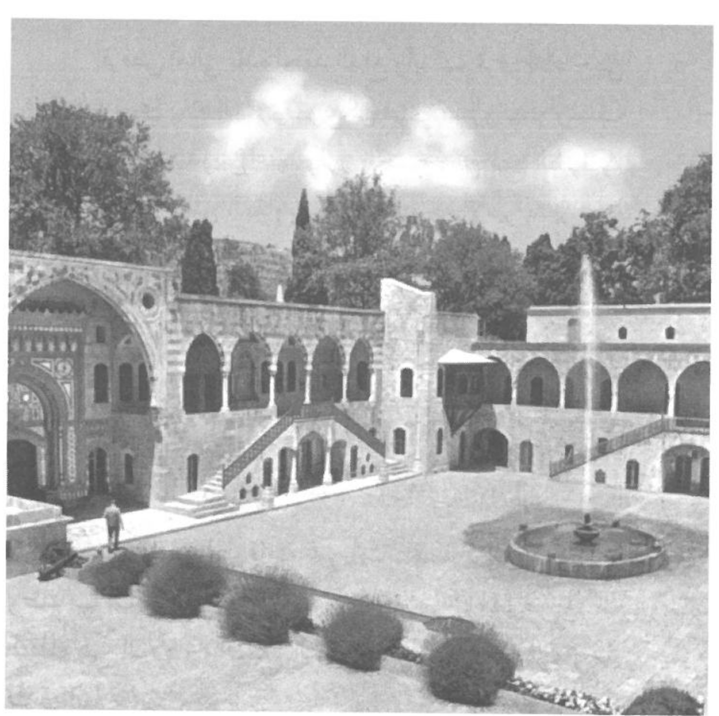
فرفض أهالي بلدة لحفد الدفع وأيدتهم قرى بلاد جبيل وقرى بلاد البترون وبعض قرى كسروان. وأرسلت القرى مندوبين عنها وقرر الجميع عدم دفع الضرائب واتفقوا على المقاومة بالقوة. فتوجه الأمير بشير على رأس جيش كبير إلى منطقة جبيل ووقعت معارك عدة وكانت المعركة الفاصلة في بلدة لحفد. ولم ينتصر الأمير إلا بصعوبة.

الأمن

كان السفر شاقاً والطرقات غير آمنة. فطارد الأمير قطّاع الطرق، وضرب اللصوص، ولاحق المجرمين، ففرض الأمن، وساد النظام في البلاد، وأصبح السفر ممكناً، ليل نهار، وعلى جميع طرق البلاد.

العلم

عطف الأمير على العلم. وفي عهده استغلّت الإرساليات جو الأمن والحرية، فدخلت إلى لبنان الإرسالية الأميركية الأولى، والإرسالية اليسوعية الثانية، وفتحت مدارسها. ونشأت مدارس وطنية أهمها مدرسة عين ورقة (١٧٨٩)، ومدرسة مار يوحنا كفرحي في منطقة البترون، ومار أنطونيوس بعبدا ومار عبدا غزير... واجتمع في بلاط الأمير عدد من رجال الفكر مثل ناصيف اليازجي، والكونت رشيد الدحداح، وبطرس كرامة، ونقولا الترك، وأمين الجندي، والياس إده. وزاره الشاعر الفرنسي لامرتين في قصر بيت الدين.



قصر بيت الدين

العمران

تحققت في عهد الأمير أعمال عمرانية مهمة مثل شق الطرقات، وترميم الجسور، منها جسرا نهر الكلب والدامور، وبناء قصر بيت الدين، وهو من أجمل القصور المبنية على الطراز الشرقي، وجرى في عهد الأمير، لا سيما في عهد المصريين – الاهتمام بالصحة، فتم إنشاء الكرنتينا لمراقبة صحة التجار الأجانب قبل دخولهم البلاد، واستعمال لقاح ضدّ مرض الجدري، كما تم إرسال تلاميذ لبنانيين إلى مصر لتعلّم الطب في مدرسة قصر العيني الطبية.

السياسة الخارجية

لم يكن الأمير بشير يتصل مباشرة بالباب العالي أي بالسلطة في اسطنبول، كما كان الأمر في عهد فخر الدين، بل كان يرتبط بالولاة في صيدا ثم في عكا وفي دمشق. كان يساير الولاة فيرسل الضرائب والهدايا. كان مركزه ضعيفاً أمام الجزار لكنه أصبح قوياً أيام كل من سليمان باشا وعبد الله باشا. كان يفضّل إجمالاً أن يظل على الحياد إذا كان الوضع غامضاً، كما فعل أثناء حملة نابليون بونابرت، ويتدخل إذا اعتبر أن مصلحته تقضي بذلك، كما فعل ضدّ يوسف الكنج، وعندما ساعد عبد الله باشا ضد درويش باشا والي دمشق، أجرى اتصالات بقناصل فرنسة وانكلترة. حاول أن يتخلص من العثمانيين فتحالف مع محمد علي باشا والي مصر.

الأمير بشير والعدالة

عُرف الأمير بشير بحب العدل وبالقساوة، حتى قيل أنه الأمير المستبد العادل. كان يفصل بالدعاوي السياسية والجنائية وبالدعاوي الصعبة التي تقع بين شخصين من طائفتين مختلفتين. فيما يحكم رجال الدين في القضايا المدنية. أما الدعاوة الصغيرة فيحكم فيها الإقطاعيون ومشايخ القرى. وأحبّ الأمير أن يكون للبنان قضاءٌ منظّم فاختار عدداً من الشبان وأرسلهم ليتعلموا القوانين على أفضل مشترعي زمانه.

الأمير والجيش

لم يكن يحق لأمراء لبنان إنشاء جيش دائم، فكان الأمير يعتمد على أنصاره وعلى مساعدة حلفائه من الإقطاعيين. كان عند الحاجة يدعو الرجال إلى الحرب فيحضرون إلى قصر الأمير، كان يستطيع

أن يجمع بسرعة أكثر من ١٥ ألف مقاتل، وبإمكانه أن يجمع مئة ألف مقاتل من المشاة والخيالة. كل مقاتل معه سلاحه وذخيرته. أما السلاح فيقوم على السيوف والخناجر والفؤوس والبنادق، وعند الأمير عدد من المدافع. كان عامة الشعب من المشاة، فيما كان الأعيان من الخيالة، وقد قام جيش الأمير بأعمال عسكرية عدة سواء في داخل البلاد أم في مساعدة الولاة. فقد ساعد والي عكا عبد الله باشا لإخماده ثورة في فلسطين، كما ساعده ضد والي دمشق. وشارك في حروب محمد علي كما سنرى. وكان اللبنانيون مشهورين بإتقان السلاح وبالشجاعة.

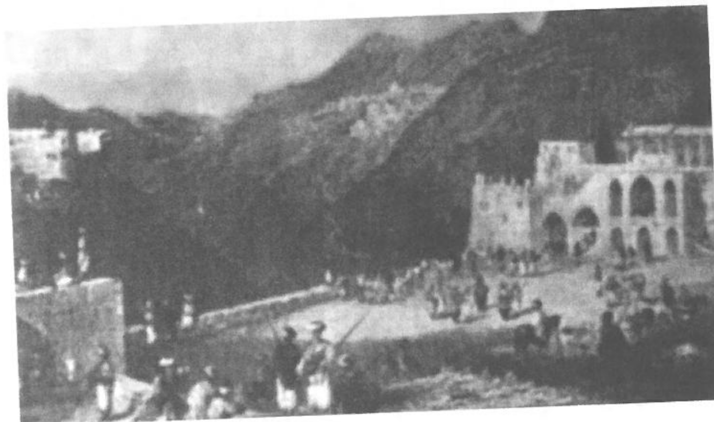
الدعوة إلى الحرب

عندما الأمير في دير القمر يقرر الحرب يصعد المنادي إلى مكان مرتفع وينادي بأعلى صوته: «إلى الحرب... إلى الحرب... احملوا البنادق، احملوا المسدسات. أيها المشايخ اسرجوا خيولكم احملوا الرمح والسيف، واحضروا غداً إلى دير القمر. الله معكم. إلى القتال». وخلال ثلاثة أيام على الأكثر يجتمع الألوف في دير القمر.

هؤلاء المحاربون يختلفون عن الجيش في أوروبا حتى عن جيش الأتراك والمماليك. فليس لهم زي موحّد، ولا سلاح موحّد. الأعيان خيالة وعامة الشعب مشاة. وكل فرد يطيع القيادة طاعة مطلقة. ويتميّز بالتقشف

وبالشجاعة ويتمتع بصحة ممتازة. كل محارب يحمل سلاحه، وأكله وهو يقتصر على الخبز والبصل والجبن والزيتون وبعض الفواكه.

C.F. Volney Voyage en Egypte
et en Syrie (1783 - 1784 - 1785) T2



تمارين جيش الأمير في ساحة قصر بيت الدين

حركة محمد علي باشا والي مصر

وُلد محمد علي في ألبانيا سنة ١٧٦٩، دخل الجيش، وكان في عداد الحملة التي أرسلها العثمانيون لمحاربة نابوليون بونابرت في مصر. أظهر مقدرة عسكرية فأصبح قائد الفرقة الألبانية. وظلّ في مصر بعد أن انسحب منها الفرنسيون سنة ١٨٠١. كان المماليك يسيئون معاملة المصريين فطالب هؤلاء بأن يصبح محمد علي حاكماً عليهم.

بعد أن انسحبت الحملة الفرنسية من مصر، تحسنت العلاقات بين فرنسة والسلطنة العثمانية. وتعرّف القنصل الفرنسي في مصر بمحمد علي، وكاتب حكومته بشأنه، فتدخلت وسعت لدى الباب العالي فتمّ تعيين محمد علي والياً على مصر سنة ١٨٠٥. وكان رجلاً عاقلاً، قديراً، محباً للنظام والعمران. استعان بفرنسة وقام بإصلاحات واسعة جداً في مصر بمساعدة الخبراء الفرنسيين. كذلك استعان بفرنسة لإعداد جيش

قوي وتسليحه. وقد ظلت فرنسا تساعده وتسانده سياسياً حتى بعد سقوط الأمبراطور نابوليون سنة ١٨١٥ وعودة الملكية. وقد حضر إلى مصر عدد من الضباط الفرنسيين بعد سقوط الأمبراطورية، وعملوا في الجيش المصري وأبرزهم الكابتين سيف الذي اتخذ اسم سليمان باشا الفرنساوي.

كان السلطان العثماني غارقاً في مشاكل البلقان، وكان جيشه ضعيفاً، فاستعان بمحمد علي لمواجهة الحركة الوهابية في الحجاز، فلبى الطلب، وأعاد السيطرة العثمانية على الحجاز. ثم استعان به السلطان لإخماد ثورة المورة التي قام بها اليونانيون فأخمدها جيش محمد علي بنجاح.

كان محمد علي، لقاء هذه المساعدات، يأمل بمكافأة سخية من السلطان، فطالب بولايات الشام، لكن السلطان لم يمنحه سوى ولاية كريت. فغضب، وأضمر الشرّ للدولة العثمانية، واتخذ من خلافه مع والي عكا حجة للحرب. أعدّ جيشاً كبيراً قاده ابنه إبرهيم باشا، واتفق مع الأمير بشير، وزحف على فلسطين سنة ١٨٣١، حتى وصل إلى عكا، وحاصرها، بمساعدة الأمير بشير، حتى سقطت بعد ستة أشهر. وتابع الجيش المصري الزحف شمالاً واتجهت معظم القوة العسكرية إلى مدن سورية الداخلية، فاحتلت دمشق وحمص وحماه وحلب. ثم دخلت إلى آسية الصغرى، وضربت الجيش العثماني في ممر بيلان، ووصلت إلى قونية. وكان بإمكانها أن تتابع الزحف حتى اسطنبول.

خاف السلطان العثماني، واتصل بالدول الكبرى: إنكلترة وفرنسة وروسية. ورأى القيصر الروسي، نقولا الأول، أن مساعدة السلطان العثماني والدفاع عنه، أفضل من أن تنتصر مصر وتحلّ محل السلطنة في قيادة العالم الإسلامي بمساعدة فرنسة. وعرض المساعدة على السلطان، فقبلها بطيبة خاطر. وفي ٢٠ شباط ١٨٣٣ نزل على شاطئ آسية الصغرى ١٥ ألف جندي روسي.

قلقت فرنسة من التدخل الروسي في السلطنة، ونشطت حتى تطوّق هذا التدخل. وقام مندوبوها في اسطنبول ومصر بمساع كبيرة، حتى تم التوصل إلى اتفاقية كوتاهية، وبموجبها يظلّ محمد علي والياً تابعاً للسلطان، ويتولى بالإضافة إلى مصر، ولايات سورية ولبنان وفلسطين وأدنة وكريت. هكذا ظل محمد علي والياً عادياً تتجدد ولايته كل سنة. لكن السلطان ظل خائفاً منه، وراح يخطط لمواجهته والقضاء عليه. فعقد معاهدة هنكار اسكله سي السريّة مع الروس وبموجبها يقدم القيصر المساعدات التي يطلبها السلطان، ولقاء ذلك، يقفل السلطان مضائق الدردنيل والبوسفور أمام السفن الأجنبية الحربية ويمنعها من دخول البحر الأسود، لكن الإنكليز قلقوا من سياسة كل من فرنسة وروسية. وراحوا يراقبون الأحداث لمعالجة الموقف.

لبنان وحركة محمد علي

وقف الأمير بشير بجانب محمد علي، أما الشعب اللبناني فاختلفت عنده المواقف حسب الطوائف. وقف المسيحيون بجانب الأمير بشير وأيدوا سياسته تجاه المصريين ضد

السلطنة، أملاً بالحصول على استقلال كامل، فحملوا السلاح وشاركوا باحتلال عكا وطرابلس وعكار ومدن سورية. وعندما بدأت الثورات ضد المصريين ساهموا بإخمادها في فلسطين وطرابلس وعكار وبلاد العلويين وجبل الدروز. لكنهم بدّلوا سياستهم فيما بعد عندما أساء المصريون معاملتهم وحملوا السلاح ضدهم كما سنرى.

أما الدروز فوقفوا موقفاً حذراً من محمد علي بل معارضاً له، لأنه ساهم في مقتل الزعيم الشيخ بشير جنبلاط وقاموا بعدة ثورات. ووقف الشيعة على الحياد. أما السنّة فقد ظلوا يؤيدون السلطان لأنه خليفة المسلمين.

قام المصريون بإصلاحات كبيرة. جعلوا مركز الحكم في بيروت، فازدادت المدينة ازدهاراً، عنوا بالتعليم وبالصحة وبالأمن. أدخلوا قوانين حديثة وأعلنوا المساواة بين جميع الطوائف، فرفعوا عن المسيحيين الحيف الذي كان مفروضاً عليهم في العهد العثماني.

لكن محمد علي كان يعرف أن لا بد من الحرب ضد العثمانيين، فهو بحاجة إلى جيش قوي، وإلى سلاح، وتحصينات، وبالتالي يلزمه المال. لذا فرض ضرائب مرتفعة على اللبنانيين. ووضع نظام السخرة، وأمر بتجنيد عدد من الشبان اللبنانيين وإلحاقهم بالجيش المصري، كما طلب جمع السلاح من اللبنانيين. وأساء المصريون معاملة الأهالي، فطبقوا طرقاً من العنف يرفضها اللبنانيون.

تكتلت المعارضة ضد المصريين ولاحت بوادر الثورة، ونشبت فعلاً وامتد لهيبها من تلال صيدا إلى الشوف فبيروت فكسروان، وفي سنة ١٨٣٩ اشتعلت الثورة في حوران. واشتدت في جبل لبنان. واحتج اللبنانيون وقدموا العرائض مطالبين بتخفيض الضرائب ومنع السخرة، وعدم جمع السلاح، ووقف التجنيد وإلغاء الخدمة العسكرية. رفض المصريون هذه المطالب، فاجتمع أعيان البلاد من كل الطوائف يوم ٨ حزيران ١٨٤٠ في كنيسة مار الياس في إنطلياس وأقسموا اليمين على متابعة العمل معاً لتحقيق المطالب.

نص الاتفاقية التي تم توقيعها في إنطلياس
في ٨ حزيران ١٨٤٠
الموافق ٨ ربيع الآخر سنة ١٢٥٦

الداعي لتحريره:

إنه يوم تاريخه قد حضرنا إلى ماري الياس إنطلياس نحن المذكورة أسماؤنا به بوجه العموم من دروز ونصارى ومتاولة وإسلام المعروفين بجبل لبنان من كافة القرى وقسمنا يمين على مذبح القديس المرقوم بأننا لا نخون ولا نطابق بضرّ أحد منا كائناً من يكون القول واحد والرأي واحد ونحن جمهور الدروز إذا حدث منا أدنى خلل نكون بارين في ديانتنا ومقطوعين من شركة الدروز والحظوظ الخمسة وتكون نساؤنا طالقة من السبعة

مذاهب ومحرّمة علينا من كافة الوجوه وأيضاً يشهد علينا ماري الياس ويكون خصمنا وقد أقمنا علينا شيخنا جناب الشيخ فرنسيس ابن جناب الشيخ حنا هيكل الخازن من غوسطا ونحن جمهور النصارى الذي يخون منا يكون ماري الياس خصمه ولا يكون له موته على دين المسيح، حرر في ٨ ربيع آخر سنة ١٢٥٦.

جمهور الدروز في جبل لبنان ونصارى
ومتاولة وإسلام بوجه العموم

إنه قد حضروا المدونة أسماؤهم أعلاه وقسموا يمين على مذبح القديس ماري الياس بحسبما هو محرر أعلاه حرفياً وللبيان حررنا بيدنا هذه الشهادة في ٨ حزيران سنة ١٨٤٠ مسيحية.

كاتبه القس أسبيريدون عراموني
خادم ماري الياس إنطلياس

وصلت أخبار أحداث لبنان إلى عزيز مصر، فثار غضبه، وأمر بإخماد الثورة بالقوة. فيما عنفت الثورة في لبنان، وقاتل اللبنانيون ببسالة فائقة. وكان الإنكليز قد أرسلوا إلى لبنان جماعة من رجال السياسة يعملون ضد المصريين، ويشجّعون على الثورة. فيما الحكومة الإنكليزية تحضّر تدبيراً سياسياً ضد محمد علي.

موقف الدولة ونهاية الأمير بشير

وجد الإنكليز الوقت مناسباً لوضع حدّ لحكم العزيز، وبالتالي لوقف النفوذ الفرنسي في مصر، والنفوذ الروسي في السلطنة. فدعت الحكومة الإنكليزية إلى عقد مؤتمر دولي في لندن لدرس الثورة في لبنان وقضية محمد علي. وانعقد المؤتمر في لندن من ٢١ حزيران حتى ١٥ تموز سنة ١٨٤٠، وحضره مندوبون عن إنكلترة والنمسة وروسية والسلطنة العثمانية، فيما قاطعته فرنسة. وتقرر بنتيجة المؤتمر المحافظة على سلامة السلطنة، والدفاع عن السلم، وإعطاء محمد علي وأسرته الحكم بالوراثة على مصر، وإعطاء منطقة عكا لمحمد علي مدى حياته. شرط أن يسحب الجيش المصري من المناطق التي احتلّها. لكن محمد علي رفض أن يعمل بموجب هذه الشروط. فوجهت إنكلترة والنمسة والسلطنة العثمانية أسطولاً وجيشاً إلى مياه لبنان، فضرب بيروت في ١١ أيلول. ونزلت الجيوش المتحالفة في جونيه، ووقعت المعركة الفاصلة في بحرصاف، فانهزم المصريون وانسحبوا إلى فلسطين، وتحصنوا في عكا. فضربها الأسطول الإنكليزي بعنف فانسحب المصريون. وأعلن العثمانيون عزل محمد علي. لكن فرنسا، بعد أن عزلت نفسها، تدخلت لتخلِّص ما يمكن تخليصه، ورأت الدول أن ليس من مصلحتها تحدّي فرنسا خوفاً من اندلاع ثورة فيها تخلع الملك وتعلن نظاماً ثورياً، فاستجابت لرغبتها وصدر فرمان سلطاني قضى بإعطاء ولاية مصر لمحمد علي وأسرته ويتبعها السودان، ويظل للسلطان الحق بتعيين من يشاء من أسرة محمد علي، ويظل الوالي المصري خاضعاً للسلطان ويتقيّد بالسياسة العثمانية.

أما الأمير بشير، فقد اتصل به رسلٌ من الإنكليز ومن السلطنة العثمانية منذ بداية الثورة، وطلبوا إليه أن يعلن الثورة على المصريين، فرفض. وبعد ما حدث قرّر الاستقالة، فتوجه إلى صيدا مع حاشية بلغت ١١٤ شخصاً، وقابل قائد الأسطول الإنكليزي، واستسلم للإنكليز، فنقلوه إلى جزيرة مالطا وكانت مستعمرة إنكليزية. ووضعوا تحت تصرفه قصراً فخماً تحيط به حدائق واسعة. وقد ذكر رستم باز مرافق الأمير ومؤرخ أخبار المنفى «إن أهل مالطا بالغوا بتكريم الأمير وصحبه وهم يتكلمون لغة عربية مكسرة وأصلهم من لبنان، ذهبوا أثناء الحروب الصليبية إلى قبرص ومنها إلى مالطا».

بعد أن أقام الأمير في مالطا، تلقى فرماناً من السلطان يمنحه العفو، ويسمح له أن يقيم حيث يشاء في السلطنة، لكن خارج لبنان. فانتقل إلى اسطنبول، وغضب منه الإنكليز لأنه ترك مالطا. وعاش في المنفى حتى وفاته في آخر كانون الأول من سنة ١٨٥٠ وجرى دفنه في كنيسة الأرمن الكاثوليك. ونقلت الحكومة اللبنانية رفاته إلى لبنان سنة ١٩٤٧.

رستم باز يصف جنازة الأمير بشير في اسطنبول

«وصل البابور... نظرنا إلى البر وفيه خلق كبير لا يحصيهم غير الله. وقدر خمسماية وجوه الطايفة وكل واحد قابض بيده فند شمع لا يقل وزنه عن أقة لهو (له) ثلاث فتايل فحضر (القوايق) للبابور وأنزلتنا مع التابوة.

ولما وطئنا البر أعطوا كل واحد منا فند شمع وربطوا.
وتقدم ثمانية أنفار لابسين قمصان سود عرضه تلاتت
أصابع ولهو سجق مثل الشريط. وحملوا التابوت.
ومشى حسون لا بس حلت الكهنوت، وستت كهنة
لابسون مثله وباقي الأكليروس بلا بدلات. فمشوا قدام
التابوت يتقدمهم الصليب، وقدامه فرقة عسكر شاهاني
وعلى كل جهة عشرة قواسي بجانب التابوت. وأوقدوا
الشموع ومشوا بترتيب. وبعد نصف ساعة بلغنا

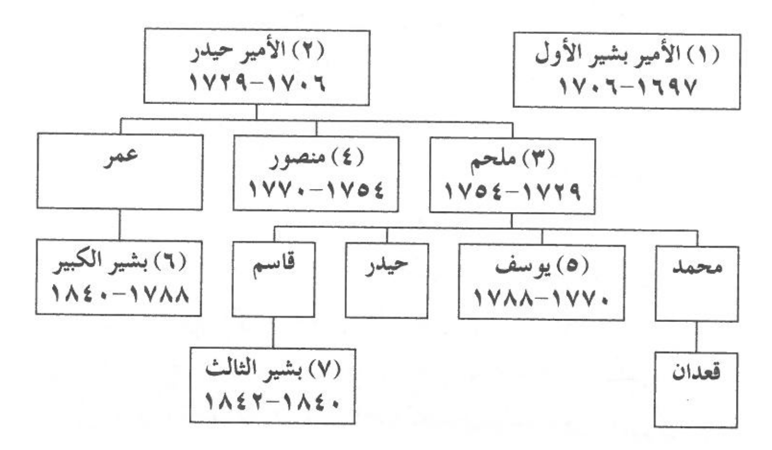
ألبسة من عهد الإمارة

الكنيسة. والمسافت لا أكثر من خمس دقايق، فوجدنا
في نصف الكنيسة مرتبت تكون علو قامة الإنسان،
ومجلجلة بشلاح أسود مخمل وشريط متل غطا
التابوت. فوضعوا التابوت فوق هذه المرتبت وقامة
الصلاة الساعة تسعة من النهار الذي هو يوم الثلاثة أول
يوم كانون الثاني سنة ١٨٥١. فراحت الصلاة والجناز
ساعتين. وأحضروا معلمين بلاطين وثلاثت فعالي.
وأروهم محل القبر. وبلاط الكنيسة من الرخام الأبيض
الصقيل. وتركوا محل التابوت أكتر من خمسين فند
شمع موقدة وعزمونا إلى البطريك خانه وبالغوا في
إكرامنا. وعند الغروب دعينا للطعام. وكنا نحو أربعين
حيث كان موجود ناس من أوجه الطايفة. وبعد العشا
اجتمعنا في الصاليه وكانوا يقولون أنه من حين أخذة
اسطنبول (سقوط الآستانة بيد العثمانيين ١٤٥٣) لم
يجر دفن رجل مسيحي بهذه الهيئة».

رستم باز، مذكرات

منشورات الجامعة اللبنانية، ص ٨١

عهد الإمارة الشهابية في لبنان (١٦٩٧ - ١٨٤٢)
الأمراء الذين استلموا الحكم



السلاطين العثمانيون الذين عاصرهم الأمراء الشهابيون

السلطان	المدة
السلطان مصطفى الثاني	١٦٩٥ - ١٧٠٣
السلطان أحمد الثالث	١٧٠٣ - ١٧٣٠
السلطان محمود الأول	١٧٣٠ - ١٧٥٤
السلطان عثمان الثالث	١٧٥٤ - ١٧٥٧
السلطان مصطفى الثالث	١٧٥٧ - ١٧٧٤
السلطان عبد الحميد الأول	١٧٧٤ - ١٧٨٩
السلطان سليم الثالث	١٧٨٩ - ١٨٠٧
السلطان مصطفى الرابع	١٨٠٧ - ١٨٠٨
السلطان محمود الثاني	١٨٠٨ - ١٨٣٩
السلطان عبد المجيد	١٨٣٩ - ١٨٦١

عهـد الفتـن في لبنـان
١٨٤٠ - ١٨٦٠

نهاية حكم الشهابيين وزوال نظام الإمارة

انتهى عهد بشير الثاني، وبنهاية الحكم القوي، بدأت الفوضى في لبنان، واستمرت متقطعة حتى انفجرت بعنف سنة ١٨٦٠، فتدخلت الدول وعقدت مؤتمراً دولياً في بيروت لحل القضية اللبنانية.

أرادت الدولة العثمانية إنهاء عهد الإمارة في لبنان خوفاً من امتداد الفكرة الاستقلالية إلى أجزاء السلطنة في الشرق انطلاقاً من لبنان. فنقلت مركز والي صيدا إلى بيروت نظراً لتزايد أهميتها. وعيّنت الأمير بشير الثالث محلّ بشير الثاني في الحكم، وكان ضعيفاً وقليل الخبرة السياسية وليست له شعبية. فيما كانت المشاكل معقدة في لبنان تحتاج حكماً قوياً. فإن التناقضات والخلافات التي كبتها الأمير بشير برزت كلها من جديد، فقد دبّ الخلاف بين الإقطاعية وعامة الشعب، إذ طالب الفلاحون

بتخفيف قيود الإقطاعيين، كذلك دب الخلاف بين الإقطاعيين والأمير الحاكم، واحتدم الصراع بين الطوائف، واستغلّت الدولة العثمانية والدول الأوروبية الوضع وتدخلت في شؤون لبنان، وكلٌّ دولة تبحث عن مصالحها وتزيد من حدّة المشاكل.

من جهة ثانية رجع إلى البلاد الإقطاعيون والزعماء الدروز الذين نفاهم بشير الثاني، وطالبوا باسترجاع امتيازاتهم وأملاكهم، ولم يحسن الأمير بشير الثالث استقبالهم، ولم يتمكن من إخضاعهم، فناصبوه العداء، كما اختلفوا مع الفلاحين ومعظمهم من المسيحيين، كذلك كان بشير الثالث مسيحياً، فاتخذ الخلاف شكلاً طائفياً. وقع خلاف في تشرين الأول سنة ١٨٤١ بين جماعة من دروز بعقلين ومسيحيي دير القمر بسبب صيد حجل، واتسع الخلاف وتحول إلى فتنة امتدت إلى قرى الشوف فجزين فالبقاع الغربي. فأرسل العثمانيون جيشاً إلى لبنان بقيادة مصطفى باشا، لكنه وسّع الخلاف بدل إيقافه، فوزع السلاح على المتقاتلين، وحرّضهم على التقاتل، ورأى بشير الثالث عجزه فذهب إلى بيروت، وقابل الوالي العثماني، وتنازل عن الإمارة، فنفاه إلى اسطنبول.

تجربة الوالي العثماني وفشلها: عمر باشا النمساوي ١٦ ك٢ - ١٦ ك١ ١٩٤٢

بعد نفي بشير الثالث، حاول العثمانيون إقناع اللبنانيين بالتخلّي عن الحكم الذاتي والالتحاق بالدولة العثمانية مباشرة، لأن ذلك يفتح أمامهم باب العمل في جميع أنحاء السلطنة. وأفهموهم صراحة

أنهم لن يقبلوا بعد اليوم بحاكم مسيحي على لبنان. وعيّن العثمانيون حاكماً عثمانياً اسمه عمر باشا النمساوي، هو نمساوي أرثوذكسي لجأ إلى السلطنة، واعتنق الإسلام، ودخل الجيش وأخلص للسلطان فنال مرتبة عالية. عمل منذ وصوله إلى لبنان على إضعاف الروح الاستقلالية والقضاء على امتيازات لبنان، وحاول إقناع اللبنانيين بالقبول بحكمه، وحثّهم على كتابة العرائض المؤيدة له وإرسالها إلى اسطنبول. وقرّب منه عدداً من رجال الإقطاع.

لكن عقلاء اللبنانيين عارضوا سياسته، وطالبوا بعودة الحكم الوطني، وأكدوا أنهم لا يقبلون إلا بحاكم من لبنان. ردّ عمر باشا بإثارة الخلافات الطائفية، والتحريض بين المسيحيين والدروز، لكنه لم ينجح. ألقى القبض على عدد من زعماء الدروز، لكنه لم يجد بين الدروز من يتعاون معه. واتفق اللبنانيون جميعاً وثاروا ضد عمر باشا، واشتعلت الثورة في كل أنحاء لبنان. فأرسلت الدولة وفداً جديداً يستطلع آراء اللبنانيين، فأفهموه بصراحة أنهم لا يقبلون عليهم حاكماً غريباً. فنزلت الدولة عند طلبهم، وعزلت عمر باشا، لكنها لم تُرجع الحكم الوطني، بل طرحت القضية اللبنانية على بساط البحث لإيجاد نظام جديد.

نظام القائمقاميتين ١٨٤٢ - ١٨٦٠

اختلفت مواقف الدول حول مستقبل لبنان، وتضاربت الآراء. فقال العثمانيون أن اللبنانيين عاجزون عن الحكم الذاتي وممارسة الاستقلال، وأن الأمور لا تستقيم في لبنان إلا إذا انضم

للسلطنة العثمانية وأدارت الحكم فيه بصورة مباشرة. أما فرنسة فرأت أن الحلّ هو في استمرار الحكم الذاتي وعودة الشهابيين إلى الحكم، وقالت إنكلترة بتقسيم لبنان إلى خمس مناطق، لكل منها استقلال ذاتي، وذلك حسب الطوائف الكبرى أي الموارنة والأرثوذكس والدروز والسنّة والشيعة. واقترح مترنيخ مستشار النمسا حلاً وسطاً يقضي بتقسيم لبنان إلى قسمين أو قائمقاميتين بين المسيحيين والدروز. فوافقت السلطنة العثمانية والدول الأوروبية على هذا الاقتراح، وجرى وضع النظام الجديد موضع التجربة. وهكذا، انقسم لبنان إلى قسمين تفصل بينهما طريق بيروت ضهر البيدر دمشق، وهما كما يلي:

القائمقامية المسيحية أو الشمالية

تمتدّ من طريق بيروت دمشق جنوباً حتى النهر البارد شمالاً، قاعدتها بكفيا، تدفع سنوياً للسلطنة ألفي كيس، والكيس ٥٠٠ قرش. يحكمها قائمقام مسيحي. وقد توالى في حكمها القائمقامون الأمير حيدر أبي اللمع (١٨٤٢ – ١٨٥٤)، الأمير بشير أبي اللمع (١٨٥٤ – ١٨٥٨)، الأمير حيدر أبي اللمع ثانية (١٨٥٨ – ١٨٦٠)، يوسف بك كرم ١٨٦٠.

القائمقامية الدرزية أو الجنوبية

تمتدّ من طريق بيروت دمشق شمالاً حتى جبل الريحان جنوباً. قاعدتها بعقلين، تدفع سنوياً ١٥٠٠ كيس للسلطنة، يحكمها قائمقام درزي، وتوالى في حكمها كلٌ من الأمير أحمد أرسلان ١٨٤٢ – ١٨٤٥، الأمير أمين أرسلان ١٨٤٥ – ١٨٥٨، الأمير محمد أرسلان ١٨٥٨ – ١٨٦٠.

كان نظام القائمقاميتين ضعيفاً، ويحمل في داخله أسباب الخلاف. فإن القائمقام يرجع إلى والي صيدا، فصلاحياته محدودة وليس له جيش لفرض السلطة. وكان القائمقامون إجمالاً بدون شعبية، وتنقصهم الخبرة السياسية. في حين برزت مشاكل اجتماعية وسياسية معقدة تحتاج إلى حاكم قوي، عنده الخبرة السياسية وبعد النظر. برزت مشاكل الصراع بين عامة الشعب والإقطاعية، وقد اتخذ الصراع شكلاً طائفياً. كذلك زاد توزّع السكان واختلاطهم المشلكة تعقيداً، فإن نسبة من السكان الدروز كانت تعيش في القائمقامية المسيحية، كذلك كانت نسبة مرتفعة من المسيحيين تعيش في القائمقامية الدرزية، وكانت الإشاعات كثيرة، فإذا سمع أهل القائمقامية أن أحداً من أبناء دينهم تعرّض لمكروه في القائمقامية الثانية انتقموا من المواطنين الموجودين بينهم. بالإضافة إلى هذا الواقع السكاني كان في القائمقامية الدرزية قرى مسيحية بكامل سكانها أو بمعظمهم مثل دير القمر وحاصبيا وراشيا وقد تكلّف والي صيدا بإدارتها.

وفوق كل هذه المصاعب، جاءت السياسة الدولية، وتداخلت مصالحها. فكانت كل من الدول الكبرى لها مطامعها، وتتدخل في شؤون البلاد، مما زاد الوضع تعقيداً.

تداخل السياسة الدولية

منذ حركة علي بك الكبير في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وحملة نابليون بونابرت على مصر، تفتحت عيون الدول الأوروبية على الشرق، فاهتمت بأسواقه التجارية وبموقعه

الجغرافي، واستفادت من ضعف السلطنة العثمانية فانتزعت منها الامتيازات، وتدخلت بشؤونها فتلاحقت سلسلة أزمات أطلق عليها المؤرخون اسم المسألة الشرقية. وظلّ لبنان، لمدة من الزمن، ساحة الصراع بين الدول. نوجز الوضع بما يأتي:

إن السلطنة العثمانية خافت من أن يحقق لبنان استقلاله الكامل فتسعى المناطق المجاورة لتحقق استقلالها، لذا عملت لضم لبنان نهائياً إلى السلطنة، فشجّعت الخلافات بين اللبنانيين حتى تقول للعالم إن اللبنانيين عاجزون عن حكم أنفسهم، ولا تستقر الأمور في لبنان إلا إذا حكمه العثمانيون مباشرة.

أما روسية فكانت تسعى للوصول إلى المياه الدافئة أي إلى البحر المتوسط، فخاضت حروباً طويلة ضد السلطنة، وحصلت في معاهدة فينرجي سنة ١٧٧٤ على حقّ حماية الأرثوذكس في أنحاء السلطنة.

وكان لفرنسا مطامع منذ حملة نابليون بونابرت، بل حصلت على امتيازات في السلطنة منذ القرن السادس عشر، وأصبحت لها مصالح سياسية واقتصادية وثقافية في أنحاء السلطنة. وتعاطفت مع الكاثوليك وأعلنت حمايتها لهم ومنهم الموارنة في لبنان.

وسيطرت بريطانيا العظمى على أمبراطورية واسعة، وكانت تحرص على تأمين طريق إلى الهند، فأرسلت لجنة (سنة ١٨٣٤) أي قبل حفر قناة السويس، درست إمكان اعتماد طريق من طرابلس في لبنان إلى حلب فنهر الفرات فالخليج العربي ومنه إلى الهند، واهتمت بسياسة لبنان، وقررت أن تقف في وجه فرنسا

وروسية، سعت لاستمالة الموارنة ولما لم يتجاوبوا معها تقربت من الدروز في لبنان وعرضت عليهم المساعدة.

أما النمسا فتقربت من الكاثوليك لكن دورها ظل محدوداً في شرقي المتوسط وقد وجهت معظم اهتمامها إلى منطقة البلقان. أما ألمانيا وإيطاليا فقد تدخلتا في المنطقة بعد أن تمت الوحدة في كل منهما سنة ١٨٧٠.

الفتنة الطائفية ١٨٤٥ (ترتيبات شكيب أفندي)

ظل الوضع مضطرباً والأفكار قلقة، وكان نظام الحكم ضعيفاً فلا يستطيع القائمقام مواجهة الصعوبات المتراكمة. كان والي صيدا يتدخل في شؤون لبنان ويشجع على الفتنة، وتعددت الحوادث وكثرت الإشاعات، فإذا تعرض درزي لضغط في قائمقامية الشمال ردّ الدروز بضغط على المسيحيين في قائمقاميتهم، كذلك يفعل المسيحيون في قائمقاميتهم إذا تعرض مسيحي لضغط في قائمقامية الجنوب، وكان للدول الأجنبية دورُها: ففرنسا تشجع الموارنة، وإنكلترة تشجع الدروز، حتى انفجرت الأزمة في أواخر نيسان من سنة ١٨٤٥ عندما وقع خلاف بين جماعة من نصارى الدامور وجماعة من الدروز، فامتدّ الخلاف بسرعة إلى أنحاء الجبل. ووقعت أحداث مؤسفة في مناطق عدّة من الشوف وجزين والمتن وزحلة والبقاع الغربي. فخرّب المقاتلون عدداً من البيوت وقطعوا الأشجار وخربوا المزارع وأحرقوا الزرع. واشترك الجيش العثماني في نشر الفوضى.

ثارت ثائرة قناصل الدول، ووصلت الأخبار إلى أوروبة. فتحركت حكوماتها، ووجهت رسائل التهديد إلى السلطنة، التي أرسلت إلى لبنان وزير خارجيتها شكيب أفندي، وفرقة من الجيش العثماني، وصل إلى لبنان في آخر أيلول فألقى القبض على عدد من الذين اعتبرهم مسؤولين عن الحوادث، وألقى بهم في السجون، وعزل القائمقام أحمد أرسلان وعيّن مكانه أخاه أميناً، وأمر بجمع السلاح، كما فرض على الرعايا الأوروبيين أن ينزحوا عن الجبل ويقيموا في بيروت.

ثم نقّح نظام القائمقامية فأنشأ في كل قائمقامية مجلساً من عامة الشعب تتمثل فيه الطوائف اللبنانية الست أي الموارنة والدروز والسنّة والأرثوذكس والشيعة والروم الكاثوليك، يتألف المجلس من مستشارين وقضاة، وهو يدرس ميزانية البلاد وتوزيع الضرائب. وينظر القضاة في الدعاوي ويفصلون فيها، وإذا وقع خلاف بينهم يرجعون إلى والي صيدا.

لكن المجلس هذا لم يحلّ المشكلة، بل زادها تعقيداً، فإن والي صيدا كان يعيّن الأعضاء ويعزلهم متى يشاء، فأصبح المجلس بتصرفه، كذلك احتج الإقطاعيون واعتبروا تشكيل المجلس من عامة الشعب تحدياً لهم، فدبّ الخلاف بين الإقطاعية وعامة الشعب.

أثر السياسة الدولية على السلطنة بصورة عامة وعلى لبنان بصورة خاصة

منذ حملة نابوليون بونابرت على الشرق بدأت في السلطنة حركة

تدعو إلى الإصلاح على الطريقة الأوروبية. لكن القوى الرجعية المحافظة كانت تحبط مساعي الإصلاح.

وتواصلت مطامع الدول في السلطنة، وتصارعها بسبب هذه المطامع، ونذكر من هذا «حرب القرم»، فقد حاول الروس في عهد القيصر نقولا الأول (١٨٢٥ – ١٨٥٥) حماية الأماكن المقدسة في القدس، وحماية الأرثوذكس في أنحاء السلطنة، وأعلن القيصر الحرب على العثمانيين. لكن فرنسة وإنكلترة قدّمتا المساعدة للسلطان وأرسلتا حملة عسكرية ضد الروس، ووصل القتال إلى منطقة القرم شمال البحر الأسود واستمر من سنة ١٨٥٤ حتى وفاة نقولا الأول ١٨٥٥ فخلفه ابنه إسكندر الثاني وطلب وقف القتال.

وانعقد مؤتمر دولي في باريس سنة ١٨٥٦ حيث جرى درس عدد من المشاكل الأوروبية والبلقانية. أما فيما خص السلطنة، فتعهدت الدول بالمحافظة على كيانها، وعدم التدخل في شؤونها الداخلية، وكانت فرنسة تحرص على إصلاح السلطنة حتى تقف في وجه مطامع الروس، فطلبت إلى السلطان وضع دستور وإجراء إصلاحات. فأصدر «خطاً هميونيا» أو الفرمان السلطاني ويقضي بالاعتراف بالإصلاحات. ويعلن المساواة التامة في جميع أنحاء السلطنة بين الطبقات الاجتماعية، وبين الطوائف والمذاهب. هذا يعني مساواة الفلاحين بالإقطاعيين، وجعل المسيحيين مواطنين متساوين مع المسلمين. لكن القوى الرجعية عارضت مشروع الإصلاحات، حتى تظل القرارات حبراً على ورق. كل ذلك أثّر على لبنان من الوجهتين الاجتماعية والطائفية في ثورة كسروان وفي فتنة سنة ١٨٦٠.

ثورة كسروان الاجتماعية – السياسية ١٨٥٨
(أو حركة طانيوس شاهين)

كانت الإقطاعية تتمتع بامتيازات كثيرة على حساب عامة الشعب. وكان الفلاحون لا يلبثون يطالبون بالإنصاف وبرفع مظالم الإقطاعيين. واحتدم الصراع بين الفلاحين والإقطاعيين بعد تشكيل المجالس الاستشارية والبلدية خلال تنظيمات شكيب أفندي (١٨٤٥) وتزايد الوعي عند الفلاحين فقد وصلتهم أخبار الثورة الفرنسية الكبرى، واطلعوا على حركات التحرر والوعي في أوروبا. وساهم رجال الدين الموارنة بنشر الوعي ومعظمهم من عامة الشعب، ومنهم من تعلّم في روما واطلع على تاريخ أوروبا بما فيه ثورات سنة ١٨٤٨ ذات الطابع الاجتماعي الاشتراكي والجمهوري، كذلك ألحّ الفلاحون على تطبيق فرمان السلطان الذي أعلن فيه المساواة خلال مؤتمر باريس ١٨٥٦. بدأت الحركة في كسروان، فقد أنشأ الفلاحون جمعيات سريّة أطلقوا عليها اسم «جمعيات الشباب»، على كل منها قائد سمّوه «شيخ الشباب» واجتمع مشايخ الشباب وانتخبوا قائداً أعلى هو صالح جرجس صفير من ريفون. فاوض صالح آل الخازن إقطاعيي كسروان ولم يصل إلى نتيجة فاستقال. فاختار الفلاحون قائداً جديداً من ريفون اسمه طانيوس شاهين سعادة، قوي الشخصية يحسن القيادة. فطاف على القرى يشدّد عزائم الفلاحين ويلقى استقبالات حماسية. فاوض الإقطاعيين، ولم يصل إلى نتيجة. فراح الفلاحون يتحدّون الإقطاعيين، ثم سيطروا على الأرزاق والبيوت، وامتدت الحركة إلى معظم قرى كسروان وهرب مشايخ آل الخازن من بيوتهم.

استلم «شيوخ الشباب» إدارة القرى، وأصدر طانيوس شاهين بلاغات باسم الجمهورية اللبنانية. ودعا الفلاحين إلى الهدوء وعدم إراقة الدماء.

كانت هذه الحركة مثلثة الغايات: دعت إلى إقامة الجمهورية أي إيجاد حلّ لمشكلة نظام الحكم. وإلى تطبيق المساواة وإزالة الفوارق الاجتماعية. وإلى تحسين الاقتصاد بتوزيع الملكيات الكبرى لمعالجة الفقر الذي يعاني منه معظم الناس.

كان الوالي العثماني خورشيد باشا مقيماً في بيروت، ويراقب أحداث كسروان ويشجّع على التقاتل، وأرسل فرقة من ١٥٠٠ جندي، وأوعز إلى طانيوس شاهين حتى يطالب بضم كسروان إلى الولايات العثمانية. خاف البطريرك الماروني من مضاعفة الحركة، فاتصل بالقنصل الفرنسي حتى طلب إلى خورشيد باشا سحب الجيش من كسروان والكفّ عن التدخل. ومن جهة ثانية تواسط البطريرك فأصلح الخلاف بين الفلاحين وآل الخازن فرجعوا إلى بيوتهم وتصالحوا مع الفلاحين. وتحسنت العلاقات بين الفريقين.

فتنة ١٨٦٠ الطائفية

ظلت الأحداث تتفاعل، والتعصب الطائفي يتصاعد وأسباب الخلاف تتزايد، حتى انفجرت فتنة طائفية بشعة في ربيع ١٨٦٠. إن المسلمين امتعضوا من فرمان السلطان ومشروع سنة ١٨٥٦

الإصلاحي، واعتبروا مساواة المسيحيين بهم مسّاً بامتيازاتهم. أما المسيحيون فقد ألحّوا على تطبيق الفرمان، وقد تأثروا بأخبار أوروبا وبشعارات الثورة الفرنسية: المساواة والحرية والأخوّة Egalité Liberté Fraternité. في كسروان اتخذ الصراع من أجل المساواة شكلاً اجتماعياً لأن الفلاحين والإقطاعيين كانوا من المسيحيين، أما في الشوف حيث المسيحيون والدروز كانت معظم الملكيات للدروز، ومعظم المسيحيين في الشوف من الفلاحين وأصحاب المهن والأعمال، فقد اتخذ الصراع صبغة طائفية. واستغلّت الدول وضع لبنان، فشجعت السلطنة على الفتنة في لبنان حتى تفرض حكماً عثمانياً مباشراً، وأذكت الدول الأوروبية الخلافات ولكل دولة مطامعها. وكان نظام الحكم في لبنان ضعيفاً، وموزعاً بين القائمقاميتين، فلم يتمكن من مواجهة المؤامرات حتى وقعت الفتنة.

حدثت أعمال التحدي والاغتيالات، حتى انفجرت الأزمة منذ نيسان ١٨٦٠ بسبب خلاف ولدين في بيت مري أحدهما مسيحي والآخر درزي. فاختلف الأهل، فأبناء القرية. وبسرعة، امتد الخلاف إلى قرى المتن والشوف والساحل والبقاع وإلى فلسطين ودمشق. وتدخل الأتراك لإذكاء نار الفتنة، فحملوا السنّة والشيعة على الوقوف بجانب الدروز، ووزعوا أسلحة وذخائر على المتقاتلين. وشجعوا دروز حوران على الزحف إلى لبنان لمساعدة إخوانهم دروز لبنان. وفوق هذا شارك الجيش العثماني بالقتال ضد المسيحيين، وكانت مسؤولية العثمانيين واضحة في البلدات التي كانوا مسؤولين مباشرة عن إدارتها مثل دير القمر وحاصبيا وراشيا حيث نظّم الجيش العثماني مذابح بشعة ضد

المسيحيين خاصة في دير القمر. أما زحلة فقد شارك دروز حوران بمهاجمتها بمساعدة الجيش العثماني.

هذا وكان المسيحيون لا يلبثون منشقّين منذ حوادث سنة ١٨٥٨، فلم يتوصلوا إلى توحيد قيادتهم بيد واحدة. وقد حاول مسيحيو الشمال مساعدة إخوانهم في الشوف وفي زحلة فتقدم كل من طانيوس شاهين سعادة ويوسف بك كرم بجماعة من رجالهما. لكن السلطات العثمانية حالت دون وصولهما إلى أماكن القتال.

كيف هدأت الحال

احتج قناصل الدول، ووصلت أخبار الأحداث إلى أوروبة. وهبّت السياسة الفرنسية تبيّن أن هذه الحركة هي «حرب افناء» تشنّها السلطنة العثمانية على المسيحيين في الشرق. لكن الإنكليز وصفوها بالصراع الطائفي، وقالوا إنها صراع داخلي لا يستدعي تدخل أوروبة. لكن أحداثاً دامية وقعت في دمشق ليل ٩ – ١٠ تموز. فقد شنّ المسلمون هجوماً واسعاً على المسيحيين بتشجيع الوالي العثماني أحمد باشا وبمساعدة الجيش. وقُتل ألوفُ المسيحيين. وقام الزعيم عبد القادر الجزائري الذي نفته السلطات الفرنسية، واختار دمشق منفى له، قام بدور إنساني نبيل حيث حمى ألوف المسيحيين وخلّصهم من الموت. واستحقّ شكر الدول الكبرى وجاءته الأوسمة. نذكر منها وساماً من الأمبراطور الفرنسي نابوليون الثالث وآخر من الرئيس الأميركي أبراهام لنكولن.

تجاه تطور الأحداث، احتج الرأي العام الأوروبي بشدة، خاصة في فرنسة، وألحّ على الحكومات بالتدخل لحماية المسيحيين

ذكرى الحملة الفرنسية على صخور نهر الكلب

في الشرق. لكن الدول كانت قد اتفقت في مؤتمر باريس سنة ١٨٥٦ على عدم التدخل في شؤون السلطنة الداخلية. لكن فرنسا اعتبرت أن السلطان أخلّ بتعهداته فلم يحقق الإصلاح، وعجز عن فرض المساواة وعن حماية المسيحيين، لذا أصبح تدخل الدول الأوروبية واجباً. وكان الأمبراطور الفرنسي نابليون الثالث يريد إرضاء الكاثوليك وتأمين مصلحة بلاده في الشرق، فكلّف وزير خارجيته بالعمل السريع وإبلاغ الدول الكبرى بضرورة التدخل. ثم دعا إلى مؤتمر في باريس، انعقد في ٣ آب ١٨٦٠ حضره مندوبو الدول الكبرى فرنسة، إنكلترة، النمسة، روسية، بروسية. وتقرر إرسال حملة أوروبية. وحرصت إنكلترة أن تحدّ من أهمية الدور الفرنسي، فاشترطت

أن تكون الحملة بإسم الدول الأوروبية، وتتألف من ١٢ ألف جندي تقدّم فرنسة على نفقتها، دفعة أولى من ٦ آلاف جندي تكون مدة إقامتها ستة أشهر قابلة للتجديد. ويمكن زيادة الحملة إذا دعت الحاجة.

أبحرت قطع من الأسطولين الفرنسي والإنكليزي إلى المياه اللبنانية، ونزل إلى شاطئ بيروت ستة آلاف جندي فرنسي بقيادة الجنرال بوفور ده هوتبول، وكان يعرف الشرق وقد شارك في حروب محمد علي.



أرسلت السلطنة العثمانية وزير خارجيتها فؤاد باشا، استبق وصول الحملة الفرنسية، أوقف القتال، وألقى القبض على عدد من الموظفين العثمانيين والقادة العسكريين والزعماء الذين اعتبرهم مسؤولين، وأصدر أحكاماً قاسية بحقّهم، فأمر بإعدام ١١١ ضابطاً و٥٣ مدنياً. ووضع المئات في السجون، وسهّل لعدد كبير من المشاركين بالأحداث حتى غادروا البلاد، ثم أذاع أن جيش دول حليفة – هي فرنسة وإنكلترة – قادم إلى لبنان لمساعدة جيش السلطان على إعادة الأمن. ثم حضر إلى بيروت واستقبل الجيش الفرنسي، واتفق مع القائد الفرنسي ده هوتبول على تقاسم المهمات لإعادة النظام. بالواقع عاد الأمن ولم تقم الحملة الفرنسية بعمل عسكري فتحولت إلى النشاط الاجتماعي لمساعدة المحتاجين، والمرضى، وإعادة ترميم البيوت وتأمين المساكن والبلاد على أبواب الشتاء. ووصلت مساعدات من الشعب الفرنسي، وتشكلت لجان من الفرنسيين للسهر على سلامة توزيع المساعدات.

نص الرسالة التي نشرها فؤاد باشا على الجنود الأتراك بتاريخ ٨ آب ١٨٦٠ م

أيها الرفقاء: «إن بعض الجنود الفرنسوية والإنكليزية ستصل قريباً إلى هذه البلاد لأن دول أوروبا لرغبتهن المتواصلة في أن تستمر بلادنا متمتعة بالراحة قد شئن أن يساعدننا على قمع الاضطرابات التي حدثت في هذه البلاد فقبلت الحكومة السنّية مساعدتهن إظهاراً لثقتها بحليفاتها. وغير خافٍ عنكم أن هذه الجنود تخصّ ذات الدول التي عضدتنا بكل قواها في عهد سابق فعليكم أن تقوموا بواجب الإخاء نحوها فأنتم في بلادكم وهي في صيانتكم، فاعملوا بواجبات الضيافة خدمة لنيّأت جلالة متبوعنا الأعظم المنصرفة إلى العدل وعملاً لانقيادكم العسكري واحترامكم نظام الجندية وشرفها ونرى أنكم بغنى عن كل مساعدة على معاقبة سافكي دماء المسيحيين مواطنيكم مثلنا والاقتصاص من الجناة باسم الإنسانية».

عن كتاب تنوير الأذهان في تاريخ لبنان، لإبرهيم بك الأسود

كيف كان يعيش الدروز والمسيحيون قبل الفتن

«لم يكن فيما مضى ما بين الدروز والنصارى في لبنان ما كان بينهم منذ سنة ١٨٠٠ مسيحية من الشقاق والنفور، بل كانت الطائفتان محبة إحداهما الأخرى آنسة إليها بعبارة أخرى كانت الجماعتان كجماعة واحدة تعملان

على وتيرة واحدة غير متباينتين إلا في قاعدة الدين واليقين. وكنت أيامئذٍ ترى الدرزي والنصراني يقاتلان تحت علم واحد ويحاربان بغية عاقبة واحدة غير أن الدروز كانت بأيديهم معظم قوة الجبل وعلى ملكهم كانت جارية أكثر أراضيه وضياعه ودساكره، وقد كان في الإمارة اللبنانية على عهد الشيخ بشير جنبلاط أربعون ألف محارب من الدروز منهم عشرة آلاف خيالة. أما النصارى الذين توطنوا بينهم في القسم الجنوبي فقد استقدموا نحلة بعد نحلة من قسمه الشمالي (وردت في النص الجنوبي) في العصر الخوالي وتفرقوا في كل قرية وناحية منه لأجل معاطاة المهن والحرف وحراثة الأرض وزراعتها إذ كان الدروز لا يميلون إلى هذه الأمور مترفعين عن تعاطيها غير معتبرين إلا ركوب الخيل واتقان الفراسة على ظهورها وإجادة الرمي بالرصاص والضرب بالحسام إلى غير ذلك من ضروب الشجاعة والفروسية وقد كانوا مهملين أمر العلم إهمالاً كلياً فقلما نجد فيهم من يحسن القراءة والكتابة وإنما كانوا يتباهون بمسألة الجود والكرم ويتنافسون في إكرام الضيوف وقراهم، لذا كنت ترى الدرزي يحسن معاملة النصراني ويهش ويبش في وجهه أينما رآه. والنصراني يحترم الدرزي ويستجير به إن حادث عراه. وإنما كان النزاع العام في الجبل ما بين الحزبين المتباينين في مصدر الدم ومشتق السلالة نزاع شريف، لا بين الحزبين المتباينين في المذهب والاعتقاد، وهذه خصومة خسيسة».

عن كتاب الحركات في لبنان

حسين غضبان ويوسف خطار أبو شقرا

عهـد المتصرفيـة

الحل السياسي

البروتوكول والمتصرفية ١٨٦١ - ١٩١٨: توقف القتال، وانتهى العمل العسكري، وبرزت الحاجة إلى مساعدة المحتاجين، ومعالجة الجرحى والمرضى، وترميم البيوت وإعادة المهجّرين... كذلك أصبح لا بدّ من عمل سياسي لإيجاد حل سياسي والتوصل إلى صيغة تؤمن سلامة اللبنانيين. فانعقد لهذه الغاية مؤتمر دولي في بيروت حضره مندوبون من الدول الكبرى: فرنسة، إنكلترة، روسية، النمسة، بروسية، والسلطنة العثمانية. وبعد مشادات عنيفة، لا سيما بين المندوبين الفرنسي بكلار والإنكليزي اللورد دوفرين، ودهاء المندوب العثماني فؤاد باشا، توصل المجتمعون إلى وضع مشروع نظام جديد للبنان عُرف «بالبروتوكول Protocole». ثم انتقل المجتمعون إلى اسطنبول، اعترافاً بسلطة السلطان العثماني على لبنان، وتم إقرار البروتوكول وتألف من مقدمة وسبع عشرة مادة. بموجبه نشأ نظام المتصرفية، فتقلّصت مساحة لبنان إلى ٣٥٠٠

كلم٢ وعُرف بلبنان الصغير، بعد أن جرى سلخُ مناطق عكار وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وجبل عامل والبقاع. أما المتصرفية فقضى البروتوكول بتقسيمها إلى سبعة أقضية هي الشوف والمتن وكسروان والبترون والكورة وجزين وزحلة بالإضافة إلى مديرية دير القمر. وظلّت منطقة الهرمل تتبع قضاء البترون. وتقرر تقسيم كل قضاء إلى عدد من النواحي فالقرى. وتقرر أن يصبح الحاكم مسيحياً عثمانياً، كما تقرر تشكيل مجلس إدارة، بمثابة مجلس نيابي، ينتخبه اللبنانيون ويمثّل الطوائف، وتشكيل قوى أمن لبنانية (الدرك) أو الضابطية وتنظيم المحاكم والضرائب والميزانية. ويظل اللبنانيون يرفعون العلم العثماني ويتعاملون بالعملة العثمانية، وتُشرف الدول الأوروبية المجتمعة في بيروت على تطبيق البروتوكول. وسيستمر نظام المتصرفية حتى سنة ١٩١٨.

نظام جبل لبنان القديم
(البروتوكول كما وضع سنة ١٨٦١)

قد عرف الجميع مقدار درجة التأسف والتأثر الذين ألماً في قلبي الملوكي نظراً إلى وقوعات جبل لبنان المكدرة ولما كانت أخص أفكاري الملوكية منطوية على أمنية ورفاهية جميع صفوف رعيتي الساكنين في نواحي ممالك دولتي العلية المحروسة والنتيجة الطبيعية لذلك هي تأمين راحة أهالي الجبل المذكور كما ينبغي ورفع مؤلم أثار الوقايع المحررة وإمحاؤها الأمر الملتزم جداً وكان حصول ذلك منوط بتعديل النظامات الموجودة

وقبحها فاقتضي بيان النظامات التي قر قرارها بهذا الخصوص على الوجه الآتي أدناه.

المادة الأولى (المتصرف)

ينبغي يكون ادارة جبل لبنان في عهدة متصرف مسيحي منصوب من طرف الدولة العلية ومربوط رأساً في الباب العالي وهذا المتصرف يكون قابل العزل يعني لا يكون ما دامه في قيد الحياة ويكون حامل جميع وظايف الإجرائية ناظراً على حفظ النظام والراحة في جميع جهات الجبل وتحصيل التكاليف وينصب تحت مسؤوليته مأموري الإدارة المحلية ويرتب إقامة الحكام ويوفي جمع المجلس الكبير ورياسته ويجري تلك الإعلامات القانونية المعطاة من طرف المحاكم خارجاً عن القيود المدروجة في المادة التابعة وذلك بمقتضى المأذونية التي يأخذها من طرف الحضرة السلطانية ويجب أن يكون لدى المتصرف إلى كل من الإجراء الأصلية لأهالي الجبل وكيل منصب من طرف معتبري كل قوم وروسايه.

المادة الثانية (مجلس الإدارة)

ينبغي أن يرتب مجلس إدارة كبير لأجل جميع الجبل مركب من إثني عشر عضواً أعني اثنين من الإسلام واثنين موارنة واثنين دروز واثنين روم قتولك واثنين متاولة يكون هذا المجلس مأموراً بتوزيع التكاليف وبالتفتيش على إدارة واردات الجبل ومصاريفه وبإعطاء مطالعته على طريق الاستشارة في المسائل التي يعرضها عليه المتصرف.

المادة الثالثة (التقسيم الإداري)

ينبغي أن يقسم جبل لبنان إلى ست قضاوات القضا الأول مركب من الكورة ومن الأراضي المجاورة الكاين طرفها التحتاني وسكانها من مذهب الروم وذلك خارج قصبة القلمون الكاينة على ساحل البحر والتي أغلب أهاليها من أهل الإسلام والقضا الثاني مركب من قطعة شمالي لبنان حتى نهر الكلب ما عدا الكورة. والقضاء الثالث مركب من زحلة وتوابعها والقضاء الرابع مركب من المتن مع شموله على ساحل النصارى وأراضي قانا وصاليما والقضاء الخامس مركب من المحل الكاين في جنوبي طريق الشام حتى جزين والقضاء السادس مركب من جزين والتفاح وينبغي أن يتعين من طرف المتصرف لكل من القضاءات المذكورة مأمور إدارة منتخب من أبناء ذلك المذهب الغالبة نفوس أهاليه أو أهمية أملاكه وأراضيه على خلافه.

المادة الرابعة (المجالس المحلية)

ينبغي أن يكون في كل قضا مجلس محلي مركب من ثلاثة إلى ستة أعضاء موكل على الأقوام والملل المختلفة وعلى منافع الأراضي والأملاك وهذا المجلس الذي ينبغي عقده سنة فسنة تحت رياسة مدير القضا يستطيع أن يفعل ما كان في الدرجة الأولى من المواد الحقوقية السائدة إلى الإدارة وتسويتها واستماع مستدعيات الأهالي ويعرض على طريق الاستشارة معلوماته المقتضية فيما يتعلق بالنفوس والأملاك

والأموال لأجل توزيع المال من الأميري ضمن القضا ويبين أيضاً رأيه فيما يلاحظ كافة المواد المختصة في المنافع المحلية.

المادة الخامسة (تقسيم الأقضية)

يجب أن تنقسم القضوات على الوجه التقريبي إلى نواحي بالصورة المشابهة إلى الأقاليم السابقة وبقدر الممكن تكون هذه النواحي شاملة جنس واحد من الأهالي وهذه النواحي تنقسم إلى دائرات وكل دائرة منهم لا تكون أهاليها أقل من خمسماية شخص ويكون في كل ناحية مأمور منصوب من طرف المتصرف بإنهاء مدير القضا ويكون لكل دائرة شيخ منصوب من طرف المتصرف منتخباً من الأهالي وأما في الدائرات التي تكون أهاليها مختلطة فيكون لكل مذهب شيخ على حدة وهؤلاء المشايخ تكون حكومتهم جارية على أبناء مذهبهم فقط.

المادة السادسة (المساواة أمام القانون)

ينبغي أن الجميع يكونون متساوين بحضور القانون وأما جميع الامتيازات العائدة إلى أعيان البلاد ولا سيما إلى ذوي الإقطاع فهذه قد تقرر لغوها وفسخها.

المادة السابعة

ينبغي أن يكون في كل ناحية لكل مذهب حاكم للصلح ويكون في كل قضا مجلس محاكمة في الدرجة الأولى

من كل مذاهب الأهالي المختلفة وأعضاؤوه تكون من ثلاثة إلى ستة أنفار وينبغي أن يكون في مركز إدارة الحكومة مجلس محاكمة كبير مركب من إثني عشر عضواً من الستة المبينين في المادة الثانية ولدى ظهور دعواً لأحد المتمذهبين البروتستان واليهود فيضاف إذ ذاك على الإثني عشر عضواً المذكورين عضوان آخران من هذين المذهبين وأما مأمورية رياسة مجالس المحاكمة أيضاً ينبغي أن تدار من طرف الأعضاء مناوبة بشرط أن تتبدل مرة كل ثلاثة أشهر.

المادة الثامنة

ينبغي أن حكام الصلح يرون بلا استئناف الدعاوي الكائنة لحد خمسماية غرش وأما الدعاوي التي تكون فوق الخمسماية غرش فتكون رؤيتها راجعة إلى مجالس المحاكمة الذين في الدرجة الأولى وأما المصالح المختلفة أعني تلك الدعاوي المكونة من شخصين ليسا من مذهب واحد فإذا الطرفين ما قبلا حكم حاكم الصلح الذي هو من مذهب المدعى عليه فحينئذٍ مهما كان مبلغ هذه الدعاوي ينبغي أن تنقل حالاً إلى مجلس المحاكمة الكائن في الدرجة الأولى وجميع المصالح وإن كان يجب رؤيتها أساسياً من جميع الأعضاء وإنما يكون للمدعي والمدعى عليه استحقاق إذا كانا من مذهب واحد بعدم قبول الحاكم إذا كان من خلال مذهب فقط يجب أن الحكام الغير مقبولين يكونون حاضرين في المحاكمة.

المادة التاسعة

ينبغي أن تكون محاكمة مواد الجزاء على ثلاثة درجات الدرجة الأولى وهي القباحة أعني الأفعال والحركات التي تستلزم معاملة التكدير فهذه ترى من طرف حكام الصلح والجنح والجرائم أعني الأفعال التي تستلزم مجازاة التأديب فهذه أيضاً تجرى محاكمتها ورؤيتها في مجالس المحاكمة الكائنة في الدرجة الأولى وأما الجناية أعني الأفعال التي تستوجب مجازاة الترهيب تجري محاكمتها في مجلس المحاكمة الكبير والإعلامات التي يجب إعطاؤها من طرف هذا المجلس الكبير لا توضع في موقع الأجر ما لم تكمل معاملاتها ومراسمها المعتادة في جميع محلات الممالك المحروسة السلطانية.

المادة العاشرة

جميع الدعاوي المتعلقة في المواد التجارية ينبغي أن ترى في مجلس التجارة في بيروت وهكذا الدعاوي العادية الكاينة فيما بين أحد التبعة الأجنبية وبين أهالي الجبل فكذلك تصير رويتها بمعرف المجلس المذكور.

المادة الحادية عشر

ينبغي أن تتعيّن جميع أعضاء مجلس المحاكمة والإدارات بلا استثناء وحكام الصلح من طرف المتصرف عند انتخابهم من طرف رؤساء الجماعة المنسوبين إليهم لدى المذاكرة مع مندوبي الأهالي

ويجب أن أعضاء مجلس الإدارة يتجدد النصف منهم كل سنة والشخص الذي يكون خرج من الأعضايي يمكن انتخابه تكراراً إلى الأعضائية.

المادة الثانية عشر

ينبغي أن يكونوا جميع الحكام موظفين والذي منهم يظهر منه حركة ارتكاب أم تصرف لا يليق بصفة مامورية فيعزل ذلك الحاكم ويؤدب بحسب الذنب الذي يكون جناه وارتكبه.

المادة الثالثة عشر

ينبغي أن المرافعة أن تكون علنية في جميع مجالس المحاكمة وينبغي أن يصير ضبط الدعوى بمعرفة كانت مخصوص وبما أن هذا الكتاب ما عدا والكل يجب أن يكون مأموراً بمسك دفتر إلى السندات المتعلقة في فرع وانتقالات الأحوال الغير منقولة فلذلك لاتعتبر هذه السندات ما لم تتقيد في هذا الدفتر حسب الأصول.

المادة الرابعة عشر

إن المتهمين من أهالي جبل لبنان الذين يكونون ارتكبوا الذنب في غير سناجق أن تجري محاكمتهم والحكم عليهم في السنجاق الذي يكون وقع الذنب ضمنه وأما الأشخاص الذين حال كونهم من أهالي خلاف سناجق وارتكبوا الذنب في دائرة جبل لبنان فينبغي أن تجري محاكمة دعاويهم والحكم عليها في جبل لبنان فبنا عليه

أولئك الذين يرتكبون جرماً في جبل لبنان سواء كان من الأهالي المحلية أو من أهالي غير محلات ويهربون إلى سنجاق آخر ينبغي أن يمسكوا بمعرفة ضابط ذلك السنجاق بمقتضى الإشعار الذي يرسل من طرف إدارة جبل لبنان ويتسلموا لطرف الإدارة المذكورة والمتهمين الذين يرتكبون ذنباً سواء كانوا من أهالي غير محلات أو من أهالي جبل لبنان ضمن أحد السناجق ويهربون إلى جبل لبنان فبمقتضى الإشعار الواقع من ضابط ذلك السنجاق المذكور ومأمورو الإدارة إذا صدر منهم مسامحة بإجراء الأوامر المعطاة بخصوص إرجاع هكذا متهمين إلى المحاكم التي يكون مرجعهم إليها أو أجازوا وقوع تأخيرات في صورة تمنع إحقاق الحق فيعاقبون من طرف الدولة العلية والأشخاص الذين يكتمون ويخفون عن الحكومة هكذا أشخاص متهمين يجازون بموجب القانون والحاصل أن المناسبات التي ينبغي إجراؤها فيما بين إدارة جبل لبنان وإدارة السناجق المجاورة لها يجب أن تكون بعينها نظير المناسبات الجارية والمعتبرة دستوراً للعمل بين بقية سناجق ممالك الدولة العثمانية.

المادة الخامسة عشر

يجب أن يكون تأمين محافظة الراحة وإجراء القوانين من طرف المتصرف بمعرفة فرقة ضبطية مكتتبين بالطوع من الأهالي خاصة بحساب سبعة أنفار بالتخمين على كل ألف من النفوس ويجب ألفا أصول

الحوالية وإقامة الضبطية في البيوت وأن يوضع أسباب إجبارية بمقابلة ذلك نظير أخذ المحكوم وحبسه ويمنع تحت التأديبات الشديدة مأمورو الضبطية عن طلب أجرة من الأهالي سواء كان نقداً أم عيناً ويكون للضبطية لباس رسمي أو علامات فارقة لمأموريته وتجري الدقة بقدر الممكن بنا أن للضبطية الذين ينبغي استعمالهم بإجراء أوامر الحكومة يكون كل منهم من أبناء مذهب ذلك الشخص المتعلق به ذلك الأمر وتستمر طرقات بيروت والشام وصيدا وطرابلس تحت محافظة العساكر السلطانية لحينما المتصرف يعطي تصديقاً على أن فرقة الضبطية صاروا مقتدرين على إيفاء جميع الوظائف المحمولة في الأزمة الاعتيادية وهذا العسكر يجب أن يكون برفاقة المتصرف وإدارته والمتصرف له أن يطلب من الحكومة العسكرية في سوريا معاونة العساكر المنتظمة في أحوال فوق العادة ولدى الاقتضاء غب أن يكون أخذ في ذلك ملاحظة مجلس الإدارة الكبير وينبغي أن الضابط المأمور بالذات على رياسة هذا العسكر يقرر مع المتصرف التدابير المقتضى اتخاذها والضابط المشار إليه حل وجوده مختاراً ومستقلاً في المسايل الراجعة محضاً إلى العسكر نظير الحركات والنظامات العسكرية يجب أن يكون في مدة وجوده في الجبل في معية المتصرف ويجري العمل تحت مسؤوليته وعندما المتصرف يفيد رئيس العسكر رسماً عن زوال العلة الغائية لورود العسكر فيجب أن ينسحب بالعسكر.



المادة السادسة عشر (الميزانية)

يـجب أن الـدولـة الـعلـيـة تـحافظ على حقها الظاهر بتحصيل مبلغ الثلاثة آلاف وخمسماية كيس المعينة عـلى الـجبل بواسطة المتصرف وهـذا المـبلغ يـجوز إبلاغه في حين مساعدة الأحوال إلى سبعة آلاف كيس فـقـط إنـمـا بـمـا أن مـحصـول الـجبـل يجب أن يكون مـخصصـاً قـبـل كـل شيء إلى مصارف إدارة الجبل ومنافعه العمومية اللازمة جداً لحسن جريان الإدارة عـن تكاليف الـجبل الحاصلة فالدولة العلية تكمل العلاقة فقط السلطنة السنية لا توفي ما كان من الأعمال العمومية ولا مصارف فوق العادة غير مقبول ومصادق عليه بأمر من لدنها.

المادة السابعة عشر

(إحصاء السكان ومسح الأراضي)

ينبغي أن يباشر سريعاً بتحرير نفوس أهالي الجبل محل فـمـحـل وملـة فـملـة ويجب أن تجري مساحة جميع أراضيه المزروعة وتصنع خريطتها. إن السبعة عشر مادة المسطرة أعلاه هي نظام جبل لبنان الأساسي فيجب بمقتضى إرادتي القاطعة الملوكية أن يمسك دستور الـعـمـل إلـى مـا شاء الله ويصير كل الاعتناء مدققاً من الجميع بإجراءه وإنفاذه حرفياً والحزر والمجانبة للغاية من مخالفته وإعلاناً بذلك أصدرت أمري هذا العالي الشأن تحريراً في أواسط شهر ذي الحجة الشريفة سنة سبعة وسبعين ومايتين وألف.

كيف تم تطبيق البروتوكول؟

إن البروتوكول المعلن ١٨٦١ تم تعديله سنة ١٨٦٤. وتم تطبيقه كما يأتي: تمّ تقسيم المتصرفية أو لبنان الصغير إلى سبعة أقضية، أو قائمقاميات على كل منها قائمقام يعيّنه المتصرّف من الطائفة الأكبر عدداً. والأقضية هي الشوف، المتن، كسروان، البترون، الكورة، جزين، زحلة. وتقسمت القائمقاميات إلى مديريات على كل منها مدير، والمديريات إلى نواحي فإلى بلدات وقرى على كل منها شيخ صلح (مختار) ينتخبه الأهالي. أما الحكومة فقوامها المتصرّف، هو مسيحي عثماني تختاره الدولة من رعاياها ومن خارج لبنان، وقد حرصت أن يكون من خارج الطوائف المسيحية الكبرى في لبنان، وكانت الدول الكبرى الضامنة للبروتوكول توافق على تعيينه. وللمتصرف صلاحيات الوالي العثماني ويتمتع بلقب باشا فله صلاحيات واسـعـة. وقـد أنشـأ الـمتصـرفـون دوائـر لـلشـؤون الـخارجـيـة والترجمة والمراسلات والمالية والأمن والسجلات والبريد والتلغراف وعيّنوا فيـهـا الموظفين. ولم يكن ثمة وزراء. وللمتصرف عاصمتان هما بعبدا شتاءً وبيت الدين صيفاً. وله حرس قوامه ١٥٠ دركي من خيالة ومشاة. وتوالى على لبنان حتى سنة ١٩١٥ ثمانية متصرفين (تختصر بداية أسمائهم بكلمة دفرونميا).

أما مجلس الإدارة فهو بمثابة مجلس نواب ينتخبه اللبنانيون على أساس التوزيع الطائفي ويتألف من إثني عشر عضواً (١٢) (٤ للموارنة، ٣ للدروز، ٢ للروم الأرثوذكس، ١ للروم الكاثوليك،

١ للشيعة، ١ للسنّة). لهذا المجلس دور استشاري فقط، ليس له سلطة على المتصرّف بل يدرس الضريبة والميزانية وتوزيع النفقات، ويُبدي رأيه في السياسة. ويمكنه أن يرفع الشكوى إلى مندوبي الدول. وكان شيوخ الصلح ينتخبون أعضاء المجلس الإداري هذا.

أما الإدارة في البلاد فتدرجت بشكل هرمي من شيخ الصلح إلى المدير فالقائمقام فالمتصرف.

الميزانية والضرائب

حدد البروتوكول ميزانية لبنان (بـ ٣٥٠٠) بثلاثة آلاف وخمسمائة كيس ويمكن رفعها إلى سبعة آلاف كيس (والكيس ٥٠٠ قرش) يتم جمعها من الضرائب المفروضة. وإذا بدا عجز في الميزانية فعلى الدولة العثمانية أن تسد هذا العجز. أما قوى الأمن فتشكلت من الضابطية (أو الدرك) بمعدل سبعة أنفار لكل ألف شخص، لكن عدد أفراد الدرك لم يتعدّ ١٢٠٠ نفر نظراً لقلة المال. وهم من الخيالة، والمشاة، وكان يدربهم خبراء فرنسيون. وجرى تنظيم القضاء وتأمين العدالة، ففي القرى كان شيخ الصلح يحكم في الدعاوى التي لا تزيد قيمتها على مئتي قرش (٢٠٠) وتأسست في كل قضاء محكمة بداية ومحكمة استئناف في مركز المتصرفية وفيها غرفة مدنية وغرفة جزائية. وكان المتصرّف يعيّن القضاة. وقد أصبح في لبنان رجال قانون من أصحاب الكفاءة بعد إنشاء مدرسة الحقوق في الجامعة اليسوعية في بيروت. أما الأحوال الشخصية، من زواج وطلاق وإرث، فكانت بيد رجال الدين.

كان هذا البروتوكول أول دستور مكتوب في لبنان، فقد ثبت استقلال البلاد وحفظ كيانها، وازال حق الإقطاعية في الحكم، وأفسح في المجال لقيام نظام ديمقراطي. وبعد أن كان لبنان مسرحاً لصراع الدول أصبحت الدول مسؤولة عن استقرار البلاد وأمنها، أصبح لبنان بحماية الدول السبع (فرنسة، إنكلترة، النمسة، ألمانية، روسية، إيطالية، بالإضافة إلى السلطنة العثمانية) وقد استطاع هذا النظام أن يؤمن الاستقرار والهدوء، وجرت في ظلّه نهضة فكرية مباركة، حتى قيل «هنيئاً لمن له مرقد عنزة في جبل لبنان». لكن نظام المتصرفية أساء إلى لبنان بتضييق مساحته، فجعله عاجزاً عن مواجهة الأزمات الاقتصادية فهاجر ألوف اللبنانيين، وعرفت البلاد ضيقاً اقتصادياً خانقاً ومجاعة رهيبة في الحرب العالمية الأولى كما سنرى.

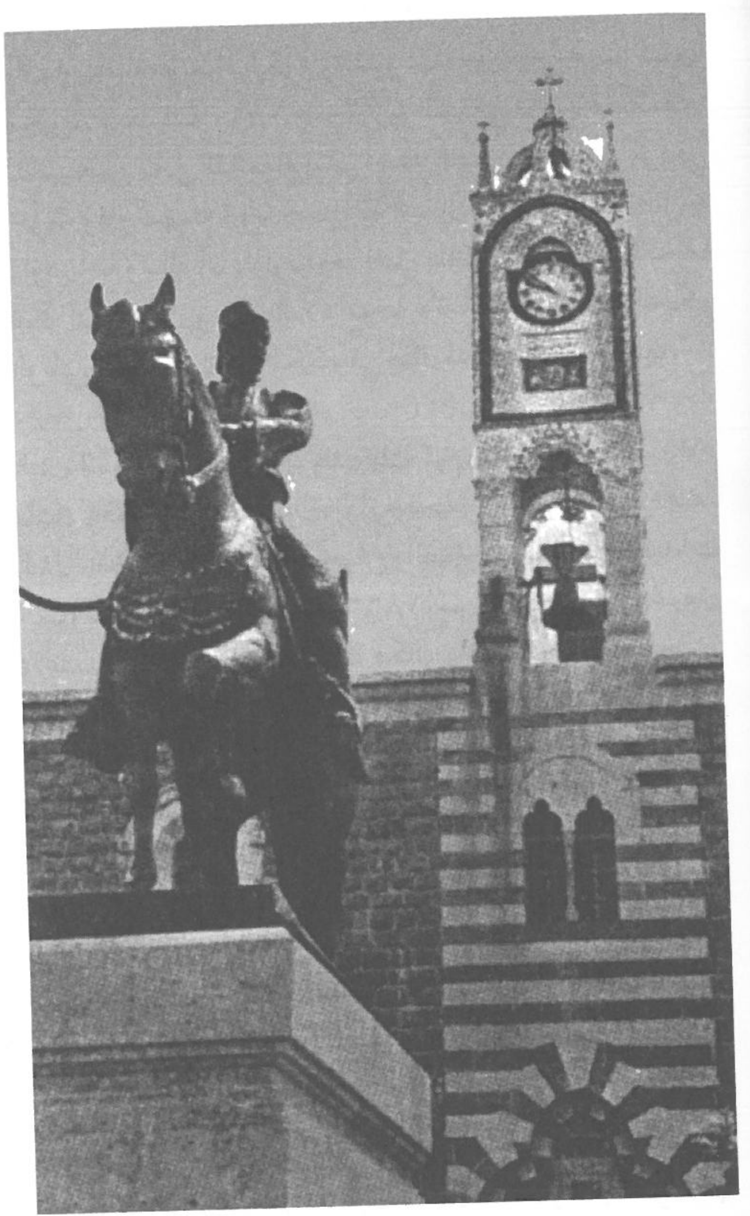
المتصرفون وأبرز أعمالهم

توالى على حكم لبنان حتى سنة ١٩١٥ ثمانية متصرفين تختصر كلمة «دفرونميا» بداية أسمائهم وهم على التوالي داود باشا الأرمني ١٨٦١ – ١٨٦٨، فرنقو باشا الحلبي ١٨٦٨ – ١٨٧٣، رستم باشا الإيطالي ١٨٧٣ – ١٨٨٣، واصا باشا الألباني ١٨٨٣ – ١٨٩٢، نعوم باشا الحلبي ١٨٩٢ – ١٩٠٢، مظفرباشا البولوني ١٩٠٢ – ١٩٠٧، يوسف باشا الحلبي ١٩٠٧ – ١٩١٢، أوهانس باشا ١٩١٢ – ١٩١٥ وفي عهده وقعت الحرب العالمية فنقض العثمانيون البروتوكول وعينوا متصرفين غير مسيحيين. هم على التوالي علي منيف، إسماعيل حقي، ممتاز بك.

كـان داود بـاشـا الـمتصرف الأول، مـن أسـرة أرمـنية عانت من اضطهاد العثمانيين، ولد في القسطنطينية سنة ١٨١٨. تخرّج من مدرسة إزمير الفرنسية، ثم تعلم الحقوق وأتقن عدة لغات وعمل في السلك الخارجي، وأصبح قائماً بأعمال السلطنة في برلين، ثم مديراً للتلغراف في تركيا. كان قديراً ومستقيماً ودقيقاً في عمله. اختارته الدولة ليكون متصرفاً على لبنان ووافقت الدول الضامنة للبروتوكول على هذا الاختيار. تسلّم صلاحياته في تموز سنة ١٨٦١ والبلاد في وضع صعب إثر الأحداث. قدّمه فؤاد باشا إلى أعيان البلاد، فاستقبلوه بفتور بعد أن ضاع من يدهم الحكم الوطني بسبب الخلافات. كانت مهمة المتصرف صعبة بعد الأحداث، فالحالة الإجتماعية والاقتصادية سيئة، وما يزال الأمن مضطرباً. والمتصرّف غريب عن البلاد ويجهل لغتها وتقاليدها.

اتصل بزعماء البلاد من سياسيين وروحيين، وزار المناطق حتى يتعرّف إلى الأهالي عن قرب، وطبق البروتوكول وخبر ما فيه من نواقص، فسافر إلى اسطنبول واقترح تعديل هذا البروتوكول وتم ذلك سنة ١٨٦٤. وجددت الدولة ولاية داود باشا، ففرض الضرائب وشدد على تطبيق النظام. لكن المعارضة تزايدت في وجهه بسبب الضرائب، وتوقيف الناس وسجنهم بدون حق، كذلك بسبب اجتياح الجيش العثماني لأرض لبنان. واتصل المعارضون بالزعيم يوسف بك كرم.

أما **يوسف بك كرم** فقد وُلد في إهدن سنة ١٨٢٣، تعلم العربية والسريانية في مدرسة القرية، وأتى له أبوه بمعلمين فأتقن الفرنسية والإيطالية وتعمّق في الدروس الأدبية والعلمية



تمثال يوسف بك كرم في إهدن

والتاريخية، وتعوّد الكرم والفروسية، فأصبح زعيماً شعبياً محبوباً. وبعد فتنة ١٨٦٠ عيّنه الوزير العثماني فؤاد باشا قائمقاماً للمسيحيين محل القائمقام بشير أحمد اللمعي. فجعل مركزه في جونيه وقام بمهمته قياماً حسناً. ثم استقال سنة ١٨٦١. اتصل به داود باشا وسأله أن يتعاون معه فقبل بقائمقامية جزين، لكنه ما لبث أن استقال وغادر البلاد موقتاً لأنه كان متمسكاً بالحكم الوطني، ويرفض إسناد الحكم في لبنان لشخص أجنبي عنها.

التف المعارضون حول يوسف بك كرم، فقلق المتصرف داود باشا، وذهب إلى اسطنبول، وأتى بجيش تركي بلغ إثني عشر ألف جندي، وتحرّش الجيش بأنصار يوسف كرم، فبدأت المناوشات منذ مطلع سنة ١٨٦٦ ثم وقعت معارك عنيفة، واعتمد كرم حرب العصابات فكان يراقب تحركات الجيش العثماني، ويختار المكان المناسب لينقضّ عليه وينزل به الخسائر. أخيراً قرر أن يحقق النصر النهائي على المتصرف، فسار من الشمال إلى الجنوب قاصداً بيت الدين، وانضم إليه ألوف المقاتلين حتى أصبح خطراً حقيقياً على المتصرفية. فتشاور مندوبو الدول واتفقوا على ضرورة المحافظة على المتصرفية. واتصلوا بيوسف بك كرم ودعوه إلى اجتماع في بكركي حيث سلمه قنصل فرنسا رسالة من الأمبراطور نابوليون الثالث تضعه تحت حماية فرنسا وتؤكد العفو عن أنصاره. تجاه موقف الدول هذا قرر يوسف كرم مغادرة البلاد حتى لا تقع في مصاعب جديدة. فسافر إلى فرنسا وقابل الأمبراطور نابوليون الثالث ثم انتقل إلى بلجيكا فإيطاليا فالأستانة، وأقام أخيراً قرب نابولي في إيطاليا وظل يسعى لاستقلال لبنان حتى وفاته في

نيسان ١٨٨٩ ونُقل جثمانه محنطاً إلى بلدته إهدن، وما زال جثمانه محنطاً ومحفوظاً في كنيستها.

أما **داود باشا** فاستمر في حكم لبنان، يطبّق بنود البروتوكول، وطدّ النظام. وعيّن الإداريين والموظفين وأجرى الانتخابات، وفرض الضرائب، وأنشأ قوى الأمن، وعين القضاة ونظم المحاكم، واشترى قصر بيت الدين وسراي دير القمر لأمر الحكومة، وأنشأ جريدة رسمية باللغتين العربية والفرنسية، واشترى باخرة باسم لبنان، وشجع المدارس وأنشأ المدرسة الداودية في عبيه، وحقق بعض المشاريع العمرانية فشق طرق العربات وبنى الجسور ومدّ شبكة تلغراف بين بيت الدين ومراكز الأقضية.



داود باشا المتصرف الأول

وكـان يأمـل بـأن يستمـر في حكـم لبنان طيلة حياته، فسعى حتـى يُعيد إلى لبنـان المناطق المسلوخة عنه فذهب إلى اسطنبول حتى يـلاحق مـطـالبـه، فـأسرّ إليه الوزير فؤاد باشا بأن يقـدّم عريضة يضمّنها مطالبه، وأن يرفقها بالاستقالة، حتى تستجيب الدولة، ففعل... لكن الدولة قبلت استقالته حالاً، وتخلّصت منه.

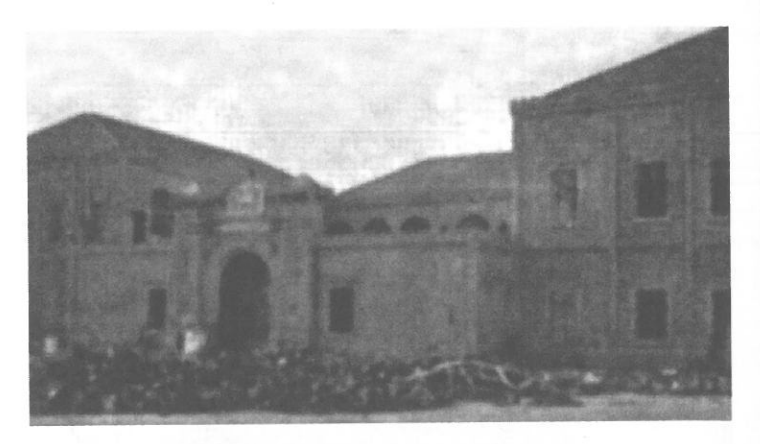
نصري فرنقو باشا (١٨٦٨ – ١٨٧٣)

أوروبي الأصل حلبي المولد، عيّنته الدولة لمدة عشر سنوات، لكنه مات قبل نهايتها، تخلى عن المطالبة بإعادة ما سُلخ عن لبنان، كان كثير الوعود قليل التنفيذ، خفيف الظل سريع النكتة، لم يتحزّب لأحد من اللبنانيين، في مطلع عهده أصدر السلطان قانوناً بمراقبة كل ما يُطبع ويُنشر في أنحاء السلطنة، وبما أنه لم يكن للقانون مفعول في لبنان كثرت المطابع والمنشورات. نشّط الزراعة وحرّج بعض الأراضي الجرداء. وكان عهده هادئاً.

رستم باشا الإيطالي (١٨٧٣ – ١٨٨٣)

إيطالي المولد، أصبح سفيراً للسلطنة في بطرسبورج عاصمة روسـيـا. دشّـن عـهـده بـتـحـدي رجـال الـديـن الـموارنـة، وكـان البطريرك الماروني من بين جميع رؤساء الطوائف الروحيين، الوحيد الذي يمارس سلطته على رعايا كنيسته بدون براءة رسمية من السلطان، وظل البطاركة الموارنة يرفضون طلب هذه البراءة.

أظهر هذا المتصرف مقدرة في الإدارة، أنشأ مجالس بلدية، وشق الطرقات. وقعت الميزانية بعجز فطلب تسديده من الباب العالي فـاسـتـجـاب لـطـلـبـه مـرة وطلب إليه أن يكفّ عن تكرار طلب



سراي بعبدا

المساعدة، فخفّض أجور الموظفين وفرض ضرائب على التبغ. عارضه المطران بطرس البستاني فنفاه. لكن معارضة شديدة واجهته فأعاد المطران إلى البلاد.

واصا باشا الألباني (١٨٨٣ – ١٨٩٢)

في السنـوات الأولى الـخمس مـن ولايتـه سـارت الأمـور سيراً حسناً، ثم انقلب عهده إلى فوضى ورشوة، وسيطرت امرأته على السياسة فدبت الفوضى. تحقق في عهده تعبيد بعض الطرقات، وأنشأت السلطنة ولاية بيروت سنة ١٨٨٨. حيث انتقل مركز الوالي العثماني من صيدا إلى بيروت. وعرفت البلاد في عهده حركة مهاجرة واسعة.

نعوم باشا الحلبي (١٨٩٢ – ١٩٠٢)

عيّنته الدولة لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد، واشترطت عليه الدول إصلاح ما أفسد سلفه. فأوقف الرشوة والفساد، وعزل

خريطة المتصرفية

الموظفين المفسدين وسهر على تنظيم الإدارة وإصلاحها، وحقق بعض الأعمال العمرانية من طرقات وجسور، وأتم بناء بعض الأبنية الحكومية، واتسعت الهجرة في أيامه، وعرف لبنان الاستقرار والبحبوحة.

مظفر باشا البولوني (١٩٠٢ - ١٩٠٧)

تخرّج من مدارس أوروبية عالية، ثم من مدرسة سان سير العسكرية الفرنسية، ودخل الجيش العثماني، وصل إلى لبنان في تشرين الأول سنة ١٩٠٢ وأذاع بياناً بالمشاريع الإصلاحية التي ينوي القيام بها. وحقق بعض الأعمال مثل مسح الأراضي وشق الطرقات. لكن الدولة العثمانية خافت منه وعارضت مشاريعه. وتقدم في السنّ فخارت قواه وتحكمت به زوجته وولداه فعمّ الفساد ودبت الرشوة فاشتدت المعارضة في وجهه.

يوسف باشا فرنقو الحلبي (١٩٠٧ - ١٩١٢)

هو ابن المتصرف الثاني، جرى في عهده الانقلاب في اسطنبول، واستلام الاتحاديين الحكم، فعمت أنحاء السلطنة موجة عارمة من الفرح، وساد الأمل بالإصلاح، وحاول المتصرف إقناع اللبنانيين بالانضمام إلى السلطنة، وطلب الهوية العثمانية. لكن معارضة شديدة واجهته وحالت دون تحقيق مشروعه. وقد فضّل اللبنانيون الاحتفاظ بنظامهم على الانضمام إلى السلطنة.

أوهانس باشا الأرمني (١٩١٢ - ١٩١٥)

كان نشيطاً، مخلصاً، محباً للعمل. لكن عهده كان مليئاً بالمصاعب، فلدى وصوله إلى لبنان طالب الجنود بزيادة

أجورهم فأنصفهم. وباشر القيام بأعمال عمرانية، لكن الحرب الكونية بدأت في صيف ١٩١٤، ودخلتها السلطنة، واضطهدت الأرمن، فأصبح وضعه حرجاً فأقالته الدولة سنة ١٩١٥ وعيّنت مكانه متصرفين عثمانيين مسلمين هم على التوالي علي منيف، اسماعيل حقي، ممتاز بك.

البقاع وولاية بيروت

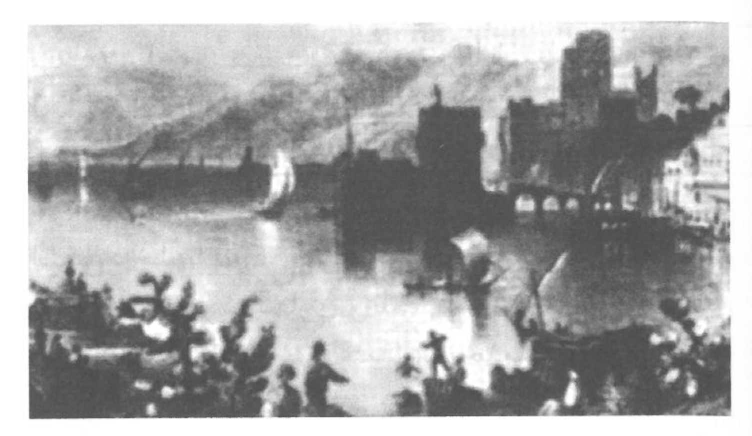
أرض لبنانية يديرها العثمانيون. إن نظام المتصرفية ضيّق مساحة لبنان عما كانت عليه في عهد فخر الدين، فسلخ مناطق عدة وجعلها ولاية عثمانية:

البقاع

تمّ ضمّه إلى ولاية الشام، وكان يتألف من أربعة أقضية هي بعلبك وفيه المدينة الأثرية، والبقاع بين بعلبك وزحلة، وراشيا، وحاصبيا.

ولاية بيروت

بيروت مدينة عريقة، دلت الحفريات الأخيرة أنها عرفت الحضارة منذ مطلع العهد النيوليتي أي منذ الألف الثامن (ق.م) وازدهرت في العهد الفينيقي، وعظمت في عهود الرومان والبيزنطيين، ثم خرّبتها الزلازل لكنها تجددت، وبدأت تزدهر منذ القرن السادس عشر (ب.م) وأصبحت بفضل موقعها مركزاً تجارياً عظيماً، فهي متقدمة في البحر ويمكن وصلها بالداخل عن طريق ممر ضهر



مرفأ بيروت في القرن التاسع عشر

البيدر، لذا أصبحت منفذاً على المتوسط للبنان وللمنطقة. جعلها الأمير ملحم الشهابي عاصمته الثانية، وجعلها إبراهيم باشا المصري مركز السياسة المصرية يقيم فيها الحاكم المصري في شرقي المتوسط. وبعد انسحاب المصريين وعودة العثمانيين أصبحت بيروت مركز والي صيدا منذ سنة ١٨٤١، حتى أصبحت عاصمة ولاية واسعة منذ سنة ١٨٨٨ ويتبعها في الجنوب أقضية صيدا وصور ومرجعيون بما في ذلك جبل عامل. ومتصرفيتا عكا ونابلس، ويتبعها في الشمال متصرفيتا طرابلس واللاذقية.

نمت المدينة بسرعة، فارتفع سكانها من خمسة آلاف نسمة في مطلع القرن التاسع عشر إلى (١٦٠) مئة وستين ألف نسمة في مطلع القرن العشرين. ونشأت فيها المحلات التجارية والمدارس والجامعتان الأميركية والفرنسية أو اليسوعية، والمستشفيات والمطابع والمعامل وارتفعت الأبنية والدور الحكومية. وأوصلت إليها المياه من نهر الكلب شركة إنكليزية

سنة ١٨٧٥، ووسّعت شركة فرنسية مرفأ المدينة، ومدّت شركة فرنسية أخرى سنة ١٨٩٤ خطاً حديدياً من بيروت إلى رياق فدمشق، وخطاً من بيروت إلى المعاملتين، بالإضافة إلى طرق لعربات الخيل على الساحل، ومن بيروت إلى دمشق، وأمنت النـقـل داخلـهـا شـركـة الترامواي منذ سنة ١٩١٠. وأصبحت بيروت أعظم مركز تجاري وعلمي في السلطنة، وأصبح يُطلق عليها لقب «درّة تاج بني عثمان». وعندما نشأت دولة لبنان الكبير سنة ١٩٢٠ أصبحت بيروت عاصمتها.

معلومات عن بيروت وصيدا وطرابلس وبعلبك

وردت في كتاب «الثمار الشهية في جغرافية السلطنة العثمانية» ا.كرشه، ي. أبيض، المطبعة الوطنية، طرابلس، ١٩١٢

أما تجارتها (بيروت) فعلى جانب عظيم من الأهمية وتكاد تكون منفردة فإن سكان جميع الثغور السورية كولاية حلب وأطنة ومتصرفية القدس حتى أن أزمير نفسها تأخذ من أسواقها المنسوجات القطنية وغير ذلك من واردات أوروبا واميركا كالحديد وزيت البترول (الكاز) ومال القبان والمنسوجات الأفرنسية والجوخ وسائـرا لنسيـج الصوفي وقد عقد أهلـها مع شركات أوروبية تجارية اتفاقيات حتى أصبحوا قادرين على أن يفوقوا بالتسهيلات جميع مناظريهم وبذلك جعلوا مدينتهم صندوق تجارة سائر أطرافها. ناهيك عن أن

البعض من أهاليها أصحاب النشاط والأقدام يذهبون لبلاد الفرنجة ويكسبون الأموال الطائلة ويعودون بها إلى وطنهم وهكذا غدت مدينة مهمة في عالمي التجارة والعمران حتى صارت تعد درة في تاج بني عثمان وأصبحت من المرافئ النادرة فمالت إليها تجارة العراق والجزيرة والعجم والهند.

وفي بيروت دار للحكومة الملكية ودائرة للحكومة العسكرية ومستشفى عسكري ومكتب إعدادي ملكي ومكتب للصنائع و٣٢ جامعاً و٨ دوائر أميرية و٣٥ كنيسة و٣٤ مخفراً و٣٤ مكتباً وما ينيف على ٣٠ مطبعة و١٤ معملاً وفيها عدد كثير من المؤسسات والبنايات الجميلة والمدارس وجامعتان. زاد سكانها من ٥ آلاف في مطلع القرن التاسع عشر إلى ١٦٠ ألف في مطلع القرن العشرين. جرّت إليها شركة إنكليزية مياه الشرب من نهر الكلب ١٨٧٥، أنيرت بالغاز سنة ١٨٧١. حسّنت شركة فرنسية مرفأها ومدّت شركة فرنسية خط الحديد من بيروت إلى رياق. وفي ١٩١٠ أمنت شركة الترامواي النقل داخل المدينة.

مدينة صيدا

مركز قضاء تابع لواء بيروت، كانت مركز ولاية، سكانها ١٠ آلاف نسمة أكثرهم إسلام وروم أرثوذكس لها سور وقلاع منيعة. كانت تجارتها حسنة. أما اليوم فنقلت إلى بيروت. اكتُشف فيها حديثاً نواويس عليها نقوش

ورسوم. يحيط بالمدينة من جهة البرّ بساتين زاهرة فيها أنواع الليمون والبرتقال والكباد والموز والبلح والمشمش والخوخ والسفرجل والرمان.

طرابلس

مركز لواء تابع ولاية بيروت، وهي مدينة قديمة عدد سكانها ٣٥٠٠٠ نسمة من إسلام وروم أرثوذكس وموارنة وبروتستانت. وتحتوي على دائرة للحكومة و٣٩ جامعاً وقلعة صليبية و١٢ مدرسة ومعامل للحرير ومصابن و٥ مطابع ومثلها جرائد و١٠ فنادق



صورة من طرابلس – مدرسة من القرن الثامن عشر والجامع العمري

ومستشفيين وخمسة مخافر. ولكثيرين من أهلها عناية خاصة بزراعة الليمون والزيتون والتوت ولهم براعة في اصطناع الصابون.

بعلبك

مركز قضاء تابع ولاية الشام من الجهة الشمالية من سهل البقاع سكانها ٦٥٠٠ نسمة من إسلام سنية وشيعة ونصارى: روم كاثوليك وموارنة وأرثوذكس تحيط بها آثار الأسوار القديمة وأهلها يتعاطون الزراعة وأصبحت بساتينها تضاهي جنائن دمشق ويقصدها السياح للوقوف على آثارها القديمة وقلعتها العجيبة.

تطورت الحركة السياسية، ونشطت مع تقدم حركة التعليم ومع تطورات السياسة في السلطنة. ففي الجبل لم يكن للبنانيين أن ينتخبوا المتصرّف ولا أن يراقبوا الحكم. بل يقتصر دورهم السياسي على انتخاب مشايخ الصلح والمجالس البلدية. فكانت الانتخابات هذه المناسبة السياسية الأهم. فنشأت أحزاب سياسية محلية هي عبارة عن تكتل عائلات ومصالح، كذلك استمر الصراع بين الإقطاعية وعامة الشعب.

أما في **الولاية** فتحرّك النشاط السياسي بعد ثورة سنة ١٩٠٨ وإعلان الدستور العثماني، وقد استلم حزب الاتحاد والترقي الحكم في اسطنبول، ورسم سياسة إصلاحية جديدة للسلطنة. وانقسمت الآراء بين المركزية في الحكم أو اللامركزية، كذلك

انقسم اللبنانيون بين هذين التيارين، وتأسست **حركة بيروت الإصلاحية** ولاقت الحركة السياسية دفعاً جديداً بفضل نمو التعليم ونشاط الصحافة، وقيام نخبة تطرح أفكاراً سياسية جديدة، وتدعو إلى الإصلاح في إطار السلطنة العثمانية أو خارجها أي الانفصال عن السلطنة والاستقلال. وانعقدت مؤتمرات سياسية كان أبرزها مؤتمر في بيروت دعت إليه لجنة بيروت الإصلاحية، ومؤتمر آخر انعقد في باريس ١٩١٣ وشاركت فيه أحزاب وحركات عربية من لبنان ومن مختلف المناطق العربية.

ومنذ ١٩٠٨ شاركت بيروت في السياسة العثمانية، فتمثلت في مجلس المبعوثان العثماني (مجلس النواب) وقد مثّلها رضى بك الصلح وسليمان البستاني وكامل بك الأسعد. وأصبح سليمان البستاني وزيراً للزراعة، وسليم ملحمة وزيراً للمناجم والتجارة. وعندما ضغط العثمانيون وقيّدوا الحرية الحزبية، هاجر كثيرون من اللبنانيين المهتمين بالسياسة إلى مصر حيث السيطرة الإنكليزية منذ ١٨٨٢، أو هاجروا إلى باريس وهي المدينة التي تؤمن الحرية لمن يطلبها. كذلك شارك كثيرون من اللبنانيين في أحزاب وجمعيات سرّية تدعو للإصلاح وقد دفعوا الثمن غالياً في الحرب العالمية الأولى.

الحالة الاقتصادية والاجتماعية في عهد المتصرفية

تحسن الوضع الاقتصادي والاجتماعي بفضل الاستقرار السياسي والأمني. كانت **الزراعة** مورد عيش اللبنانيين الأول.



رسم الجاروشة لطحن الحبوب خاصة القمح لصنع البرغل

وقد وصلت إلى لبنان معلومات متطورة من الزراعة توصلت إليها أوروبة، حول أنواع النبات والأسمدة والأدوات وطرق الزراعة. والفلاح اللبناني نشيط، يزرع الحبوب وفي طليعتها القمح، والأشجار المثمرة وفي طليعتها الزيتون والتين واللوز والفواكه، كذلك البقول والخضار على أنواعها لا سيما البصل والثوم والبطاطا. كان التبغ، وقد ازدهرت زراعته، يشكل دخلاً مهماً للفلاح اللبناني. وظلّ التوت الشجر المفضّل تقوم عليه تربية دود

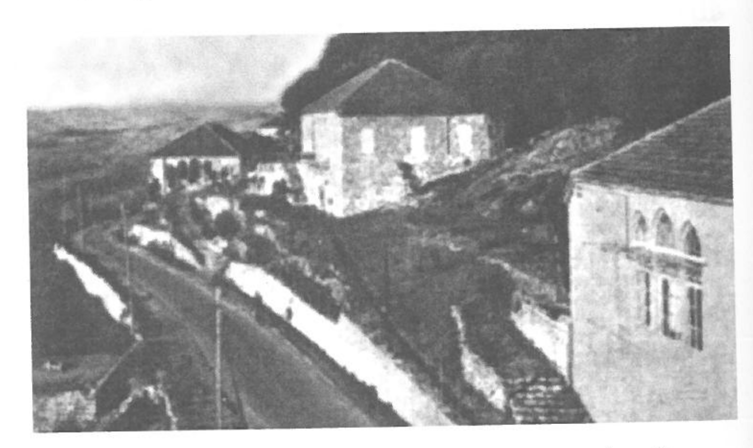
القز، والحرير «موسم العز» أفضل مواسم اللبنانيين، والمصدر الأول لعيشهم. وكانت الماشية من غنم وماعز وبقر مساعداً لا غنى عنه للفلاح فيما كانت الحمير والخيل حيوان النقل المفضل، والجمال للنقل الثقيل مثل الشاحنة في عصرنا.

أما **الصناعة** فكانت بسيطة، يدوية وبيتية بمعظمها، تقوم على تحويل المنتوجات الزراعية والمواد المتوفرة محلياً لتأمين العيش والحاجات اليومية، مثل استخراج الزيت وصنع الصابون والخمر والعرق والخلّ والدبس وتجفيف التين والعنب. وعند اللبنانيين تراث عريق في تصنيع المنتوجات الزراعية والحيوانية وحفظها لأيام الشتاء، وهو ما يسمونه «المونة» مثل البرغل والكشك والقورما (أي طبخ اللحم والدهن وحفظه في الخابية) الشنكليش (لبنة محفوظة) الجبن، التين المطبوخ، الزيت، العسل، الزيتون والزيت. وكانت لدى اللبنانيين مصنوعات يدوية لتأمين الحاجات البيتية مثل الكلس والفخار والغزل والحياكة وصناعة البسط والنجارة والسكافة، وقطع الغابات لصنع الخشب والفحم وتأمين الحطب لحاجات البيوت، يوم لم تكن كهرباء ولا غاز ولا كاز... ولا أي مصدر للطاقة سوى الحطب والفحم. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر تأسست معامل آلية للغزل والنسيج لا سيما للحرير، وتوضيب التبغ وصنع السجاير في بيروت وبعض مناطق الجبل.

مع تجدد النشاط التجاري، عرفت مدن الساحل، لا سيما بيروت وطرابلس، نشاطاً تجارياً ملحوظاً. وكان التبغ والحرير من أفضل صادرات لبنان.

كانت الحياة تتصف بالبساطة والهدوء، ويغلب عليها التقشف حتى الفقر، سواء من حيث الملبس والمأكل أم السكن وأثاث البيوت، فقد احتفظ اللبس بالزي اللبناني القديم والعربي والتركي. وكان الأكل بسيطاً يعتمد في الدرجة الأولى على المنتوجات الزراعية والحيوانية، فيُنتج اللبنانيون حاجاتهم الضرورية، ويقتصر الاستهلاك على ما ينتجون ويحرصون على إعداد المؤنة لفصل الشتاء من قمح وبرغل وكشك وقورما (أو دهن مطبوخ) وزيت وبصل وثوم بالإضافة إلى الخل والمشروبات لا سيما النبيذ والعرق ويؤمن كل بيت حاجاته من الخبز على الفرن أو الصاج أو التنور. كما يؤمن حاجته من الماء سواء من النبع أو من خزان (بير) يحفره قرب البيت.

وظلّت هندسة البيوت بسيطة، فالفلاحون يبنون بيوتاً بسيطة من الحجر فيها القنطرة وسقفها من الوصالة (جذوع الشجر) والتراب. أما الميسورون فيبنون بيوت العقد أو القرميد.



بيت من القرن التاسع عشر

وظهرت – لا سيما في المدن – أبنية جميلة ذات طوابق عدة وسقف من القرميد، للمؤسسات الحكومية والمدارس لا سيما الأجنبية منها. وعرف لبنان منذ أواسط القرن التاسع عشر تطوراً كبيراً بفضل الهجرة والنهضة الفكرية.

الهجرة اللبنانية الحديثة
أو حركة الانتشار اللبناني في العالم

إن المهاجرة ظاهرة مميّزة في تاريخ لبنان. مارسها اللبنانيون عبر العصور، فانتشروا في أنحاء العالم، حتى أصبح اليوم عدد المغتربين يفوق عدد المقيمين في لبنان. لنرجع إلى الماضي، فمنذ القديم اتجه الفينيقيون إلى الخارج فانتشروا في أنحاء المتوسط، لكنهم ظلوا على اتصال ببلادهم الأم. وقد استمرت حركة المهاجرة ونشطت في العهد الروماني حتى أصبح الوجود اللبناني في روما ظاهرة لافتة. أما الهجرة الحديثة فبدأت في أواسط القرن التاسع عشر لأسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية وما زالت مستمرة.

بدأت الهجرة اللبنانية الحديثة، قبل عهد المتصرفية، أي منذ مطلع القرن الثامن عشر، بعد معركة عيندارة ١٧١١. حيث ذهب جماعة من دروز الشوف إلى جبل حوران، فعُرف بجبل الدروز، ويُعرف اليوم بجبل العرب. وظلوا على علاقة جيدة ومتواصلة مع أقاربهم في لبنان.

وتجددت الهجرة في أواسط القرن التاسع عشر، وظلّت مستمرة حتى اليوم. وقد مرّت بمراحل عدة نقسمها إلى أربع: في عهد المتصرفية ١٨٦١ – ١٩١٨، في عهد الانتداب حتى ١٩٤٣، في عهد الاستقلال ١٩٤٣ – ١٩٧٥، خلال الأحداث وبعدها حتى اليوم ١٩٧٥ – ٢٠٠٣.

في عهد المتصرفية

كانت أحداث سنة ١٨٦٠، وتضييق مساحة البلاد مع نظام المتصرفية دافعاً للهجرة. فقد قلق كثيرون من اللبنانيين تجاه المستقبل، وبرزت حالات العوز، والضيق الاقتصادي. وكان اللبنانيون كثيري التوالد. فضاقت بهم البلاد. ولم يتمكن نظام المتصرفية من تأمين مجالات العمل اللازمة. كذلك لم يكن الوضع أحسن حالاً في مناطق الولاية، حيث كانت مجالات العمل محدودة. يُضاف إلى ذلك سياسة الضغط التي فرضها العثمانيون، والتجنيد الإلزامي الذي طبقوه على الجميع من أهل الولاية، على المسلمين كذلك على المسيحيين منذ سنة ١٨٥٦. وكانوا يعرقلون هجرة المسلمين فيما يشجعون هجرة غيرهم.

وبرزت عوامل خارجية تشجع الهجرة. أبرزها تحسّن وسائل النقل وبروز عدد من البلدان بحاجة إلى اليد العاملة، وإلى تعمير أرضها، فشجعت قدوم الأجانب إليها. وتأسست جمعيات وشركات تشجع على الهجرة في عمل تجاري،

كما تفعل وكالات السياحة اليوم في استقطاب السائحين وتشجيع السياحة.

بدأت هجرة قريبة إلى مصر منذ حفر قناة السويس (١٨٥٩ – ١٨٦٩) ونشطت تلك الهجرة بعد دخول الإنكليز إلى مصر سنة ١٨٨٢. وقد احتاجوا إلى مزيد من اليد العاملة وإلى المتعلمين. فانفتحت الطريق إلى مصر أمام المتعلمين لا سيما خريجي المدارس الأنكلوسكسونية والجامعتين الأميركية واليسوعية. وازداد عدد اللبنانيين في مصر حتى شكلوا جالية كبيرة.

لعب اللبنانيون دوراً بارزاً في مصر سواء في الاقتصاد أم في الإدارة أم في حقول العلم والثقافة، حيث كانوا رواد النهضة العربية. ومع الوقت اندمج اللبنانيون في الحياة المصرية، وأصبحوا جزءاً من الشعب المصري.

أما إلى القارة الأميركية فبدأت الهجرة منذ أواسط القرن التاسع عشر، واستمرت، وازدادت مع الوقت. وامتدت إلى بلدان القارة الأميركية كافة في شمالها ووسطها وجنوبها. وبسبب النجاح الذي حققه بعض المهاجرين، والأموال التي أرسلوها إلى أهلهم، تشجع الكثيرون على السفر، فزاد عدد المهاجرين سنوياً على العشرة آلاف. توزعوا في بلدان القارة. فتشكلت الجاليات اللبنانية وأكبرها في كل من البرازيل والولايات المتحدة وأيضاً في الأرجنتين والمكسيك وكندا وغيرها.

كذلك توجه مهاجرون لبنانيون منذ سنة ١٨٨٠ إلى أوستراليا

وكانت مستعمرة إنكليزية، ويحرص الإنكليز على تعميرها، واستمرت إليها هجرة اللبنانيين، ووصلت إلى نيوزيلندا. ويشكل اللبنانيون اليوم جالية كبيرة في أوستراليا يقدرونها بأكثر من نصف مليون.

زاد عدد المهاجرين اللبنانيين حتى ١٩٢٠ على المئة ألف مهاجر. لم تكن هجرتهم هذه نهائية، ولم يكونوا يبحثون عن وطن بديل. بل يذهبون طلباً للرزق. يهاجر الرجل ويترك العائلة في لبنان. يستدين أجرة السفر (الناولون) على أن يفي فيما بعد. كانت تلك الهجرة صعبة. فيها مشقة السفر، ومعظم المهاجرين لا يتقنون لغة أجنبية، وليست لهم مهنة. فعملوا يداً عاملة عادية في المصانع، أو تعاطوا التجارة. بدأوا ينقلون البضاعة على الأكتاف (الكشّة) وعندما يتيسر المال يفتحون دكاناً أو مصنعاً بسيطاً، ما لبث بعض الدكاكين والمصانع أن أصبح مؤسسة تجارية أو صناعية كبرى.

لم يكن للبنانيين آنذاك هوية لبنانية، بل كان اللبناني يسافر بجواز سفر (بزبورت) عثماني. وعُرف أول الأمر في بلدان المهجر بتركي Turco، أو عثماني Otomanos وأحياناً بعربي Arabos لأنه يتكلم العربية، أو بسوري Sirios. وفي عهد الانتداب بدأ اعتماد الهوية اللبنانية.

كانت حركة المهاجرة واسعة. فحتى الحرب العالمية الأولى هاجر من المتصرفية أكثر من مئة ألف شخص ما يعادل ربع السكان ورجع بعض من هاجروا. فيما استوطن الكثيرون في

بلدان المهاجر، واستدعوا عائلاتهم إلى هناك. وبدأ جيل من المتحدرين اللبنانيين.

مرحلة عهد الانتداب ١٩٢٠ - ١٩٤٣

انسحب العثمانيون من بلادنا في أواخر أيلول ١٩١٨. وحل محلهم الحلفاء الفرنسيون والإنكليز، وحسب التسويات الدولية، أصبح لبنان تحت النفوذ الفرنسي. وأعلن الفرنسيون قيام دولة لبنان الكبير في أول أيلول ١٩٢٠. وظلوا يمثلون لبنان في الخارج. وقد أجروا في سنة ١٩٢١ إحصاءً للبنانيين المقيمين والمغتربين. بلغ عددهم ٧١٠٥٦٢ شخصاً. منهم ٣٠٧٨٤ مهاجر، معظمهم (٨١٨٤٣) لا يدفعون ضريبة في لبنان. أما نسبة المهاجرين فاختلفت حسب المناطق والطوائف. كانت مرتفعة في قضاء الكورة والبترون حيث بلغت ٦٠٪ من مجموع السكان. تليها في زغرتا (٤٥٪) ثم عكار وكسروان، بما فيه منطقة جبيل، وجزين (٣٠٪)، ثم المتن والشوف (٢٥٪). أما في صيدا وفي البقاع فكانت نسبة المهاجرين ضئيلة ولم تبلغ أكثر من ٩٪. كانت أغلبية المهاجرين الساحقة من المسيحيين. استمرت الهجرة من لبنان خلال عهد الانتداب. حيث شجع الإنكليز والفرنسيون على الهجرة إلى مستعمراتهم في أفريقيا. فهاجر الألوف إلى البلدان الأفريقية لا سيما في غرب القارة. وكان بين المهاجرين نسبة مرتفعة من شيعة جبل عامل. وقد أصبح لهم شأن كبير في تلك البلدان، وجمع كثيرون منهم ثروات كبيرة.

بلغ عدد المهاجرين سنة ١٩٣٩ نحو ٤٣١٦٠٠ شخص. وكان سكان لبنان نحو ٧٩٣٤٢٦ شخصاً.

جدول تطور حجم الهجرة اللبنانية بين سنتي ١٩٢١ و١٩٣٨ (الذين هاجروا)

العام	١٩٢١	١٩٢٢	١٩٢٣	١٩٢٤	١٩٢٥	١٩٢٦
العدد	٦٥٣٨	٧٧٧٩	٨٦١٤	٦٣٧١	٧٦٥٠	٨٤٨٧
العام	١٩٢٧	١٩٢٨	١٩٢٩	١٩٣٠	١٩٣١	١٩٣٢
العدد	٣٧٢٥	٥٩٩٨	٥٠٤٧	٣٨٨٣	١٣٨٧	١١٧١
العام	١٩٣٣	١٩٣٤	١٩٣٥	١٩٣٦	١٩٣٧	١٩٣٨
العدد	١٥١٦	١٦٩٩	١٩٩٢	٢٢٧٧	٣٣١٥	١٤٣٩

د. جهاد العقل

الهجرة الحديثة من لبنان، ص ١٤٠

موضوع جنسية المغتربين

شكلت الهجرة موضوعاً اجتماعياً وقضية مصيرية للبنان، وكان معدل المهاجرين من لبنان حتى سنة ١٩٢١ نحو ١٠ آلاف شخص سنوياً، فيما كان لا يهاجر من فرنسا سنوياً أكثر من ٥ آلاف والكثافة فيها مثلها في لبنان تبلغ ٧١ شخصاً. (وهاجر من سوريا نحو ١٧٤١ شخص فقط سنة ١٩٢٤).

أعارت سلطات الانتداب موضوع الهجرة اهتماماً كبيراً. وطرحت قضيتين أساسيتين. هما موضوع الجنسية، ثم تنظيم الهجرة وتقييدها.

كان المهاجرون اللبنانيون يُعتبرون في بلدان المهجر من التابعية العثمانية. أما وقد سقطت السلطنة، وتم إعلان دولة لبنان، وتمّ طرح موضوع هوية اللبنانيين، فتقرر أن يُعتبر لبنانياً كل من وُلد من أب لبناني.

فأصدرت سلطات الانتداب عدة قرارات تدعو المغتربين إلى تسجيل أسمائهم في القنصليات الفرنسية. أهمها قرار صدر في ٣٠ آب ١٩٢٤ ويدعو من يشاء من المغتربين اللبنانيين إلى اكتساب الجنسية اللبنانية. وأرسلت وزارة الخارجية في باريس تعليمات إلى قناصلها في الخارج تدعوهم لدعوة المغتربين اللبنانيين والسوريين لتسجيل أسمائهم وتقديم الطلب لاكتساب الجنسية.

نص التعليمات التي أرسلتها
وزارة الخارجية الفرنسية إلى قنصلياتها

مرسوم وزاري – باريس في ٧ مارس (آذار) سنة ١٩٢٥

من وزير الخارجية إلى عمال فرنسا السياسيين وقناصلها في الخارج

إن فرنسا بصفتها الدولة المنتدبة على سوريا ولبنان والمكلفة بحماية السوريين واللبنانيين المقيمين في الخارج ترى من واجبها أن تسهل للرعايا الأتراك الذين تنطبق عليهم المادتان ٣٤ و ٣٦ من معاهدة لوزان اعتناق الجنسية السورية أو اللبنانية.

ولهذا فإني أطلب إليكم بأن تذيعوا بالوسائل الناجعة بين الذين هم من أصل سوري أو لبناني المقيمين في منطقتكم نص المادة المذكورة. وتذكروهم بأن المهلة المعطاة لهم للاستفادة من النص المذكور ينقضي في ٦ آب سنة ١٩٢٦ وأن عليهم لأجل ذلك مراجعة دائرتكم.

وعليكم أن تطلبوا من الذين يرغبون اكتساب رعوية الحكومة التي يرجع أصلهم إلى بلادها أن يوقعوا طلباً على ثلاث نسخ ترون طيّه نموذجاً لها. وعلى الراغب أن يستحضر معه شاهدين يعرّفان عن هويته ويجب عليه أيضاً أن يبرز تأييداً لطلبه كل الإثباتات اللازمة فتعطونه

وصلاً بذلك وتستوفون الرسم القانوني حسب التعرفة أي فرنكين مع الكسور الإضافية.

ويرسل نسختان من الطلب رأساً إلى المفوضية العليا في بيروت والثالثة تحفظ عندكم.

المحامي ميشال شبلي، المهاجرة اللبنانية
المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٢٧، ص ٤٨

لم يُقبل المهاجرون بحماس على اكتساب الجنسية، فتدخلت الحكومة اللبنانية، وأرسلت في آب ١٩٢٦ نداء إلى المهاجرين بواسطة المندوبين اللبنانيين لدى القنصليات الفرنسية تدعوهم إلى أخذ جنسية وطنهم. ووجه رئيس الجمهورية شارل دباس نداء حاراً ومؤثراً إلى المهاجرين يدعوهم إلى أخذ الجنسية لهم ولأولادهم، ويحثهم للعودة إلى الوطن لأنه بحاجة إليهم.

أما في مصر فقد اعتبرت الحكومة كل السوريين واللبنانيين المقيمين في مصر من الرعية المصرية. ويناهز عددهم ١٢٠ ألفاً. فاحتجوا على ذلك لكن دون نتيجة.

مقابل الهجرة من لبنان جرت هجرة إليه، أبرزها هجرة الأرمن من آسيا الصغرى، هرباً من الاضطهاد العثماني، بدأت في القرن التاسع عشر، ونشطت خلال الحرب الأولى وبعدها لا سيما في عهد سيطرة مصطفى كمال، وبلغ عددهم سنة ١٩٢٥ نحو ٣٢٨٥٩

شخصاً. كذلك وصلت إلى لبنان في الثلاثينات وحتى وقوع الحرب العالمية الثانية جماعات من السريان والكلدان والأكراد واليونان... آتية من آسيا الصغرى ومن العراق ومن سوريا.

الهجرة خلال عهد الاستقلال (١٩٤٣ - ١٩٧٥) وحتى بدء الأحداث

استمرت حركة المهاجرة في العهد الاستقلالي، حيث بدت ظروف مناسبة لها، أبرزها ضيق مجالات العمل لا سيما بالنسبة للمتعلمين، وبصورة خاصة لخريجي الجامعات. كذلك حدثت اضطرابات سياسية بسبب الأزمة الفلسطينية، كذلك أحداث ١٩٥٨ كما سنرى، ثم تدفق اليد العاملة الأجنبية على لبنان. وتسريح نحو ٦٠ ألف شاب عملوا في الجيشين الإنكليزي والفرنسي وفي إدارات الانتداب الفرنسي.

تراجعت حركة الهجرة نسبياً بين سنتي ١٩٥١ و١٩٥٨ بسبب تحسن الوضع الاقتصادي، وبلغت نحو ٢٥٥٠٠ شخص، ليصبح عدد المهاجرين الإجمالي نحو ٤٣٩١٠٠. ثم ارتفعت نسبة الهجرة من جديد إلى بلدان العالم إلى قارة أميركا وبصورة خاصة إلى الولايات المتحدة وكندا والبرازيل. وإلى أستراليا وأفريقيا. وكانت هذه الهجرة دائمة بمعظمها.

كذلك نشطت الهجرة إلى بلدان النفط العربية، إذ ذهب عشرات الألوف باختصاصات مختلفة. من اليد العاملة العادية إلى الموصوفة فالمتخصصين في مجالات مختلفة. وكانت هذه

الهجرة إجمالاً، غير دائمة، إنها هجرة عمل. يترك المهاجر عائلته في البلاد على أن يرجع إليها فيما بعد.

الهجرة المعاصرة منذ الحرب اللبنانية ١٩٧٥ حتى اليوم ٢٠٠٣

ضربت لبنان منذ سنة ١٩٧٥ اضطرابات أمنية خطيرة. طالت فيه مناطق عدة. كذلك تعرّضت البلاد لاعتداءات إسرائيلية متكررة ومخربة. أدى كل ذلك إلى نزوح داخلي واسع كذلك إلى حركة مهاجرة كبيرة إلى أنحاء العالم: إلى قارات أميركا وأوروبا وأفريقيا وأستراليا، كذلك إلى البلدان العربية. قُدّر عدد المهاجرين بين سنتي ١٩٧٥ و ١٩٩٠ بأكثر من مليون وأربعمئة ألف شخص ٦٢٪ منهم طلباً للعمل، و٢٧٪ طلباً للعلم، والباقي في اطار جمع شمل العائلات. ونذكر بالمناسبة بأن عدداً من الدول في طليعتها الولايات المتحدة وفرنسا تستقطب الطلاب اللبنانيين المتفوقين، فتؤمن لهم مجال العمل وتمنحهم الجنسية.

تقلصت الهجرة نسبياً بعد عودة السلم ١٩٩٠، ثم تجددت بشكل واسع، فغادر لبنان بين سنتي ١٩٩٢ و١٩٩٩ نحو ٦٩٠ ألف شخص، وما زالت حركة الهجرة مستمرة، سواء بصورة دائمة أم مؤقتة. فيخسر لبنان خيرة أبنائه، فيما يلجأ إليه غرباء، يقيمون فيه، لهم تطلعاتهم وعاداتهم. الأمر الذي يفرض علينا طرح السؤال: إلى أي حدّ يحتفظ لبنان بشخصيته وبتقاليده مع هجرة ابنائه الأصيلين وحلول غرباء محلهم.

رغم الخطر فالهجرة مستمرة، وسبل معالجتها ما تزال عاجزة، ولا توجد لها إحصاءات ودراسات دقيقة. لكن الأرقام التقريبية المتوافرة تبرز لنا خطرها.

عدد المغادرين اللبنانيين بين عامي ١٩٩٤ و١٩٩٩

السنة	١٩٩٤	١٩٩٥	١٩٩٧
عدد المغادرين	٥٦٧٥٤	١٠٦٨١٢	١٥٢٠٧٤

السنة	١٩٩٨	١٩٩٩
عدد المغادرين	١٦٢٨١٢	٢٧٦٦٧٦

د. جهاد العقل، الهجرة الحديثة من لبنان، ص ٢٥٤

وفي دراسة عن عدد المغتربين التقريبي بالنسبة للمقيمين نجد ما يأتي

السنة	السكان المقيمون	السكان المغتربون والمتحدرون
١٩٩٨	٣،١٦٩،٨٨٩	٨،١٠٨١١٦
١٩٩٩	٣،٢٢٦،٥٥٩	٨،٣٦٢،٧٢٠

د. جهاد العقل

الهجرة الحديثة من لبنان، ص ٤٠٣

التعاطي مع الاغتراب

شكلت حركة الاغتراب اللبناني موضوعاً مصيرياً. فقد أصبح الانتشار اللبناني ظاهرة فريدة. طرح من جهة خطر النزف البشري، لكنه قدّم من جهة ثانية خدمات اقتصادية ومالية وسياسية وحضارية عظيمة. فإن عدداً كبيراً من المغتربين حقق نجاحاً كبيراً في مجالات الاقتصاد والمال والعلم والسياسة. لكل هذا كان لا بد للبنانيين، حكومة وشعباً، من الاهتمام بالوضع. حتى سنة ١٩١٨ كان المغتربون اللبنانيون يُعتبرون من الرعايا العثمانيين، والسلطنة مسؤولة عنهم. ومن ثم رعت فرنسا الدولة المنتدبة، شؤون المغتربين. وفي سنة ١٩٣٨ تأسست وزارة للشؤون الخارجية، وترعى أمور المغتربين، واتخذت سنة ١٩٤١ إسم وزارة الشؤون الخارجية.

سعى رئيس الدولة أيوب تابت في ربيع ١٩٤٣ إشراك المغتربين في الحياة السياسية اللبنانية ولم يفلح. ومنذ تحقق الاستقلال في تشرين الثاني ١٩٤٣ اهتم المسؤولون بالأمر. فوجه رئيس الجمهورية بشارة الخوري في ٢٠ ت٢ ١٩٤٥ رسالة إلى المغتربين يؤكد سلامة الوضع في لبنان ويدعو اللبنانيين للعودة. وتحققت في عهد الرئيس كميل شمعون (١٩٥٢ – ١٩٥٨) سلسلة خطوات أبرزها تمديد اتفاق سنة ١٩٢٤ حول اكتساب الجنسية. كذلك تقوية الإذاعة اللبنانية لإسماع صوت لبنان في الخارج، وتم تنظيم صيف المغتربين في لبنان، وقام الرئيس شمعون بزيارة إلى البرازيل حيث أكبر جالية لبنانية في الخارج. وتابع عهد الرئيس فؤاد شهاب (١٩٥٨-١٩٦٤)

الإهتمام بالموضوع، فوجه الرئيس رسالة للمغتربين في ٢٢ ت٢ ١٩٥٨. وتم عقد مؤتمر للمغتربين في بيروت ١٩٦٠ تأسست على أثره الجامعة اللبنانية في العالم، ثم اتخذت إسم الجامعة اللبنانية الثقافية في العالم، وأنشأت الفروع في عدد من البلدان، وعقدت عدة مؤتمرات وأجرت اللقاءات بين الجاليات الاغترابية.

وفي سنة ١٩٩٣ تم انشاء وزارة خاصة بالمغتربين. فأصبحت شؤون الاغتراب موزعة بين ثلاث مؤسسات هي وزارة الخارجية، ووزارة المغتربين، والجامعة اللبنانية الثقافية في العالم، ودب الخلاف بينها. فجرى إلغاء وزارة المغتربين وجعلها مديرية مرتبطة بوزارة الخارجية (١٩٩٩) التي استعادت اسمها: وزارة الخارجية والمغتربين، كذلك تقلص دور الجامعة الثقافية.

انعقدت عدة مؤتمرات للمغتربين في لبنان وخارجه، منها لرجال الأعمال، والمال، والمحامين، والنواب المتحدرين من أصل لبناني، والشباب... ويقوم المسؤولون اللبنانيون بزيارات لديار الاغتراب. وتقوم مؤسسات لبنانية، لا سيما الكنائس المسيحية، بتأسيس المدارس في عدد من بلدان الاغتراب، وتعليم اللغة العربية، كما تم بناء عدد من الكنائس والمساجد... ويقوم رجال الفكر والفنانون بزيارات لبلدان الاغتراب، وإحياء الليالي اللبنانية. ويقوم المغتربون بدورهم بزيارة وطنهم، ويظهرون تعلقهم بأرض أجدادهم. ويواصلون إرسال المساعدات لأهلهم، مما يساهم مساهمة فاعلة لمصلحة الاقتصاد ويحمل

العائدون إلى الوطن الكثير من تقاليد وحضارة بلدان الاغتراب، مما يشكل غنى حضارياً مهماً. بالاختصار للانتشار اللبناني في العالم قيمة حضارية وثروة اقتصادية على اللبنانيين أن يعرفوا كيف يستفيدون منها، وكيف ينظمونها.

النهضـة الفكريـة

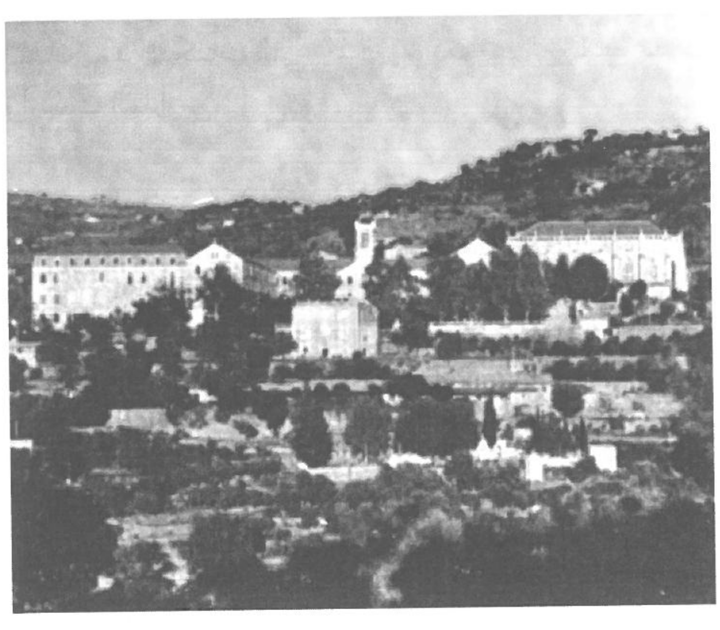
عرف لبنان نهضة فكرية واسعة ازدهرت في القرن التاسع عشر، وانطلقت من لبنان إلى مصر فإلى باقي البلدان العربية، فكانت النهضة في لبنان بداية النهضة العربية الحديثة، وترجع إلى أسباب عدة أولها ميل اللبناني إلى العلم، وقدرته على الاستيعاب والعطاء. وكانت الخطوة الأولى على طريق النهضة مدرسة الموارنة، التي تأسست في روما سنة ١٥٨٣، فتخرج منها المعلمون الأوائل الذين أتوا بالعلم من أوروبا، وأسسوا المدارس في قرى لبنان. ساهم في انطلاق النهضة جو الاستقرار والحرية الذي أمنه الحاكمون منذ فخر الدين الثاني إلى الأمراء الشهابيين لا سيما بشير الثاني، فالدور الذي لعبه ابراهيم باشا المصري. كلّ هذا شجع الإرساليات الأجنبية على المجيء إلى لبنان وتأسيس المدارس، فالتقت على أرض لبنان أفكار البلدان المتحضرة الكبرى، وطرائقها في التعليم. وبعد أحداث سنة ١٨٦٠ عطفت الدول والإرساليات على شعب

لبنان بعد النكبات التي حلّت به، فقدمت له المساعدات وأسست المدارس.

تنافست البعثات التبشيرية والتعليمية على تأسيس المدارس لا سيما من الكاثوليك والبروتستنت وبخاصة بين البعثات الأميركية والبعثات الفرنسية منها اللعازاريون واليسوعيون والإخوة المريميون والبعثة العلمانية وقد طبقوا البرامج الفرنسية، كذلك أسس اليسوعيون الجامعة اليسوعية أو جامعة القديس يوسف في بيروت. وأسس الأنكلوسكسون، من أميركيين وإنكليز، مدارسهم فقد أسس الأميركيون الجامعة الأميركية في بيروت. كذلك أنشأ الروس والألمان والإيطاليون عدداً من المدارس.

ورأت الدولة العثمانية أهمية المدارس لاستقطاب عدد من التلاميذ، فأسست المدارس الرشدية والإعدادية والسلطانية. ووضعت برامج للتعليم سنة ١٨٦٩، استوحتها من البرامج الفرنسية. ثم عدلتها سنة ١٩١٣.

وبعد النجاح الذي حققته الإرساليات في عملها التعليمي، اجتاحت البلاد الرغبة في إنشاء المدارس. فأسست كل طائفة عدداً من المدارس في القرى وفي بيروت حيث اشتهرت مدرسة الحكمة للموارنة، والثلاثة الأقمار وزهرة الإحسان للروم الأرثوذكس، والبطريركية للروم الكاثوليك، والكلية الإسلامية للشيخ أحمد عباس الأزهري، ومدرسة المقاصد الإسلامية، واستمرت مدرسة عين ورقة تدرّس بخمس لغات، وأنشأ المعلم بطرس البستاني المدرسة الوطنية في بيروت.

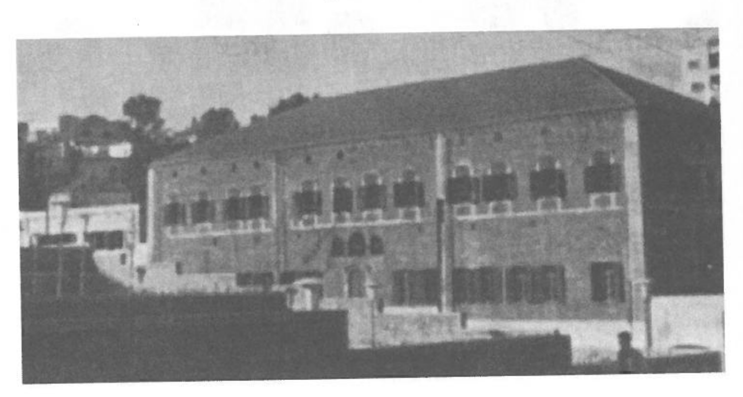


مدرسة عين ورقة في كسروان

بعد تأسيس المدارس وكثرة المتعلمين أكملت النهضة حلقاتها فكثرت المطابع في بيروت والجبل. وجعلت الكتاب في متناول الجميع، وظهرت الصحافة وازدهرت وقد استفادت من وجود المطابع والمثقفين ومن جو الحرية، وظهر عددٌ كبير من الصحف والمجلات. وسافر لبنانيون إلى مصر فأسسوا الصحف والمجلات الكبرى: الأهرام والمقطم والمقتطف والهلال. وظهرت جمعيات للآداب والعلوم. وبرز عدد كبير من رجال الفكر في الأدب والشعر واللغة والتاريخ والعلوم والسياسة. وكان للبنانيين الفضل في إيقاظ الفكر العربي من غفوته التي دامت طيلة العصور التركية المعروفة بعصور الانحطاط، كذلك كان لهم الفضل في طرح موضوع القومية العربية ومعالجته ونشره.

نشط اللبنانيون في كافة المجالات، وبرزت أسماء في مختلف حقول الفكر، ففي مجال **الطباعة** كانت مطبعة دير مار قزحيا أول مطبعة دخلت إلى الشرق ١٦١٠. وتأسست مطبعة مار يوحنا الصابغ ١٧٣٣، وفي القرن التاسع عشر توالى إنشاء المطابع فقد نقل الأميركيون مطبعتهم من مالطا إلى لبنان ١٨٣٤، وأنشأ اليسوعيون المطبعة الكاثوليكية في بيروت ١٨٤٨، ونذكر مطبعة القديس جاورجيوس ١٨٤٧، ومطبعة دير طاميش ١٨٥٥.

ونشأت **الصحافة** وعرفت ازدهاراً كبيراً. وهي وسيلة تثقيف ونشر معرفة وتسلية. كان أولها في لبنان حديقة الأخبار لمؤسسها خليل الخوري ١٨٥٨، ونفير سورية للمعلم بطرس البستاني ١٨٦٠، والزهرة ليوسف شلفون، والجنان لبطرس البستاني، المهماز لخليل عطية، الجنان لسليم البستاني، ثمرات الفنون لعبد



مدرسة حوض الولاية في بيروت

القادر القباني، لسان الحال لخليل سركيس، بيروت لرشيد الدنا، البشير لليسوعيين. وأنشأ اللبنانيون الصحف في بلدان الاغتراب وفي الشرق. ففي اسطنبول أنشأوا مرآة الأحوال، وفي مصر أنشأوا صحفاً ذاع صيتها أبرزها الأهرام والمقطم والمقتطف والهلال. ونال الصحافيون اللبنانيون شهرة كبيرة.

ونشأت الجمعيات الأدبية منها جمعية الآداب والعلوم وأنشأها الأميركيون ١٨٤٧ والجمعية الشرقية أنشأها اليسوعيون ١٨٥٠، وأنشأ الوطنيون عدة جمعيات منها الجمعية العلمية السورية ١٨٥٧.

وكان للنهضة أعلامها وفي حقول عدة نذكر في اللغة والأدب كلاً من الشيخ محمد الحوت والشيخ ناصيف اليازجي، الشيخ يوسف الأسير، الشيخ ابرهيم الأحدب،



مدرَسة تحت السنديانة

ابرهيم اليازجي، أحمد فارس الشدياق، الأب لويس شيخو، الأب لويس معلوف، الشيخ أحمد عباس، الشيخ مصطفى الغلاييني، سعيد الشرتوني، المعلم بطرس البستاني، سليمان البستاني. ونشأ المسرح مع مارون النقاش. وأنشأ اللبنانيون في الاغتراب تياراً فكرياً ناشطاً وبرز كتّاب ومفكرون عديدون منهم جبران خليل جبران، أمين الريحاني، إيليا أبو ماضي، مخايل نعيمة، خليل مطران، أنطوان الجميل، جرجي زيدان، شبلي الشميل، فيليب حتي، حبيب إسطفان، ومن الصحافيين شكري غانم، خير الله خير الله، أسعد داغر وغيرهم. وفي العلم كثيرون منهم حسن كامل الصباح، الدكتور مايكل دبغي...

ومن العاملين في التاريخ نذكر كلاً من البطريرك أسطفان الدويهي والمطران يوسف الدبس، وعيسى اسكندر المعلوف، وطنوس الشدياق، وبولس نجيم، ونجيب العزوري، وجورج يني.

السلاطين العثمانيون منذ مطلع عهد المتصرفية

السلطان عبد العزيز ١٨٦١ – ١٨٧٦، السلطان مراد الخامس ١٨٧٦، السلطان عبد الحميد الثاني ١٨٧٦ – ١٩٠٩، السلطان محمد الخامس (رشاد) ١٩٠٩ – ١٩١٨، السلطان محمد السادس (وحيد الدين) ١٩١٨ – ١٩٢٢، إعلان الجمهورية التركية بقيادة مصطفى كمال (أتاتورك) في ت١، ١٩٢٣.

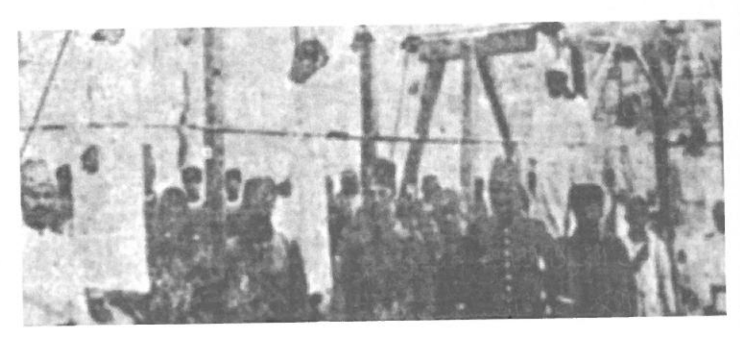
لبنان في القرن العشرين

تسلسلت أحداث القرن التاسع عشر، واستمرّت في القرن العشرين حتى وقعت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ – ١٩١٨. وبعدها دخل الحلفاء بلادنا. وفي أيلول ١٩٢٠ تمّ إعلان دولة لبنان الكبير، تحت انتداب فرنسي مباشر. وفي ١٩٢٦ نشأت الجمهورية اللبنانية واستمر الانتداب. وقعت الحرب العالمية الثانية منذ أيلول ١٩٣٩ وخلالها نال لبنان استقلاله. وبعد الحرب وفي ظل الاستقلال، عرف نهضة عمرانية عظيمة وازدهاراً اقتصادياً وعيشاً هنيئاً. لكن أحداثاً وقعت سنة ١٩٥٨ نغّصت ذاك العيش، وثانية بدأت ١٩٧٥ وأوقعت باللبنانيين خسائر كبيرة واستمرت، متفرقة، حتى بعد مؤتمر الطائف أي حتى ١٩٩٠.

بدأ القرن العشرون، وتتابعت فيه أحداث القرن التاسع عشر، ثم ساءت العلاقات بين الدول الأوروبية الكبرى فانقسمت بين معسكرين: معسكر الحلفاء وقوامه فرنسا وإنكلترا وروسيا،

ومعسكر الوسط وقوامه ألمانيا والنمسا. وفي صيف ١٩١٤ بدأت الحرب بين المعسكرين، ودامت حتى خريف ١٩١٨.

أما السلطات العثمانية فتظاهرت بالحياد، لكنها ما لبثت أن دخلت القتال بجانب ألمانيا، فانعكس موقفها سلباً على البلدان العربية عامة وعلى لبنان خاصة. فقد عيّنت أحد قادتها – جمال باشا – قائداً لجيشها الرابع الموجود في البلاد العربية. جعل مركزه في دمشق وأعلن عن حسن نيّة تجاه اللبنانيين واستعداده لمعاملتهم معاملة حسنة لكنه فعل غير ما قال، ونقض البروتوكول تماماً: فقد دخل الجيش العثماني إلى جبل لبنان آتياً من البقاع، وفرض العثمانيون حصاراً على جبل لبنان، وألغوا الامتيازات الأجنبية ورقابة الدول على تطبيق البروتوكول وتفرّدوا بالإشراف على لبنان، فعزلوا المتصرف أوهانس باشا وعيّنوا متصرفين غير مسيحيين هم على التوالي علي منيف واسماعيل حقي وممتاز بك. وأنشأوا محكمة عرفية في عاليه وحاكموا من اللبنانيين من شكّوا بإخلاصه للدولة العثمانية، فحكموا على كثيرين بالسجن، أو بالنفي أو بالإعدام، وقد جعل



المشانق

اللـبـنـانـيـون فيـما بعد السادس من أيار عيداً للشهداء. فرضوا السخرة على الأهالي، وصادروا الأطباء لمعالجة أفراد الجيش، وضغطوا على رجال الدين الموارنة حتى يطلبوا الفرمان من السلطان العثماني علامة الخضوع له، وكان البطاركة الموارنة دائماً يرفضون هذا الفرمان ويرتبطون بالفاتيكان.

هذا في المتصرفية، أما في مناطق الولاية فقد تصرّف العثمانيون كما يتصرفون في أية منطقة من مناطق السلطنة، وفرضوا الخدمة العسكرية الإجبارية كما يفرضونها على جميع مواطنيهم

شكل اللبنانيون فرقة عسكرية في مصر تشكّلت من المغتربين أو من لبنانيين هربوا من لبنان إلى مصر قاتلت بجانب الحلفاء، كما ذهب عدد منهم إلى الحجاز والتحق بالجيش العربي ضد العثمانيين.

عرف لبنان خلال الحرب ضيقاً اقتصادياً خانقاً، لا سيما في الجبل، حيث لا توجد سهول واسعة، وقد فرض الحلفاء الحصار في البحر على السلطنة. وفرض العثمانيون حصاراً على الجبل



المجاعة خلال الحرب العالمية الأولى

ومنعوا دخول القمح إليه. وأتى الجراد (١٩١٥)، وانهارت قيمة العملة الورقية وتعذر وصول المساعدات من المغتربين، وارتفعت الأسعار، وانتشرت الأمراض فمات ألوف اللبنانيين جوعاً، ووصلت أخبار المجاعة إلى الخارج، وتدخلت النمسا لدى حليفتها السلطنة العثمانية، فوضعت السلطنة نظاماً للإعاشة لكنه لم ينجح بسبب الإدارة السيئة وفقر الدولة فاكتفت بأن سيّرت في شوارع بيروت طنابر لتجمع جثث موتى الجوع وتطمرها في رمال ضاحية بيروت. وقد مات بسبب الأمراض والجوع أكثر من ثلث اللبنانيين.

مواقف الدول ورسم خريطة المنطقة الجغرافية والسياسية بعد الحرب

(سايكس - بيكو. مراسلات الحسين مكماهون. وعد بلفور)

خلال الحرب (١٩١٤ - ١٩١٨) كان همُّ الدول الكبرى كسب هذه الحرب. فادعت كل منها أنها تحارب من أجل العدل والقيم الإنسانية، وليست لها مطامع، إنما كان الواقع غير ذلك، فلكل دولة مصالح تسعى لتحقيقها. ورأت دول الحلفاء أن تتقاسم السلطنة العثمانية وتضع حداً للمسألة الشرقية. طرح قيصر روسيا نقولا الثاني ووزير خارجيته سازونوف، الموضوع منذ آب ١٩١٤ مع إنكلترا وفرنسا كل على حدى. فاقترح أن تسيطر روسيا على المضائق وعلى اسطنبول، وعلى أربع ولايات شرق الأناضول هي أرضروم وتبليس وكردستان وطرابزون. وبالمقابل يطلق يد الدولتين في أفريقيا وفي البلدان العربية.

وافقت الدولتان بعد مناورات سياسية ومفاوضات شاقة، شاركت إيطاليا في قسم منها، وحصلت على وعد بالحصول على أرض في ساحل دلماسيا (يوغسلافيا) وجنوب غرب الأناضول. واحتلت فرنسا جزيرة أرواد في أيلول ١٩١٥ لتؤكد على الأهمية التي تعلقها على الشاطئ الشرقي للمتوسط. ووجه الفرنسيون والإنكليز حملة عسكرية على المضائق ١٩١٥ بحجة الاتصال بروسيا، لكنها لم تنجح. وكانوا ضمنا يريدون منع الروس من السيطرة على المضائق.

أجرى الإنكليز والفرنسيون مفاوضات سرية، قام بها كلٌّ من الإنكليزي مارك سايكس والفرنسي جورج بيكو. وتم الاتفاق سنة ١٩١٦، وتبادلت الدولتان رسائل الموافقة بهذا المعنى، وتم الاتفاق على تقاسم النفوذ شرق المتوسط، وتلوين الخريطة كما يأتي:

١- منطقة نفوذ فرنسي مباشر تمتد من الناقورة جنوباً إلى كيليكيا ضمناً شمالاً، عُرفت بالمنطقة الزرقاء (لونت على الخريطة بالأزرق).

٢- منطقة نفوذ إنكليزي مباشر تشمل ولايتي البصرة وبغداد، عُرفت بالمنطقة الحمراء (لوّنت بالأحمر).

٣- منطقة دولية حيادية تشمل فلسطين عُرفت بالسمراء (لونت بقلم رصاص).

٤- إنشاء دولتين عربيتين في الداخل: دولة عربية (أ) (A) تشمل ولايات دمشق وحلب والموصل، لفرنسا مركز ممتاز فيها. ودولة عربية (ب) (B) تمتد بين المنطقة (أ) شمالاً ونجد جنوباً، وبين المنطقة الحمراء شرقاً والسمراء غرباً، لإنكلترا مركز ممتاز فيها.

ظلت الاتفاقية سرية، حتى كشفت عنها الثورة الشيوعية في روسيا سنة ١٩١٧. فأنكرها الحلفاء الإنكليز والفرنسيون. لكنهم سيحكمون المنطقة بموجبها بعد الحرب.

أما فيما خص لبنان، فأكد الفرنسيون على ضرورة احترام كيانه الذي أعطاه إياه نظام المتصرفية، وبالتالي لا يمكن دمجه بدولة أخرى، كما رأوا توسيع حدوده حتى يصبح قابلاً للعيش. فيتفادى الهجرة، والمجاعة التي ضربته خلال الحرب.

لكن الإنكليز اقترحوا ضمه إلى دولة عربية بشكل فدرالي، وأصرّوا على عدم ضم بيروت إليه، حتى تظل مدينة حرّة لأن للعرب مصالح فيها لا يمكن الاستغناء عنها، فهي مركز تجاري وثقافي، يتعلم أولادهم في مدارسها وفي جامعاتها، ويشكل المرفأ المنفذ الضروري على البحر. فردّ الفرنسيون بأن اللبنانيين لا يقبلون إلا بضم بيروت إلى لبنان. وهم يؤمّنون جميع الخدمات للعرب، كذلك هم يصرون على استرجاع البقاع وضمه إلى لبنان. لأن لبنان الصغير الذي أنشأه نظام المتصرفية غير قابل للحياة، فهو يتعرض للمجاعة خلال الحرب، وقد هاجر

من أهله أكثر من ٣٠٠ ألف شخص إلى أميركا. وتوقفت المفاوضات عند هذا الحدّ.

وكان مسار الحرب يفرض السياسة، فقد احتاج الحلفاء إلى حليف مسلم لا سيما بعد أن أعلن العثمانيون الجهاد أي الحرب المقدسة، وكان في مستعمرات إنكلترا وفرنسا، وبين جيوشهما نسبة كبيرة من المسلمين. كذلك عرفوا بخطة عسكرية يضعها الأتراك والألمان، وتقضي بالإنطلاق عبر الحجاز واجتياز البحر الأحمر إلى مصر. ففاوض الإنكليز الحسين بن علي شريف مكة، وتبادل معه المعتمد الإنكليزي في مصر (مكماهون) الرسائل (سنة ١٩١٥)، ووعده بالموافقة على قيام دولة عربية موسعة، وأرسل الفرنسيون إلى ديار الحسين وفوداً من مسلمي تونس والجزائر للتباحث معه. وبعد أن أعلن الحسين نفسه ملكاً على الدولة العربية في ٣١ ت١ ١٩١٦، بايعته بعض القبائل العربية، فيما عارضه غيرها، وفي طليعة المعارضين كان عبد العزيز آل سعود سلطان نجد. واعترف الحلفاء بالحسين ملكاً على الحجاز فقط.

بدأت ثورة الحجاز في حزيران ١٩١٦ ضد العثمانيين، وتحمس لها الوطنيون العرب، وقدمت خدمات جلى للحلفاء، لكنها لن تحقق قيام الدولة العربية الواسعة بعد الحرب.

لا بد من ذكر قضية ثالثة أثّرت على المنطقة بعد الحرب، هي القضية الفلسطينية. كان اليهود الصهيونيون يسعون لقيام دولة يهودية وقد عقدوا لذلك مؤتمرات عدة، كان أولها وأبرزها

مؤتمر بال (سويسرا) ١٨٩٧. خلال الحرب الأولى قدم اليهود للحلفاء خدمات عدة، وطالبوا بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين. فوافق الإنكليز، ووعدوهم بأرض ليست لهم، فقد أرادوا إرضاء اليهود، ورأوا أن دولة حليفة لهم شمال قناة السويس تساهم في تأمين سلامة القناة وطريق الهند. وجرت المشاورات بين المسؤولين الإنكليز والزعماء الصهيونيين حتى تم الاتفاق على نص التصريح وأعلنه وزير خارجية الإنكليز السير أرتور جيمس بلفور Sir Arthur James Balfour في ٢ ت٢ ١٩١٧. ووافق على هذا الإعلان كل من الولايات المتحدة وفرنسا ١٩١٨. ففتح الطريق لإنشاء دولة إسرائيل على أرض فلسطين سنة ١٩٤٨ دون أن يحفظ حق العرب في أرضهم. مما خلق أزمة خطيرة للبنان وللمنطقة.

نص وعد بلفور

«بالنيابة عن حكومة جلالة الملك، يسرني أن أبلغكم بأن حكومة جلالته تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، مع البيان الحالي بأنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يغير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى».

جورج أنطونيوس، يقظة العرب
ص ٣٧٤ (الطبعة الأولى)

من الحرب إلى الانتداب

رجحت كفة الحلفاء في الحرب، وفي أواخر أيلول سنة ١٩١٨، انسحب العثمانيون من بلادنا تاركين ذكرى مؤلمة. وقد انسحب الوالي العثماني من بيروت وسلّم مسؤولية الحكم إلى رئيس بلدية المدينة، كما انسحب المتصرف من الجبل وسلم مسؤولية الحكم إلى رئيس بلدية بعبدا.

وكان الأمير فيصل بن الحسين ملك الحجاز قد دخل دمشق وشكّل حكومة، وأرسل موفداً من قبله إلى لبنان فرفع العلم العربي في بيروت وفي بعبدا.

لكن بعد ثلاثة أيام (٧ ت١ ١٩١٨) وصلت سفينة فرنسية إلى ميناء بيروت، ونزل إلى الشاطئ قائد السفينة وبعض معاونيه، وساروا في شوارع المدينة، وأنزلوا العلم العربي. كما تقدمت الجيوش الحليفة – الإنكليزية والفرنسية – من الجنوب إلى الشمال، ودخلت بيروت ومعها الفرقة اللبنانية. وتابعت الجيوش الحليفة زحفها حتى شمال سوريا.

عالج الحلفاء الوضع الاجتماعي، فوضعوا حداً للمجاعة وعالجوا الأمراض، ثم أنشأوا المياتم لإيواء اليتامى. واتفق الإنكليز والفرنسيون لإدارة المنطقة وتقاسم النفوذ فيها انطلاقاً من الاتفاقية السياسية السريّة التي تمّ التوصل إليها خلال الحرب وهي اتفاقية «سايكس – بيكو». أعلن الجنرال اللنبي، القائد الأعلى لقوات الحلفاء في الشرق، نظاماً موقتاً لإدارة المنطقة



جنود من الفرقة اللبنانية التي قاتلت بجانب الحلفاء (عن «أبو الهول» مجلة لبنانية في البرازيل ١٩٢٢)

باسم إدارة أرض العدو المحتلة، وتم تقسيمها إلى ثلاث مناطق إدارية: الجنوبية أي فلسطين يديرها الإنكليز. الشمالية الشرقية أي سوريا يديرها الأمير فيصل، الشمالية الغربية أي لبنان وسواحل سوريا حتى كيليكيا يديرها الفرنسيون. عرفت بإدارة أرض العدو. فاحتج مجلس الإدارة على وصف لبنان بالعدو، لأنه عانى كثيراً من العثمانيين.

وبدأ البحث عن نظام جديد للبنان والمنطقة وكانت فرنسا وإنكلترا تهتمان بسياستها وبينهما اتفاقية سريّة لتقاسم النفوذ،

فيما رئيس الولايات المتحدة ولسن يعارض الاستعمار وينادي بحق الشعوب في تقرير مصيرها.

توصلت عصبة الأمم إلى استنباط مشروع نظام جديد، هو الانتداب، كحل وسط بين الاستعمار والاستقلال. باعتبار أن مستعمرات ألمانيا، والمناطق المنفصلة عن السلطنة بحاجة إلى مساعدة خارجية، فتتولى عصبة الأمم إدارتها، وتنتدب، لادارتها، من قبلها واحدة من الدول الخمس الكبرى وهي فرنسا، إنكلترا، إيطاليا، اليابان، الولايات المتحدة التي رفضت الإشتراك.

وتسارعت الأحداث في الشرق، فاعتقد الناس بإمكانية تحقيق الاستقلال بعد انسحاب العثمانيين، لكنهم فوجئوا باحتلال جديد، قامت به كل من إنكلترا وفرنسا. فوقعت ثورات ضد الإنكليز في مصر والعراق. وضد الفرنسيين في بلاد العلويين. وفي حوران، ومدن سوريا، فقرر الإنكليز والفرنسيون تنفيذ الاتفاقات السابقة. واتفق كليمنصو مع لويد جورج (١٥ أيلول ١٩١٩) على أن ينسحب الإنكليز من المناطق المخصصة للنفوذ الفرنسي وعلى ضم الموصل للعراق، وسافر الأمير فيصل إلى أوروبا حتى يفاوض الإنكليز والفرنسيين حول مستقبل سوريا، وتوصل إلى اتفاق مع كليمنصو رئيس وزراء فرنسا على استقلال سوريا وتعاونها مع فرنسا وعلى استقلال لبنان ووضعه تحت الانتداب الفرنسي. لكن السوريين رفضوا الاتفاق. واجتمع المؤتمر السوري وأعلن سوريا مملكة مستقلة. ونظامها ملكي ويصبح الأمير فيصل ملكاً عليها. وكان ذلك في الثامن من آذار سنة ١٩٢٠.

أما في لبنان فكان اللبنانيون يبحثون عن صيغة حكم لبلادهم، وقد تعددت الآراء وتنوعت حسب الطوائف والمناطق. قال أهل المتصرفية باستقلال لبنان وتوسيع حدوده والقبول بمساعدة دولة أجنبية. ورأى المسيحيون أن تكون فرنسا مساعدة لهم. فيما قال سكان الولاية – ومعظمهم من المسلمين – باستقلال ذاتي ضمن الوحدة السورية، وارتفعت آراء تقول باستقلال تام دون مساعدة أحد، وأخرى تدعو إلى وحدة سورية تحت الانتداب الفرنسي.

واتجهت الأنظار إلى باريس حيث انعقد مؤتمر الصلح لتقرير مصير العالم بعد الحرب، فذهب الأمير فيصل يسعى لاستقلال سوريا. واجتمع مجلس الإدارة في متصرفية لبنان وجدد موقفه القاضي باستقلال لبنان وبتوسيع حدوده وإنشاء مجلس نيابي على أساس التمثيل النسبي.

قرار مجلس الإدارة

اجتمع مجلس الإدارة في (٢ أيار ١٩١٩) واتخذ قراراً بموافقة جميع أعضائه جاء فيه ما يأتي:

١- إعلان استقلال لبنان السياسي والإداري ضمن حدوده التاريخية والجغرافية واعتبار الأراضي المغتصبة منه سنة ١٨٦١ أرضا لبنانية يجب إعادتها.

٢- تشكيل «حكومة ديمقراطية» مبنية على الحرية والإخاء والمساواة مع حفظ حقوق الأقليات وحرية الأديان.

٣- الاتفاق بين حكومتي فرنسا ولبنان الصديقتين لتحديد العلاقات الاقتصادية بين لبنان والبلدان المجاورة.

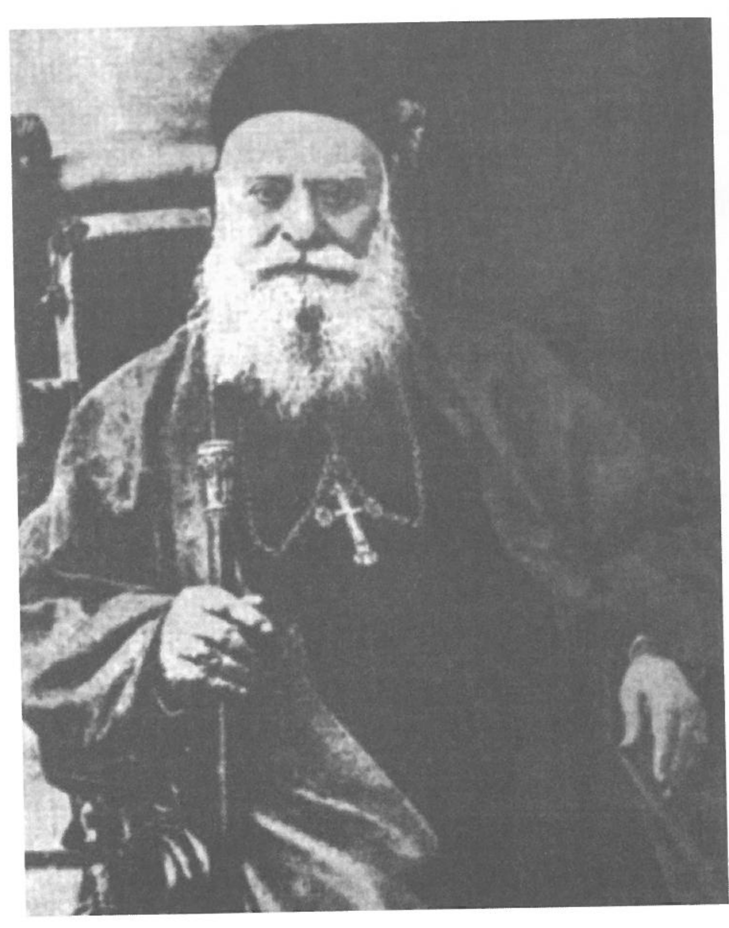
٤- مباشرة درس مشروع قانون أساسي أو دستور.

٥- تقديم هذا القرار إلى مؤتمر الصلح.

E. Rabbath. La Formation historique du Liban. Politique et Constitutionnel. P. 283.

وأرسل مجلس الادارة وفداً من قبله إلى مؤتمر الصلح برئاسة داود عمون (شباط ١٩١٩)، وفيما لم يصل الوفد إلى نتيجة ملموسة، طلب المجلس من البطريرك الماروني إلياس الحويك السفر إلى باريس، فوافق غبطته وسافر بحراً إلى روما ومنها إلى فرنسا (٣ آب ١٩١٩) حيث قابل كبار المسؤولين في طليعتهم رئيس الجمهورية ريمون بونكاره ورئيس الوزراء كليمنصو وكبار الوزراء والنواب، وقدّم لهم مذكرة شرح فيها مطالب اللبنانيين وتتلخص بطلب استقلال لبنان، وبتوسيع حدوده، وبمعاقبة الذين استبدّوا باللبنانيين خلال الحرب، وبإعطاء

اللبنانيين تعويضاً عادلاً، وبقبول الانتداب الفرنسي شرط ألا يؤثر ذلك على حق لبنان بالاستقلال. واستلم غبطته رسالة من كليمنصو رئيس وزراء فرنسا (١٠ ت٢ ١٩١٩) تعبّر عن تعاطف فرنسا مع اللبنانيين وعن استعدادها لتحقيق مطالبهم بالاستقلال. ولما لم يتحقق شيء فوري على الأرض، أرسل غبطته المطران



البطريرك الماروني الياس الحويك

عبد الله الخوري إلى فرنسا (شباط ١٩٢٠)، فاستلم رسالة من ميللران رئيس وزراء فرنسا ووزير خارجيتها تؤكد موافقة فرنسا على احترام استقلال لبنان وتوسيع حدوده والالتزام بالوعد الذي قطعه كليمنصو للبطريرك الحويك.

مقدمة مذكرة البطريرك الحويك

قدّم البطريرك مذكرة باللغة الفرنسية من ١٥ صفحة شرح فيها المطالب، وهذه ترجمة مقدمتها:

١- الاعتراف باستقلال لبنان الذي نادى به الشعب اللبناني وحكومته في اليوم العشرين من شهر أيار سنة ١٩١٩.

٢- إعادة لبنان إلى حدوده التاريخية والطبيعية وإرجاع الأراضي التي سلختها تركيا.

٣- معاقبة مقترفي الفظائع وأعمال الإعدام والمحرّضين عليها مما أتته في لبنان السلطات التركية - الألمانية، ثم فرض التعويضات الواجبة على تركيا مما هو ضروري لإعادة لبنان إلى ما كان عليه من العمران وكثرة السكان الذين أفنى العدد الوافر منهم عمل التجويع الذي دبره لهم العدو قصداً.

٤- لما كان مبدأ الانتداب قد تقرر في معاهدة الصلح المبرمة في فرساي يوم ٢٨ حزيران سنة ١٩١٩ دون أن يؤثر ذلك على حقوق لبنان بالسيادة، فيلتمس أيضاً أن يعهد بهذا الانتداب إلى حكومة الجمهورية الفرنسية التي تتعطف بناء على البند ٢٢ من عهد جمعية الأمم بإيلاء لبنان معونتها وإرشادها. ثم أن البطريرك رئيس الوفد اللبناني، له الشرف أن يدعم مطاليب بلاده بالشروح الآتية:

ويتابع البطريرك في مذكرته شرح النقاط الواردة أعلاه.

وتسلّم البطريرك رسالة من كليمنصو (مؤرخة في ١٠ ت٢ ١٩١٩) يعترف فيها بحقوق لبنان وصواب مطالبه ويعد باسم حكومته على العمل لصيانة هذه الحقوق أي تأييد الاستقلال وتقديم المساعدات وتوسيع الحدود لكن دون تعيينها حسب خريطة محددة.

رسالة كليمنصو رئيس وزراء فرنسا للبطريرك الياس الحويك

«يا صاحب الغبطة

إن المفاوضات التي دارت منذ وصولكم إلى باريس بينكم وبين وزير الخارجية وبيني أنا أيضاً، قد وطّدت

ولا شكّ اليقين عندكم والاعتقاد أن حكومة الجمهورية تستمر بلا تبدّل متمسكة بتقاليد الحب المتبادل منذ قرون بين فرنسا ولبنان.

وقد أكّدت لكم أيضاً تلك المفاوضات أن طرق الحل التي نتبعها نحن في مؤتمر الصلح، هي بوجه الإجمال موافقة لأماني الشعب الذي أنت ممثّله، فإن رغبة اللبنانيين في المحافظة على حكومة ذاتية ونظام وطني ومستقل، تتفق تمام الإتفاق مع التقاليد الفرنسية الحرّة. وليكن اللبنانيون على ثقة من أنهم بمعاضدة فرنسا ومساعدتها سيحافظون على تقاليدهم ويوسعون نطاق أنظمتهم السياسية والإدارية، ويعملون بأنفسهم لاستثمار مرافق بلادهم، وأخيراً أن يروا أولادهم يتأهبون في مدارسهم الخاصة للقيام بالوظائف العمومية.

وأما الحدود التي سيجري فيها هذا الاستقلال، فلا يمكن تعيينها نهائياً قبل أن يقرر ويحدّد أمر الوصاية على سوريا، على أن فرنسا التي بذلت ما في وسعها سنة ١٨٦٠ لكي يتحول لبنان أرضاً اوسع، لا تنسى أن تضييق حدوده كما هو الآن كان نتيجة الضغط الذي أنّ تحته لبنان زمناً طويلاً. وأن فرنسا التي ترغب في تحسين الصلات الاقتصادية بين البلاد الموضوعة تحت وصايتها، ستنظر أيضاً بغاية العناية عند تحديد تخوم لبنان في ضرورة تخويل الجبل الأراضي السهلية والمرافئ البحرية اللازمة لعمرانه.

وإني على ثقة من أن التأكيدات التي أبديتها لغبطتكم توافق العواطف التي حملت الشعب اللبناني في هذه المرة أيضاً على طلب وصاية فرنسا لبلاده. ولي الأمل أن الحلّ النهائي الذي سيبتّه مؤتمر الصلح في المسألة السورية، يفسح المجال للحكومة الفرنسية ويمكّنها أن تحقّق كل التحقيق أماني هذا الشعب الباسل. وأقبل يا صاحب الغبطة فائق احترامي».

باريس في ١٠ ت٢ سنة ١٩١٩

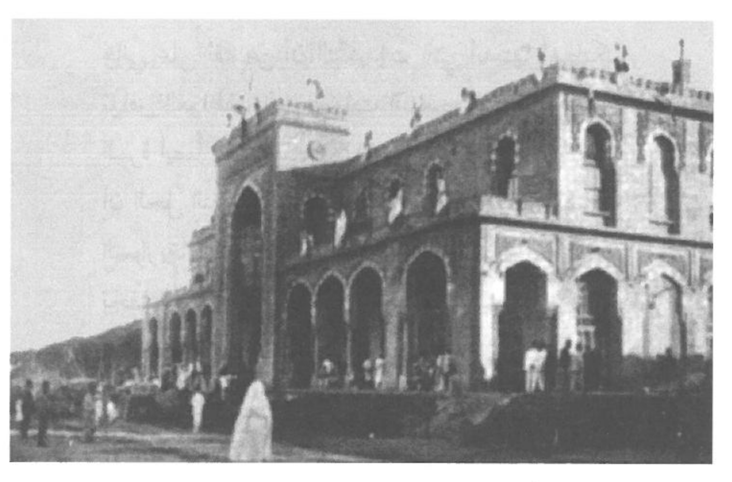
كليمنصو، رئيس وزراء فرنسا

عن كتاب دلائل العناية الصمدانية

الأب ابرهيم حرفوش، ص ٦٠٠

وفي نيسان ١٩٢٠، بناءً على إلحاح فرنسا وإنكلترا، اجتمع المجلس الأعلى لمؤتمر الصلح في سان ريمو شمال إيطاليا، وتقرر تطبيق الانتداب الإنكليزي على العراق وفلسطين، والانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان. وعيّنت فرنسا أحد قادتها العسكريين الجنرال غورو مفوضاً سامياً في الشرق لفرض الانتداب. وقد احتج عدد من أعضاء مجلس الإدارة على قرار الانتداب وحاول سبعة نواب السفر إلى فرنسا لنقل احتجاجهم، لكن تم إلقاء القبض عليهم ومحاكمتهم (منذ ١٧ تموز ١٩٢٠).

طالب الأمير فيصل من مؤتمر الصلح إرسال وفد إلى الشرق لأخذ رأي الأهالي، فحضرت لجنة بطلب الرئيس الأميركي

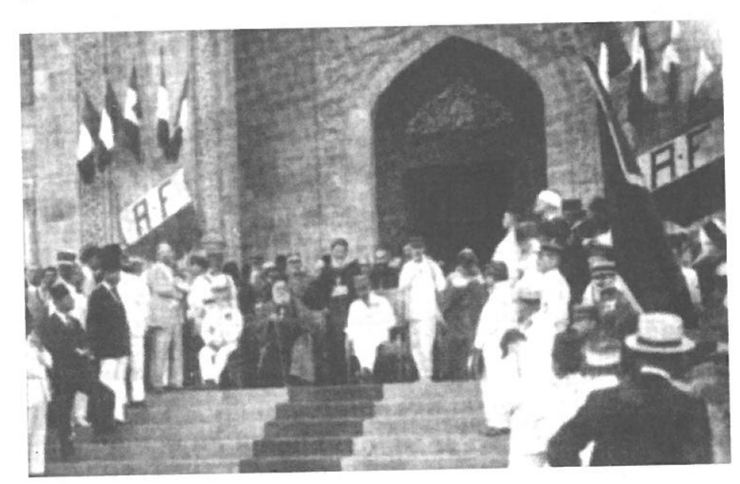


قصر الصنوبر حيث تمّ إعلان دولة لبنان الكبير

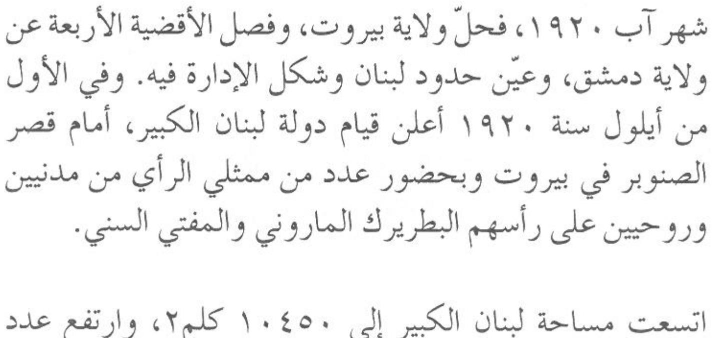
ولسن برئاسة الأميركيين هنري كنغ وشارلز كراين فعرفت باسمهما. وصلت إلى حيفا (١٠ حزيران ١٩٢٠) ومنها إلى سوريا فلبنان حيث تنوعت الآراء بين الاستقلال التام وقبول المساعدة من فرنسا، أو من أميركا، أو من إنكلترا، وقدمت اللجنة تقريرها إلى المسؤولين ولم يؤخذ به. فخلى جو الشرق لإنكلترا وفرنسا.

دولـة لبنـان الكبيـر
١٩٢٠ - ١٩٢٦

اتخذ الجنرال غورو التدابير لفرض سياسة بلاده. فأبعد الملك فيصل عن سوريا بعد معركة ميسلون (تموز ١٩٢٠)، وفرض الانتداب الفرنسي. أما في لبنان فقد اتخذ سلسلة مقررات في



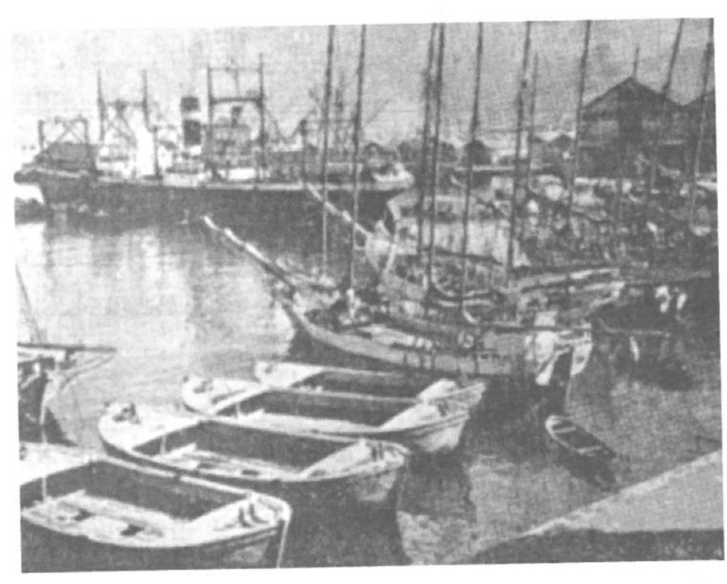
إعلان دولة لبنان الكبير



شهر آب ١٩٢٠، فحلّ ولاية بيروت، وفصل الأقضية الأربعة عن ولاية دمشق، وعيّن حدود لبنان وشكل الإدارة فيه. وفي الأول من أيلول سنة ١٩٢٠ أعلن قيام دولة لبنان الكبير، أمام قصر الصنوبر في بيروت وبحضور عدد من ممثلي الرأي من مدنيين وروحيين على رأسهم البطريرك الماروني والمفتي السني.

اتسعت مساحة لبنان الكبير إلى ١٠٤٥٠ كلم٢، وارتفع عدد سكانه إلى نحو ٦٣٠ ألف نسمة، وأصبحت عاصمته بيروت. ضُمّت إليه سهول البقاع وعكار والجنوب، وأصبحت له مدن كبيرة ومناطق أثرية مهمة. وتبدل وضعه السكاني، عما كان في عهد المتصرفية، فلم تعد الطائفة المارونية ذات أغلبية مطلقة وإن ظلّت أكبر الطوائف. بل أصبح فيه توازن سكاني مسيحي إسلامي.

استقبل المسيحيون هذا الإعلان بالترحاب، واعتبروه الطريق إلى الاستقلال. فيما اعتبره المسلمون مفروضاً عليهم. أما نظام الحكم فكان بيد الفرنسيين، إذ حكموا البلاد مباشرة بواسطة حكام عسكريين. كانت العاصمة بيروت، وللبلاد لغتان رسميتان: العربية والفرنسية، كان **المفوض السامي** على رأس البلاد، مركزه بيروت، ويشرف على مناطق الانتداب في لبنان وسوريا، ويليه **الحاكم** وهو فرنسي أيضاً، بيده السلطة التنفيذية ويساعده مديرون لبنانيون ومستشارون فرنسيون. كذلك عرف لبنان **المجالس التمثيلية** لكن دورها محدود، فهي لا تنتخب الحاكم، ولا تشرف على الحكم. بل تُبدي رأيها في شؤون المال والإدارة والتنظيم والمشاريع، وكانت عصبة الأمم تشرف نظرياً على سياسة الانتداب حسب المادة ٢٢ من ميثاق العصبة،



مرفأ بيروت في العشرينات

والدولة المنتدبة ترفع تقريراً سنوياً عن أعمالها إلى عصبة الأمم. فيما كانت السلطة الفعلية بيد المفوض السامي ومساعديه.

وكان لا بد من تنظيم الإدارة والمال والتعليم ومن وضع القوانين. وبالواقع تحققت في هذه الفترة أعمال كثيرة فقد تم تركيز أسس الدولة ومؤسساتها ووضع قوانينها.

تقسمت البلاد إلى أربع محافظات: الشمال، الجبل، الجنوب، والبقاع، وإلى مدينتين ممتازتين هما طرابلس وبيروت، ونشأت قوى الأمن والمؤسسات ووُضعت القوانين ونُظمت الإدارة. كذلك تم إصدار عملة خاصة بلبنان وسوريا قوامها الليرة، وباشرت السلطات إنجاز المشاريع: مدّ شبكة طرقات

وبناء الجسور، إذ بدأت السيارة تحلّ تدريجاً محل عربة الخيل وحيوانات النقل. بناء الجسور، تنفيذ مشاريع الري والكهرباء. وكانت فرنسا تعتبر أن لها رسالة تحضيرية في العالم فاهتمت بشؤون العلم والحضارة. شجعت المدارس، ووضعت برامج التعليم الابتدائي والتكميلي ١٩٢٤. ونقّبت عن الآثار وأنشأت متحفاً لها.

ولم يكن للبلاد دستور، وكان من المفروض أن تضع عصبة الأمم نصاً يحدد مسؤوليات الدولة المنتدبة وحقوقها فور تكليفها بالانتداب. لكن هذا تأخر حتى ٢٤ تموز سنة ١٩٢٢ عندما صدر صك الانتداب في لندن وبوشر العمل به منذ أيلول ١٩٢٣.

صك الانتداب

اجتمعت لجنة دولية في لندن منذ ٢٦ حزيران ١٩١٩ برئاسة الإنكليزي لورد ميلنر، وضعت مشروع الصك، ورفعته إلى مجلس عصبة الأمم الأعلى (ك١ ١٩٢٠). فأجّل درسه إلى جلسة يعقدها في باريس خلال شباط ١٩٢١. فأبدى ملاحظات أهمها في المجالين الاقتصادي والعسكري، حتى يميّز بين الاستعمار والانتداب. فمنع الدولة المنتدبة من فرض التجنيد الإجباري لمصلحتها في البلدان المنتدبة عليها. وتدارست عدة لجان هذا الصك حتى تم إعلانه في

لندن (٢ تموز ١٩٢٢). احتجت إيطاليا معتبرة أن الصك لم يراع مصالحها في الشرق. فتأخر العمل بموجبه حتى ٢٩ أيلول١٩٢٣.

تألف من مقدمة وعشرين مادة. تذكر المقدمة أن عصبة الأمم كلفت فرنسا بشؤون مناطق كانت تابعة للسلطنة العثمانية وقبلت فرنسا هذا التكليف.

أما المواد فتتناول تنظيم البلاد، ودور الدولة المنتدبة، والعلاقات الخارجية وعصبة الأمم.

على الدولة المنتدبة أن تضع دستوراً خلال ثلاث سنوات بالمشاركة مع السلطات الوطنية. يحق لها إبقاء جيش في البلاد، واستخدام وسائل النقل كافة. عليها إعداد قوى أمن من أهل البلاد، تتولى الشؤون الخارجية. تحافظ على الأرض فلا تتنازل عن أي جزء منها. يتم إلغاء الامتيازات الأجنبية وتستمر المحافظة على المحاكم القنصلية الأجنبية. يتم وضع نظام قضائي يصون الحريات وحقوق الطوائف والأحوال الشخصية. يتأمن ضمان الحريات كافة والاهتمام بالآثار من حيث التنقيب والمحافظة عليها والكتابة عنها. يكون للبلاد لغتان رسميتان هما العربية والفرنسية. ترفع الدولة المنتدبة تقريراً سنوياً مفصلاً إلى عصبة الأمم. ويتم الرجوع إلى محكمة العدل الدوليةفي لاهاي إذا وقع خلاف وتعذرت تسويته بين الأطراف المتنازعة.

تخطيط الحدود

بعد قيام دولة لبنان الكبير، أصبح لا بد من رسم الحدود. لم يكن من مشكلة من جهة الغرب حيث البحر، ولا من الشمال والشرق مع سوريا حيث النفوذ الفرنسي. بل كانت الصعوبة من جهة الجنوب حيث النفوذ الإنكليزي والمطامع الصهيونية. كان الإنكليز يريدون تقليص مناطق النفوذ الفرنسي، والصهيونيون يريدون توسيع مناطق النفوذ الإنكليزي انطلاقاً من فلسطين صوب الشمال، ليحصلوا على المياه وحتى يسيطروا على منابع نهر الأردن. وهم يطمعون بأرض فلسطين بعد وعد بلفور.

كانت حدود لبنان تتغير حسب الظروف التاريخية، ففي بعض عهود الإمارة وصلت إلى عكا وبحيرة طبريا. ثم تقلصت في عهد المتصرفية لكن حدود ولاية بيروت وصلت إلى عكا ومنها في خط إلى بحيرة طبريا. وحسب اتفاقات سايكس – بيكو يصل النفوذ الفرنسي جنوباً إلى الناقورة، ويتبع خطاً حتى بحيرة طبريا.

وبعد الحرب طالب مجلس الإدارة بتوسيع لبنان إلى حدوده الطبيعية والتاريخية، دون تعيين هذه الحدود. أما البطريرك الحويك فطالب بتعيين الحدود حسب الخريطة التي وضعتها الحملة الفرنسية إلى لبنان سنة ١٨٦٠ – ١٨٦١. ووعد كليمنصو بتوسيع الحدود إنما دون تحديدها.

شكل الإنكليز والفرنسيون لجنة لتعيين الحدود سنة ١٩٢٠

بدأت العمل منذ ١٩٢١. كان فريق العمل الإنكليزي برئاسة نيوكومب وفريق العمل الفرنسي برئاسة بوله. كما شارك فريق من لبنان وآخر من فلسطين. وعرفت باسم New Comb- Poulet.

ونشطت الحركات الصهيونية، ورفعت المذكرات إلى عصبة الأمم وإلى الدول الكبرى، مطالبة بتوسيع حدود فلسطين شمالاً إلى حدود المتصرفية، بحيث تشمل الجنوب اللبناني بما فيه نهر الليطاني ومدن صيدا وصور ونهر الزهراني، كذلك سهل الحولة ومنابع الأردن وجبل حرمون ونهر اليرموك. وطالبت مذكرات أخرى بمدّ حدود فلسطين حتى طريق بيروت – دمشق. وادعت هذه المذكرات أن الدولة الفلسطينية لن تكون قابلة للعيش إذا لم تتوسع شمالاً وتمتلك مصادر المياه.

وقدم سكان القرى الجنوبية من لبنان بدورهم عرائض إلى مؤتمر الصلح وإلى مندوبي الدول الكبرى، مؤكدين أنهم لبنانيون، وأن بيروت هي السوق الطبيعي لتجارتهم. وهم يصرّون على الإنضمام إلى لبنان.

أما من جهة فرنسا فأصر رئيس وزرائها كليمنصو أن يمتد نفوذها حتى الناقورة. وتابعت لجنة رسم الحدود العمل على هذا الأساس حتى أتمت هذا العمل بنجاح ١٩٢٣. لكنها تنازلت للنفوذ الإنكليزي عن سهل الحولة علماً أن لبنانيين وسوريين كانوا يمتلكون معظم هذا السهل. وأقرت عصبة الأمم هذه الحدود سنة ١٩٣٤ فحملت صفة الحدود المعترف بها دولياً.

الجنرال غورو يتحدث عن الحدود

ان المناقشات الأكثر حدّة دارت حول الحدود الجنوبية بين فلسطين ولبنان. كان الانكليز، وبضغط من الصهيونية، طالبوا بالليطاني وبمنابع الأردن وبنهر اليرموك. وادعوا أن الحدود ان لم تكن كذلك تحرم فلسطين من مناطقها الشمالية. وتصبح الدولة الفلسطينية التي ستنشأ غير قابلة للعيش.

أخيراً وبعد مناقشات تم الاتفاق في ٢٣ ك١ ١٩٢٠ فأرضى الانكليز جزئياً باعطائهم سهل الحولة. وهو بمعظمه يمتلكه السوريون واللبنانيون. أما التحديد الدقيق فتم سنة ١٩٢٣.

Philippe Gouraud, Le Général Gouraud au Liban et en Syrie 1919 - 1923, P 82

الجمهورية اللبنانية

ألحّ اللبنانيون على المطالبة بوضع دستور يؤمن مشاركة وطنية في الحكم، واستجابت سلطات الانتداب لا سيما بعد الثورة في سوريا (١٩٢٥) وكلّفت وزارة الخارجية الفرنسية لجنة لوضع دستور برئاسة رجل القانون جوزف بول بونكور، فوضعت مسودة دستور استوحته من دستور الجمهورية الثالثة في فرنسا. وتحول المجلس النيابي اللبناني إلى مجلس تأسيسي، وشكل لجنة لدرس الدستور. فاستعانت بالمسودة الفرنسية، وعدّلتها بما يتلاءم مع وضع لبنان، وفي ٢٣ أيار سنة ١٩٢٦ أقر المجلس النيابي الدستور اللبناني بحضور المفوض السامي. وعلى ضوء هذا الدستور أصبح لبنان جمهورية ديمقراطية برلمانية، قوام الحكم فيه ثلاث سلطات منفصلة: تنفيذية: رئيس جمهورية ووزراء، تشريعية: نواب وشيوخ. وقضائية: قضاة ومحاكم. وظلت بيروت عاصمة لبنان، وعلم البلاد فرنسي داخله الأرزة، ولغتان رسميتان: العربية والفرنسية، وظلّ لعصبة الأمم إشراف رسمي لكنه اسمي،

شكلي فقط. على الانتداب، وظل للمفوض السامي صلاحيات واسعة وإشراف على الحكم. وأمن الدستور احترام الحريات كافة، وحقوق المواطنين والمساواة أمام القانون. وخص الدولة المنتدبة بامتيازات خاصة في بابه الخامس.

أبواب الدستور اللبناني لسنة ١٩٢٦

تكوّن من (١٠٢) مئة ومادتين. موزعة في ستة أبواب تألف كل منها من فصول.

الباب الأول: حدد شكل الدولة وحدودها. عاصمتها بيروت، لغتها الرسمية هي العربية والفرنسية. أكد على حفظ الحقوق، والمساواة أمام القانون. واحترام الحريات كافة (السياسية، والدينية، وحرمة المنزل، وحق الملكية..).

الباب الثاني: حدد عمل السلطات الثلاث: الإجرائية أو التنفيذية، التشريعية، القضائية. أما الإجرائية فتناط برئيس الجمهورية والوزراء. والتشريعية بالنواب والشيوخ. ويمنح حق الانتخاب لكل لبناني (ذكر) أتم الواحدة والعشرين. والنائب يمثل الأمة جمعاء. يجتمع المجلس النيابي في دورتين عاديتين، وعند الحاجة. أما السلطة القضائية فتتولاها المحاكم وتُصدر الأحكام باسم الشعب اللبناني.

الباب الثالث: يتناول أحكاماً تتعلق بصلاحيات مجلس النواب (وهي مراقبة الحكم، سن القوانين، انتخاب رئيس الجمهورية، مراقبة الميزانية، تعديل الدستور).

الباب الرابع: تدابير تتعلق بالمالية والضرائب والميزانية.

الباب الخامس: يتناول أحكاماً تتعلق بالدولة المنتدبة وبعصبة الأمم.

الباب السادس: يتناول أحكاماً تتعلّق بالتوزيع الطائفي، وبالتمثيل العادل. وإن اسم لبنان أصبح «الجمهورية اللبنانية».

بعض المواد من دستور ١٩٢٦

المادة الأولى: لبنان الكبير دولة مستقلة ذات وحدة لا تتجزأ. أما حدوده فهي المعترف بها رسمياً من قبل الجمهورية الفرنسية المنتدبة ومن لدن جمعية الأمم، وهي التي تحده حالياً:

شمالاً: من مصب النهر الكبير على خط يرافق مجرى النهر إلى نقطة اجتماعه بوادي خالد الصابّ فيه على «جسر القمر».

شرقاً: خط القمة الفاصل بين وادي خالد ووادي نهر العاصي «أورانت» ماراً بقرى معيصر، جربعانة، هيت، إيش فيصان... على علو قريتي بريفا ومطربا. وهذا الخط تابع حدود أقضية بعلبك الشمالية والبقاع وحاصبيا وراشيا الشرقية.

جنوباً: حدود قضائي صور ومرجعيون الجنوبية.

وغرباً: البحر المتوسط.

المادة الثانية: لا يجوز التخلّي عن أحد أقسام الأراضي اللبنانية أو التنازل عنها.

المادة الرابعة: لبنان الكبير جمهورية عاصمته بيروت.

المادة السابعة: كل اللبنانيين سواء لدى القانون. وهم يتمتعون بالسواء بالحقوق المدنية والسياسية ويتحملون الفرائض والواجبات دون ما فرق بينهم.

المادة التاسعة: حرية الاعتقاد مطلقة والدولة بتأديتها فروض الإجلال لله تعالى تحترم جميع الأديان والمذاهب، وتكفل حرية إقامة الشعائر الدينية تحت حمايتها على أن لا يكون في ذلك إخلال في النظام العام. وهي تضمن للأهلين على اختلاف مللهم احترام نظام الأحوال الشخصية والمصالح الدينية.

المادة العاشرة: التعليم حرّ ما لم يخلّ بالنظام العام أو ينافِ الآداب أو يتعرض لكرامة أحد الأديان والمذاهب. ولا يمكن أن تمسّ حقوق الطوائف من جهة إنشاء مدارسها الخاصة على أن تسير في ذلك وفقاً للأنظمة العامة التي تصدرها الدولة في شأن المعارف العمومية.

المادة السابعة عشرة: تناط السلطة الإجرائية برئيس الجمهورية وهو يتولاها بمعاونة الوزراء وفقاً لأحكام هذا الدستور.

المادة العشرون: السلطة القضائية تتولاها المحاكم على اختلاف درجاتها واختصاصاتها ضمن نظام ينص عليه القانون. ويحفظ بموجبه للقضاء والمتقاضين الضمانات اللازمة. أما شروط الضمانة القضائية وحدودها فيعينها القانون. والقضاة مستقلون في إجراء وظيفتهم. وتصدر القرارات والأحكام من قبل كل المحاكم وتنفذ باسم الشعب اللبناني.

المادة الواحدة والعشرون: لكل مواطن لبناني بلغ من العمر إحدى وعشرين سنة كاملة حق أن يكون ناخباً على أن تتوفر فيه الشروط المطلوبة بمقتضى قانون الانتخاب.

المادة السابعة والعشرون: كل عضو في مجلس نواب يمثل الأمة جمعاء ولا يجوز أن تربط وكالته اللبنانية بقيد أو بشرط سواء من قبل منتخبيه أو من قبل السلطة التي تعيّنه.

المادة الثامنة والعشرون: يجوز الجمع بين النيابة ووظيفة الوزارة. أما الوزراء فيجوز انتقاهم من أعضاء المجلس النيابي أو من أشخاص خارجين عنه أو من كليهما.

المادة الثانية والثلاثون: يجتمع المجلس في كل سنة في عقدين عاديين. فالعقد الأول يبتدئ يوم الثلاثاء الذي يلي ١٥ من شهر آذار. وتتوالى جلساته حتى نهاية شهر أيار. والعقد الثاني يبتدئ يوم الثلاثاء الذي يلي ١٥ تشرين الأول وتخصص جلساته بالبحث في الموازنة والتصويت قبل كل عمل آخر وتدوم مدة هذا العقد لآخر السنة.

المادة الرابعة والثلاثون: لا يكون اجتماع المجلس قانونياً ما لم تحضره الأكثرية المطلقة من مجموع الأعضاء الذين يؤلّفونه وتتخذ القرارات بغالبية الأصوات. وإذا تعادلت الأصوات سقط المشروع المطروح للمناقشة.

المادة التاسعة والثلاثون: لا يجوز إقامة دعوى جزائية على أي عضو من أعضاء المجلس بسب الآراء والأفكار التي يبديها مدة نيابته.

المادة التاسعة والأربعون: يُنتخب رئيس الجمهورية، بالاقتراع السرّي بغالبية الثلثين من مجلس النواب في الدورة الأولى ويكتفي بالغالبية المطلقة في دورات الاقتراع التي تلي. وتدوم رئاسته ثلاث سنوات (ثم

أصبحت ست سنوات). ولا تجوز إعادة انتخابه إلا بعد ست سنوات لانقضاء مدة ولايته، ولا يجوز انتخاب أحد لرئاسة الجمهورية ما لم يكن حائزاً على الشروط التي تؤهله للنيابة.

المادة الخمسون: عندما يقبض رئيس الجمهورية على أزمة الحكم عليه ان يحلف أمام البرلمان يمين الإخلاص للأمة والدستور بالنص التالي:

«أحلف بالله العظيم أني أحترم دستور الأمة اللبنانية وقوانينها وأحفظ استقلال الوطن اللبناني وسلامة أراضيه».

المادة الثالثة والخمسون: رئيس الجمهورية يعين الوزراء ويسمي منهم رئيساً، ويقيلهم، ويعيّن عدداً من النواب عملاً بالمادة ٢٤، ويولي الموظفين مناصب الدولة ما خلا التي يحدد القانون شكل التعيين على وجه آخر، ويرأس الحفلات.

المادة الرابعة والستون: يتولى الوزراء إدارة مصالح الدولة ويناط بهم تطبيق الأنظمة والقوانين كل بما يتعلق بالأمور العائدة إلى إدارته وبما يختص به.

المادة السادسة والستون: يتحمل الوزراء إجمالاً تجاه المجلس تبعة سياسة الحكومة العامة ويتحملون إفرادياً

تبعة أفعالهم الشخصية ويُعدُّ بيان الحكومة ويُعرض على المجلس بواسطة رئيس الوزراء أو وزير يقوم مقامه.

المادة الثالثة والسبعون: قبل موعد انتهاء ولاية رئيس الجمهورية بمدة شهر على الأقل، أو شهرين على الأكثر، يلتئم المجلس النيابي بناءً على دعوة من رئيسه لانتخاب الرئيس الجديد. وإذا لم يدعَ المجلس لهذا الغرض فإنه يجتمع حكماً في اليوم العاشر الذي يسبق انتهاء ولاية الرئيس.

المادة السادسة والسبعون: يمكن إعادة النظر في الدستور بناء على اقتراح من رئيس الجمهورية فتقدم الحكومة مشروع القانون إلى مجلس النواب.

المادة السابعة والسبعون: يمكن للنواب إعادة النظر في الدستور بناء على طلب مجلس النواب.

المادة الواحدة والثمانون: تفرض الضرائب لأجل المنفعة العمومية، ولا يجوز إنشاء وجباية ضريبة في لبنان الكبير إلا بموجب قانون شامل تنطبق أحكامه على كل الأراضي اللبنانية دون استثناء.

مارس اللبنانيون الحكم على أساس الدستور، فانتخب مجلسا النواب والشيوخ رئيساً للجمهورية هو الأستاذ شارل دباس، أرثوذكسي من بيروت، وأقسم يمين الإخلاص للأمة اللبنانية

أمام الشيخ محمد الجسر رئيس مجلس الشيوخ، ومارس السلطة بموجب الدستور، فشكل حكومات متعاقبة كان رؤساؤها من الطائفة المارونية أمثال أوغست أديب وبشارة الخوري وإميل إده وحبيب باشا السعد، وجرى بعض التعديلات على الدستور فانضم مجلس الشيوخ إلى مجلس النواب، وظل الشيخ محمد الجسر رئيساً لهذا المجلس، وتم وضع النشيد الوطني اللبناني، وبرامج للتعليم الثانوي وشهادة البكالوريا بقسميها الأول والثاني (١٩٢٩).

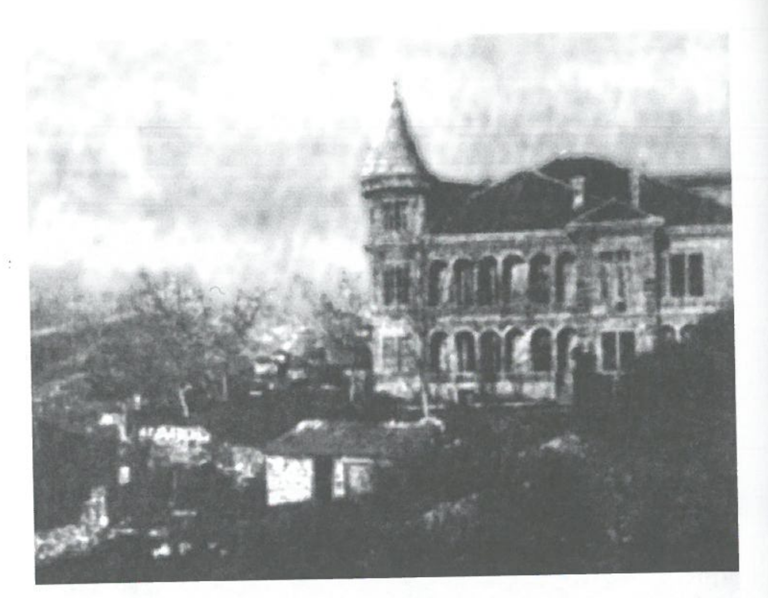
وبنهاية ولاية الدباس الثانية سنة ١٩٣٢ طالب الموارنة برئاسة الجمهورية، واشتد التنافس بين الزعيمين إميل إده وبشارة الخوري. وترشح الشيخ محمد الجسر لرئاسة الجمهورية فعلّق المفوض السامي الدستور، وحلّ المجلس النيابي، وجدّد ولاية الدباس سنة جديدة. استقال بعدها فعيّن المفوض السامي **حبيب باشا السعد** رئيساً، وكان العالم ومنه لبنان، يجتاز أزمة اقتصادية منذ سنة ١٩٢٩. وفي مطلع سنة ١٩٣٦ أعاد المفوض السامي الدستور جزئياً وتم انتخاب مجلس نيابي، وهو بدوره انتخب **إميل إده** رئيساً للجمهورية، وعرف عهده نشاطاً سياسياً بارزاً فازدهرت الصحافة ونشطت الأحزاب وأصبحت رئاسة الوزراة بيد السنّة. لكن الآراء انقسمت حول عدد من المواضيع بما فيها واقع لبنان. فعقدت بعض الهيئات الإسلامية مؤتمرات (عرفت بمؤتمرات الساحل) ودعت إلى الوحدة مع سوريا وأيدها في ذلك الحزب السوري القومي بزعامة مؤسسه أنطوان سعاده. وتشكل حزب الكتائب بزعامة الشيخ بيار الجميل ودافع عن استقلال لبنان، وأسس عدد من المسلمين حزب النجادة. ونشط

الحزب الشيوعي اللبناني السوري. وكان حزبان يتنافسان للزعامة في جبل لبنان هما الكتلة الدستورية بزعامة بشارة الخوري والكتلة الوطنية بزعامة إميل إده. وقد انضمّ إلى كل منهما محازبون من الطوائف والمناطق كافة.

وكانت أوروبا تجتاز وضعاً دقيقاً ينذر بوقوع حرب عالمية، فرأت فرنسا وإنكلترا أن تتقربا من الشعوب العربية. فعقدت إنكلترا معاهدة مع مصر (١٩٣٦) وعقدت فرنسا معاهدة مع سوريا. كذلك عقدت معاهدة في لبنان وبموجبها تعترف باستقلال لبنان وتتعهد بإدخاله عصبة الأمم وبتقديم المساعدات



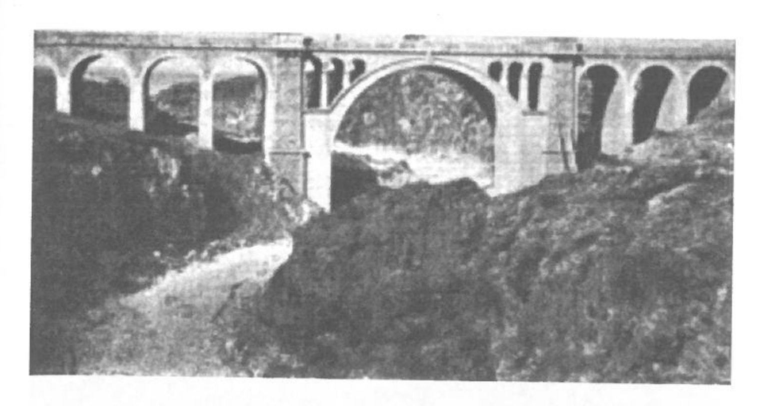
كلية المقاصد



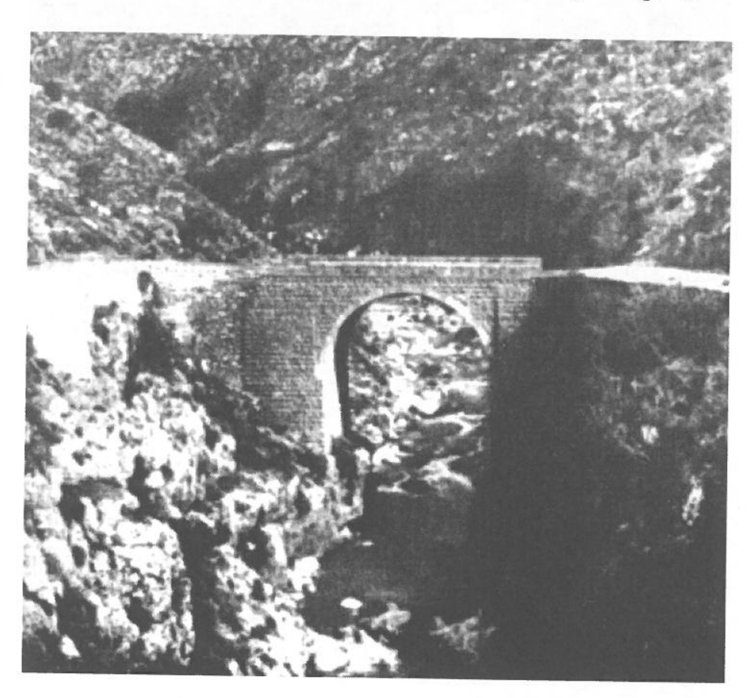
فيلا في صوفر

وذلك لقاء قواعد عسكرية وامتيازات ثقافية وسياسية واقتصادية. وافق المجلس النيابي اللبناني على المعاهدة، ولم تُعرض على المجلس الفرنسي.

تحقق عدد من الإنجازات في هذه المدة أبرزها تعيين الحدود، وضع عملة خاصة بالبلاد قوامها الليرة، وضع قوانين عصرية، تنظيم الإدارة، وضع برامج التعليم، ونشاط المدارس، ووضع شهادات التعليم الرسمية، إنجاز مشاريع للري وللكهرباء. وتوسيع شبكة الطرق وبناء الجسور، وتأسيس بعض المصانع الآلية، وبناء عدد من الفنادق وازدهار حركة التجارة والسياحة والاصطياف. وإنشاء مطار في منطقة بير حسن قرب بيروت، وإذاعة الشرق في بيروت، والمتحف الوطني، وتوسيع مرفأي بيروت وطرابلس.



جسر (جاج) شمالي جبيل



جسر الرميل بين المروج وحمانا عبّارة من عهد الانتداب

معاهدة ١٩٣٦

طالب اللبنانيون بمعاهدة تحدد العلاقة بالدولة المنتدبة. وأصبحت الظروف ملائمة سنة ١٩٣٦ بسبب الوضع القلق في أوروبا، مع تحديات الفاشستية في إيطاليا والنازية في ألمانية، للديمقراطيات الغربية والدعايات الموجهة للعرب ضد الغرب، واحتلال إيطاليا للحبشة. فرأى الإنكليز والفرنسيون أن يتقربوا من الوطنيين العرب. دخل الإنكليز في مفاوضات مع مصر لعقد المعاهدة، كذلك فعلت فرنسا مع سوريا، وسافر وفد سوري إلى باريس، وسهّل العملية وصول الجبهة الشعبية إلى الحكم في فرنسا، وكانت تريد تقليص مسؤولياتها في الخارج. فتم توقيع المعاهدة مع الوفد السوري في باريس (١٩ أيلول ١٩٣٦) وقابلها السوريون بفرح كبير وبتأييد واسع.

أما في لبنان فطالبت الحكومة بمعاهدة، ردّت فرنسا بأن ما يتمّ الاتفاق عليه مع سوريا، يتم مثله مع لبنان. وكلفت المفوض السامي ده مارتل بإجراء المفاوضات في بيروت وقد تشكل الوفد اللبناني المفاوض من الحكومة ومن المعارضة. وتم توقيع المعاهدة في ١٣ ت٢ ١٩٣٦ في السراي الصغير في بيروت بين الرئيس إميل إده والمفوض السامي ده مارتل. وتكونت من نصّ أساسي عنوانه «معاهدة صداقة وتحالف» من تسع مواد. ويتبع النص اتفاق عسكري من سبع مواد، وخمسة بروتوكولات، و١٢ رسالة متبادلة.

تتضمن المعاهدة تحالفاً دائماً، وتعهداً من فرنسا بمنح لبنان الاستقلال، وبإدخاله عصبة الأمم، وبالتعامل بين لبنان وفرنسا كدولتين حليفتين وقت السلم والحرب. وتتشاور الدولتان في الشؤون العسكرية.

ولا تعقد إحداهما معاهدة مضرة بالثانية. وتتعهد فرنسا بأن تنقل إلى لبنان جميع صلاحيات الدولة المنتدبة، وأن تقدم للبنان المساعدات التي يحتاج إليها، وتمثله في الخارج حيث لا يكون له تمثيل. ويعترف لبنان بمصالح فرنسا على أرضه، ويعاملها معاملة الدولة الأكثر رعاية، ويمنحها قواعد عسكرية ويعطيها التسهيلات اللازمة، شرط ألا تتدخل في شؤون البلاد الداخلية، ويجري تبادل دبلوماسي. وافق عليها المجلس النيابي اللبناني بالإجماع (٢٤ ت٢) إنما انقسم حولها اللبنانيون – فيما اعتبرها المسيحيون ضمانة فرنسية لنظام لبنان وحدوده. عارضها المسلمون واعتبروا أنها تحول دون الانضمام لسوريا. ومشت تظاهرات مؤيدة وأخرى معارضة. فتدخل الجيش الفرنسي وحال دون وقوع اصطدامات.

أما في فرنسا فعارضها اليمينيون والعسكريون وحالوا دون عرضها على المجلس النيابي.

المادة الأولى: يسود بين فرنسا ولبنان سلم وصداقة دائمان يقوم تحالف بين الدولتين المستقلتين والمتمتعتين

بالسيادة توثيقاً لصداقتهما وللصلات التي تجمع بينهما للدفاع عن السلم والمحافظة على مصالحهما المشتركة.

المادة الثانية: اتفقت الحكومتان على أن تتشاورا بصورة تامة وبدون تحفظ، في كل أمر يتعلق بالسياسة الخارجية من شأنه أن يمسّ مصالحهما المشتركة. ويتعهد كل من الطرفين الساميين المتعاقدين، بأن لا يقف أزاء الدول الأخرى موقفاً لا يتفق والتحالف، وبأن يمتنع عن عقد أي اتفاق لا يتلائم مع هذه المعاهدة وتقيم كل منهما لدى الأخرى ممثلاً سياسياً.

الدكتور عادل اسماعيل

السياسة الدولية في الشرق العربي، ج ٥، ص ٢٨٢

الوضع الاجتماعي والاقتصادي بين سنتي ١٩١٩ – ١٩٣٩

بعد أن سيطر العثمانيون على بلادنا أكثر من أربعمئة سنة حلّت محلهم دولة أوروبية قوية. حكمت البلاد، سعت لتطويرها على طريقتها، فرضت لغتها وتقاليدها. ووضعت قوانين مستمدة من قوانينها. ارتسم اللقاء بين شرق وغرب، بين قديم وحديث. لاح صراع حضاري وبدأ تطور أدى إلى تكامل حضاري. فأخذ لبنان بكثير من الحضارة الغربية، لكن دون أن يتخلى عن تقاليده. تعرّض الوضع الجديد لانتقادات، كذلك رأى كثيرون أن ما

أخذه لبنان كان مفيداً. سنحاول وصف هذه المرحلة كما يفسح المجال في دراسة موجزة.

باشرت سلطات الانتداب تنظيم البلاد، فدرست الوضع السكاني، ووضعت أنظمة الإدارة والحكم والمال والاقتصاد. وخططت لبناء الدولة وتنظيمها طبعاً حسب مفهوم الدولة المنتدبة. والعصر القائم آنذاك.

الوضع السكاني

أجرت سلطات الانتداب إحصاءً عاماً للسكان سنة ١٩٢٢ ومنحت الهوية أو التذكرة اللبنانية لأول مرة، باسم دولة لبنان الكبير. وفي سنة ١٩٢٤ وضعت القانون للمهاجرين اللبنانيين حتى يأخذوا الجنسية اللبنانية. ثم جرى إحصاء آخر سنة ١٩٣٢ فبلغ السكان ٧٩٣٣٩٦ شخصاً.

استمرت حركة الهجرة من لبنان وإليه، فبين سنتي ١٩٢٨ و ١٩٣٨ غادر البلاد ٢٨٦١٥ شخصاً، ورجع إليها ١٨٣٨٣ شخصاً. وظلت الهجرة، رغم مساوئها تشكل دخلاً اقتصادياً وقيمة حضارية مهمة للبلاد. واستقبل لبنان عدداً كبيراً من المهاجرين الأجانب. فوصلت إليه جاليات يونانية وأرمنية من آسيا الصغرى كذلك وصل مهاجرون من الأكراد والكلدان والسريان والأشوريين خاصة من العراق. وكانت هجرة الأرمن إلى لبنان هي الأكبر. فقد أتوا على مراحل، وبلغ عددهم نحو سبعين ألفا سنة ١٩٤٣. وقد شكلوا يداً عاملة ماهرة، وساهموا بخلق حركة صناعية ناشطة. وحصلوا على الجنسية اللبنانية، وتمثلوا في مجلس النواب.

حركة التعليم

كانت فرنسا، كغيرها من الدول الاستعمارية، تعتقد أن الاستعمار سيدوم طويلاً، وأن لفرنسا رسالة تحضيرية في العالم. وكان الفرنسيون معجبين بمستواهم الحضاري، فأحبوا أن يطلعوا الشعوب على ما عندهم، وبالتالي أن يكسبوا ولاءها عن طريق الحضارة. أما لبنان فباشر النهضة الأدبية منذ القرن التاسع عشر، وقد ساهمت الإرساليات والمدارس الأجنبية، لا سيما الفرنسية منها، مساهمة فاعلة في هذا المجال. لكن خلال الحرب (١٩١٤ – ١٩١٨) توقف كل شيء.

وبعد أن دخل الفرنسيون بلادنا سنة ١٩١٨، أعطوا موضوع التعليم اهتماماً كبيراً. فانعقد مؤتمر في مرسيليا (ك٢ ١٩١٩) درس وضع التعليم في لبنان وسوريا، ووضع خطة شاملة لبعث حركة التعليم، وكان الوضع في لبنان صعباً، والمدارس مقفلة، والتجهيزات مفقودة، والبلاد تفتقر إلى المعلمين... أمنت السلطات الفرنسية قسماً مهماً من التجهيزات، كما أمنت عدداً من المعلمين الفرنسيين لكنهم يجهلون اللغة العربية. وشجعت المدارس على فتح أبوابها، فارتفع عددها بسرعة من ١٥ مدرسة في كانون الأول ١٩١٩ إلى ١٠٦٨ مدرسة في ك٢ ١٩٢٠ فإلى ١٣٥١ في أيار ١٩٢٠ و١٤١٠ مدرسة سنة ١٩٣٥ تضم ١١٤٩٧٦ تلميذاً منها ١٥٢ مدرسة رسمية ابتدائية تضم ١٦٤٦٤ تلميذاً.

اعتمدت سلطات الانتداب أول الأمر مناهج التعليم التي وضعها العثمانيون سنة ١٩١٣ لكنها أعطت لفرنسا ما كان لتركيا، أي أنها

اعتمدت اللغة الفرنسية محل التركية. وعلمت تاريخ فرنسا وجغرافيتها وأدابها... وفي سنة ١٩٢٤ تم وضع مناهج التعليم للمرحلة الابتدائية وتتوجها الشهادة الابتدائية (السرتفيكا). وللمرحلة التكميلية وتتوجها الشهادة الابتدائية العالية (البريفه). وتم سنة ١٩١٩ إنشاء دار معلمين للذكور، وأخرى للإناث، وكلاهما في بيروت. أما التعليم الثانوي فظل بكامله بيد المدارس الخاصة، ولكل مدرسة برنامجها وشهادتها، وذلك حتى ١٩٢٩ عندما تم وضع مناهج التعليم الثانوي موزعة في ثلاث سنوات: السنة الأولى الثانوية أو الثاني Seconde، السنة الثانية أو الأول Première وفيها فرعان علمي وأدبي تتوجهما البكالوريا – القسم الأول – الفرع العلمي أو الأدبي) أما السنة الثالثة (النهائية (Terminale فشملت فرعين أدبي (فلسفة) وعلمي (رياضيات). هكذا أصبح للبنان مناهج تعليم وشهادات رسمية. ولا بدّ من القول بان مناهج التعليم في لبنان تأثرت كثيراً بالمناهج الفرنسية. كذلك طغت اللغة الفرنسية على التعليم، وكانت لغة رسمية كاللغة العربية. فكانت جميع المواد العلمية تُعطى باللغة الفرنسية، كذلك كانت معظم المدارس الخاصة تعلم مادتي التاريخ والجغرافيا باللغة الفرنسية. ويقتصر تعليم العربية على اللغة والأدب. نذّكر بان المدارس كانت تعلم اللغة الفرنسية منذ القرن التاسع عشر. ويتقنها كثيرون من اللبنانين.

بالإضافة إلى الشهادات اللبنانية، كانت شهادات فرنسية، يتقدم إليها من يشاء، تجري الإمتحانات في بيروت (سرتفيكا، بريفه، بكالوريا بقسميها الأول والثاني، وبفرعيها العلمي والأدبي).

أما المدارس الأنكلوسكسونية من أميركية وإنكليزية، فكانت لها

حرية التعليم، ولكل مدرسة برنامجها وشهادتها وذلك حسب اتفاق تم بين الفرنسيين والإنكليز سنة ١٩٢٠ واستمر هذا الوضع حتى سنة ١٩٤٦.

أما التعليم الجامعي فظل محصوراً بالجامعتين الفرنسية (اليسوعية) والأميركية. وبدأت الأكاديمية اللبنانية لمؤسسها ألكسي بطرس، تعلم باسم جمعية الموسيقيين الهواة منذ سنة ١٩٣٧ حتى صدر مرسوم سنة ١٩٤٣ بإنشاء مدرسة للفنون باسم الأكاديمية اللبنانية. وأصبحت تضم مدرسة للهندسة المعمارية وأخرى للعلوم السياسية والاقتصادية والحقوق وكلية للآداب. وقد علّم فيها كبار الاختصاصيين، وتخرجت منها نخبة من المتخصصين أدّوا للبلاد خدمات كبيرة. مما أكد على نجاح المؤسسات العلمية الوطنية.

كذلك لم تهمل السلطات الناحية المهنية إهمالاً تاماً. فقد أنشأت مدرسة الصنائع والفنون الجميلة في بيروت. كانت تؤمن لتلاميذها الأكل والمنامة على نفقة الدولة. كان عدد تلاميذها محدوداً، يدخلون المدرسة بعد نجاحهم في امتحان دخول يتقدم إليه حامل الشهادة الابتدائية، ويتخرج بعد أربع سنوات حاملاً شهادة باختصاص صناعي معين.

واهتمت سلطات الانتداب بقضايا أخرى تخدم التعليم والحضارة. فأصدرت مجلة تربوية راقية ١٩٢٣ Bulletin Mensuel de l'enseignement كتب فيها كبار الأخصائيين. وأنشأت المكتبة الوطنية ١٩٣٥. وكان لكل من

الجامعتين الفرنسية والأميركية مكتبة ومتحف بتصرف جميع طالبي المعرفة.

الآثار

اهتمت سلطات الانتداب اهتماماً خاصاً بالأثار، وقد اعتبرت الأمر مسؤولَية علمية وحضارية، وكان علماء الأثار، لا سيما الفرنسيون منهم، ينقبون في معظم البلدان العربية، ويكتبون التاريخ على ضوئها. وقد عمل العلماء الفرنسيون في لبنان منذ القرن التاسع عشر، وكان للعالم إرنست رينان E. Renan دور بارز، فأجرى حفريات في المناطق الأثرية، ووضع دراسة قيمة عن الأثار في لبنان ما زالت مصدراً مهماً. وهي بعنوان مهمة في فينيقية Mission de Phénicie. قبلا كانت الأثار تُنقل إلى متاحف السلطنة في اسطنبول وأزمير، وإلى المتاحف الكبرى في أوروبا وأميركا.

أنشأت سلطات الانتداب سنة ١٩١٩ مصلحة للآثار والفنون الجميلة تابعة للمفوضية العليا، ثم أصبحت مصلحة مستقلة ١٩٢٠. أشرفت على الحفريات، وأسست المتاحف في المدن الكبرى (بيروت، دمشق، حلب) أما في بيروت فجمعت الأثار في أحد البيوت في بيروت وبدأت السلطات منذ سنة ١٩٢٦ تعد لبناء متحف جديد حتى تم تدشين المتحف الوطني في بيروت سنة ١٩٣٦. جُمعت فيه أثارٌ غنية تحوي نماذج منذ عصور ما قبل التاريخ حتى آخر العهد البيزنطي.

وقد جرت الحفريات في أماكن عدة من لبنان: صور، صيدا وجوارها، جبيل، طرابلس، البلمند، بعلبك... وأشرف عليها

علماء كبار. نسّقوا الأثار وكتبوا عنها. وتم حفظ معظمها في المتحف الوطني في بيروت. كذلك نُقل منها إلى المتاحف العالمية لا سيما إلى متحف اللوفر في باريس حيث ما زال محفوظاً.

وإتماماً للفائدة أصدرت سلطات الانتداب مجلة متخصصة للأثار هي سوريا Syria. ما تزال أعدادها حتى اليوم مرجعاً لمن يهتم بموضوع الأثار والتاريخ. كذلك صدر عدد كبير من كتب الأثار والتاريخ تشكل مصدراً مهماً لتاريخ لبنان والمنطقة.

الوضع الاجتماعي

استمر المجتمع، كما كان في القرن التاسع عشر، بوجهه الاقطاعي، بتقاليده وعاداته وأزيائه. كانت الوجاهة فيه للعائلات العريقة والميسورة. ووصل إلى السلطة والإدارة من أقام علاقة مع أهل السياسة أو تقرّب منهم. كانت لكل طائفة، ولكل منطقة خصوصيات تميّزها من حيث العادات والأزياء. حتى الزواج كان يتم بين عائلات متقاربة، ومتساوية اقتصادياً واجتماعياً. كانت الأزياء شرقية، للرجال وللنساء. كان يعيش معظم الناس في الريف، في القرى، من الزراعة وتربية الماشية، ومن بعض الصناعات البيتية التقليدية. كانت المتاجر مراكز التموين في المدن، فيما لم يكن في القرى سوى دكاكين بسيطة. كانت معظم القرى بدون طرقات. وتنحصر وسائل النقل بالحيوانات من دواب وبغال وجمال، وتدخل عربة الخيل أو الطنبر إذا تأمنت الطريق. حتى دخلت السيارة.

كانت الحياة متقشفة، يغلب عليها الفقر، يزرع الفلاح ما

يحتـاج إليـه ويكتفـي بمـا ينتج. يهتـم النـاس اهتمـاماً خاصاً بتـأمـين الأكـل (المـونـة) لـفصـل الشـتـاء من قـمـح، وبرغـل، وقـورمـا، وكشك، وبصـل، وتـوم، وتـين مطبـوخ، وخـمـور... وبمجـرد تأمـين المـونـة يرتـاح البـال. كانـت الحيـاة بسيطة لكن البال مرتاح، لأن المصاريف كانت محدودة تقتصر على الأكـل والملبس.

وكان للمرأة دور كبير في المجتمع، فهي تربي الأولاد، وترتب البيت وتـؤمـن الخبز، وزراعة الخضار حول البيت، وتساعد زوجها في الحقل، وهي المسؤولة الأولى عن تربية دود القز وتوضيب الدخان.

دخلت التـقـاليـد الأجنبيـة تدريـجـاً إلى البلاد، سواء بواسطة المهاجرين العائدين، أو عن طريق الدولة المنتدبة. فانتشرت اللغة الفرنسية بجانب العربية وزاحمتها، لا سيما في المدن، وفي أوساط الطبقة الميسورة، وخريجي المدارس الأجنبية. كذلك دخلت الأزياء الأوروبية لتنافس الأزياء الوطنية، ثم لتحل محلها فيـما بعـد. وبـدأت النسـاء تـغـيّر الأزياء وتـتـزين على الطريقة الأوروبية. وظهرت جمعيات نسائية، وارتفعت الأصوات تدعو إلى تعليم المرأة وتحريرها.

مظاهر العمران

كان الظرف مهيئاً لنقل البلاد من حضارة القرون الوسطى إلى العصر الحديث. وتـم بـالفعل تحقيق بعض المشاريع من شق الطرقات، وبناء الجسور لتأمين الطرقات الرئيسية، وفي طليعتها

طريق الساحل، وطريق بيروت دمشق بلغ طول شبكة الطرقات ٣٥٠٠ كلم سنة ١٩٣٧، فتم بناء الجسورمن الحجر، وأخذ بعضها شكلاً هندسياً جميلاً مثل جسر جاج شمال جبيل. كذلك بعض مشاريع الكهرباء إلى المدن والتلفون، ونظام للبريد، وعدد من المشاريع على الأنهار من أقنية ري، ومشاريع للكهرباء، أبرزها على الليطاني (مشروع القاسمية) وعلى أنهار إبراهيم وأبو علي وبركة اليمونة ورأس العين.

تم توسيع المرافئ وبصورة خاصة في طرابلس وبيروت وواجه هـذا المـرفـأ منـافسـة شـديـدة من مرفأ حيفا. كذلك وصل إلى طرابلس أنبوب النفط من العراق ١٩٣٣، وتم في بيروت ١٩٣٨ إنشاء الإذاعة باسم راديو الشرق، التي أصبحت الإذاعة اللبنانية، كذلك بناء مطار في منطقة بير حسن قرب بيروت وآخر في رياق ووُضعت مشاريع لتنظيم المدن لا سيما بيروت، وكان للمهندس الفرنسي إيكوشار Ecochar دور بارز في هذا المجال. وقد تابع عمله في عهد الاستقلال.

ودخل في البناء استعمال الترابة والباطون المسلح، فتطور نمط هـنـدسـة البـيـوت، من بيت الفلاح العادي وسقفه الترابي إلى الباطون، وتطور بناء العقد وحارة القرميد، لتصبح البناية من عدة طبقات، وليحلّ بيت الباطون تدريجاً محل بيت الحجر. كذلك بدأ الناس في القرى يغطون أرض بيوتهم بالباطون بدل الطين. وكان العمل يتم بمساعدة أهل القرية أو «العونة». بل أن التعاون في العمل – أو العونة – كانت ظاهرة اجتماعية واقتصادية مهمة تتناول مجالات عدة.

الأحزاب السياسية

بدأت الحياة الحزبية في لبنان منذ عهد الإمارة واستمرت في عهد المتصرفية، وتلاشت خلال الحرب العالمية (١٩١٤ – ١٩١٨). في مطلع عهد الانتداب لم تشجع السلطات على الحياة الحزبية، لكن بعد وضع الدستور، ومشاركة المواطنين في الانتخابات، كان لا بد من النشاط الحزبي. وبدأت طلائعه تكتلات عائلية، كذلك نشأت الحركات الكشفية والنقابات، وجمعيات خيرية ورياضية خاصة في عهد رئاسة إميل إده. كما ظهرت تكتلات حزبية منها لغايات انتخابية، وغيرها بقاعدة طائفية، وبعضها بتوجهات عقائدية تنظر إلى أبعد من لبنان، وأبرز الأحزاب:

الكتلة الدستورية برئاسة بشارة الخوري نشأت ١٩٣٢ تطالب بعودة الدستور، تقابلها الكتلة الوطنية برئاسة إميل إده. وضمّت كل من الكتلتين قياديين وأعضاء من كافة الطوائف والمناطق، وانقسمت بينهما البلاد، وبصورة خاصة في جبل لبنان، لا سيما أثناء الانتخابات. وثمة تكتلات وأحزاب من منطلق طائفي منها الكتائب اللبنانية ١٩٣٦ بقيادة الشيخ بيار الجميل، بقاعدة مسيحية وتوجّه لبناني. وحزب النجادة ١٩٣٧ برئاسة محي الدين النصولي، بقاعدة إسلامية وتوجه عروبي.

وظهر حزبان عقائديان هما الحزب الشيوعي اللبناني وقد بدأ سنة ١٩٢٤ باسم حزب الشعب. كانت له فروع في لبنان وسوريا، اكد على الكفاح الاجتماعي ومحاربة الفروقات الاجتماعية والرأسمالية لمصلحة العمال والفقراء، كذلك رفض الاستعمار والأمبريالية. عمل غالباً في السر، وأحياناً في العلانية،

وذلك حسب علاقة الدولة المنتدبة بالاتحاد السوفياتي، من أبرز قادته خالد بكداش ونقولا الشاوي وفرج الله الحلو. انتسب إليه مؤيدون من مختلف المناطق والطوائف. وأسس أنطون سعادة الحزب السوري القومي منذ سنة ١٩٣٢ ودعا إلى تربية اجتماعية ووطنية صارمة. وقال بالوحدة السورية وتتبعها جزيرة قبرص. وكان مناصروه من كافة المناطق والطوائف.

وسائل الإعلام

كانت الصحافة آنذاك ما تزال وسيلة الإعلام المفضلة فنشأ عدد من الصحف والمجلات منها باللغة العربية وغيرها بالفرنسية. وكانت السلطات تفرض رقابة مشددة على الصحافة.

أما أبرز الصحف فكانت بالعربية لسان الحال، البيرق، العهد الجديد، الأحرار، البشير، النهار، بيروت.

ومن أبرز المجلات الدبور، الصياد، المشرق. ومن الجرائد التي كانت بالفرنسية نذكر كلاً من الأوريان Orient، سوريا La Syrie، اللجور Le Jour.

وأنشأ الفرنسيون إذاعة في لبنان سنة ١٩٣٨ باسم راديو الشرق كانت تذيع باسم لبنان وسوريا. تسلمها لبنان ١٩٤٦ وأصبح اسمها محطة الإذاعة اللبنانية، وقد أدخلت عليها إصلاحات كبيرة في العهد الاستقلالي، حتى تماشي التطور الإذاعي والإعلامي وتنقل أخبار لبنان إلى العالم، وإلى المغتربين بصورة خاصة، وهي تذيع بالعربية كذلك بالفرنسية وبالإنكليزية.

الوضع الاقتصادي

حتى مطلع القرن العشرين ظل اللبنانيون يعيشون في اقتصاد القرون الوسطى، الاقتصاد المقفل، الذي يقوم على الزراعة وتربية الماشية. يزرع الإنسان ما يحتاج إليه ويكتفي بما ينتج. والصناعات بسيطة تقتصر على مصنوعات يدوية بسيطة لتلبية الحاجات المحلية. والتجارة محدودة، تقتصر على الضروري، وتقوم بمعظمها على المقايضة.

وخلال الحرب العالمية الأولى بلغ الضيق ذروته، فمات ثلث اللبنانيين من المرض والجوع. وعندما دخل الحلفاء وضعوا حداً للمجاعة وللأمراض، وقامت الجمعيات الخيرية بمساعدة المحتاجين وإيواء الأيتام وتعليمهم. وبعد أن تفرّد الفرنسيون بحكم البلاد باشروا بتنظيم الاقتصاد. لكن من مفهوم ذلك العصر، ومن منطلق مصلحة الدولة المنتدبة.

الشؤون المالية والعملة

كان لبنان يتعامل بالعملة التركية، وقد أصدرت تركيا العملة الورقية خلال الحرب، وانهارت قيمتها، وأصبحت العملة الذهبية نادرة. وعندما دخل الحلفاء بلادنا، أدخلوا عملتهم والعملة المصرية. وفي سنة ١٩٢٠ وضعت سلطات الانتداب عملة خاصة بلبنان وسوريا قوامها الليرة اللبنانية السورية مقسمة إلى مئة قرش وتساوي ٢٠ فرنكاً فرنسياً. وأعطوا حق الإصدار لشركة فرنسية هي بنك سوريا ولبنان التي استمرت حتى سنة ١٩٦٤ عندما أصبح االإصدار بيد مصرف لبنان (البنك المركزي).

ووضع الفرنسيون ميزانية مشتركة للبنان وسوريا. ثم أصبحت للبنان ميزانية خاصة. وأنشأوا عدداً من المصالح منها خاص بلبنان ومنها مشترك بين لبنان وسوريا، وظلوا يديرونها حتى تسلمها اللبنانيون والسوريون بعد سنة ١٩٤٣. وكان للبنان ٤٧٪ من عائداتها، ولسوريا ٥٣٪.

الزراعة

كانت مورد عيش اللبنانيين الأول يعمل فيها معظم السكان. وكانت طرق الزراعة ووسائلها تقليدية. حاولت سلطات الانتداب تطويرها. فأجرت مسحاً لبعض الأراضي، ووضعت السجلات العقارية، ونفذت بعض مشاريع الري والطرقات، وشجعت على استعمال الأدوية وإدخال بعض الآلات. بلغت المساحة المزروعة سنة ١٩٣٧ نحو ٢٥٠ ألف هكتار.

كانت الحبوب أهم المنتوجات الزراعية، في طليعتها القمح لتأمين العيش. كذلك الخضار والأشجار المثمرة من زيتون وتين وعنب ولوز... أما الزراعة المعدة للبيع فكانت التبغ والتوت وتربية دود القز.

ترجع زراعة التبغ في لبنان إلى القرن السادس عشر، وازدهرت في التاسع عشر. وأصبحت منذ سنة ١٨٨٤ بإشراف شركة احتكار (المونوبول) تدفع ضريبة للدولة. وفي سنة ١٩٣٠ بدأ نظام البندرول، وبموجبه أصبحت الحرية في زراعة التبغ وتصنيعه، إنما على المصنع أن يلصق طابعاً (Banderole) على علبة التبغ هي ضريبة للدولة. وفي سنة ١٩٣٥ بدأت مرحلة

الاحتكار حيث أعطت سلطات الانتداب امتيازاً لشركة أجنبية (الريجي) وهي تنظم الزراعة وتمنح رخص الزرع، وتخمّن الإنتاج وتشتريه بالسعر الذي تريده، وتراقب زراعة التبغ واستهلاكه بواسطة جلاوزة (ورديانية) كان لهم حق تفتيش الناس بحثاً عن الدخان حتى لهم حق تفتيش البيوت وذلك منعاً للتهريب. وقد احتج اللبنانيون احتجاجاً شديداً على احتكار التبغ، وكانت البطريركية المارونية أشد منتقدي سياسة الاحتكار. بلغ انتاج التبغ سنة ١٩٢٨ نحو ٦٥٠٠ كنتال.

أما زراعة التوت وتربية دود القز فكانت تشكل الدخل الأهم. كانت أشجار التوت تغطي مساحات واسعة في كل لبنان، بلغ عددها سنة ١٩١١ على الأراضي التي سيتكوّن منها لبنان ١٩٢٠ نحو ٣١٦٦٦٠٠٠ شجرة، كانت فيالج الحرير أهم صادرات لبنان، بلغ الإنتاج نحو ٢٠٠٠ كلغ سنة ١٩٢٨ صُدّر معظمها إلى فرنسا. لكن الحرير الطبيعي بدأ يواجه منافسة الحرير الاصطناعي، وواجه صعوبة مع الأزمات الاقتصادية، فعمد المزارعون، لا سيما في السهول الساحلية، إلى قطع أشجار التوت واستبدالها بزراعات الخضار والفاكهة. وكان للماشية دورٌ كبير، يربي اللبنانيون الماعز والغنم والأبقار والدواب وحتى الجمال، ما من بيت فلاح في القرية كان يخلو من قطعان الماشية ومن الدجاج، كانت الدواب والخيل وسيلة النقل، وكانت الجمال لنقل الأحمال الثقيلة مثل سيارة الشحن في أيامنا.

الصناعة

أما الصناعة فكانت بسيطة، تغلب عليها الصناعات اليدوية. وقد

تأسس بعض المصانع الآلية للغزل والنسيج والمأكولات والترابة والأحذية. ولم تشجع الدولة المنتدبة على تطوير الصناعات حتى تظل البلاد سوقاً لمصنوعاتها. وكانت الدول المستعمرة تشجع في مناطق نفوذها على إنتاج المواد الزراعية والأولية لمصلحة مصانعها، وعلى شراء المصنوعات.

التجارة

وبدأت التجارة تنشط مع الخارج لا سيما مع فرنسا. يبيع لبنان من منتوجاته الزراعية ويشتري المصنوعات. وفي مجال الأوزان بدأ النظام المتري يحلّ تدريجاً محل المقاييس القديمة: الكيلوغرام، المتر، الليتر... وكان الميزان التجاري في عجز تعوضه أموال المغتربين والسياحة والاصطياف.

بدأت في لبنان حركة السياحة والاصطياف، تشجعها وسائل النقل، التي بدأت تتأمن بصورة أفضل. وكان إغنياء العرب يصطافون في لبنان. كان عدد السياح ١٩٣٣ حوالي ١١٠٦٨ سائحاً، ارتفع إلى ٢٩٢٢٤ سنة ١٩٣٧. أما عدد المصطافين فكان ٦٨٩٠ سنة ١٩٢٩ ارتفع إلى ١١٥٠٠ سنة ١٩٣٧.

مهما قيل في الانتداب، ومهما تناقضت الآراء، تبقى أمور بديهية يجب الإقرار بها، هي أن الدولة المنتدبة أكدت على كيان لبنان، وتوسيع حدوده. وعملت لبناء الدولة بوضع قوانين الإدارة، والتنظيم في كافة المجالات، وتشجيع العلم وإدخال مظاهر الحضارة الحديثة. لكن مقابل ذلك تجب الإشارة إلى الهيمنة التي فرضتها الدولة المنتدبة في كافة المجالات السياسية

والاقتصادية والحضارية. وإلى السلطة الكبيرة التي تمتع بها المستشارون، وكان منهم الصالح الذي خدم لبنان وفرنسا، كما كان السيء الذي أساء إلى البلدين معاً.

المواقف السياسية من الانتداب

بعد الاتفاق على فرض الانتداب في مؤتمر سان ريمو (نيسان ١٩٢٠)، وقيام دولة لبنان الكبير (أيلول ١٩٢٠) كان طبيعياً أن تبرز مواقف متعددة في لبنان. وقد اختلفت المواقف بين المناطق والطوائف والأحزاب، كذلك داخل الطائفة الواحدة. وتطورت هذه المواقف مع مسار الأحداث. بصورة عامة رحّب سكان متصرفية لبنان، والغالبية المسيحية، بقيام دولة لبنان الكبير، وقبلوا بالانتداب كمرحلة انتقالية لمساعدة لبنان على بناء الدولة والوصول إلى الاستقلال التام.

أما سكان مناطق الولاية ومعظمهم من المسلمين، فلم يرحبوا بقيام دولة لبنان الكبير، بل طالبوا باستقلال ذاتي داخل الوحدة السورية. وظهرت معارضة للانتداب من جهات مختلفة منها احتجاج مجلس الإدارة بعد مؤتمر سان ريمو، ومحاكمة سبعة نواب من أعضائه. كذلك مؤتمر وادي الحجير (في جبل عامل) نيسان ١٩٢٠ حيث اجتمع عدد من أعيان الشيعة وعارضوا مشروع الانتداب. فيما وافقت عليه عائلات شيعية أخرى.

سيطرت سلطات الانتداب سيطرة تامة على الإدارة وعلى السياسة

في لبنان، حتى أن المؤرخ الفرنسي رينه بينون R.Pinon وصف ذلك بقوله: «حكمت فرنسا لبنان جيداً، لكنها حكمته كثيراً، جعلت كل شيء بيدها، وتحملت كل المسؤوليات» عارض اللبنانيون سياسة السيطرة هذه، وبينهم من أصدقاء الانتداب.

برزت سنة ١٩٣٦ مواقف عدة تعرض المطالب السياسية، منها مثلاً مؤتمر المطارنة في بكركي (٦ شباط ١٩٣٦) الذي شدد على خمسة مطالب رفعها إلى المفوض السامي هي التمسك بوحدة لبنان وبحدوده دون تعديل، تحقيق الاستقلال الناجز، والعلاقة الواضحة والأخوية مع سوريا، تعديل الدستور حتى يتناسب مع الاستقلال الحقيقي وتأمين الحريات كافة ولجميع اللبنانيين، وضع معاهدة مع فرنسا تحدد العلاقات، ودخول لبنان إلى عصبة الأمم.

وفي الرابع عشر من آب ١٩٣٦، قدم مفتي الجمهورية الشيخ توفيق خالد عريضة إلى المفوض السامي باسم الأحياء الإسلامية تطالب بالسيادة الوطنية، وبالاستقلال، وبالوحدة مع سوريا. وطرح هذه المطالب على استفتاء شعبي.

ودعا زعماء مسلمون إلى مؤتمر في بيروت حضره ممثلون من مختلف الطوائف، ومن بعض الأحزاب (ت١ ١٩٣٦) عُرف بمؤتمر الساحل. طالب المجتمعون بالسيادة الوطنية في إطار الوحدة مع سوريا كمرحلة أولى لقيام وحدة عربية شاملة، كذلك طالبوا بإجراء مفاوضات مع فرنسا لعقد معاهدة تهيئ لوحدة سياسية واقتصادية واجتماعية مع سوريا، كما طالبوا بتأمين أوسع

لحقوق المسلمين في الإدارة والسياسة في لبنان، أما مسلمو طرابلس فاعتبروا هذه المطالب معتدلة جداً، فطالبوا بالوحدة الفورية مع سوريا.

رد المفوض السامي ده مارتل بأن الحكومة الفرنسية تعهدت بالمحافظة على استقلال لبنان وسلامة أرضه وحدوده، فهي ملتزمة بهذا الوعد. وإن أية معاهدة مع لبنان تحترم هذا الأمر، ولا مانع لفرنسا من إجراء مفاوضات حول العلاقات الاقتصادية بين لبنان وسوريا.

اقتصرت المواقف من الانتداب والمطالب، على التصاريح والعرائض، فلم تصل إلى الثورة المسلحة كما حدث في سوريا لا سيما سنة ١٩٢٥، وضد الإنكليز في مصر ١٩١٩ وفي العراق ١٩٢٠.

وتطورت مواقف معارضي الانتداب تدريجاً، فأقبل المسلمون، بعد تردد على تعلّم اللغة الفرنسية، وشاركوا في مسؤوليات الحكم، تمثلوا في المجالس النيابية، وأصبح الشيخ محمد الجسر رئيساً لمجلس الشيوخ، وتولى المسلمون رئاسة الوزراء منذ سنة ١٩٣٦، وأصبحت رئاسة مجلس النواب بيد الشيعة. وعندما بدأت الحرب العالمية الثانية في أيلول ١٩٣٩، أوقف اللبنانيون كل معارضة في وجه الدولة المنتدبة، وأعلنوا تضامنهم مع الحلفاء في مواجهة الأنظمة الدكتاتورية.

لبنان والحرب العالمية الثانية

تأزمت العلاقات بين دول أوروبا. فانقسمت القارة إلى كتل متنافسة. فقد ظلّت فرنسا وانكلترا حريصتين على النظام الديمقراطي البرلماني. فيما نشأت أنظمة حكم جديدة؛ ففي روسيا كان الشيوعيون في الحكم وقد أنشأوا الاتحاد السوفياتي. وفي إيطاليا كانت الفاشستية بزعامة موسوليني، وحكمت النازية ألمانيا بزعامة أدولف هتلر.

قلب هتلر المعادلات القائمة، رفض بنود معاهدة فرساي التي وضعها المنتصرون بعد الحرب العالمية الأولى، رجع إلى التسلّح وطالب بـ«مكان لائق لبلاده تحت الشمس» فقرّر أن يجمع الجرمان في دولة واحدة، وأن يؤمن «مجالاً حيويا» يليق بالشعب الجرماني. وفي أول أيلول من سنة ١٩٣٩ هاجم بولونيا للسيطرة على الممر البولوني ودانتزيغ. فبدأت الحرب العالمية الثانية.

أما في لبنان فقد اتخذ المفوض غبريال بيو سلسلة تدابير لمواجهة ظروف الحرب، فقد علّق الدستور وحلّ المجلس النيابي، وظلّ إميل إده رئيساً للجمهورية، وتشكلت حكومة جديدة، واتسعت صلاحيات المفوض السامي، وتم إعلان الأحكام العرفية وحل الأحزاب ووضع بعض قادتها في الإقامة الجبرية لا سيما من الشيوعيين والقوميين السوريين. وفرض رقابة مشدّدة على الصحافة. ومن الوجهة العسكرية أرسلت فرنسا إلى لبنان وسوريا حملة عسكرية كبيرة بقيادة الجنرال مكسيم ويغان، ربما أرادت توجيهها من لبنان إلى البلقان فإلى بولونيا، لكن هذا لم يحصل. فاكتفت باتخاذ تدابير وقائية مثل مراقبة الجسور وإقامة مراكز للمدفعية على الشاطئ وخنق الأنوار.

خاف اللبنانيون من تكرار مأساة المجاعة التي وقعت في الحرب العالمية الأولى، فأسرعوا إلى شراء المواد الغذائية، فبدأ الاحتكار وارتفعت الأسعار. لكن الحكم ردّ بتدابير سريعة، وأعلن كلٌّ من الرئيس إميل إده والمفوض بيو والجنرال ويغان أن «فرنسا لا تسمح بأن يقع في عهدها ما وقع في عهد تركيا» فاتخذت السلطات تدابير حازمة لمنع الاحتكار ومراقبة الأسعار، ووضعت نظاماً للإعاشة والتموين. ونشط اللبنانيون نشاطاً بارزاً فكان اهتمام بالغ بالزراعة وبتربية الماشية. بحيث أكثر الشعب من زرع المزروعات الغذائية على أنواعها وبصورة خاصة القمح.

لكن فرنسا انهزمت أمام ألمانيا، ووقّعت معاهدة الصلح في ٢٢ حزيران ١٩٤٠ وتشكلت فيها حكومة برئاسة المارشال فيليب بيتان، وأقامت في مدينة فيشي في الهضبة الوسطى، وأصبحت

تُعرف بحكومة فيشي. فيما انتقل الجنرال شارل ديغول إلى لندن، ووجّه نداءً إلى الفرنسيين في ١٨ حزيران قال فيه: «إن فرنسا خسرت معركة ولم تخسر الحرب». ثم أعلن قيام حركة فرنسا الحرّة ومتابعة الحرب. وأصبح على الفرنسيين أن يختاروا بين بيتان وديغول.

وكانت فرنسا قد استدعت الجنرال ويغان من لبنان. وظلّ المفوّض بيو، وقد تردّد في اتخاذ الموقف، كان يميل إلى متابعة الحرب ضد الألمان وبالتالي الانضمام إلى الجنرال ديغول. لكن ديغول كان ما يزال مغموراً، فيما للمارشال بيتان سمعة كبيرة في فرنسا، وحوله هالة من الوقار والتقدير. فأعلن بيو انضمامه إلى سياسة فيشي. ومع هذا استدعته حكومته إلى فرنسا، فسافر إلى تونس ثم التحق بالجنرال ديغول. وأرسلت حكومة فيشي مندوباً جديداً إلى لبنان هو الجنرال موريس دانتز، وأعلن فور وصوله أنه سيقف على الحياد بين الإنكليز والمحور. لكنه بالواقع وقف بجانب الألمان والطليان. ووصلت إلى بيروت لجنة ألمانية – إيطالية لتراقب طريقة تنفيذ شروط الهدنة، فأشرفت على السياسة، وقامت بدعاية واسعة للألمان وحلفائهم الطليان. فسلكت السياسة في لبنان طريقاً مناوئاً للسياسة الإنكليزية. والبلدان العربية المحيطة بلبنان بقبضة السياسة الإنكليزية: العراق، شرق الأردن، فلسطين، مصر، الكويت... وفرض الإنكليز حصاراً اقتصادياً على لبنان وسوريا. وعرفت بلادنا أزمة اقتصادية فكثرت البطالة، وارتفعت الأسعار، وندرت في الأسواق السلع الاستهلاكية الأساسية مثل الرز والسكر والأدوية والقمح والبنزين والكاز وكان ضرورياً للإضاءة وخدمات المنزل وكان بابور الكاز مكان

فرن الغاز الذي نستعلمه اليوم. ومشت التظاهرات في شوارع بيروت ضدّ سياسة دانتز، واستقال الرئيس إميل إده وأمين سر الدولة عبد الله بيهم في نيسان ١٩٤١ فعيّن دانتز القاضي ألفرد نقاش رئيساً للدولة. واتخذ تدابير لمواجهة الضيق الاقتصادي منها الاستمرار في نظام الإعاشة، ونظام «المفرد والمزدوج» للسير. أي أن تسير السيارة يوماً وتتوقف يوماً، حسب أن تكون لوحتها مفردة أو مزدوجة. واحتج الأهالي على الوضع الاقتصادي، ومشت التظاهرات تطالب بالخبز. وارتفعت الأصوات تتهم المفوض السامي بتجويع الشعب. واستمر الوضع السيء حتى دخل الحلفاء بلادنا.

الحلفاء في بلادنا

كان الجنرال ديغول يتنقل بين لندن وبرازافيل (عاصمة الكونغو برازافيل) وقد انضم حاكمها الفرنسي إلى حركة فرنسا الحرّة، ورأى الجنرال إمكانية حلول حركته في لبنان وسوريا محل حكومة فيشي، وفاتح الإنكليز بذلك، لكن رئيس الوزراء تشرشل لم يعتبر الوقت مناسباً لذلك. لكن تسارع الأحداث السياسية والعسكرية خلق وضعاً جديداً، فقد أرسل الألمان «حملة أفريقية» بقيادة رومل، إلى ليبيا بهدف احتلال مصر وقناة السويس والسيطرة على طريق الهند ونفط الشرق الأوسط، وحقق تقدماً عسكرياً بارزاً. وأرسل الألمان كذلك جيشاً إلى البلقان في ربيع سنة ١٩٤١ فاكتسح بلدانه، فسحق يوغسلافيا، واحتل اليونان بما فيها جزيرة كريت، وطرد الحملة التي أرسلها الإنكليز إلى هناك. وشاء بعض خصوم الإنكليز في البلاد العربية أن يستغلّوا الظرف ويستقلّوا، فثار رئيس وزراء العراق، رشيد عالي الكيلاني، بدعم من الجيش، وكان على اتصال بالألمان، فأرسلوا له المساعدات،

من أسلحة وذخائر وضباط، نقلتها طائراتهم من صقلية ومن البلقان، واستخدمت في رحلتها، مطارات لبنان وسوريا. كذلك أرسل الجنرال دانتز من مخازن الجيش الفرنسي كميات من الأسلحة والذخائر إلى الثورة العراقية. قدّرت بـ ٨٠٠ طن.

قدّر الإنكليز أبعاد الثورة في العراق على وجودهم في الشرق، فهي تهدّد النفط، وتسهّل عمل الحملة الألمانية من ليبيا باتجاه مصر، وربما أرسل الألمان حملة من اليونان إلى لبنان وسوريا. استبق الإنكليز الأحداث، فأخمدوا الثورة في العراق، وقرروا احتلال لبنان وسوريا رغم انهماك جيشهم في جبهات عدة. وأعلم الرئيس تشرشل الجنرال ديغول بذلك. وبدأ إعداد الحملة والتخطيط للحرب. تشكلت هذه الحملة وشاركت فيها فرقٌ إنكليزية وهندية واسترالية ونيوزيلندية وفرنسية حرّة. وفي صبيحة الثامن من حزيران ١٩٤١ حلّقت طائرات إنكليزية وفرنسية حرّة، فوق مدن لبنان وسوريا، وألقت مناشير تحمل نداءً من الجنرال جورج كاترو، باسم فرنسا الحرّة، تعلن عن عزم جيوش الحلفاء احتلال البلدين، وتعد بإنهاء الانتداب وإعلان الاستقلال. كذلك أذاع راديو القاهرة نداء كاترو هذا. وأعلن الإنكليز، بصورة منفردة أنهم يضمنون هذا النداء.

وفي صبيحة ذلك اليوم، الثامن من حزيران، بدأت العمليات العسكرية، حاول الفرنسيون الأحرار من الجهة الجنوبية مخاطبة إخوانهم فرنسيي فيشي، على الخطوط المقابلة؛ بمكبرات الصوت ودعوتهم للانضمام إلى الحلفاء، لكن هؤلاء ردّوا بإطلاق النار. زحف الحلفاء من الجنوب إلى الشمال على ثلاثة

محاور: على الساحل باتجاه صور وصيدا والدامور وبيروت. وفي الوسط باتجاه مرجعيون وبنت جبيل وجزين. وفي الشرق: عبر حوران باتجاه دمشق، كما توجه جيش إنكليزي من العراق باتجاه الجزيرة في سوريا الشمالية. وشارك الطيران والأسطول،وتعرضت بيروت للقصف. وهرب اللبنانيون من المدن ومن مناطق القتال. وكانت النقليات صعبة، والبنزين قليل الوجود، والأسعار مرتفعة. وقامت تظاهرات في بيروت ضدّ هذه الحرب. وقابل الرئيس ألفرد نقاش المفوض دانتز وطلب إليه إعلان بيروت مدينة مفتوحة حتى تتجنب الخراب، وإنهاء الحرب على أرضنا وليس للبنان مصلحة فيها. لكن اللجنة الألمانية الإيطالية، وكانت مشرفة على السياسة، قررت متابعة الحرب، وهددت بمحاكمة الرئيس نقاش بتهمة الخيانة.

واستمر الوضع السيء في لبنان. لكن سير الحرب العام أثر على الوضع عندنا، فصبيحة الثاني والعشرين من حزيران ١٩٤١ هاجمت الجيوش الألمانية الاتحاد السوفياتي على أطول جبهة عرفتها الحرب، ولم يعد الألمان يهتمون بالحرب في لبنان وسوريا. ولم تتمكن حكومة فيشي من إرسال جيش إلى الشرق، فقررت وقف القتال. واتصل دانتز بقنصل الولايات المتحدة في بيروت وواسطه بأمر الصلح، فتم الاتفاق على وقف النار، وجرت المفاوضات في عكا منذ ١٤ تموز ١٩٤١ بين وفد إنكليزي ووفد فيشي، وجرى استبعاد فرنسا الحرّة لأن الفيشيين رفضوا التفاوض مع وفد يمثل الفرنسيين الأحرار، وسبق لهم وحكموا بالإعدام على الجنرال ديغول بتهمة الخيانة. فاكتفى الفرنسيون الأحرار بوفد مراقب في عكا وتم

الاتفاق على انسحاب الفيشيين وتسليم سلاحهم الثقيل إلى الإنكليز كذلك تسليمهم مهمات الانتداب، فاحتج الجنرال ديغول وطالب بحقوق فرنسا. فردّ تشرشل بأنه يقدّر ما لفرنسا من مصالح في لبنان وسوريا وأكّد أنه يعتبر الجنرال ديغول ممثلاً شرعياً لفرنسا ووافق أن ينقل إلى فرنسا الحرّة مسؤوليات الانتداب، كذلك أن ينضمّ إليها من يشاء من الفرنسيين الفيشيين، وترك للفيشيين أن يختاروا بين العودة إلى فرنسا أو الانضمام إلى حركة الجنرال ديغول.

ودخل الإنكليز والفرنسيون الأحرار بلادنا، وبدأت مرحلة سياسية جديدة. فقد تسلّم الفرنسيون الأحرار شؤون الانتداب، وعيّنوا الجنرال كاترو مندوباً سامياً. فيما أصبح للإنكليز دور بارز، فعيّنوا إدوار سبيرس مندوباً لهم وكان قد عاش مدة في



ساحة البرج في الأربعينات

فرنسا ويتقن الفرنسية كالفرنسيين. لعب في لبنان وسوريا دوراً بارزاً ضد السياسة الفرنسية لإبعاد الوجود الفرنسي عن المنطقة.

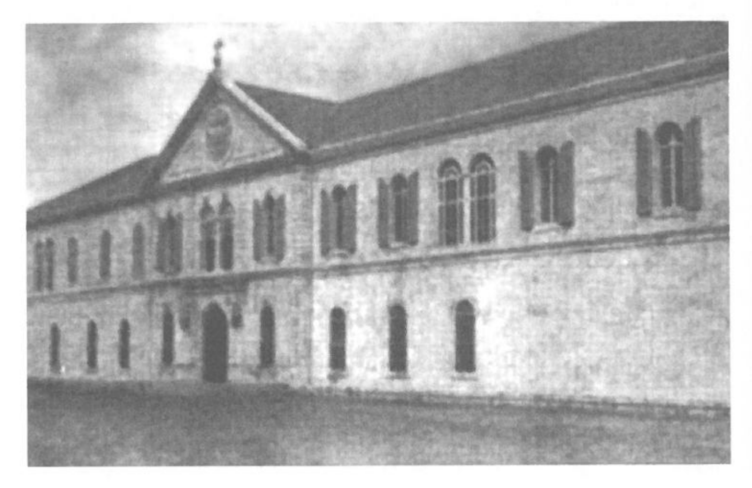
تحسّن الوضع الاقتصادي، نظّم الحلفاء شؤون الإعاشة، وتأمنت في الأسواق مواد الاستهلاك، واتسعت مجالات العمل مع الجيش الإنكليزي لا سيما بفضل بناء خط حديد الساحل الناقورا بيروت طرابلس (ن.ب.ط). إنما بدا التنافس السياسي على أرض لبنان بين الإنكليز والفرنسيين. واستفاد اللبنانيون من هذا التنافس لتحقيق الاستقلال.

الاستقلال اللبناني

ظل اللبنانيون يطالبون بإنجاز الاستقلال، وألحّوا على تحقيق وعد الجنرال كاترو. وكان الإنكليز يزايدون على الفرنسيين في لبنان وسوريا ويشجعون الأهالي على المطالبة بتحقيق الاستقلال لإبعاد نفوذ فرنسا. وفي صيف ١٩٤١ حضر الجنرال ديغول إلى لبنان وسوريا، وزار المدن فحظي باستقبالات حافلة، لكنه فهم أن هذا الاستقبال إنما هو لطلب الاستقلال. وكان يخشى من الإنكليز ويتهمهم بالعمل ضد نفوذ فرنسا، فأعلن أنه هو زعيم فرنسا الحرة يعلن الاستقلال متى يشاء. وبالفعل اتفق على ذلك مع ممثله الجنرال كاترو. وفي ٢٦ ت٢، ١٩٤١، أعلن كاترو استقلال لبنان بحضور الرئيس ألفرد نقاش والوزراء وكبار الموظفين ومندوبي الدول. فألقى خطاباً متّزناً شرح فيه حق لبنان بالاستقلال، وبيّن المصاعب التي سيواجهها لبنان المستقلّ ووعد بمساعدة سخية من فرنسا إذا عقد اللبنانيون معاهدة معها. فردّ الرئيس نقاش شاكراً، وذكّر بأنه وحكومته معيّنون تعييناً وأن

مستقبل البلاد يقرره حكام ينتخبهم الشعب. وأعلم الجنرال ديغول مندوبي الدول بهذا الاستقلال، كما اعترفت به بعض الدول ومنها إنكلترا.

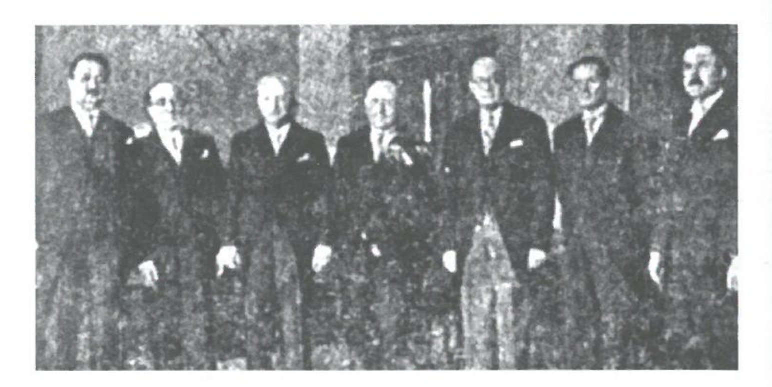
وانعقد مؤتمر في بكركي ليلة عيد الميلاد ١٩٤١ حضره سياسيون من كافة الطوائف، وطالب المجتمعون بعودة الدستور وبإجراء انتخابات لتشكيل حكومة تعمل لتحقيق استقلال تام. رغم هذا ظلّ الدستور معلّقاً، واحتفظ المفوض السامي بسلطاته متذرعاً بظروف الحرب. لكن بعد هزيمة جيوش المحور في معركة العلمين، وتراجعها عن مصر وليبيا في تشرين الثاني سنة ١٩٤٢، اشتدّ الخلاف بين الرئيس ألفرد نقاش والمفوض السامي كاترو حول طريقة إعادة الدستور. وكانت المفاجأة في ١٨ آذار ١٩٤٣ إذ أن المفوض السامي أقال الرئيس نقاش، وأعلن عودة الدستور، وعيّن الدكتور أيوب تابت رئيساً مؤقتاً



بكركي

للدولة. وكان على الرئيس الجديد وضع قانون انتخابي جديد، فوقع الخلاف حول توزيع مقاعد النواب وإشراك المغتربين في عملية الاقتراع، أصرّ أيوب تابت على إشراك المغتربين وإعطاء المسيحيين ٣٢ مقعداً في مجلس النواب والمسلمين ٢٢ فاحتج المسلمون. واستقال أيوب تابت فعيّن المفوض السامي، الجنرال هللو، بترو طراد رئيساً. وجرى نشاط سياسي شارك فيه قادة لبنانيون، والجنرال هللو (الذي خلف كاترو) وإدوار سبيرس والنحاس باشا رئيس وزراء مصر، وتم الاتفاق على توزيع مقاعد النواب بنسبة ستة للمسيحيين وخمسة للمسلمين، وأصبح عدد النواب ينقسم على ١١. وتقرر أن يتألف المجلس من ٥٥ نائباً.

وبدأ الاستعداد للانتخاب. فاحتدم الصراع بين الكتلة الوطنية بزعامة إميل إده يسانده الفرنسيون، ويقول باستقلال لبنان وعقد معاهدة مع فرنسا تشبه معاهدة سنة ١٩٣٦. والكتلة الدستورية برئاسة بشارة الخوري، يسانده الإنكليز، ويقول بالاستقلال، وبالسير بخط عربي دون ضمانة من أحد. بعد مناورات سياسية طويلة وصراع بين النفوذين الإنكليزي والفرنسي تم انتخاب بشارة الخوري رئيساً في ٢١ أيلول ١٩٤٣. أقسم اليمين الدستورية وألقى خطاباً حدّد فيه خطوط سياسته الاستقلالية ووضع أساس ما عُرف بالميثاق الوطني، وبعد تسلّم مهماته الدستورية شكل حكومة من ستة وزراء برئاسة رياض الصلح وعضوية كل من كميل شمعون وعادل عسيران ومجيد إرسلان وسليم تقلا وحبيب أبو شهلا. وألقى رياض الصلح البيان الوزاري، فجاء شاملاً مفصلاً تناول سياسة الحكومة لبناء دولة مستقلة وحدّد سياسة الحكومة في الداخل وفي الخارج.



حكومة الاستقلال

وطبّقت الحكومة سياسة استقلالية، فلم تقم بالزيارة التقليدية إلى المفوض السامي، وطالبت بتسلّم المصالح من الفرنسيين، وفرضت اللغة العربية وحدها في الدوائر الرسمية. وتم الاتفاق شفهياً على صيغة سياسية عُرفت بالميثاق الوطني، اتفاق غير مكتوب. تقضي هذه الصيغة باعتبار لبنان دولة مستقلة، ذات وجه عربي، يعيش اللبنانيون بأخوة ومساواة على أرض لبنان. لا يطلب المسلمون الانضمام إلى دولة عربية، ولا يطلب المسيحيون حماية دولة أوروبية. وتم الاتفاق على توزيع المناصب في الدولة منها رئاسة الجمهورية للموارنة، ورئاسة مجلس النواب للشيعة، ورئاسة الوزراء للسنة.

طالبت الحكومة بتعديل الدستور لإزالة ما يتعلّق بالانتداب، وكان الفرنسيون الأحرار يطالبون بعقد معاهدة مع لبنان كما فعل الإنكليز مع عدد من البلدان العربية. لكن الوضع آنذاك كان ضدّ مصلحة فرنسا، فالألمان ما زالوا في باريس، والإنكليز يستغلّون ضعف فرنسا ويضغطون لإخراج الفرنسيين من لبنان وسوريا حتى

تمتد السيادة البريطانية من المتوسط إلى الهند. ونشير بالمناسبة إلى أن الإنكليز لم يكونوا مطمئنين إلى وجود فرنسي ثابت شرقي المتوسط، وإن حق الانتداب الذي حصلت عليه فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى لم يكن برضى تام من الإنكليز. وكان الأميركيون يخططون لاستثمار النفط السعودي ولمدّ أنبوب نفط من السعودية إلى شاطئ لبنان، فكانت مصلحتهم تقضي بإبعاد نفوذ فرنسا حتى لا يكون مصبّ النفط بإشراف دولة أوروبية لا بدّ أن تستعيد قوّتها. وكانت الصهيونية تخطّط لاقتسام فلسطين، وتقضي مصلحتها بإبعاد نفوذ فرنسا حتى يتسنى لها تهجير عدد من الفلسطينيين والسيطرة على أرض بدون سكان. وكان اليهود لا يرتاحون لسياسة فرنسا تجاه سياستهم في فلسطين.

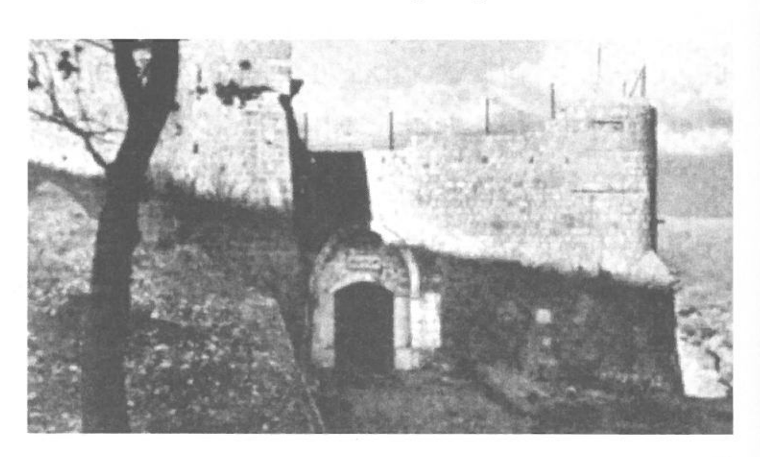
لم يتوصل الحكم في لبنان إلى اتفاق مع الفرنسيين. وسافر المندوب الفرنسي جان هللو إلى الجزائر، حيث أصبحت تقيم حكومة فرنسا الحرّة برئاسة الجنرال ديغول. وذلك للتفاوض بأمر لبنان. وفي غيابه قدّمت الحكومة إلى مجلس النواب مشروع تعديل الدستور، بصورة مستعجلة، فانعقد المجلس يوم الثامن من تشرين الثاني ١٩٤٣ وعدّل الدستور بإلغاء المواد المتعلقة بالانتداب، أو بتعديلها أي ما يتعلّق بصلاحيات الدولة المنتدبة وبعصبة الأمم. ويجعل اللغة العربية وحدها لغة رسمية.

رجع هللو إلى بيروت وغضب بسبب تعديل الدستور، وقام في ١١ ت٢ بردةّ فعل معاكسة إذ ألغى التعديل، وعلّق الدستور، وحلّ المجلس النيابي، وأقال رئيس الجمهورية، وأعضاء الحكومة، ووضع عدداً منهم في قلعة راشيا، وكلّف إميل إده، بصورة مؤقتة،

برئاسة الدولة. وكان الجنرال سبيرس يتدخل مباشرة بكل الأحداث، ويشجع الحكومة اللبنانية ضد الفرنسيين.

كانت في لبنان ردّة فعل عنيفة على الصعيدين الرسمي والشعبي. فإن وزيرين لم يُلق القبض عليهما – هما حبيب أبو شهلا ومجيد ارسلان – شكلا حكومة مؤقتة في بشامون. واجتمع النواب وقرروا تأييد الحكومة الشرعية ورفعوا عرائض الاستنكار والاحتجاج، وطلبوا مساعدة الدول الصديقة.

وجرى تحرّك شعبي واسع، فسارت التظاهرات وأقفلت المحلات، ونشطت الأحزاب وفي طليعتها حزبا الكتائب والنجادة، وتحرّكت الهيئات الطلابية والنسائية والجمعيات، وأيّدت الدول العربية والدول الكبرى الحكومة اللبنانية، وطالبت بالإفراج عن المعتقلين. وقد لعب الجنرال سبيرس دوراً بارزاً في هذه الأحداث ضد الفرنسيين.



قلعة راشيا

أرسل الجنرال ديغول إلى لبنان مساعده الجنرال كاترو فقابل أعضاء الحكومة المعتقلين، ورجال الدين والسياسة، وألغى تدابير هللو، فأطلق سراح المعتقلين في الثاني والعشرين من تشرين الثاني. وأصبح هذا اليوم عيد لبنان الوطني، عيد الاستقلال.

لبنـــان المستقــل

متابعة مسيرة الاستقلال
استلام المصالح وتحقيق الجلاء العسكري

بعد تعديل الدستور وتحقيق الاستقلال (ت٢ ١٩٤٣) كان على الحكومة أن تنجز هذا الاستقلال وتثبته باستلام المصالح وتحقيق جلاء الجيوش الأجنبية عن البلاد، والتأكيد على الشخصية اللبنانية عربياً ودولياً، وبناء الدولة وتعمير البلاد في الداخل.

استلام المصالح

في مطلع عهد الانتداب أنشأ الفرنسيون عدداً من المصالح واستلموا إدارتها، منها خاص بلبنان مثل شركات الكهرباء وترامواي بيروت، والمياه. ومنها مشترك بين لبنان وسوريا مثل

البرلمان اللبناني

النقل والمرافئ والجمارك وسكك الحديد ومصلحة الأثار والبرق والبريد وحصر الدخان... وكانت الحكومة قد وعدت في بيانها الوزاري يوم ٨ ت١ ١٩٤٣ بالعمل لاستلام المصالح. وبالفعل قدّمت مذكرة بهذا المعنى إلى سلطات الانتداب. ورد المفوض السامي جان هللو، أن فرنسا لا تمانع في ذلك، إنما يجب أن تتفق الحكومتان اللبنانية والسورية حول هذا الأمر. وبدأت المفاوضات... وجاءت أحداث تشرين الثاني لتوقفها.

ثم تجددت، وجرت المحادثات بين رئيسي الحكومة اللبنانية والحكومة السورية رياض الصلح وسعد الله الجابري، ووزيري خارجية البلدين سليم تقلا وجميل مردم. وتكللت بالنجاح. ثم بدأت المفاوضات مع الجانب الفرنسي، وتولاها الجنرال كاترو، وهو دبلوماسي مرن، وطلب إليه الجنرال ديغول أن يعمل كل شيء ليرضي اللبنانيين والسوريين حتى يصل إلى الحل، وليقطع الطريق على الإنكليز، فلا يترك لهم المجال لاستغلال الخلاف الذي يمكن أن يقع. وبالواقع جرت المفاوضات بصورة إيجابية. وتم التوصل إلى الاتفاق في ٢٢ ك١ ١٩٤٣ وصدر بذلك بلاغ رسمي. ثم جرت مفاوضات بين الجانبين اللبناني والسوري وتم الاتفاق على إدارة المصالح بعد استلامها، ووافق المجلس النيابي على الاتفاق (٣ شباط ١٩٤٤) وتسلم لبنان المصالح تباعاً سنة ١٩٤٤. وأدارها اللبنانيون والسوريون مشتركين حتى وقعت القطيعة الاقتصادية بين لبنان وسوريا في آذار ١٩٥٠.

استلام فرق الجيش اللبناني

منذ مطلع عهد الانتداب، فتح الفرنسيون باب التطوع الاختياري في الجيش الفرنسي، فتطوع عدد من الشبان اللبنانيين والسوريين، وشكلوا فرقاً عُرفت بفرق الشرق الخاصة، عملت مستقلة داخل الجيش الفرنسي، كان سلاحها فرنسياً كذلك قيادتها العليا. وأنشأ الفرنسيون مدرسة عسكرية في دمشق ثم انتقلت إلى حمص، وتخرّج منها عدد من الضباط اللبنانيين. وصل عديد الفرق الخاصة إلى نحو ١٨ ألف عنصر منهم سبعة آلاف لبناني.

منذ حصل لبنان على الاستقلال طالب اللبنانيون باستلام الجيش، وجرت المفاوضات، وتم استلام الفرق تباعاً، وكان آخرها في أول آب ١٩٤٥ وأصبح هذا اليوم الأول من آب، عيد الجيش اللبناني، وأصبح الجنرال فؤاد شهاب أول قائد لهذا الجيش.

الجلاء العسكري عن لبنان

بعد أن تحقق الاستقلال ظلّت جيوش فرنسية وإنكليزية ترابط على أرض لبنان وسوريا يبلغ عددها نحو ٣٥ ألفاً منها سبعة آلاف فرنسي. دخل الفرنسيون إلى لبنان في ت١ ١٩١٨ بعد انسحاب العثمانيين، وإلى سوريا بعد معركة ميسلون في تموز ١٩٢٠، وتكرست شرعية وجود الجيش الفرنسي في صك الانتداب الذي صدر في تموز ١٩٢٢. أما الجيش الإنكليزي فدخل في صيف ١٩٤١ ومع جيش فرنسي حرّ، وتكرست في اتفاقية عكا (١٤ تموز ١٩٤١) شرعية مرابطة هذا الجيش على أرض البلدين.

ووافق لبنان وسوريا على ذلك مساهمة منهما في المجهود الحربي. لكن بعد نهاية الحرب باستسلام ألمانيا واليابان، لم يعد جائزاً بقاء جيوش أجنبية على أرض بلاد مستقلة. فطالب البلدان بالجلاء، وجرت مفاوضات لكنها لم تصل إلى نتيجة. كان الفرنسيون يضغطون ليضعوا معاهدة تؤمن لهم مركزاً ممتازاً كما كان للإنكليز في بعض البلدان العربية.

بدّلت انكلترا سياستها تجاه فرنسا، فبدا لها بعد الحرب أن مركز القوة في العالم ينتقل خارج أوروبا، إلى الولايات المتحدة وإلى الاتحاد السوفياتي. وإن إنكلترا بحاجة إلى فرنسا القوية للدفاع عن مركز أوروبا. فجرت مفاوضات بين الإنكليز والفرنسيين وتم الاتفاق في ١٣ ك١ ١٩٤٥ على الجلاء. وذلك بأن تنسحب الجيوش الإنكليزية والفرنسية، فتتجمع في لبنان وتنسحب القوات الفرنسية عندما تضع هيئة الأمم تدبيراً لحفظ الأمن. رحّب لبنان أول الأمر بالاتفاق، لكنه ما لبث أن اكتشف أن الاتفاق لا يحدد وقت الانسحاب، وذلك للضغط على لبنان من أجل مركز ممتاز لفرنسا، فعادت الحكومة وعارضت الاتفاق.

قرر لبنان وسوريا اللجوء إلى هيئة الأمم، ولم تكن نيويورك قد تقررت بعد مقراً دائماً للهيئة الدولية، فاجتمعت في لندن في مطلع ١٩٤٦. وأرسل لبنان وفده إلى هناك برئاسة وزير الخارجية حميد فرنجية ومشاركة رئيس الوزراء السابق رياض الصلح، ووزير الداخلية يوسف سالم، وكل من سفيري لبنان في لندن كميل شمعون وفي باريس أحمد بك الداعوق. وتشكل الوفد السوري برئاسة السياسي الكبير فارس الخوري، وعضوية فريد زين الدين ونجيب الأرمناذي.

جرت مباحثات بين الوفدين اللبناني والسوري من جهة، وكل من وفدي فرنسا وإنكلترا من جهة ثانية، ولم تصل المحادثات إلى نتيجة، فرفع الوفدان شكوى مشتركة إلى مجلس الأمن، وجرت مناقشتها بين ١٤ و ١٦ شباط وجرى تقديم أربعة اقتراحات، فاز منها الاقتراح الأميركي، وهو ينص على تحقيق

الجلاء، وإجراء مفاوضات بين الأطراف على هذا الأساس. لكن المندوب السوفياتي (فيشنسكي) استخدم حق النقض. ليس ضد مصلحة لبنان وسوريا، إنما ليطالب بتحقيق الجلاء دون مفاوضات ودون قيد وشرط، وكانت بداية الخلاف ترتسم بين الشرق والغرب، ويتأثر العالم بهذا الخلاف.

نص اقتراح المندوب الأميركي

إن مجلس الأمن أخذ علماً ببيانات مندوبي سوريا ولبنان وفرنسا وبريطانيا وبقية أعضاء المجلس. وهو يعرب عن ثقته بأن القوات الفرنسية والبريطانية ستنسحب من سوريا ولبنان في أقرب وقت على أن تجري بدون تأخر مفاوضات لهذه الغاية ويطلب إلى الدول الأربع أن تعلم مجلس الأمن بنتائج المفاوضات.

منير تقي الدين

الجلاء، بيروت ١٩٥٦ ص٢٢٣.

رغم الفيتو السوفياتي، أعلن مندوبا فرنسا وإنكلترا أن بلديهما يحترمان مضمون قرار مجلس الأمن، ويدعوان إلى متابعة المباحثات في باريس، ووافق الوفد اللبناني، وانتقل إلى باريس، فيما تريّث الوفد السوري. لقي الوفد اللبناني ترحيباً حاراً في باريس، وقام بنشاط بارز، وأجرى مفاوضات ناجحة مع

الحكومة الفرنسية، كذلك مع وفد بريطاني. وجرى توقيع الاتفاق في وزارة الخارجية الفرنسية يوم ٢٣ آذار ١٩٤٦. وتمت عملية الجلاء بسلام، وعلى مراحل. حتى جلا آخر جندي أجنبي آخر سنة ١٩٤٦ (٣١ ك١) وخلدت هذه الذكرى لوحة على صخور نهر الكلب.

سياسة لبنان الخارجية في مطلع عهد الاستقلال

بدأ لبنان يدير سياسته الخارجية، فأنشأ وزارة للخارجية، وتم تنظيمها تنظيماً حديثاً، واهتم بالمغتربين فأنشأ دائرة خاصة بهم. واعترفت الدول تباعاً باستقلال لبنان، وتبادل التبادل السياسي والتمثيل الدبلوماسي والقنصلي مع معظمها، ووقّع اتفاقات تجارية ومالية أبرزها اتفاقية النقد مع فرنسا سنة ١٩٤٨. وشدّ روابط الصداقة مع الدول الكبرى وفي طليعتها فرنسا وإنكلترا. فبعد أن سوّى مخلّفات الانتداب، بنى علاقات جديدة مع الدولة المنتدبة سابقاً، وأنشأ التمثيل الدبلوماسي مع العواصم الكبرى: باريس ولندن وواشنطن وموسكو. وعندما بدأ يرتسم الخلاف بين الغرب بزعامة الولايات المتحدة، والشرق بزعامة الاتحاد السوفياتي، فضّلت الحكومات اللبنانية سياسة عدم الانحياز، وإن كانت ضمناً تميل إلى سياسة الغرب، فلم تقف موقفاً معادياً لأحد، بل احتفظت بالصداقة مع الجميع. كذلك أكدت على الصداقة مع جميع البلدان العربية، وإذا وقع خلاف بين دولتين، أو بدت سياسة محاور بين البلدان العربية، كان لبنان يلزم الحياد، ويعمل لتقريب وجهات النظر، وحلّ الخلافات.

أما تجاه القضية الفلسطينية، قضية العرب الكبرى، فوقف لبنان بحزم بجانب الحق العربي، وعندما اشتدت الأزمة، سنة ١٩٤٨ شارك لبنان بحرب فلسطين الأولى، واستقبل ألوف اللاجئين الفلسطينيين، وأمّن لهم المخيمات، وكان مندوبو لبنان، في المحافل الدولية، أشدّ المدافعين عن القضية الفلسطينية. والتزم بالسياسة العربية العامة، فوافق كغيره من الدول العربية على الهدنة في فلسطين، وشارك في مفاوضات رودوس والتوقيع على الهدنة سنة ١٩٤٩. وظل ملتزماً بالسياسة العربية تجاه فلسطين فطبق سياسة المقاطعة بدقة، وأيّد حركات المقاومة، وظل من أكثر الملتزمين بالقضايا العربية.

تأكيداً على سياسته العربية والدولية وحرصاً على تثبيت الشخصية اللبنانية، دخل جامعة الدول العربية، وهيئة الأمم المتحدة، بل كان عضواً مؤسساً وفاعلاً في كل منهما.

لبنان وجامعة الدول العربية

قبل نهاية الحرب العالمية الثانية، نشأ عند الشعوب ميل جامح إلى السلام والتعاون، والسعي إلى الاستقرار السياسي والاقتصادي. فسعت الدول إلى إجراء تحالفات ووحدات سياسية إقليمية لتأمين التعاون في كافة المجالات الاقتصادية والمالية والثقافية والسياسية. وكانت الدول المستقلة حديثاً بحاجة ملحة إلى هذا التعاون، حتى لا تقع مرة جديدة تحت الاستعمار، كذلك لتثبيت شخصيتها وحتى تفتح المجال لتأمين الاقتصاد السليم.

أما في البلدان العربية، فقد برزت الحاجة إلى التعاون، وكان اللبنانيون منذ القرن التاسع عشر أول الداعين إلى التعاون العربي، وبعث الحضارة العربية، كذلك فإن عدداً من المفكرين اللبنانيين نبّه إلى المخاطر التي تهدد العرب، وأبرزها قضية فلسطين، ورأى الإنكليز من جهتهم، وهم الأكثر نفوذاً في العالم العربي آنذاك، أن يشجعوا على قيام كتلة عربية تكون موالية لهم، وسنداً في الجمعية الدولية التي ستنشأ بعد الحرب. ومساعداً لاستمرار العلاقات الحسنة بين الإنكليز والعالم العربي.

بدأت الاتصالات والمشاورات بين حكومات البلدان العربية المستقلة منذ سنة ١٩٤٤. وفي مطلع تشرين الأول من تلك السنة وجّه النحاس باشا، رئيس وزراء مصر، دعوات إلى الدول العربية المستقلة آنذاك، وهي بالإضافة إلى المملكة المصرية، الجمهورية اللبنانية، والجمهورية السورية، ومملكة اليمن، والمملكة العراقية، والمملكة العربية السعودية وإمارة شرقي الأردن، فاجتمع مندوبو هذه الدول في الاسكندرية ووضعوا بروتوكول الجامعة. ثم اجتمعوا في القاهرة خلال شباط ١٩٤٥، وعدّلوا بروتوكول الإسكندرية فتوصلوا إلى وضع ميثاق الجامعة في ١٧ آذار ١٩٤٥ الذي أُقر نهائياً في ٢٢ آذار من العام نفسه، وأصبح هذا التاريخ عيد الجامعة العربية.

تكوّن ميثاق الجامعة العربية من مقدمة وعشرين مادة، وثلاثة ملاحق: عن فلسطين، وعن التعاون بين العرب لا سيما الدول التي لم تحظ بالاستقلال بعد وعن أمين الجامعة العربية.

تضمّن الميثاق حقّ كل دولة عربية في دخول الجامعة، وأكد أن الغاية هي توثيق العلاقات بين الدول العربية، وتولّي الجامعة حلّ الخلافات بينها، دون اللجوء إلى القوة، وإن مقررات الجامعة ليست ملزمة الا لمن يوافق عليها. وأن على الدول العربية أن تحترم بعضها، فلا تتدخل في شؤون الغير الداخلية، وتعتبر القاهرة مقرّ الجامعة الدائم، وترك الباب مفتوحاً لكل دولة عربية مستقلة أن تنضمّ إلى الجامعة.

ظهرت بعض المخاوف في لبنان، من أن يؤدي الانضمام إلى الجامعة إلى وحدة عربية شاملة، وزوال الكيان، لكن وردت بنود في الميثاق أزالت هذه المخاوف، وأبرزها في المادتين السابعة والثامنة.

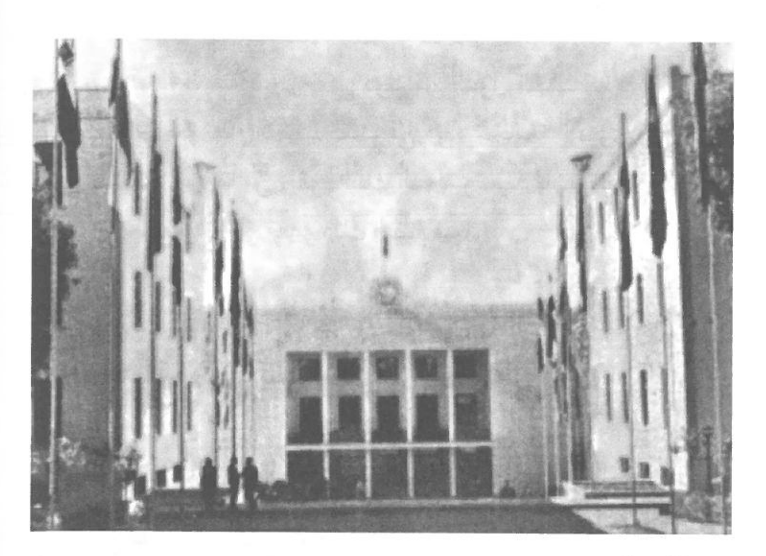
قام لبنان بدور ناشط في الجامعة، شارك في القضايا العربية، حرص دائماً ألا يدخل في خلافات أو في محاور بل أن يظل صديق الجميع والعامل من أجل التفاهم والتعاون. وكان يعرض قضاياه على الجامعة ويطلب مساعدتها، كما حدث في موضوع الجلاء ١٩٤٦، وفي أحداث ١٩٥٨، والأحداث منذ ١٩٧٥كما سنرى. وقد استضاف الجامعة العربية، وتم عقد مؤتمري قمة في بيروت ١٩٥٨، و٢٠٠٢ كما سنرى.

نص المادة السابعة: ما يقرره المجلس بالإجماع يكون ملزماً لجميع الدول المشتركة في الجامعة. وما يقرره المجلس بالأكثرية يكون ملزماً لمن يقبله. وفي الحالتين تنفذ قرارات المجلس في كل دولة وفقاً لنظمها الأساسية.

المادة الثامنة: تحترم كل دولة من الدول المشتركة في الجامعة نظام الحكم القائم في دول الجامعة الأخرى، وتعتبره حقاً من حقوق تلك الدولة وتتعهد بأن لا تقوم بعمل يرمي إلى تغيير ذلك النظام فيها.

لبنان وهيئة الأمم المتحدة

تم الاتفاق بين الدول الكبرى خلال الحرب على إنشاء هيئة دولية فاعلة لحل المشاكل الدولية ولاستبعاد الحروب. ووصل الخبر إلى الحكومة اللبنانية أن دعوات ستُوجه إلى الدول التي شاركت في الحرب ضد دول المحور لحضور مؤتمر دولي يقرر إنشاء الهيئة الدولية. فأعلن الحرب على ألمانيا واليابان وحلفائهما في ٢٧ شباط ١٩٤٥. والحرب في أيامها الأخيرة. وكان للبنان غايتان هما أولاً أن يصبح له حق الاشتراك في المؤتمرا لدولي. وثانياً ليثبت شخصيته الدولية، ويستفيد من الضمانات التي تتأمن للدولة المستقلة. وأبلغ لبنان وزارة الخارجية الأميركية بذلك. وبمعونة سياسية من كل من فرنسا ومصر تلقى لبنان دعوة لحضور المؤتمر، فحضر الوفد اللبناني إلى سان فرنسيسكو في ٢٥ نيسان ١٩٤٥ حيث انعقد المؤتمر، وحضره مندوبو خمسين دولة. فأصبح لبنان من الدول المؤسسة لهيئة الأمم. شارك في نشاطاتها وما يزال، وتمثل في جميع مؤسساتها، وساهم مساهمة فاعلة في وضع ميثاقها، وفي صياغة شرعة حقوق الإنسان التي أبرمتها الجمعية العامة وتمّ إعلانها في ١٠ ك١ ١٩٤٨. وكان لمندوب لبنان الدكتور شارل مالك، دور بارز في وضع هذه الشرعة.



مبنى الأونسكو

واستمر لبنان عضواً فاعلاً في هيئة الأمم، وقد أصبح مندوبه شارل مالك سنة ١٩٥٨ رئيس الجمعية العامة في هيئة الأمم. وقد رفع قضاياه المهمة أكثر من مرة أمام الهيئة الدولية، منها مثلاً قضية الجلاء سنة ١٩٤٦، وأحداث سنة ١٩٥٨، حيث حضر مراقبون دوليون إلى لبنان، ثم الاتصال بالهيئة الدولية خلال الأحداث منذ ١٩٧٥، والاعتداءات الإسرائيلية، ومازال جيش من هيئة الأمم يرابط على حدود لبنان الجنوبية.

يشارك لبنان في مؤسسات دولية عدة، هو عضو في البنك الدولي للإنشاء والتعمير، وفي صندوق النقد الدولي، ومؤسسة التمويل الدولية، وفي منظمة الطيران المدني الدولية، وفي اتحاد المواصلات البرقية الدولية، وفي اتحاد البريد العالمي، وفي منظمة الأرصاد الجوية

العالمية، وفي منظمة التغذية والزراعة العالمية، وقد أصبح مندوبه إدوار صوما، مديراً لهذه المنظمة لدورات عدة. وفي منظمة العمل الدولي، وفي محكمة العدل الدولية في لاهاي.

ولبنان عضو في منظمة اليونسكو في باريس وله وفد دائم فيها. وقد اختارت منظمة اليونسكو مدينة بيروت مركزاً لعقد دورتها سنة ١٩٤٨ في قصر الأونسكو، وأنشئ هذا البناء آنذاك لاستقبال الهيئة الدولية، وظل يحتفظ بهذا الاسم ويحتضن وزارة التربية الوطنية.

السياسة العمرانية والداخلية في عهد الرئيس بشارة الخوري (١٩٤٣ - ١٩٥٢)

عرف لبنان تطوراً مهماً في مجالات الاقتصاد والعمران والتعليم والإدارة، إنما وقعت مساوئ في الداخل أدت إلى استقالة الرئيس بشارة الخوري.

في مجال الاقتصاد ظلّت الزراعة مصدر عيش اللبنانيين، وكان القمح في طليعة المزروعات لتأمين العيش، وبدأت تربية دود القز تواجه المصاعب نظراً للمنافسة التي يواجهها الحرير الطبيعي، واستمرت أهمية زراعة التبغ وشجعت الحكومة استيراد الأدوات الزراعية والأسمدة والأدوية وأنواع النصوب والبذار. أما الصناعة فقد ازدهرت ازدهاراً لم يسبقه مثيل في لبنان، وذلك لأن المصانع

الأوروبية انشغلت في شؤون الحرب، وضعفت صادراتها. فاحتاج اللبنانيون والسوريون إلى المصنوعات، كذلك الجيوش الأجنبية الموجودة في البلاد من إنكليزية وفرنسية، لذا تطورت الصناعات الموجودة، ونشأت مصانع جديدة. وكانت الصناعات متوسطة واستهلاكية لتأمين الحاجات المحلية. وقامت الدولة بنشاط ملحوظ، فشجعت المدارس المهنية والتخصص في الخارج. وتحسين البنى التحتية من مشاريع الري والكهرباء والطرقات. وبعد الحرب رجعت المصانع الأوروبية إلى إنتاج المواد الاستهلاكية وقد حولت نشاطها من الإنتاج الحربي إلى الإنتاج السلمي، فبدأت الصناعة اللبنانية تواجه المصاعب، مما حمل الحكومة على وضع تشريعات جديدة لحماية الصناعة، منها حماية جمركية، وإخضاع المصانع الجديدة لإجازة حكومية، وتشريعات جمركية في وجه المصنوعات الأجنبية، وتشجيع استيراد المواد الأولية، ووضع معاهدات تجارية مع الخارج. أبرزها الاتفاقية مع فرنسا. فبعد مفاوضات طويلة أجراها وزير الخارجية حميد فرنجية في باريس ثم توقيع الاتفاقية النهائي في ٦ شباط ١٩٤٨. وبموجبها تضمن فرنسا النقد اللبناني دون أن يرتبط بمصير العملة الفرنسية. وورد في الاتفاقية أيضاً وضع اللبنانيين في مستعمرات فرنسا الإفريقية، وحقهم في إرسال المال إلى لبنان، كذلك إعطاء التعويض إلى الذين عملوا مع الفرنسيين في الإدارة، أو خدموا في الجيش الفرنسي.

وكانت البلاد بحاجة إلى المشاريع العمرانية وتطوير البنى التحتية من توسيع شبكة الطرقات وتعبيدها، ومشاريع الري والكهرباء على الأنهار الكبرى ومد الشبكة التلفونية، وتأمين مياه الشفة إلى القرى...

واهتمت الحكومة اهتماماً خاصاً بالتعليم فجرى سنة ١٩٤٦ وضع مناهج التعليم، تليق بدولة مستقلة. وضعت مناهج لمراحل التعليم ما قبل الجامعي أي في مراحل الحضانة والابتدائي والتكميلي (المتوسط) والثانوي. واحتفظت اللغة الفرنسية بدورها كلغة أجنبية، وقد احتفظت بالمكانة الأولى، ودخلت اللغة الإنكليزية مناهج التعليم، وأصبحت المدارس تختار الفرنسية، أو الإنكليزية لغة أجنبية.

وعزمت الحكومة على محو الأمية وإلزامية التعليم، فأكثرت من إنشاء المدارس الابتدائية في القرى، فارتفع عدد هذه المدارس



الكلية العاملية

بين سنتي ١٩٤٣ و١٩٤٧ من ٢٤٨ إلى ٦٢٣ مدرسة. أما في مرحلة التعليم الابتدائي العالي فكانت ١١ مدرسة رسمية فقط (٥ في بيروت، ٤ في طرابلس، مدرسة في صيدا، وأخرى في النبطية). أما التعليم الثانوي فظل بكامله بيد المدارس الخاصة من وطنية وأجنبية. أما التعليم الجامعي فتؤمنه الجامعة الفرنسية (اليسوعية) والجامعة الأميركيةٔ والأكاديمية اللبنانية وهي المؤسسة الجامعية الوطنية الوحيدة للتعليم الجامعي آنذاك، وفي مطلع الخمسينات بدأت الجامعة اللبنانية.

كذلك استمرت الدولة تهتم بما يخدم العلم والثقافة، فشجعت المكتبة الوطنية، ومتحف بيروت، وأنشأت متحفاً في بيت الدين لعهد الإمارة وتاريخ لبنان الحديث. كما استمرت تهتم بالآثار، واستلمت الإذاعة اللبنانية ١٩٤٦، وشجعتها وجعلت منها مجالاً للفنانين وكاتبي المقالات المختلفة، وأصبحت تُسمع صوت لبنان إلى الخارج.

وأمنت حرية نسبية للصحافة، وشجعت على قيام نقابة محرري الصحافة اللبنانية ١٩٤١، وجمعية أصحاب الصحف ١٩٤٤.

ولم تهمل الحكومات شؤون الصحة والإسعاف العام، فوضعت مشاريع لبناء مستشفى حكومي في كل من المحافظات اللبنانية وفي بيروت. كما اعتنت بشؤون الصحة المدرسية، وكان الطبيب يعاين تلاميذ المدارس الرسمية بصورة دورية.

إن هذه الأعمال الناجحة في السياسة الخارجية وفي الإدارة

الداخلية والعمرانية أفسدتها السياسة في الداخل. فإن الحكومات أقدمت على مخالفة القوانين القائمة، والتصرف الاعتباطي لا سيما وأن الدولة كانت بحاجة إلى عدد من القوانين والتشريعات الحديثة لتنظيم المؤسسات والإدارات التي أنشئت. فراح المسؤولون يخدمون أقاربهم وأنصارهم، فتشكلت حاشية من الأصحاب، واستغل السياسيون واقع الدولة بصورة غير مشروعة حتى اتهمهم المعارضون بتحويل البلاد إلى مزرعة. وتعرّض أنصار المعارضة، لا سيما أنصار الكتلة الوطنية لأنواع شتى من الضغوطات.

وجرت انتخابات نيابية ١٩٤٧، هي الأولى في لبنان المستقل، كان ينبغي أن تكون مثالية، إنما عرفت التزوير بشكل واسع، وارتفعت أصوات عديدة ضد انتخابات الخامس والعشرين من أيار (٢٥ أيار) واتهامها بالتزوير واعتبار مجلس ٢٥ أيار مجلساً لا شرعياً. رغم الانتقادات اجتمع المجلس النيابي، وجدد ولاية الرئيس بشارة الخوري لست سنوات جديدة. فاشتدت نقمة المعارضة، وازداد عدد الزعماء المعارضين.

وجاءت أحداث لتزيد النقمة على العهد، منها مثلاً وفاة الرئيس السابق إميل إده (٢٧ أيلول ١٩٤٩) ورفض أولاده إجراء مأتم رسمي له. فجرى مأتم شعبي حافل، التقى فيه أنصار الرئيس المتوفي ومعارضو عهد بشارة الخوري، ما أظهر النقمة الواسعة على العهد.

كذلك أثرت الأوضاع الإقليمية والدولية على وضع لبنان، فكانت الحرب الباردة والصراع بين الشرق والغرب، وقضية

فلسطين والنقمة على الأنظمة العربية القائمة، والانقلاب الذي قام به الضابط حسني الزعيم في سوريا. وقام الحزب السوري القومي بمحاولة إنقلابية في صيف ١٩٤٩ بتشجيع من حسني الزعيم، وذهب زعيم الحزب أنطون سعاده إلى سوريا، لكن حسني الزعيم انقلب عليه، وسلمه للحكومة اللبنانية، فحاكمته، وأصدرت المحكمة حكماً سريعاً، وتم الإعدام (ليل ١٩٤٩/٧/٨). وقضت الحكومة على محاولة الانقلاب، وألقت القبض على عدد كبيرمن أنصار الحزب السوري القومي وحاكمتهم.

واغتيل الزعيم الشعبي ورئيس الوزراء السابق رياض الصلح في ١٦ تموز ١٩٥١، فيما كان يقوم بزيارة للأردن، وفقد بشارة الخوري دعم صديقه القوي.

وفي ربيع ١٩٥١ جرت الانتخابات النيابية في لبنان، ونجح سبعة نواب معارضين شكلوا الجبهة الاشتراكية الوطنية (وهم النواب كميل شمعون، كمال جنبلاط، بيار إده، غسان تويني، عبد الله الحاج، أنور الخطيب، وديكران توسباط) كذلك تعاطف مع المعارضة هذه عدد من القادة السياسيين نذكر منهم كلاً من أحمد الأسعد، حميد فرنجية، ريمون إده... وعرفت البلاد موجة من الاضرابات في أوساط العمال والمؤسسات (إضراب المحامين، الكهرباء) واشتدت النقمة وانتقاد الفساد وسوء الإدارة.

ودعت المعارضة إلى التظاهر والاجتماعات، كان أبرزها مؤتمر في دير القمر (١٧ آب ١٩٥٢) اجتمع الألوف، وألقى المعارضون الخطابات، وانتقدوا العهد بعنف. ثم دعت

المعارضة إلى إضراب عام في بيروت منذ ١٦ أيلول ١٩٥٢ فكان الإضراب شاملاً. اجتمع النواب، مؤيدو الرئيس الخوري، وأعلنوا تأييدهم الكامل له. لكنه فضل الاستقالة حتى «لا يهرق نقطة دم واحدة» واستدعى قائد الجيش الجنرال فؤاد شهاب، وسلمه مسؤولية الحكم،واستقال بشارة الخوري في ١٨ أيلول. واجتمع المجلس النيابي في ٢٢ أيلول وانتخب كميل شمعون رئيساً للجمهورية.

نص كتاب الاستقالة

حضرة رئيس المجلس النيابي الأفخم

لما كنت صممت على اعتزال منصب رئاسة الجمهورية، أرجو منكم التفضل بأخذ العلم بذلك، شاكراً لمجلسكم الكريم وللشعب اللبناني النبيل ما لقيته في أثناء ولايتي من ولاء ومحبة. ولي ملء الأمل أن يوفق مجلسكم بانتخاب خلف لي يحافظ على كيان هذا الوطن الذي هو دعامة الاستقلال، لأنه يؤمن الحب والوئام بين جميع الطوائف التي يتألف منها هذا الوطن العزيز.
وتفضلوا بقبول جزيل الاحترام

في ١٨ أيلول سنة ١٩٥٢

بشارة خليل الخوري

حقائق لبنانية، ج ٣، ص ٤٨٠

عهد الرئيس كميل شمعون
١٩٥٢ - ١٩٥٨

اجتمع مجلس النواب في ٢٢ أيلول ١٩٥٢ وانتخب كميل شمعون رئيساً للجمهورية بأغلبية الأصوات. وهو محامي ورجل سياسة، تدرج في مكتب إميل إده، ثم أصبح عضواً في الكتلة الدستورية، ثم نائباً ووزيراً، ثم سفيراً في لندن حيث مثّل لبنان وسوريا لبعض الوقت وتميز بالدفاع عن القضايا اللبنانية والعربية ولُقّب «بفتى العروبة الأغر».

عرفت رئاسته مرحلتين. امتدت الأولى حتى سنة ١٩٥٦، وتميّزت بالاستقرار وتم خلالها تنظيم الدولة، وعرفت البلاد ازدهاراً اقتصادياً مميّزاً.

أما الثانية فامتدت حتى آخر العهد ١٩٥٨، وظهرت أحداث إقليمية ودولية أثّرت سلباً على لبنان، فتفاقمت الأحداث حتى وقعت ثورة سنة ١٩٥٨.

السياسة الداخلية

منذ أصبح كميل شمعون رئيساً سعى حلفاؤه في الجبهة الاشتراكية الوطنية إلى استلام الحكم. لكنه فضّل تشكيل حكومة حيادية مصغرة من خارج مجلس النواب برئاسة خالد شهاب. ومنحها المجلس النيابي حقّ إصدار المراسيم الاشتراعية. وحرص الرئيس شمعون على إنجاز الإصلاحات كما وعد في خطاب القسم. حرص أولاً على تلافي الأخطاء التي وقع فيها العهد السابق. وعلى وضع القوانين اللازمة للإصلاح. فلم يسمح للأقارب وللمقربين بالتدخل في أمور السياسة. وعالج مواضيع الإدارة، والقضاء، والحريات، ووضع قانوناً جديداً للانتخابات.

كانت الإدارة ما تزال تعتمد القوانين التي وضعتها سلطات الانتداب، وهي لم تحدد صلاحيات الموظفين ومسؤولياتهم ولا شروط تعيينهم. فجرى حشر ألوف الموظفين في مؤسسات الدولة وأحياناً في وظائف وهمية فكان الكثيرون منهم لا عمل لهم. فتنفقُ الدولة الملايين دون فائدة.

وأصدرت الحكومة المراسيم الاشتراعية. نظّمت قوانين العمل، حدّدت شروط دخول الوظيفة ومسؤوليات الموظف. كان القضاء خاضعاً للسياسة. ولضغط المتنفذين. حتى تضايق القضاة من المداخلات. لذا أصدرت الحكومة القوانين سنة ١٩٥٣ التي نظمت القضاء، فلم يعد القاضي مرتبطاً بوزير العدل ولا بالحكومة، بل بمجلس القضاء الأعلى، وأصبح هذا المجلس

يعيّن القضاة، ويشرف على تدرجهم ونظامهم، الأمر الذي منح القضاء الاستقلال، فلم يعد القاضي خاضعاً للسياسة.

كانت الصحافة مقيدة، فأزال العهد القوانين التي تحدّ من حريتها. فنعمت بالحرية، لكن الحرية الواسعة سيف ذو حدّين، تقود إلى الفوضى إذا أسيء استعمالها، وقد حدث شيء من هذا.

وضع العهد قانوناً انتخابياً جديداً. فانخفض عدد مقاعد النواب من ٦٦ إلى ٤٤ مقعداً. بحجة رفع مستوى النواب والحدّ من الجدل العقيم. كذلك جرى تصغير الدوائر الانتخابية، فأصبحت فردية بمعظمها، ولا يزيد كبيرها على الثلاثة مقاعد. وذلك لوضع حدّ للإقطاعية السياسية. ونالت المرأة حقوقها السياسية (١٩٥٣) لأول مرة في لبنان وفي العالم العربي. وأصبحت تنتخب وتُنتخب.

الوضع الاقتصادي والمالي

عرف لبنان في هذا العهد ازدهاراً اقتصادياً ومالياً كبيراً قلما عرف مثله. وقد ساهمت في ذلك أسبابٌ دولية وإقليمية. كان العالم يمرّ في مرحلة من الازدهار. كذلك نشط استخراج النفط في منطقة الخليج العربي، فانفتحت أمام اللبنانيين مجالات عمل واسعة. وتدفقت إلى مصارف لبنان الأموال العربية، وشجعها نظام السرية المصرفية الذي تم وضعه في هذا العهد بناء على اقتراح النائب ريمون إده. وأصبحت بيروت مركزاً مالياً عالمياً. وبدأت سياسة التأميم في بعض البلدان العربية مما أدى إلى لجوء

المزيد من الأموال إلى مصارف لبنان. وبسبب الأزمة الفلسطينية لجأت إلى لبنان رؤوس أموال، كذلك مؤسسات اقتصادية فلسطينية كثيرة ساهمت في ازدهار الاقتصاد. كما ازداد مرفأ بيروت نشاطاً وازدهاراً بعد مقاطعة العرب لمرفأ حيفا بسبب الأزمة الفلسطينية، ليتعاملوا مع مرفأ بيروت.

كانت مدرستان تتنازعان السياسة الاقتصادية في لبنان. تقول الأولى بأفضلية التجارة وتعتبرها سبب ازدهار لبنان، وتطلب لها المزيد من الحرية. فيما بشّرت الثانية بأهمية الصناعة، وشجعت على توظيف المال في إنشاء المصانع وتطوير المصنوعات، والإفادة من اليد العاملة الرخيصة نسبياً، وطالبت بالحماية الجمركية. وحرّكت الشعور الوطني لشراء الإنتاج الوطني. وأكدت «أن بلداً لا ينتج ما يستهلك ليس أهلاً للعيش».

عمل العهد على المصالحة بين المدرستين. فحافظ على الاقتصاد الحر. معتبراً أن النشاط الفردي هو سبب الازدهار في لبنان. فوضع تشريعات جمركية تؤمن حرية التجارة، كما تؤمن حماية نسبية للصناعات الوطنية الناشئة. وتم وضع التشريعات فيما خص إنشاء المصانع، وذلك حسب حاجة السوق وإمكانية التصدير. وجعل إنشاء مصانع جديدة خاضعاً لإجازة مسبقة. وتشجيعاً للتصدير جرى عقد اتفاقات تجارية مع البلدان الأجنبية والعربية. وتأسست مصارف متخصصة لتنشيط الاقتصاد: الزراعة والصناعة والفنادق. وانعقد مؤتمر عربي في بيروت ١٩٥٤ لتشجيع التبادل التجاري وحركة السياحة والاصطياف بين البلدان العربية.

حتى صيف ١٩٥٨ كان الاقتصاد اللبناني في ذروة الازدهار. كانت مجالات العمل مؤمنة، وحركة البناء ناشطة، والصناعة تنمو، والتجارة في ازدهار دائم. ولعب التجار اللبنانيون دوراً ناشطاً في التجارة المثلثة أي بين لبنان والخارج. وظلّت بيروت عاصمة مالية كبيرة. بين سنتي ١٩٥٢ و١٩٥٨ ارتفع الدخل الوطني من ٨٦٠ مليون ليرة إلى ١٩٥٧ مليون. وتضاعف ثمن الأراضي خمس مرات. وازدادت الطبقة المتوسطة من اللبنانيين عدداً وقدرة. وأصبحت مواد استهلاكية كثيرة من إنتاج لبنان. وقد تحقق إنجاز مشاريع عدة في مجالات مختلفة زاد عددها على الخمسين.

عرفت البلاد مشاريع عمرانية عدة، مشاريع كهرباء وماء، تحسين المرافئ لاسيما في بيروت وفي طرابلس. توسيع مطار بيروت، وبناء مدينة كميل شمعون الرياضية في منطقة بير حسن وتدشينها، بناء القصر الجمهوري في بعبدا. المباشرة في بناء مشروع الليطاني (١٩٥٥) شق الطرقات وتأمين الماء والكهرباء والهاتف لعدد من القرى.

كذلك عرفت البلاد نشاطاً فكرياً وفنياً واسعاً، كثرت المعارض، تأسس الكونسرفاتوار الوطني للموسيقى، وأصبح لمهرجانات بعلبك شهرة عالمية، وقد شاركت في نجاحها فرق لبنانية وعربية وعالمية.

وتواصل الاهتمام بحركة التعليم، من إنشاء المدارس في القرى. وبدأ إنشاء المدارس الثانوية الرسمية في طرابلس وبيروت لينتشر

فيما بعد في مناطق لبنان. كذلك تم إنشاء الجامعة اللبنانية التي لعبت دوراً بارزاً في تأمين التعليم العالي في لبنان.

في السياسة الخارجية

حرص العهد أن يكون للبنان مركز دولي مرموق، واستطاع كميل شمعون، بفضل شخصيته القوية أن يحقق إنجازاً مهماً، حتى سنة ١٩٥٦ على الأقل. فقد استمر عضواً فاعلاً في كل من جامعة الدول العربية وهيئة الأمم. وعمل العهد ليظل صديقاً للعرب جميعاً دون أن يدخل في محور ضدّ الآخر. قام الرئيس شمعون بزيارات موفقة إلى عدد من البلدان العربية بناء على دعوات من حكامها، كذلك استقبل في لبنان عدداً من قادة العرب والعالم. زار كلاً من مصر بدعوة من الرئيس محمد نجيب، والسعودية بدعوة من الملك سعود، والعراق بدعوة من الملك فيصل الثاني ورئيس الوزراء نوري السعيد، وكان يعتبر العراق امتداداً اقتصادياً للبنان وصديقاً سياسياً له. وزار الأردن بدعوة من الملك حسين. وقام بوساطة ناجحة بين الدول العربية لا سيما بين مصر والعراق، والمملكة السعودية والعراق وبيّن للسعوديين أن البيت الهاشمي توقف عن المطالبة بالحجاز.

أما خارج البلدان العربية فقد زار الرئيس شمعون دول أميركا اللاتينية: البرازيل، والأرجنتين، والأورغواي. وخصّه المغتربون اللبنانيون باستقبالات حافلة. ووجد أنهم قوة

اقتصادية ومالية وسياسية فاعلة، فعمل لشد الروابط بين لبنان المقيم وأبنائه المغتربين.

زار دول إسبانيا وإيطاليا، واليونان، كذلك زار تركيا وإيران.

كان الصراع قائماً بين الشرق بزعامة الاتحاد السوفياتي، والغرب بزعامة الولايات المتحدة. بما عرف بـ«الحرب الباردة» والصراع يزداد عنفاً. فاختار العهد أن يميل إلى الغرب، دون أن يعلن عداوة سافرة للشرق.

كانت السياسة الفرنسية حذرة من الرئيس شمعون. لذا حرص أن يؤكد لفرنسا أنه يقدّر ما لها من صداقة تقليدية مع لبنان، وما لها من مصالح فيه. رحّب الإنكليز والأميركيون بالرئيس شمعون، وكان التنافس شديداً بينهم في الشرق بسبب النفط، ولاحظ الرئيس شمعون ذلك. واعتقد الإنكليز أنه يفضّلهم ويخصّهم بصداقة قديمة. لكنهم أخطأوا التقدير. فإذا كان الرئيس شمعون معجباً بالإنكليز بسبب نضجهم السياسي وممارستهم الصحيحة للديمقراطية. فهو يعرف جيداً أن القوة السياسية والاقتصادية أصبحت بيد الولايات المتحدة.

انعكست الأحداث الإقليمية والدولية على لبنان. كان للواقع العربي الدور الأهم. فمنذ سنة ١٩٥٤ بدأ الانقسام العربي يؤثر على لبنان. فقد وقّعت مصر في ١٩ ت١ اتفاقاً مع بريطانيا، وتعهدت هذه الأخيرة بإخلاء القواعد العسكرية التي كانت تحتفظ بها على قناة السويس بموجب معاهدة سنة ١٩٣٦. إنما

ظل لها الحق بالعودة إلى هذه القواعد إذا تعرضت تركيا أو أية دولة عربية في المنطقة لاعتداء عسكري. لكن رغم هذا الاتفاق اعتبرت بريطانيا أن انسحابها من منطقة قناة السويس يؤدي إلى فراغ استراتيجي خلال الحرب الباردة، وتجاه نشاط الشيوعية في الشرق، ومطامع الاتحاد السوفياتي، وحرص بريطانيا على مصالحها في المنطقة وحرصها على آبار النفط. عملت لإنشاء **حلف بغداد** وإقراره في شباط ١٩٥٥، فضمّ كلاً من تركيا والعراق وإيران وباكستان وانكلترا، وشاركت فيه الولايات المتحدة بصفة مراقب.

انقسم العرب بسبب حلف بغداد. عارضت مصر هذا الحلف بضراوة بقيادة الرئيس عبد الناصر، واتهمته بالعمالة للاستعمار الغربي. انقسم العرب بين محوري بغداد بقيادة الأسرة الهاشمية في العراق وفي الأردن من جهة والقاهرة بقيادة الرئيس عبد الناصر من جهة ثانية. واشتد الصراع بين محوري وادي النيل وبلاد ما بين النهرين. ونشطت الدعايات واشتدت حرب الصحافة والإذاعات بين المحورين.

وفي نيسان ١٩٥٥ انعقد مؤتمر **باندونغ**، ودشن عهداً جديداً في العلاقات الدولية، والمواقف بين الشرق والغرب، ونشأت كتلة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز، وبرز جمال عبد الناصر زعيماً كبيراً. ووصف الدول الصديقة للغرب بالرجعية وبالعمالة. وسعى كل من محوري القاهرة وبغداد لدى لبنان حتى يأخذ موقفاً. لكن الرئيس شمعون مال إلى الغرب، وتعاطف مع أعضاء حلف بغداد، فتبادل الزيارات مع قادة تركيا والعراق وإيران.

وجاء تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي على مصر ليزيد الوضع حدة. فإن الدول الغربية رفضت بيع السلاح إلى كل من مصر وسوريا. فاتجهت الدولتان إلى المعسكر الشيوعي لشراء السلاح. كذلك رفضت الولايات المتحدة أن تمنح مصر قرضاً لبناء السد العالي على نهر النيل. فاتجه الرئيس عبد الناصر إلى الاتحاد السوفياتي فاستجاب لطلبه.

رد الرئيس عبد الناصر على سياسة الغرب بتأميم قناة السويس في ٢٦ تموز ١٩٥٦ وكانت شركة أجنبية تدير الملاحة في القناة، وكانت معظم أسهمها لفرنسا ولإنكلترا. ونتيجة لذلك بدأ اعتداء إسرائيلي على مصر في ٢٩ ت١. وتدخلت إنكلترا وفرنسا بحجة وقف القتال، وانزلتا جيشاً في منطقة السويس، وبدأ ما عُرف بالعدوان الثلاثي على مصر. وقاوم المصريون بشجاعة. لكن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وهيئة الأمم أدانوا الاعتداء بشدة، فاضطرت الدول الثلاث أن توقف القتال.

أيد الرئيس شمعون والحكومة سياسة الرئيس عبد الناصر، ووجه الرئيس شمعون نداء مستعجلاً في ٣٠ ت١ لعقد اجتماع قمة عربية في بيروت. فلبى الدعوة كل من العراق والأردن وسوريا ومصر والسعودية واليمن والسودان وليبيا. وعقد المؤتمرون جلستهم الأولى في قصر الأونيسكو في بيروت يوم ١٢ ت٢. وكان قد توقف القتال. دامت الاجتماعات حتى ١٥ ت٢ ١٩٥٦، وتم الاتفاق على مساعدة مصر لتحقيق الجلاء، كذلك تأييد الشعب الجزائري في نضاله من أجل الاستقلال. ووافق المؤتمرون على تقدير مصر رئيساً وحكومة وشعباً،

وعلى التهنئة لأنها دافعت عن كرامة العرب. وطرح مندوبو الدول المجتمعة موضوع العلاقات مع كل من إنكلترا وفرنسا، وتصرّفت كل دولة حسب مصالحها، قررت كل من مصر وسوريا والسعودية قطع العلاقات بكل من إنكلترا وفرنسا. فيما قطع العراق والأردن العلاقة بفرنسا وحدها. وتجنب كل من اليمن والسودان وليبيا قطع العلاقات مع أحد. أما لبنان، وحسب رغبة الرئيس شمعون، فرفض قطع العلاقات، لأن القتال قد انتهى، ومن الأفضل أن يظل لبنان وسيطاً بين العرب ودول الغرب. لكن رئيس الوزراء عبد الله اليافي ووزير الدولة صائب سلام أصرا على قطع العلاقات، وقدما استقالتهما. وسافرا إلى مصر ولحق بهما حسين العويني أحد زعماء السنّة في بيروت وذلك لمقابلة الرئيس عبد الناصر.

كلف الرئيس شمعون الأستاذ سامي الصلح بتشكيل الوزارة، وهو أحد زعماء السنّة في بيروت. كرست هذه الأحداث الانقسام بين اللبنانيين. وبالتالي ازداد الخلاف بين الرئيس شمعون وحكومته من جهة، والرئيس عبد الناصر ومؤيدية من جهة ثانية، واتخذ الخلاف طابعاً سياسياً وطائفياً.

مشروع إيزنهاور يذكي الخلاف

وصلت إلى سوريا ومصر مساعدات من الاتحاد السوفياتي والدول الشيوعية من أسلحة وأموال وخبراء... وشكل الأمر جزءاً من الحرب الباردة. فخافت الولايات المتحدة من تسلل

الشيوعية إلى سوريا ومنها إلى المنطقة. فأعلن الرئيس الأميركي إيزنهاور في ٢٧ ك٢ ١٩٥٧ مشروعاً للدفاع عن الشرق الأوسط ضدّ الشيوعية يقضي بإعطاء مساعدات مالية وفنية لأية دولة توافق على المشروع، كذلك مساعدتها عسكرياً إذا تعرضت لاعتداء. أعلن رئيس الوزراء سامي الصلح قبول المشروع، وأكد أنه يفيد لبنان ولا يؤثر على استقلاله وسيادته. ووافق أيضاً وزير الخارجية شارل مالك. وأوفد الرئيس إيزنهاور مندوباً إلى لبنان (جيمس ريتشارد) فتفاوض مع الحكومة اللبنانية (بين ١٤ و١٦ آذار) ووافقت الحكومة رسمياً على المشروع.

عارضت مصر مشروع إيزنهاور بعنف، ووصفته بالاستعماري الأمبريالي. وانتقدت من يوافق عليه، واشتد الخلاف داخل لبنان بين مؤيد للمشروع ومعارض له.

ثورة ١٩٥٨

تم وضع قانون جديد للانتخابات، فارتفع عدد مقاعد النواب من ٤٤ إلى ٦٦ مقعداً. وجرى تقسيم الدوائر الانتخابية لمصلحة مؤيدي الرئيس شمعون. وبدأت التظاهرات المعارضة للعهد، والمطالبة بسقوط الحكومة وباستقالة الرئيس شمعون، فيما قامت جماعات مؤيدة للعهد.

اتهمت المعارضة الرئيس شمعون بالسعي لتجديد ولايته والانضمام لحلف بغداد.

جرت الانتخابات في حزيران ١٩٥٧، وأحرز أنصار الرئيس شمعون انتصاراً كبيراً، فيما لم ينجح عدد من كبار الزعماء السياسيين المعارضين مثل صائب سلام، عبد الله اليافي، كمال جنبلاط، أحمد الأسعد، ونجح بعض كبار المعارضين مثل رشيد كرامي وحميد فرنجية.

اتهمت المعارضة العهد بالعمل ضدها، واشتدت حدة الخلاف والانقسام بين اللبنانين. كان معظم مؤيدي شمعون من المسيحيين، ومعظم معارضيه من المسلمين، وقد تحمسوا للرئيس عبد الناصر. كذلك اتهم المعارضون الرئيس شمعون بتزوير الانتخابات حتى يجدد ولايته. وبالفعل أعلن بعض أنصار شمعون رغبتهم بالتجديد له. فيما هو لم يعط أي تصريح حول التجديد. وأصرت المعارضة على استقالة الرئيس. وتشكلت جبهة «أو قوة ثالثة» تدعو للتهدئة، وقامت بالوساطة تفادياً للعنف ضمت عدداً من القياديين (هنري فرعون، جورج نقاش، غسان تويني) لكنها لم تتمكن من تحقيق هدفها.

جرى إعلان قيام الوحدة بين مصر وسوريا باسم «الجمهورية العربية المتحدة» (شباط ١٩٥٨) وكان الرئيس شمعون أول مهنئي الرئيس عبد الناصر بهذه الوحدة. لكن العداوة استمرت... حتى جرى اغتيال الصحافي المعارض نسيب المتني في ٨ أيار ١٩٥٨، واتهمت المعارضة أنصار شمعون باغتياله. وتبيّن فيما بعد أن لا علاقة لشمعون بالاغتيال، بل أن يداً غريبة افتعلت الحادث لإيقاع الفتنة.

بدأت الثورة، وارتفعت المتاريس في أماكن عدة من لبنان بقيادة المعارضين: في بيروت، وطرابلس، وصيدا، والجبل، والشوف، والبقاع... وكان ضد شمعون عدد من القادة المسيحيين مما خفف من وطأة الانقسام الطائفي في طليعتهم البطريرك الماروني مار بولس بطرس المعوشي، وحميد فرنجية. ووقفت الكتلة الوطنية بقيادة ريمون إده على الحياد.

وأيد الرئيس شمعون حزبا الكتائب والسوري القومي الاجتماعي ومعظم الرأي العام المسيحي. ووقف الجيش اللبناني، بقيادة اللواء فؤاد شهاب، على الحياد، حتى لا ينغمس في قتال داخلي.

اتهم العهد الجمهورية العربية المتحدة بإرسال السلاح والمتطوعين من سوريا إلى المعارضين في لبنان. فيما اتهمت المعارضة الرئيس شمعون بأخذ المساعدات من العراق ومن الأردن وقد شكّلا دولة الاتحاد العربي في مواجهة الجمهورية العربية المتحدة.

سيطر المعارضون على مناطق واسعة من لبنان في الشمال والبقاع والشوف، بالإضافة إلى مناطق من طرابلس وبيروت. ووقعت حوادث عنف واغتيالات وانفجارات دامية. ووقعت الخسائر، وبلغ عدد القتلى، حسب التقديرات، نحو ثلاثة آلاف شخص معظمهم من الأبرياء.

طلب الرئيس شمعون مساعدة الدول الغربية الموقعة على البيان الثلاثي الذي أصدرته الدول الغربية الثلاث (الولايات المتحدة

وبريطانيا وفرنسا) سنة ١٩٥٠ والذي يؤكد على سلامة وضع دول المنطقة وحدودها. كذلك طلب مساعدة الولايات المتحدة حسب مشروع إيزنهاور، لكن المساعدة لم تصل.

رفع لبنان الشكوى ضد الجمهورية العربية المتحدة أمام جامعة الدول العربية. وتم درسها في ليبيا (٢٨ آذار) لكن بدون نتيجة. فرفع الشكوى أمام مجلس الأمن الذي اتخذ قراراً (١١ حزيران ١٩٥٨) بإرسال مراقبين إلى لبنان. حضر المراقبون إنما لم يكن لحضورهم تأثير.

ثورة العراق والتدخل الأميركي

فجر الرابع عشر من تموز، وقع انقلاب في العراق قام به الجيش، أطاح النظام الملكي، وقضى على الأسرة المالكة وعلى رئيس الوزراء القوي نوري السعيد. وأعلن الزعيم (اللواء) عبد الكريم قاسم الجمهورية. فاستدعى الرئيس شمعون سفراء الدول الغربية الثلاث وطلب إليهم المساعدة بالاستناد إلى البيان الثلاثي ومشروع إيزنهاور. فوعدوه خيراً. لكن الأميركيين تدخلوا وحدهم. ففي الخامس عشر من تموز أبحرت قطع من الأسطول السادس الأميركي إلى مياه لبنان. ونزل رماة البحرية الأميركية على شاطئ خلدة جنوب بيروت، وتم التنسيق بين الجيشين اللبناني والأميركي. وتدخلت السياسة الأميركية، وقام موفد أميركي باتصال بالرئيس جمال عبد الناصر، وفي ٣١ تموز انتخب المجلس النيابي قائد الجيش اللواء فؤاد شهاب رئيساً

للجمهورية، خفّت حدة الثورة، لكنها لم تتوقف، واحتفظ شمعون بمسؤوليات الرئاسة، وظل مقيماً في القصر الرئاسي في منطقة القنطاري في بيروت حتى آخر عهد ولايته في ٢٣ أيلول. وبدأ عهد الرئيس فؤاد شهاب.

مقطع من الخطاب الذي ألقاه كميل شمعون بعد انتخابه رئيساً

«أشعر أنه يتوجب علي، منذ الساعة، أن أعلن لكم ولشعب لبنان ما أراه في رئاسة الجمهورية وما أنويه:

إن هذه الرئاسة تكليف وخدمة، ليست مكافأة ولا رتبة، إن رئيس الجمهورية لن يُسمى رئيس البلاد أو بالأحرى سيد البلاد فأمثال هذه الألقاب تنافي أسس الجمهورية والديمقراطية وتحطّ من كرامة الشعب الذي لا سيد سواه. إن رئيس الجمهورية لن يُحاط بمظاهر العظمة والفخفخة... بل هي تكلف الشعب نفقات ليس ملزماً بها.

إن الشعب يطلب القضاء سريعاً بدون هوادة ولا رحمة على الفساد والفوضى المنتشرين في كل مرافق البلاد والدولة. ويطلب تطهيرها من أدرانها ومن أسبابها وليس والحمد لله في أخلاق اللبنانيين أو تقاليدهم أي فساد متأصل.

عهد الرئيس فؤاد شهاب
١٩٥٨ - ١٩٦٤

انتخب المجلس النيابي اللواء فؤاد شهاب قائد الجيش رئيساً للجمهورية. فتمكن خلال عهده من وقف الثورة وإعادة الاستقرار. وعمل في السياسة الخارجية ليأخذ لبنان محله في المجموعة الدولية بانتهاج سياسة الحياد والصداقة مع الآخرين. فشدد على العلاقات الحسنة مع الدول العربية، كذلك مع الدول الكبرى. وحرص في الداخل على بناء دولة الاستقلال بناءً حديثاً، فنظم المؤسسات القائمة وأنشأ مؤسسات جديدة.

جرت محاولة إنقلابية في آخر سنة ١٩٦١، وعظم على أثرها نفوذ المكتب الثاني، مما أثار الانتقادات واعتبار ذلك تعدياً على الديمقراطية.

ولد فؤاد شهاب في غزير سنة ١٩٠٢، أتم دروسه في مدرسة ألأخوة المريميين في جونية، واختار مهنة السلاح، فدخل الكلية

الحربية في دمشق سنة ١٩٢١، وتخرج منها ١٩٢٣ برتبة ملازم ثاني. أتم دورات عسكرية عدة في فرنسا، ثم التحق بمدرسة الحرب العليا في باريس وتخرج منها. وبعد تحقيق الاستقلال واستلام الجيش من الفرنسيين في أول آب ١٩٤٥ أصبح اللواء فؤاد شهاب أول قائد لهذا الجيش. كان متزوجاً من فرنسية، وقد أحبّت لبنان كثيراً، ولم تتدخل بشؤون السياسة.

انتخاب (الجنرال) اللواء فؤاد شهاب رئيساً

بعد أن نزلت قوات من رماة البحرية الأميركية على شاطئ لبنان، اهتمت السياسة الأميركية بالأزمة اللبنانية، وسعت لإيجاد حل لها. وأرسل الرئيس الأميركي إيزنهاور مندوباً خاصاً إلى لبنان هو السفير روبرت مورفي، فقام باتصالات سياسية واسعة في لبنان، ثم ذهب إلى مصر وتشاور مع الرئيس جمال عبد الناصر. وتم الاتفاق أخيراً على تأييد الجنرال فؤاد شهاب لرئاسة الجمهورية. فاجتمع المجلس النيابي في ٣١ تموز ١٩٥٨ وانتخب فؤاد شهاب رئيساً في الدورة الثانية (بـ٤٨ صوتاً) مقابل سبعة أصوات نالها ريمون إده عميد الكتلة الوطنية الذي صرّح بانه ترشح لمركز الرئاسة من أجل المحافظة على النظام البرلماني الديمقراطي حتى لا يقال أن انتخاب الرئيس تمّ بإشراف الأسطول السادس الأميركي.

رافق انتخاب الرئيس شهاب ارتياح كبير، وأمل بعودة الهدوء. بالواقع خفّت حدّة الثورة لكنها لم تهدأ تماماً. بل استمرت في

جو ترقّب وانتظار الحلول. وبعد أربعة أيام من انتخابه (يوم الرابع من آب) وجه الرئيس إلى اللبنانيين، في تصريح صحفي، نداء يدعو إلى الهدوء والوحدة الوطنية. فقال إن أول ما أطلبه هو السعي بكل ما أوتينا للعودة بالبلاد إلى هدوئها ووحدتها الوطنية.

استلم مهمات الرئاسة في ٢٣ أيلول ١٩٥٨، ألقى خطاب القسم فدعا إلى الهدوء، وحدد الخطوط الكبرى لسياسته. وقد تمت مراسم التسلم والتسليم بين الرئيسين شمعون وشهاب في القصر الجمهوري في محلة القنطاري، لكن الرئيس شهاب أقام في جونية، وجعل عمل الرئاسة في فيلا في منطقة صربا قرب جونية.

عودة الاستقرار

تسلم الرئيس شهاب مهامه لكن الثورة استمرت، ورافقتها أحداث دامية. ففي التاسع من أيلول اغتيل الصحافي الكتائبي (فؤاد حداد) على طريق المطار فتأزم الوضع. وقام الرئيس بالمشاورات لتشكيل الوزارة، فكلّف الأستاذ رشيد كرامي بتشكيلها، وكان قائد الثورة في طرابلس. فشكل وزارة من ثمانية أشخاص كان سبعة منهم قريبين من الثورة. فعارضها معظم المسيحيين لا سيما بعد أن جاء في أحد تصاريح الرئيس كرامي أنه يجب «قطف ثمار الثورة» فقامت حركة معارضة للحكومة عُرفت بالثورة المضادة كان من أبرز منظميها أنصار الرئيس

شمعون، والكتائب اللبنانية والحزب السوري القومي الاجتماعي. ووقعت اصطدامات دامية في مناطق عدة. وارتفعت أصوات تدعو إلى الهدوء والتفاهم منها نداء للزعيم البيروتي صائب سلام دعا المسيحيين والمسلمين للعمل معاً لبناء الوطن الواحد. وهو الذي رفع شعار لبنان واحد لا لبنانان.

قدم رشيد كرامي استقالة حكومته (٩ ت١) وكلفه الرئيس من جديد بتشكيل الحكومة، فجعلها من أربعة أشخاص، ضمّت كلا من رشيد كرامي رئيساً لمجلس الوزراء، ووزيراً للمالية والاقتصاد والأنباء والدفاع الوطني، الحاج حسين العويني وزيراً للخارجية والعدلية والتصميم العام، ريمون إده عميد الكتلة الوطنية وزيراً للداخلية والشؤون الاجتماعية والبريد والبرق والهاتف، وبيار الجميل رئيس الكتائب اللبنانية وزيراً للأشغال العامة والتربية الوطنية والصحة العامة والزراعة.



حكومة الأربعة

رفعت الحكومة الرباعية شعار «لا غالب ولا مغلوب» ومنحها المجلس النيابي الثقة بخمسين صوتاً، ومنحها حق إصدار المراسيم الاشتراعية. واستقبلها اللبنانيون بارتياح، وكانوا بمعظمهم يريدون السلام والاستقرار.

عملت وزارة الأربعة بنشاط، أزالت أسباب الثورة، أوحت الثقة، عمل كل وزير بجدّ، لا سيما وزير الداخلية ريمون إده الذي تمكن من فرض الأمن بحزم وجرأة وحسن تصرّف. ومع تركيز الأمن وعودة الاستقرار بدأت إعادة البناء. شكلت الحكومة اللجان اللازمة في كل من الوزارات، لدرس الواقع وتخطيط العمل، واتخاذ القرارات المناسبة فأصدرت ١٦٢ مرسوماً اشتراعياً.

استقال الوزير ريمون إده (٧ ت١ ١٩٥٩) لأسباب سياسية وصفها بأنها اعتداء أحد الأجهزة الأمنية على بعض أنصاره. أما رئيس الوزارة فوسع الحكومة إذ ضمّ إليها رجال سياسة معتدلين وأصحاب خبرة (هم فيليب تقلا وفؤاد بطرس وفؤاد نجار وعلي بزي).

وضعت الحكومة قانوناً انتخابياً جديداً (صدر في ٢٦ نيسان ١٩٦٠) فازداد عدد مقاعد النواب من ٦٦ إلى ٩٩ مقعداً. وذلك لتأمين تمثيل شعبي أفضل. وكان الرئيس شهاب يعتبر الوحدة الوطنية ضرورية للاستقرار ولحفظ كيان لبنان واستقلاله. وقال بضرورة وضع نظام انتخابي يراعي واقع لبنان من حيث احترام الزعامات التقليدية القديمة من جهة، ويفتح من جهة ثانية

الباب أمام الكفاءات الشابة، ويثبّت الوحدة الوطنية. فشارك المسيحيون والمسلمون قدر الإمكان في انتخاب النواب، كذلك يسمح في بعض المناطق للطائفة أن تختار ممثلها. فجعل الدوائر الانتخابية المتوسطة في إطار القضاء، وذلك وسطاً بين الدائرة على أساس المحافظة، والدائرة الفردية المصغّرة. وبعد وضع القانون الانتخابي تم حلّ المجلس النيابي. وإجراء انتخابات نيابية في صيف ١٩٦٠. فنجح الزعماء السياسيون الذين غابوا عن المجلس النيابي في انتخابات ١٩٥٧، وبهذه الانتخابات تمثلت القوى السياسية الفاعلة. وشكل صائب سلام الوزارة لأول مرة.

استقالة الرئيس شهاب والعودة عنها

في ٢٠ تموز ١٩٦٠ أعلنت الإذاعة اللبنانية خبراً فاجأ اللبنانيين خلاصته أن الرئيس فؤاد شهاب استقال من رئاسة الجمهورية، وقد اعتبر أن المهمة التي تكلف بها قد انتهت، وعادت البلاد إلى الحياة الطبيعية، وبإمكان مجلس النواب أن ينتخب رئيساً جديداً. كانت ردة فعل عفوية وكبيرة. فهرع النواب إلى الرئيس في جونيه، ومشت التظاهرات الشعبية. وتكلم النواب وفي طليعتهم كبار المعارضين والموالين منهم صائب سلام، كمال جنبلاط، ريمون إده، بيار الجميل، رشيد كرامي وأصرّ الجميع على الرئيس حتى يرجع عن الاستقالة. بعد ست ساعات من الإلحاح، وهتاف المتظاهرين قبل الرئيس بالاستمرار في الرئاسة.

أما حقيقة الأمر فهي أنه استاء من دعايات اتهمته بالميل إلى سياسة الرئيس عبد الناصر، وبالميل إلى المسلمين. كذلك لم يرضه تصرّف عدد من رجال السياسة الذين يعملون لمصالحهم الخاصة فاتهمهم «بأكلةالجبنة» كانت هذه الحادثة استفتاءً للعهد، فتأكد تأييد النواب والشعب له.

محاولة انقلاب ١٩٦٠ وبروز المكتب الثاني

كان بعض الضباط في الجيش ناقمين، واتهموا العهد بأنه أهملهم وفضّل البعض عليهم، فقاموا بمحاولة انقلاب (ليل ٣١ ك١ ١٩٦١) وساعدتهم عناصر من الحزب السوري القومي الاجتماعي. فاحتجزوا في وزارة الدفاع في بيروت عدداً من الضباط وسيطروا على بعض مراكز الهاتف والتلغراف. لكن المحاولة فشلت بسرعة وجرى إلقاء القبض على أعداد كبيرة من أعضاء الحزب، وجرت محاكمتهم، وصدرت أحكام بالسجن حتى المؤبد وبالإعدام. لكن الرئيس لم يصادق على أي حكم إعدام. وما انقضت سبع سنوات حتى خرج المحكومون جميعهم من السجن حيث صدر العفو عنهم في شباط سنة ١٩٦٩.

شكلت محاولة الانقلاب تحولاً في سياسة الرئيس، فأصبح يعتمد على الجيش، وهو لا ينتمي إلى حزب سياسي، وليست له قاعدة شعبية خاصة به. وكان أصلاً يفضل إبعاد الجيش عن السياسة. فاستغلّ المكتب الثاني الحادثة. وهو جهاز عسكري تابع

للجيش مهمته المحافظة على أمن البلاد. ورصد ما يجري تجاه الأمن. فبدأ يتدخل بأمور السياسة بشكل واسع، الأمر الذي أثار الاستياء وأساء إلى عهد الرئيس، كما أساء الأقارب والأصدقاء إلى عهد بشارة الخوري.

وظهرت انتقادات للمكتب الثاني من عدد من النواب والصحف في طليعتهم ريمون إده وصائب سلام. انتقدوا تصرفات المكتب الثاني في السياسة لكنهم أكدوا على احترام شخصية اللواء والرئيس فؤاد شهاب. من جهة ثانية شكل فريق من النواب كتلة موالية للرئيس شهاب، أيّدت ما أسمته النهج الشهابي. والنهج ليس عقيدة سياسية بل هو نمط حكم يمثل إرادة فؤاد شهاب ورغبته في بناء دولة حديثة تعتني بجميع المواطنين وجميع المناطق.

ونذكّر بأن فؤاد شهاب عاش المناقبية العسكرية الأصيلة. قام بمهماته بمسؤولية وبدقة سواء في قيادة الجيش أم في رئاسة الجمهورية. ففيما كان في الجيش زار مناطق لبنان وتعرّف على الفقير فيها والغني، وعاش مدة في فرنسا، فعرف أسلوب العمل في البلاد المتطورة فازداد رغبة في جعل لبنان بلداً متطوراً.

حرص العهد على سياسة التحديث والعمران، وعملت الحكومات المتعاقبة بهذا الخط. جرى تنظيم المؤسسات القائمة وإنشاء مؤسسات جديدة. وبدأت سياسة الإصلاح المتوازن وذلك بمساعدة المناطق الفقيرة. طلب الرئيس

شهاب من مستشاريه معلومات أساسية عن وضع البلاد ففوجئ بعدم وجود الدراسات والإحصاءات. لذا قرر الاستعانة بمؤسسة دولية للدراسات واختار معهد البحوث والتأهيل نحو التطور المتناسق والمتكامل (IRFED) برئاسة الفرنسي الأب لوبره (Lebret) وبدأت البعثة العمل في كانون الأول سنة ١٩٥٩. قامت بدراسة شاملة لكل مناطق لبنان ومدنه وقراه، فوضعت تقريراً مفصلاً كشف عن هشاشة الوضع، والتفاوت الكبير بين اللبنانيين. دلت الأرقام أن سكان لبنان كانوا سنة ١٩٦٠ ١،٦٢٦،٠٠٠ شخص. يعيش ٤٩،٥٪ في الريف و ٥٠،٧٥٪ في المدن. يعمل في الزراعة ٤٥٪ من اليد العاملة و ١٨،٥٪ في الحرف، و٣٢،٥٪ في الصناعة. يبلغ متوسط دخل الفرد السنوي نحو ١٠٠٠ ليرة لبنانية (ما يعادل ٣١٥ دولاراً أميركياً). وأن ٩٪ من اللبنانيين هم بؤساء يبلغ دخل العائلة نحو ١٢٠٠ ل. سنوياً. و٤٠٪ فقراء دخل العائلة ٢٥٠٠ ل.ل. و٣٠٪ متوسطو الحال، دخل العائلة ٤٠٠٠ ل.ل.وأن ٤٪ هم أغنياء يحصلون على ٤٠٪ من الدخل. وأن أكثر من ألفي قرية بحاجة إلى الماء والكهرباء والطرق.

راح العهد يعمل على ضوء الدراسات. وجمع الرئيس حوله عدداً من المستشارين اللبنانيين والأجانب لا سيما من الفرنسيين، بحيث زاد عددهم على المئتين. وكلف اللجان بمتابعة الدراسات الاقتصادية والاجتماعية. واختار الموظفين من أصحاب الكفاءة والإخلاص وسلمهم المسؤوليات وأطلق يدهم في العمل.

اعتمد العهد في سياسته الاقتصادية مبادئ وأبرزها

المحافظة على الحرية الاقتصادية والسرّية المصرفية، واحترام المبادرة الفردية وحرية التبادل التجاري، إنما بوضع ترتيبات تمنع الفوضى.

اعتماد خطة خمسية لتأمين الماء والكهرباء والطرقات للقرى المحرومة.

أجرت الحكومات دورات تدريبية مكثفة لإعداد الموظفين وتأهيلهم، وحرصت بصورة خاصة على تدريب المعلمين بالتعاون مع منظمة الأونيسكو ومساعدة خبراء تربويين من فرنسا وبلجيكا. كذلك فتح مدارس جديدة للمراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية، وتشجيع الجامعة اللبنانية.

كذلك شجعت الحكومات المؤسسات الموجودة ونظمتها وأنشأت مؤسسات جديدة. ووضعت التشريعات اللازمة للإصلاح الإداري والاقتصادي فصدر خلال العهد ٤٩٥ مرسوماً وقراراً تناولت مواضيع الإصلاح نذكر منها إنشاء البنك المركزي ١٩٦٣، ومؤسسة الضمان الاجتماعي، مجلس الخدمة المدنية، هيئة التفتيش المركزي وذلك لحسن اختيار الموظفين وتحريرهم من السياسة والحزبية وإعطائهم الحصانة. واهتم العهد اهتماماً خاصاً بتنمية الريف، فبالإضافة إلى الماء والكهرباء والطرقات أنشأ المشروع الأخضر سنة ١٩٦٤ وهو يقوم باستصلاح الأراضي وتشجيرها، ويساهم

المستثمر بـ١٨٪ فقط من التكاليف. وقام المشروع الأخضر كذلك بشق الطرق الزراعية، وبناء خزانات الماء، وحفر الآبار الأرتوازية وترميم البيوت الزراعية. وقد أدى خدمات كبيرة لمناطق الريف.

في السياسة الخارجية

آمن فؤاد شهاب بسياسة الاعتدال، فمصلحة لبنان تفرض ذلك. رأى تجاه العرب، ألا يدخل في سياسة المحاور فلا يساعد محوراً عربياً ضد الآخر. وقف بجانب القضايا العربية الهامة وفي طليعتها قضية فلسطين. رأى أن مصلحة اللبنانيين هي مع العالم العربي، فقد اختار اللبنانيون المسار العربي، وهم لا يستغنون عن العالم العربي، مرتبطون به سياسياً واقتصادياً وحضارياً، لكن سياسة لبنان العربية لا تحدّ من حريته وسيادته، ولا تحول دون الصداقة للغرب وللدول الكبرى لا سيما فرنسا وللبنان معها علاقات تاريخية وثقافية عريقة.

أما على الصعيد العالمي، وكانت الحرب الباردة محتدمة، والصراع عنيف بين المعسكرين الغربي والشرقي. فليس للبنان مصلحة بالانحياز إلى أي فريق، وإذا كان صديقاً للغرب فليس من مصلحته معاداة الاتحاد السوفياتي.

تم جلاء الجيش الأميركي عن لبنان (٢٥ ت١ ١٩٥٨) واحتفظ لبنان بصداقة الدول الغربية. أما على الصعيد العربي

فجدد العلاقات الحسنة مع الجمهورية العربية المتحدة، وكانت قد انقطعت في عهد الرئيس شمعون، وسحب لبنان الشكوى التي سبق تقديمها أمام مجلس الأمن، وتجدد التبادل الدبلوماسي فرجع إلى بيروت سفير مصر (عبد الحميد غالب) الذي سبق واعتبرته السلطات اللبنانية غير مرغوب فيه. وأرسل لبنان سفيراً إلى مصر.

كان للرئيس جمال عبد الناصر صداقات في لبنان بل نفوذ لا سيما في أوساط المسلمين. حرص الرئيس شهاب أن يجعل علاقات لبنان بالجمهورية العربية المتحدة على أساس ثابت فأجرى لقاء بالرئيس عبد الناصر على الحدود اللبنانية السورية في منطقة المصنع يوم ٢٦ آذار سنة ١٩٥٩ في صفيح تم بناؤه لهذه الغاية بحيث جلس الرئيس عبد الناصر في أرض سوريا وهي آنذاك الإقليم الشمالي في الجمهورية العربية المتحدة، وجلس الرئيس فؤاد شهاب في الأرض اللبنانية. تباحث الرئيسان - بل الوفدان - اللبناني والعربي - بصراحة وبوضوح. فأكد الرئيس شهاب أن لبنان لا يضمر أية عداوة للجمهورية العربية المتحدة ولرئيسها، وهو يلتزم سياسة الحياد سواء على الصعيد العربي أم العالمي، ولا يدخل في أي تحالف أو ميثاق ضد الجمهورية العربية المتحدة. وبالمقابل أكد الرئيس عبد الناصر على احترام سيادة لبنان واستقلاله والحرص على وحدة لبنان أرضاً وشعباً. وبالواقع سادت بين لبنان ومصر علاقات ثقة وصداقة، استمرت بعد انفصال سوريا عن مصر ١٩٦١ وتفكك الجمهورية العربية المتحدة. وأصبح عبد الناصر صديقاً للبنان وضمانة لاستقلاله واستقراره.

من أول تصريح للرئيس فؤاد شهاب

«إن أول ما أطلبه من نفسي وما أطلبه من كل مواطن لبناني هو السعي بكل ما أوتينا من جهد وطاقة للعودة بالبلاد إلى وحدتها الوطنية التي بقوتها حقق لبنان استقلاله سنة ١٩٤٣، وثبّت سيادته، ورسّخ كيانه، والتي انبثق منها ميثاقه الوطني، ذلك الميثاق الذي يبقى بما رسمه لنا من سياسة وطنية خالصة وعربية ناصعة وخارجية وحدة الدستور الضامن لمجد لبنان وهناء شعبه».

«علينا في سبيل بناء الدولة أن نرعى فضائل النزاهة والتجرد، وقواعد العلم والنظام والمساواة، كما نجعل روح المسؤولية والقيام بالواجب وحرمة المصلحة العامة تسود أداة الحكم بجميع فروعه».

٤ آب سنة ١٩٥٨

الأمير اللواء فؤاد شهاب

مجموعة خطب، ص ٧

عهد الرئيس شارل حلو
١٩٦٤ - ١٩٧٠

أصرّ فؤاد شهاب على عدم التجديد، فتم انتخاب شارل حلو رئيساً فاستمرت مسيرة النهج الشهابي. جرت محاولة الإصلاح الإداري، تمّ إنجاز عدد من المشاريع، واستمر الاستقرار والازدهار حتى وقعت أزمة بنك أنترا المصرفية سنة ١٩٦٦، وبعد حرب ١٩٦٧ تأزمت العلاقة مع الفلسطينيين، وانعكست على السياسة الداخلية في لبنان، ووقعت أزمة حكم حتى تم وضع اتفاقية القاهرة في ت١ ١٩٦٩.

انتخاب شارل حلو رئيساً للجمهورية

قاربت ولاية الرئيس فؤاد شهاب نهايتها، وأصرّ على عدم التجديد رغم أن غالبية المجلس النيابي كانت تؤيده، وعبثاً حاول النواب والمهتمون بأمور السياسة، إقناعه بالتجديد، كذلك كان

الرأي العام إجمالاً يحترمه ولا يعارض التجديد له. وتجاه إصرار الرئيس على عدم التجديد، تم البحث عن خلف له، وتعددت الأسماء، حتى وقع الخيار على الأستاذ شارل اسكندر حلو، وبمباركة الرئيس فؤاد شهاب، فاجتمع المجلس النيابي وانتخبه رئيساً في ١٨ آب ١٩٦٤ بأغلبية ٩٢ صوتاً، مقابل خمسة أصوات للشيخ بيار الجميل.

وشارل حلو من مواليد سنة ١٩١٣، أتم دروسه في مدرسة اليسوعية في بيروت، وتخرج من كلية الحقوق في الجامعة اليسوعية، مارس المحاماة ثم انصرف إلى الصحافة، فحرر في كبريات الصحف اللبنانية الصادرة بالفرنسية. فبدا مفكراً معتدلاً، ومن كبار الكتاب باللغة الفرنسية.

كان مؤهلاً للسياسة، فأصبح سفيراً للبنان في الفاتيكان، ثم وزيراً للعدل ١٩٤٩، وانتُخب نائباً عن بيروت ١٩٥١، وأصبح وزيراً أكثر من مرة وعندما انتُخب رئيساً كان وزيراً للتربية.

سياسته الداخلية

اعتمد النهج الشهابي في سياسته، حتى اعتبر الكثيرون عهده امتداداً لعهد سلفه فؤاد شهاب، وتابع المكتب الثاني نشاطه، تصرّف شارل حلو باعتدال، تعاون مع الزعماء السياسيين البارزين، فلم تكن له عداوات سياسية، وظلّ على علاقة وطيدة بالأمير فؤاد شهاب، إنما استطاع بمرونة أن يحدّ من نشاط

المكتب الثاني، وأن تكون له علاقة حسنة مع المعارضة لا سيما مع الحلف الثلاثي.

تشكل **الحلف الثلاثي** سنة ١٩٦٧، وضمّ قادة الأحزاب الثلاث ذات الطابع المسيحي وهم كميل شمعون رئيس حزب الوطنيين الأحرار، بيار الجميل رئيس الكتائب اللبنانية، ريمون إده عميد الكتلة الوطنية، وتعاطفت المعارضة مع الحلف، واشتدت المواجهة بين المعارضة والنهج، وفي الانتخابات النيابية سنة ١٩٦٨ أحرزت المعارضة نجاحاً كبيراً، وفاز الحلف في المناطق المسيحية بمعظم المقاعد النيابية.

قضية الإصلاح الإداري

كانت الدوائر الرسمية عاجزة عن مواجهة مسؤولياتها بشكل ثابت وفعّال، كما قال الرئيس شارل حلو، وكان الموظفون والقضاة يتمتعون بالحصانة منذ سنة ١٩٥٩ فيتقاعس الكثيرون ولا ينجزون العمل المطلوب منهم لذا أصبح الإصلاح الإداري ضرورياً.

تمّ رفع الحصانة لمدة محدودة، ووضع التشريعات اللازمة، وتشكلت هيئتان واحدة من الموظفين وثانية من القضاة، بهدف تطبيق قانون رفع الحصانة. وقد أعلنت الحكومة أنه يحق للقاضي أو للموظف طلب صرفه من الخدمة أو الإحالة على التقاعد والحصول على تعويض الصرف أومعاش التقاعد، وللحكومة الحق في قبول الاستقالة أو رفضها.

قبلت الحكومة ٢٥٠ طلباً، وتقرر صرف ٢٥٠ قاضياً وموظفاً لم يقدموا استقالاتهم. وتم في أيلول ١٩٦٥ إنشاء مجلس تأديبي للقضاة، وفي ت١ ١٩٦٥ إنشاء مجلس تأديبي للموظفين يتناول جميع إدارات الدولة. وللمجلسين صلاحيات دائمة، وهما هيئتان صالحتان للمحاكمة والإدانة.

لكن عملية الإصلاح هذه تعرضت لانتقادات عنيفة، كان للمصالح السياسية والطائفية دور في الأمر، فلم تواصل عملية الإصلاح الإداري دورها إلى النهاية.

المشاريع والإنجازات التي تحققت

تحققت إنجازات مهمة في مجالات عدة. فقد استمرت ورشة العمل التقليدية من شق طرقات وتعبيدها، ومشاريع ري، وكهرباء، وواصل المشروع الأخضر عمله في خدمة المزارعين وتنمية الريف. وصل التيار الكهربائي، في هذا العهد، إلى ألف قرية من أصل ألف وخمسماية قرية بدون كهرباء، وارتفع إنتاج الكهرباء من ٧٠٠ مليون كيلو واط/ساعة إلى مليار وأربعماية مليون، حتى آخر عهد شارل الحلو وصلت مياه الشفة إلى ١٥٠٠ قرية نصفها في هذا العهد.

وتأمن وصل لبنان بالعالم الخارجي بواسطة محطة الأقمار الاصطناعية في العربانية التي جرى تدشينها في أيلول

١٩٦٩. وتم تدشين الكابل البحري بين لبنان وفرنسا. وتمت الموافقة على إنشاء كابل بحري بين بيروت والإسكندرية، وآخر بين بيروت وقبرص، وجرى تدشينهما سنة ١٩٧٢ و١٩٧٣.

ومن الإنجازات المهمة التي تحققت هي الإهراءات قرب مرفأ بيروت وتم تدشينها سنة ١٩٧٠، وهي تتسع لـ٤٠٪ من حاجة لبنان السنوية إلى القمح. وقد أدت للبلاد خدمة كبيرة خلال الأحداث.

ومن الإنجازات المهمة التي تحققت، كان الاهتمام بمغارة جعيتا وهي أجمل مغارة كلسية (كارستية) في العالم وقد أصبحت من المعالم السياحية المهمة في لبنان.

واستمر الاهتمام بالتعليم، فازداد عدد المدارس والمعلمين في مراحل التعليم كافة. وقد نشط التعليم الرسمي بصورة لافتة، حتى أصبحت المدارس الرسمية تستوعب عدداً كبيراً من التلاميذ، وأصبحت بالتالي قادرة على توجيه التعليم في لبنان. وحظيت الجامعة اللبنانية بالاهتمام، لا سيما كلية العلوم.

واستمرت العلاقة الوثيقة مع المغتربين، وتأسست الجامعة اللبنانية الثقافية في العالم، وعملت لتأمين اللقاء بين المغتربين، فأسست فروعاً في بلدان الاغتراب، وعملت لتمكين العلاقة بين لبنان وأبنائه المنتشرين في أنحاء العالم.

الوضع المالي

قضية بنك أنترا والسياسة المصرفية الجديدة: كانت المصارف مزدهرة في لبنان، وصل عددها إلى ٨٥ مصرفاً، وكانت تتمع بسمعة جيدة، بل بشهرة عالمية، وتتدفق إليها الأموال من لبنان ومن الخارج لا سيما من البلدان العربية النفطية، ويشجعها نظام السرية المصرفية. حتى زادت الأموال المودعة في المصارف اللبنانية على ثلاثة آلاف مليون ليرة لبنانية. وأصبحت بيروت مركزاً مالياً ذا شهرة عالمية.

كان بنك أنترا واحداً من المصارف الكبرى، لديه ٤٥٠ مليون ليرة (تشكل ١٥٪ من مجموع الودائع المصرفية في البلاد). وقد وسّع صاحب المصرف (يوسف بيدس) أعماله إلى مشاريع عقارية وصناعية خاصةً في فرنسا. لكن الوضع تبدل فجأة ففي أيلول ١٩٦٦ طلب المصرف سلفة من الدولة فأمدته بـ١٥ مليون ليرة. وسرت الإشاعات بأن وضع المصرف ليس سليماً، فأقبل المودعون يسحبون أموالهم، ولم يعد المصرف يملك السيولة اللازمة، فتوقف عن الدفع (في ١٥ ت١ ١٩٦٦).

تدخلت الحكومة، قررت توقيف عمل المصارف ثلاثة أيام (من ١٧ حتى ٢٠ ت١) أمنت السيولة اللازمة للمصارف. واتخذت القرارات لتأمين حقوق المودعين في بنك أنترا، كذلك أمنت حقوق صغار المودعين في أي من المصارف حتى ١٥ ألف ليرة تدفع الدولة ثلثها. ووضعت رقابة صارمة على المصارف ففرضت على كل منها أن يضع رصيداً في البنك المركزي.

وأنشأت لجنة للرقابة المصرفية برئاسة حاكم مصرف لبنان، وذلك لمراقبة عمل المصارف.

أعادت هذه التدابير الثقة إلى المصارف وإلى الوضع الاقتصادي العام، فاستمر تدفق الأموال إلى المصارف، واحتفظت الليرة اللبنانية بقوتها. ارتفعت الاعتمادات في المصارف من ثلاثة مليارات وأربعمئة مليون إلى ثلاثة مليارات وستمئة مليون ليرة. وكان سعر الدولار الأميركي يساوي ٣٢٠ قرشاً في أيلول ١٩٦٦ فانخفض إلى ٣١٧ قرشاً في تشرين الثاني من السنة ذاتها.

السياسة الخارجية

وتابع لبنان سياسته الخارجية، عضواً في جامعة الدول العربية وفي هيئة الأمم، صديقاً للدول جميعاً، دون انحياز لافت إلى أحد المعسكرين الدوليين الغربي والشرقي. وحافظ على علاقاته الجيدة مع العالم العربي، والتزم بقضاياه العادلة، وفي طليعتها القضية الفلسطينية.

قام الرئيس حلو بزيارات إلى الخارج، وشارك في المؤتمرات العربية. ففي أيار ١٩٦٥ قام برفقة رئيس الوزراء حسين العويني بزيارة إلى كل من مصر وفرنسا والفاتيكان. قابل الرئيس الفرنسي شارل ديغول الذي أكد له صداقة فرنسا ودعمها، شرط ألا يكون في خلاف بين «الأشرفية والبسطة» أي في خلاف داخلي وطائفي.

وشارك الرئيس حلو برفقة رئيس الوزراء في مؤتمرات القمة، وأبرز دور لبنان. وهي مؤتمر الاسكندرية (أيلول ١٩٦٤) ممثلاً الرئيس فؤاد شهاب لدرس تحويل إسرائيل لمياه نهر الأردن. مؤتمر القاهرة (ت١ ١٩٦٤) لدول عدم الانحياز. مؤتمر الدار البيضاء (أيلول ١٩٦٥) لدرس العلاقات بين الدول العربية والموقف من إسرائيل. مؤتمر ليبيا (حزيران ١٩٦٩) بعد جلاء القوات الأميركية عن قاعدة «ويلوس». مؤتمر الرباط (ك١ ١٩٦٩) لدرس مواضيع التسلح العربي ومواجهة إسرائيل.

أحداث المنطقة تنعكس سلباً على لبنان

انعكست أحداث المنطقة، لا سيما القضية الفلسطينية، سلباً على لبنان. فحتى سنة ١٩٦٧ ظل لبنان يتمتع بالهدوء وبالاستقرار الأمني والسياسي، وينعم بالازدهار الاقتصادي.

في صبيحة الخامس من حزيران ١٩٦٧ شنّت إسرائيل عدواناً واسعاً مباغتاً على مصر، ثم على الأردن وسوريا. وسيطرت على أراضي عربية واسعة. لم يدخل لبنان تلك الحرب، إنما قدّم خدمات مهمة لإخوانه العرب. فأمن هذا الحياد سلامة حدوده. إنما استغل البعض هذا الموقف ليتهم لبنان لأنه لم يشارك في الحرب.

كانت الدول العربية قد تبنّت القضية الفلسطينية، ووعدت الفلسطينيين بإعادتهم إلى ديارهم في وقت قريب. عاش

الفلسطينيون لاجئين في المخيمات عيشة بائسة معتمدين في جزء كبير من معيشتهم على مساعدات وكالة الغوث الفلسطينية (الأنروا UNRWA). طال انتظارهم دون نتيجة، فقرروا الاعتماد على أنفسهم، فشكلوا حركة مقاومة منذ سنة ١٩٦٤ برئاسة أحمد الشقيري، وزادوا من تسلحهم بعد حرب حزيران ١٩٦٧. وأصبح ياسر عرفات رئيساً للمقاومة. واعتبرت الشعوب العربية المقاومة السبيل للتحرير بعد أن شكّت بقدرة الجيوش النظامية. فأيدت الفدائيين الفلسطينيين بحماس. كذلك فضّلت الحكومات العربية أن تغدق المساعدات على الفلسطينيين في لبنان، وتبعدهم عن أرضها. فراح الفدائيون يقومون بأعمال ضدّ إسرائيل منطلقين من لبنان. وكان على الجيش اللبناني أن يوقف هذه العمليات كما تفعل الدول العربية الأخرى، كذلك حسب اتفاقات هدنة رودوس ١٩٤٩، وتطبيقاً لتعليمات القيادة العربية الموحدة التي أوصت بمنع الأعمال الفردية ضدّ إسرائيل. أدى ذلك إلى الخلاف بين الدولة اللبنانية ومسؤوليتها عن حفظ النظام والتعهدات الدولية من جهة، والعمل الفدائي ومنطق الثورة من جهة ثانية.

استغلّت إسرائيل الوضع، فعملت لايقاع الخلاف بين لبنان والمقاومة. وجّهت (في ١٠ حزيران ١٩٦٧)، بواسطة لجنة الارتباط التابعة للجنة الهدنة، السؤال إذا كان لبنان ما يزال يعترف بهدنة رودوس، فردّ بالإيجاب. وأدرك نوايا إسرائيل، وأعلم هيئة الأمم، وطلب إرسال مراقبين إلى حدود لبنان.

بدأ يرتسم الإنقسام بين اللبنانيين من مؤيد للدولة ومسؤوليتها، ومؤيد لحرية العمل الفدائي انطلاقاً من لبنان، واتخذ الانقسام

طابعاً طائفياً. فعزم الرئيس حلو على الاستقالة (أول ت١ ١٩٦٨) وعاد عنها تفادياً لمصير مجهول. واستمرت إسرائيل تضغط على لبنان. ففي مساء الثامن والعشرين من كانون الأول ١٩٦٨ أغار الكومندوس الإسرائيلي على مطار بيروت، ودمّر طائرات شركة طيران الشرق الأوسط بحجة أن فدائياً فلسطينياً انطلق من مطار بيروت إلى مطار أثينا حيث هاجم طائرة إسرائيلية. ولم تبدو من القوى المسلحة اللبنانية أية مقاومة. مما أثار نقمة في البلاد. فاستقالت الحكومة. وسرت الاتهامات بأن لبنان لا يريد المقاومة، وليس مستعداً للدفاع عن أرضه. واجهت الاعتداء الإسرائيلي إدانة شاملة فغضب الجنرال ديغول، وحظّر بيع السلاح والذخيرة وقطع الغيار من فرنسا إلى إسرائيل. واجتمع مجلس الأمن وأصدر القرار رقم ٢٦٢ بالإجماع الذي أعطى لبنان حق المطالبة بالتعويض. وأدان العملية الإسرائيلية بشدة.

كان عدد المسلحين الفلسطينيين على أرض لبنان في ازدياد مستمر، وأصبحوا يقومون بمظاهر مسلحة في المخيمات وخارجها، حتى أنهم تصرفوا في بعض المناطق كأنهم قوة أمنية «لبنانية» شرعية. وازدادت في لبنان الاختلافات في المواقف من المسلحين الفلسطينيين بين مؤيد ومعارض. ووقعت اصطدامات عدة بين الجيش وقوى الأمن اللبنانية من جهة والمسلحين الفلسطينيين من جهة ثانية، ووقع قتلى وجرحى. وأرسل الرئيس عبد الناصر ممثله الشخصي إلى لبنان سعياً لايجاد حلّ (٦ أيار سنة ١٩٦٩) لكنه لم يصل إلى نتيجة، في حين كانت صحف وإذاعات عربية تنتقد موقف لبنان من الفدائيين الفلسطينيين، وتهاجم الحكم والجيش بشدة. فأعلن

رئيس الجمهورية أن لبنان يدعم المقاومة لكن ضمن إمكاناته ومن منطلق مصلحته. فردّ رئيس الوزارة رشيد كرامي ببيان مناقض مؤكداً الموافقة على العمل الفدائي المطلق، وطالب بمشاركة أوسع في الحكم. واعتكف عن المشاركة في أعمال مجلس الوزراء. فعاش لبنان أزمة حكم دامت سبعة أشهر. هذا فيما كان الفلسطينيون يتابعون العمليات العسكرية داخل لبنان، ويتلقون المساعدات من عدد من الدول العربية، حتى سيطروا على مناطق من البلاد وبصورة خاصة على الحدود مع سوريا.

اتفاق القاهرة

كان لا بد من إيجاد حلّ، فتفاوض رئيسا الجمهورية والحكومة، وتم الاتفاق على إجراء مفاوضات مع الفلسطينيين، وتم اختيار القاهرة مكاناً لذلك، وفيها مقرّ الجامعة العربية، والقيادة العسكرية العربية الموحدة، كذلك للاحترام الذي يتمتع به الرئيس عبد الناصر. فسافر الوفد اللبناني إلى القاهرة برئاسة قائد الجيش الجنرال إميل البستاني بعد أن اعتذر رئيس الوزراء. بدأت المفاوضات منذ ٢٩ تشرين الأول، بين الوفد اللبناني برئاسة الجنرال إميل البستاني، والوفد الفلسطيني برئاسة ياسر عرفات، وبحضور وزير خارجية مصر محمود رياض ووزير حربيتها الفريق أول محمد فوزي، وكان الرئيس عبد الناصر يطلع على المحادثات بصورة متواصلة. تمّ إعلان الاتفاق في الثالث من تشرين الثاني. وقد أعطى الفلسطينيين حرية التسلح والعمل

الفدائي انطلاقاً من لبنان، وتم الاتفاق على طرق مرور المسلحين الفلسطينيين وأماكن تمركزهم مع التشديد على احترام سيادة لبنان وسلامته.

وظل الاتفاق سرياً حتى نشرته الصحف ١٩٧١. وشكل رشيد كرامي حكومة جديدة نالت ثقة المجلس بـ٥٦ صوتاً بما في ذلك الموافقة على اتفاق القاهرة، دون أن يطلع الوزراء والنواب على نصّه. عارض الاتفاق بشدة النائب ريمون إده ونواب الكتلة الوطنية مؤكدين أن الاتفاق أعطى المسلحين الفلسطينيين حقوقاً ليست لهم، وهو يعطي إسرائيل الحق بنقض اتفاق الهدنة الذي يؤكد على احترام الحدود الدولية المعترف بها، وعلى عدم الاعتداء عبر الحدود. وبالواقع كان الاتفاق بداية مصاعب جديدة. وقد جرى تعديله سنة ١٩٧٣. وتم إلغاؤه نهائياً في حزيران ١٩٧٨.

بعض المواد من اتفاق القاهرة

حق العمل والإقامة والتنقل للفلسطينيين المقيمين في لبنان.

تسهيل المرور للفدائيين وتحديد نقاط مرور واستطلاع في مناطق الحدود.

تأمين طريق المرور إلى منطقة العرقوب.

تقوم قيادة الكفاح المسلح بضبط تصرفات كافة أفراد منظماتها وعدم تدخلهم في الشؤون اللبنانية.

إيقاف الحملات الإعلامية بين الجانبين.

تنظيم الدخول والخروج والتجول لعناصر الكفاح المسلح.

من المسلم به أن السلطات اللبنانية من مدنية وعسكرية تستمر في ممارسة صلاحياتهما ومسؤولياتها كاملة في جميع المناطق اللبنانية وفي جميع الظروف.

وقعه رئيس الوفد اللبناني — **رئيس الوفد الفلسطيني**

الجنرال إميل البستاني — **السيد ياسر عرفات**

عهد الرئيس سليمان فرنجية
١٩٧٠ - ١٩٧٦

انتخب مجلس النواب الأستاذ سليمان فرنجية رئيساً للجمهورية، رغم الصعوبات استمر الازدهار حتى نيسان ١٩٧٥ عندما بدأت الحرب على أرض لبنان.

انتخاب سليمان فرنجية رئيساً

في أواخر عهد شارل حلو تلاحقت المصاعب والأزمات، فكان المسلحون الفلسطينيون يزدادون عدداً وقوة. واللبنانيون منقسمون سياسياً، ففي مجلس النواب تياران: النهج أي التيار المؤيد للواء فؤاد شهاب ونهجه السياسي، والمعارضة وعلى رأسها الحلف الثلاثي والتقت عناصر معارضة عدة كما تشكلت كتلة نيابية معتدلة «كتلة الوسط» وكان الرأي العام اللبناني منقسماً بين مؤيد لحرية العمل الفدائي، ومطالب بتقييده أو بتنظيمه. بالإضافة إلى مطالب سياسية

بتعديل الدستور وإعطاء المسلمين دوراً أكبر في السياسة، بالإضافة إلى الوضع الاقتصادي والتفاوت بين المناطق اللبنانية، كذلك بين فئات الشعب، وظهور حركات تدعو إلى إنصاف الفقراء أو المحرومين. واتخذت المطالب السياسية والاقتصادية طابعاً طائفياً.

حاول النهجيون إقناع الأمير فؤاد شهاب حتى يترشح للرئاسة، فرفض بإصرار، عند ذلك رشحوا الأستاذ الياس سركيس حاكم مصرف لبنان، فيما رشّحت المعارضة الأستاذ سليمان فرنجية، وهو من كتلة الوسط، فانتخبه المجلس النيابي (يوم ١٧ آب ١٩٧٠) رئيساً بأغلبية صوت واحد (٥٠ مقابل ٤٩) واستقبل أنصاره انتخابه بفرحة عارمة. وسليمان فرنجية من زغرتا، من بيت عريق في السياسة. كانت مصاعب كثيرة تنتظره سواء في الداخل أم في الخارج. رغم الصعوبات تابعت البلاد سيرها الطبيعي في كافة المجالات حتى نيسان ١٩٧٥.

سياسة عهد فرنجية الداخلية

شكّل صائب سلام وزارة العهد الأولى، وبدأ يعالج القضايا الملحة وفي طليعتها قضيتا كل من المكتب الثاني والوجود الفلسطيني المسلح.

كانت المعارضة تنتقد تصرفات أعضاء المكتب الثاني، فكفّت الحكومة يد المكتب هذا وأحالت عدداً من أعضائه على المحاكم، فيما غادر عددٌ البلاد ليعيش في الخارج.

المسلحون الفلسطينيون واتفاق ملكارت

تواصل تزايد المسلحين الفلسطينيين في لبنان، وظلت الدول العربية تساعدهم، وتشجعهم على العمل الفدائي ضد إسرائيل انطلاقاً من لبنان لا سيما بعد أيلول ١٩٧٠.

كان الوجود الفلسطيني المسلح قوياً في الأردن، والمسلحون يتصرفون كأنهم دولة داخل دولة، وصفت الصحافة العالمية الوضع، ومما قالته: «إن المواطن الأردني يخضع لسلطتين منفصلتين عن بعضهما، يمرّ المواطن على حاجز تابع لسلطة الملك، ثم على حاجز تابع للسلطة الفلسطينية... ولكل من الحاجزين مطلبه، إن حالة كهذه لا يمكن أن تدوم». بالواقع نشب قتال عنيف في أيلول ١٩٧٠، وتمكن الجيش الأردني من ضرب المخيمات الفلسطينية بعنف، والسيطرة عليها. فانتقل المسلحون الفلسطينيون مع عائلاتهم إلى لبنان، حيث زاد عدد الفلسطينيين في لبنان على النصف مليون. وزادوا من تدخلهم في الشؤون اللبنانية، وأقاموا الحواجز خارج المخيمات، وتحكموا بمداخل بيروت، وأصبح بإمكانهم أن يضربوا طوقاً حول العاصمة يمتدّ من منطقة المسلخ والكرنتينا إلى جسر الباشا فتل زعتر فإلى الشياح وصبرا وشاتيلا. وظلوا ينطلقون من لبنان في عمليات ضد إسرائيل، وهي تردّ باعتداءات داخل لبنان. وعملت لإيقاع الخلاف بين السلطات اللبنانية والمقاومة الفلسطينية. حتى أن مجموعة من الكومندوس الإسرائيلي قامت بعملية داخل لبنان في نيسان ١٩٧٣ في رأس بيروت... - شارع فردان - واغتالت ثلاثة من القادة الفلسطينيين، دون أن تلقى مقاومة لبنانية.

كان لهذه الحادثة وقع سيئ. مشت في شوارع بيروت تظاهرة فلسطينية، شارك فيها لبنانيون. نددت بلبنان جيشاً وحكومة، واتهمته بالعجز والتلكؤ. كذلك شنّ الطيران الإسرائيلي غارات على المخيمات. اعتبر الفلسطينيون لبنان عاجزاً عن الدفاع عنهم، فزادوا من تسلحّهم، ومن إقامة الحواجز، كذلك تدخلوا في الشؤون اللبنانية، حتى أنهم خطفوا عناصر من الجيش اللبناني، ورفضوا إطلاقهم رغم إنذار من الجيش اللبناني. فطوّق الجيش المخيمات، ووقعت اشتباكات عنيفة.

كان الجيش اللبناني قوياً، متماسكاً. بإمكانه السيطرة على المخيمات وعلى المسلحين، ونزع سلاحهم كما فعل الأردن. لكن تدخلت، جهات لبنانية وعربية حتى توقف القتال. وجرت مفاوضات بين لبنان والفلسطينيين حتى تم وضع اتفاق ملكارت في ١٧ أيار ١٩٧٣ الذي أدخل تعديلات وتوضيحات على اتفاق القاهرة، وحدد أماكن الوجود المسلح الفلسطيني، والتدريب، وحدد طرق المرور، والإلتزام بعدم توريط لبنان إعلامياً. وإعطاء قوى الأمن اللبنانية حق ملاحقة المخالفين داخل المخيمات بالتعاون مع الكفاح المسلح الفلسطيني. وقد وقّع الاتفاق عن الجانب اللبناني العقيد الركن أحمد الحاج، وعن الجانب الفلسطيني المقدم الركن أبو الزعيم. لكن المسلحين الفلسطينيين لم يلتزموا بهذا الاتفاق.

بعض النقاط التي تم الاتفاق عليها «انطلاقاً من تمسك الطرفين بالحرص على خدمة القضية الفلسطينية

واستمرار النضال في سبيلها وبالمحافظة على استقلال لبنان وسيادته واستقراره.

في المخيمات

تركيز مخفر لقوى الأمن الداخلي اللبنانية على مقربة من المخيم وفي مكان يُتفق عليه.

الأسلحة

لا وجود للأسلحة المتوسطة والثقيلة في المخيمات. وعلى سبيل المثال الهاون، الصاروخ، المدفع، الأسلحة المضادة للدروع الخ...

التجول

في الداخل، دون سلاح وباللباس المدني.

الإعلام

التزام الجانب الفلسطيني بعدم وجود أية إذاعة في لبنان.

التزام الجانب الفلسطيني بعدم توريط لبنان إعلامياً بسبب نشر أو إذاعة أي نبأ أو بلاغ يصدر عن المقاومة في لبنان.

تمارس قوى الأمن الداخلي، بالتعاون مع الكفاح المسلح الفلسطيني، صلاحياتها في ملاحقة جميع الجرائم الجزائية والمدنية التي تقع داخل المخيم، أياً كان مرتكبوها.

إن الجرائم التي يرتكبها فدائيون خارج المخيمات يطبق بشأن مرتكبيها القانون اللبناني. وتفاد قيادة الكفاح المسلح عن التوقيفات والإجراءات التي تُتخذ بحق الفاعلين.

ازدهار اقتصادي ونشاط اجتماعي تنتظرهما الأزمات

رغم المصاعب استمر الاستقرار السياسي حتى نيسان ١٩٧٥، وتواصل الازدهار الاقتصادي. وحرصت الدولة على تنمية المناطق اللبنانية بشكل متوازن، فتواصل العمل في شق الطرقات وتأمين مشاريع الماء والكهرباء.

في المجال الاقتصادي، احترمت الدولة الحرية الاقتصادية، والمبادرة الفردية. وحرصت على مساعدة القطاعات الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة، ظلت تساعد المزارعين بواسطة المشروع الخضر والإرشاد الزراعي، وتنشيط المدارس الزراعية، وتوزيع النصوب والأدوية، وتشجيع اقتناء الحيوانات المؤصلة. وعرفت تربية الدواجن نشاطاً كبيراً.

استمرت العلاقة الوثيقة بين لبنان المقيم وأبنائه المنتشرين في أنحاء العالم، ونشطت الجامعة اللبنانية الثقافية في العالم، وعقدت الاجتماعات في لبنان، فالتقت وفود المغتربين على أرض الوطن حاملة من أفكار العالم ومن تراثه. واستمر نشاط السياحة والاصطياف، وازدهرت المطاعم والفنادق، واختار

أغنياء العرب لبنان مصيفاً لهم، وبنوا على أرضه بيوت السكن، وأبنية الاستثمار، أصبحت السياحة في لبنان قطاعاً مهماً وعملاً رائجاً، فتأسست مكاتب السفر والسياحة، ونشطت المدارس لإعداد عمال الفنادق والأدلاء السياحيين.

وظلّت أبواب البلدان العربية مفتوحة أمام اللبنانيين، فذهبوا إليها بالألوف، من يد عاملة عادية، وموصوفة، ورجال العلم والاختصاص والتجار والمقاولين، وكسب اللبنانيون الثقة حيثما عملوا.

وتواصل ازدهار القطاع المصرفي، وترسخت الثقة بمستقبل لبنان الاقتصادي والمالي، وتواصل تدفق الأموال إلى المصارف اللبنانية، فارتفعت الودائع المصرفية من ٣٦٠٠ مليون ليرة سنة ١٩٦٦ إلى ستة مليارات سنة ١٩٦٩ فإلى ٩٢٥٢ مليون ليرة آخر سنة ١٩٧٤. وحافظت الليرة اللبنانية على قدرتها الشرائية. ففي أول شهر شباط سنة ١٩٧٥ كان الدولار الأميركي يساوي ٢٢٢ قرشاً لبنانياً، والليرة السورية ٦٠ قرشاً، والفرنك الفرنسي ٥٢،٥٠ قرشاً. والليرة الذهبية العثمانية ١١٥٠٠ قرش لبناني، والليرة الإنكليزية (ملك) ١٣١٠٠ قرش لبناني. لم تكن في لبنان أزمة بطالة، بل يستعين بيد عاملة أجنبية لا سيما اليد العاملة العادية. كان عدد العمال اللبنانيين العاملين في الصناعة ١٢٠ ألفاً يشكلون ٤٠٪ من مجموع اليد العاملة في البلاد.

واستمر الاهتمام بالتعليم، وحظي التعليم الرسمي بقسط وافر من الاهتمام، وعملت وزارة التربية لتأمين التعليم المجاني لأكبر

عدد ممكن من التلاميذ، ووضعت مشروع تجميع المدارس، وأنشأت فروعاً تقنية في المدارس الرسمية، ووضعت مناهج للتعليم في المرحلتين المتوسطة والابتدائية. وكانت مناهج المرحلة الثانوية قد وُضعت سنة ١٩٦٧. وأنشأت الدولة المركز التربوي للبحوث والإنماء وحددت مهماته فأناطت به إجراء الدراسات العلمية، والإحصاءات، وتطوير المناهج، وإعداد المعلمين وتدريبهم، وإدارة دور المعلمين، وتصميم الوسائل التعليمية والتجهيزات المدرسية، وإعداد الكتب المدرسية والإشراف عليها.

واستمر نشاط المظاهر الثقافية والاجتماعية، فكانت معارض الكتب، وندوات الأدب والشعر، والحلقات العلمية. ونشطت مسارح التمثيل، وتقديم المسرحيات، بلغ بعضها درجة متقدمة سواء من حيث النص أم الأداء. ونالت مهرجانات بعلبك سمعة عالمية، برزت فيها أعمال فنية لبنانية راقية، كما شاركت فرق عربية وعالمية. والتقى الحضور في مهرجانات بعلبك من داخل لبنان ومن الخارج.

برز عدد من الفنانين اللبنانيين في مجالات مختلفة ففي الغناء والموسيقى اشتهرت أسماء كثيرة في لبنان والعالم العربي بل العالم بأسره نذكر بعضها مثل فيروز وصباح ونصري شمس الدين ووديع الصافي ونجاح سلام وآل الرحباني وبالأخص عاصي ومنصور. ونشطت الصحافة والطباعة والإذاعة والتلفزة، وغدت بيروت المدينة العربية الأولى في طباعة الكتب. وواصلت مدارس الفنون ازدهارها وبلغ التصوير

والنحت درجة متقدمة، فبعد يوسف غصوب، ويوسف الحويك، وصليبا الدويهي، ومصطفى فروخ وعمر الأنسي وقيصر الجميل لمعت أسماء شابة، جعل آل بصبوص، من قرية راشانا في منطقة البترون، مركزاً مهماً للنحت، وواصلت مدرسة الفنون في الأكاديمية اللبنانية نشاطها، كذلك الجامعة اللبنانية والتحق بهما كثيرون من أصحاب المواهب، كما ذهب الكثيرون إلى الكليات الفنية في الخارج، حتى عرف لبنان نهضة فنية راقية.

السياسة الخارجية

واصل العهد سياسة الانفتاح والتحرك السياسي. ظل يفي بالتعهدات العربية والدولية. قام لبنان بدوره كاملاً في جامعة الدول العربية، فشارك في اجتماعاتها جميعاً. وتبادل الرئيس الزيارات مع عدد من قادة البلدان العربية. وشدّ الروابط بصورة خاصة مع مصر وسوريا والسعودية. وظل لبنان ملتزماً بالقضية الفلسطينية رغم تعرضه للاعتداءات الإسرائيلية المخرّبة. ودافع المسؤولون اللبنانيون عن قضايا العرب كذلك فعل المغتربون اللبنانيون.

وفي سنة ١٩٧٤ كلف مؤتمر القمة العربي الرئيس سليمان فرنجية بالدفاع عن القضية الفلسطينية أمام هيئة الأمم فقام بنجاح بهذه المهمة الشاقة، وألقى خطاباً مفصلاً (١٤ ت٢ ١٩٧٤) أكد فيه الحق الفلسطيني، مطالباً بتطبيق قوانين الهيئة الدولية، وشدد على رغبة لبنان والدول العربية بالسلام العادل والشامل.

وظل لبنان وفياً لدوره في هيئة الأمم، واحتفظ بصداقاته الدولية، وبالرغم من صداقته للغرب، ومن الحرب الباردة، لم يقف موقفاً معادياً للكتلة الشرقية بل احتفظ بعلاقات حسنة بها، وعقد معها ستة وستين اتفاقا اقتصادياً.

وتعبيراً عن الانفتاح على الديانات والحضارات، شارك في مؤتمرات القمة الإسلامية، والجمعيات المسيحية. وكان عضواً فاعلاً في عدد من المنظمات الدولية منها الاتحاد الدولي للاتصالات السلكية واللاسلكية، ومنظمة حقوق الإنسان، والمنظمة الدولية للأغذية والزراعة (FAO) وقد أصبح مندوبه (إدوار صوما) رئيساً لهذه المنظمة.

وتابع العهد سياسة شدّ الروابط بين شطري لبنان المقيم والمغترب، فاحتضن لبنان مؤتمرات للمغتربين في سنتي ١٩٧١ و١٩٧٢ بمشاركة الجامعة اللبنانية الثقافية في العالم.

أزمات واضطرابات تقود إلى انفجار ١٣ نيسان فالحرب

رغم مظاهر الاستقرار ظهرت شكاوى من الوضعين السياسي والاقتصادي. فارتفعت أصوات تطالب بتعديل الدستور لتأمين المشاركة الصحيحة بين اللبنانيين في مسؤولية الحكم. وأصوات تطالب بإصلاح اقتصادي لإنصاف المحتاجين والمحرومين وتأمين المساواة الاجتماعية.

كذلك استمر الفلسطينيون باستيراد السلاح، رغم الاتفاقات المعقودة، وظلوا يتدخلون في الشؤون اللبنانية، ويقيمون الحواجز خارج المخيمات وعلى مداخل العاصمة، ويلقون المساعدة والتشجيع من بعض الدول العربية. ظلت المصاعب تتعقد فتتحول إلى أزمات.

فبعد حرب تشرين ١٩٧٣ بين العرب وإسرائيل، قام وزير الخارجية الأميركية هنري كيسنجر بمساعٍ للسلام بين العرب وإسرائيل، زار المنطقة قام برحلات مكوكية، متنقلاً بين الدول العربية وإسرائيل في ما أسماه «سياسة الخطوة خطوة». زار لبنان، استقبله الرئيس فرنجية في البقاع، لأن طائرته لم تتمكن من الهبوط في مطار بيروت لأسباب أمنية. وشاع الخبر أنه قال للرئيس بأن الأسطول الأميركي جاهز لنقل المسيحيين إلى الخارج.

ساد القلق، وانقسم اللبنانيون، واتخذ الانقسام طابعاً طائفياً. وتشكلت الحركة التقدمية الوطنية من مجموعة أحزاب، أيدت الفلسطينيين، وتعاطف معها المسلمون بصورة عامة. تقابلها الجبهة اللبنانية ذات الطابع المسيحي، عارضت سياسة الفلسطينيين في لبنان، لا سيما وأن ياسر عرفات صرّح بأن الطريق إلى فلسطين تمر في بيروت وجونية وكسروان. دأبت الأحزاب تستعد عسكرياً، تدرب المقاتلين – (الميليشيات). حتى بلغ عدد المنظمات المسلحة التسع والعشرين.

ظهر تيار محايد، يدعو إلى التهدئة، وحل المشاكل بالحوار تجنباً للحرب. كان من أبرز ممثليه عميد الكتلة الوطنية ريمون إده،



إده – سلام

الذي ما لبث يحذر من خطر إسرائيل ومطامعها بمياه لبنان، وكان قد نصح منذ مدة بالطلب إلى هيئة الأمم إرسال البوليس الدولي إلى جنوب لبنان لنشره على الحدود مع إسرائيل. كذلك حذّر من «قبرصة» لبنان أو «بلقنته» أي من تقسيمه كما حدث في قبرص، وإيقاع الخلاف بين الطوائف كما حدث في البلقان. كما دعا الزعيم البيروتي صائب سلام إلى التفاهم بين اللبنانيين، وعدم الانزلاق إلى الحرب، والتمسك بلبنان الواحد. كما دعا الإمام موسى الصدر إلى الوعي وتجنّب القتال.

ساد بين اللبنانيين الخوف وعدم الثقة. وكثرت الإشاعات. ووقعت أحداث أمنية أبرزها مقتل الزعيم الصيداوي النائب معروف سعد (وخلاصة الأمر أن خبراً شاع في صيدا عن تأسيس شركة «بروتيين» لصيد السمك، فتظاهر الصيادون

احتجاجاً (٢٦ شباط ١٩٧٥) وسار نائب صيدا معروف سعد على رأس التظاهرات، فأصيب بطلق ناري مما أدى إلى وفاته بعد أسبوع. رغم أن الاتهامات أشارت إلى أيادٍ خارجية تفتعل الفتنة في لبنان. فقد مشت في بعض المناطق الإسلامية تظاهرات ضد الجيش اللبناني. فردّت المناطق المسيحية بتظاهرات مؤيدة للجيش. واستمر الوضع متأزماً حتى انفجر يوم الثالث عشر من نيسان.

الثالث عشر من نيسان ١٩٧٥
يوم أسود في تاريخ لبنان

كان المسيحيون في ذلك اليوم (الأحد ١٣ نيسان) يحتفلون بتدشين كنيسة في عين الرمانة، بحضور رئيس الكتائب الشيخ بيار الجميل. وفي اليوم ذاته أقام الفلسطينيون مهرجاناً في تل زعتر تكريماً لشهداء الثورة الفلسطينيين. مرت سيارة مسرعة في عين الرمانة، تحمل لوحة الكفاح المسلح الفلسطيني، ولم تمتثل لأوامر رجال الأمن، فأطلقوا النار، وجرحوا عنصراً من ركابها. وعلى الأثر حضرت سيارة للكفاح المسلح الفلسطيني، وأطلق من فيها النار على المجتمعين في عين الرمانة، وقتل أربعة بينهم مسؤولون كتائبيون. فتوتر الجو. وفي هذا الظرف المحموم، مرت بوسطة تنقل عناصر من الكفاح المسلح الفلسطيني، فأُطلق عليها النار وقُتل ٢٧ من ركابها. تساءل الناس لماذا مرت البوسطة على هذا الطريق الداخلي؟



L'Orient-LE JOUR

COUP D'ETAT AU TCHAD: TOMBALBAYE ASSASSINE

31 morts hier à Aïn el-Remmaneh

dans un grave incident Kataëb-Résistance

LE GOUVERNEMENT ET LES CAPITALES ARABES S'EFFORCENT DE CIRCONSCRIRE L'AFFAIRE

LE PLUS URGENT

Crise politique pratiquement ouverte:

Joumblatt réclame l'exclusion des ministres phalangistes

البوسطة

بعد حادثة عين الرمانة بدأ إطلاق النار وارتفعت الحواجز، وارتسمت خطوط التماس. بدأت الاشتباكات بين المسلحين الفلسطينيين وحلفائهم من جهة، ومسلحي الكتائب وحلفائهم من جهة ثانية. دارت المعارك وتنقلت إلى مناطق عدة (بين عين الرمانة، والشياح، في وسط بيروت، حول مخيمات تل زعتر وجسر الباشا والدكوانة والكرنتينا، وامتدت إلى بعض قرى عكار، وبين طرابلس وزغرتا، وبعض مناطق البقاع).

استقالت حكومة رشيد الصلح، وتشكلت حكومة عسكرية برئاسة العميد المتقاعد نور الدين الرفاعي، وعارضها المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في دار الفتوى وتمثلت فيه الشخصيات الإسلامية السنية. فتشكلت حكومة برئاسة رشيد كرامي عُرفت بحكومة «الإنقاذ الوطني»، أملاً بإيجاد الحل. وأكد الرئيس

كرامي أن هدف حكومته هو تأمين السلام وإعادة الثقة بين اللبنانيين، ومع الفلسطينيين، وجمع القوى الخيّرة لإعادة لبنان المستقل. لكن الحكومة لم تستعن بالجيش اللبناني.

هدأ الوضع مؤقتاً، ثم تجددت الأحداث، واتبعت مساراً تقليدياً: جولات من العنف تعقبها فترات من الهدوء النسبي، ارتسمت محاور القتال، ارتفعت الحواجز. كان إطلاق النار يعنف أو يهدأ حسب رغبة المسلحين. ونشط القناصون واصطادوا الأبرياء. وأحياناً يقيم المسلحون حواجز موقتة (أو طيارة كما قيل) تخطف الأبرياء، وربما تحاكمهم وتغتالهم على الهوية. أما في أواخر كل شهر وفي مطلع الشهر الذي يليه فتهدأ الحال حتى يتسنى للموظفين قبض رواتبهم.

بدأت الوساطات، حضر إلى لبنان موفدون من الدول العربية، في طليعتهم أمين عام جامعة الدول العربية، ومن سوريا والسعودية ومصر والعراق وليبيا. كما حضر أكثر من موفد من فرنسا والفاتيكان والولايات المتحدة وهيئة الأمم... دون نتيجة. فقد استمر القتال وبدأ يتفكك الجيش بعد تحييده قسراً. لكن الفرق العسكرية لم تقاتل بعضها. وفضّل عدد من الضباط والجنود أن يعتزلوا الحياة العسكرية مؤقتاً حتى لا يشاركوا في قتال ليست لهم رغبة فيه. استعمل المسلحون كافة أنواع الأسلحة الخفيفة والمتوسطة والثقيلة، حتى المدافع والصواريخ والآليات ما عدا سلاحي البحرية والطيران.

عرف القتال أشكالاً من العنف، أوقع الخراب، أشعل الحرائق،

توقفت حركة المطار والمرفأ، انقسم كل من الإذاعة اللبنانية وشركة التلفزيون. وبدأ نهب المحلات الواقعة في أماكن القتال، ومخازن المرفأ، وتعددت الجرائد والنشرات والإذاعات... ودأبت تنشر الأخبار المثيرة، وتنشر الدعايات تأزيماً للمواقف. عرفت المؤسسات الحكومية أزمة خانقة، تعثرت المدارس فلم تعد تمارس عملها بصورة طبيعية. بل تتوقف أو تفتح أبوابها وفقاً للوضع الأمني، واعتمدت نظاماً مكثفاً للتدريس.

في مطلع سنة ١٩٧٦ سقطت الكرنتينا والمسلخ بيد القوات اللبنانية، وبالمقابل سقطت الدامور بيد الفلسطينيين وحلفائهم وكان لمنظمة الصاعقة الدور الكبير.

هدأت الأحوال نسبياً في مطلع سنة ١٩٧٦، وعهدت الدول الكبرى إلى سوريا بدور أمني في لبنان، فدخل جيش سوريا إلى البلاد، وتشكلت في كانون الثاني ١٩٧٦ في وزارة الدفاع لجنة لبنانية سورية فلسطينية مشتركة، ووقعت اتفاقاً لوقف النار في ٢٥ ك٢ ١٩٧٦ طلب وقف القتال وسحب المقاتلين.

وقام الرئيس فرنجية بزيارة إلى دمشق (٧ شباط ١٩٧٦) واتفق مع الرئيس حافظ الأسد على مشروع حلّ، تضمن إصلاحاً سياسياً واقتصادياً عُرف «بالوثيقة الدستورية» أبرز ما فيه: لبنان بلد عربي حرٌ مستقل. الموافقة على تعديل الدستور وتطوير شكل الحكم، وتطبيق العدالة الاجتماعية، وتكريس الرئاسات الثلاث خطياً، والمناصفة في عدد مقاعد النواب وانتخاب رئيس الحكومة من المجلس النيابي بالأغلبية النسبية، وأغلبية الثلثين لإقرار المشاريع

الهامة، وأغلبية ٥٥٪ لانتخاب رئيس الجمهورية، وإنشاء محكمة عليا لمحاكمة الرؤساء والوزراء... والتأكيد على ولاء جميع اللبنانيين لوطنهم لبنان، واحترام اتفاق القاهرة وملحقاته.

محاولة الانقلاب في ١١ آذار ١٩٧٦ وتجدد الأحداث

أمل اللبنانيون بالانفراج القريب، لكن الأحداث تجددت. فقد تعرضت بلدات في منطقة عكار للاعتداء. وتفكك الجيش بما عُرف «حرب الثكنات». فحاول العميد الركن عزيز الأحدب انقلاباً عسكرياً لإعادة توحيد الجيش وفرض الاستقرار. لكن المحاولة لم تنجح، بل تجددت الاشتباكات. وطالب كثيرون باستقالة رئيس الجمهورية. وتعرّض قصر بعبدا للقصف، فغادره الرئيس إلى بلدة الذوق ومنها إلى بلدة الكفور في كسروان، وظل فيها حتى آخر ولايته. واتفق النواب على تعديل المادة ٧٣ من الدستور بحيث يتم انتخاب رئيس للجمهورية قبل المهلة الدستورية، فاجتمع المجلس النيابي في قصر منصور، قرب المتحف الوطني في يوم أمني عاصف، وانتخب الياس سركيس رئيساً، وجدد المجلس النيابي ولايته، وظل يجدد لنفسه حتى سنة ١٩٩٢. هكذا تابع لبنان الحياة البرلمانية الديمقراطية رغم الأحداث.

استمر الرئيس فرنجية يمارس صلاحياته، والرئيس المنتخب يسعى لإيجاد الحل وظل اللبنانيون تحت وطأة الحرب. وتأزم

الوضع الاقتصادي، وقلّ عدد من المواد من أهمها الطحين والبنزين، وتعرض للاعتداء عدد من المؤسسات والمصالح حتى مخافر الأمن، وعدد من الصحف. واغتيل عدد من الصحافيين ورجال السياسة. نذكر العميد ريمون إده الذي تعرّض لمحاولات الاغتيال بسبب مواقفه السياسية، فذهب إلى مصر بدعوة من رئيسها أنور السادات الذي أعلمه أن ثمة خطة باغتيال عدد من الزعماء اللبنانيين. ثم ذهب إلى فرنسا وأقام فيها حتى وفاته. كذلك غادر صائب سلام إلى سويسرا.

في مطلع حزيران ١٩٧٦ دخلت القوات السورية إلى لبنان بكثافة برغبة الدول الكبرى وموافقة قيادات مسيحية، وعدم معارضة المسلمين. وتقدمت حتى الجنوب فوصلت قرب النبطية. فاحتجت إسرائيل وطلبت ان يقف الجيش السوري عند «الخط الأحمر» دون تحديد موقع هذا الخط.

لم تهدأ الحال، فقد هاجم الفلسطينيون وحلفاؤهم بلدة شكا (١٩٧٦/٧/٥) فردت القوات اللبنانية بهجوم معاكس واحتلت منطقة الكورة. في الثامن من حزيران اجتمع وزراء الخارجية العرب وقرروا إرسال قوات سلام عربية إلى لبنان قوامها ستة آلاف، تتألف من عناصر سورية وليبية وسعودية وسودانية. وصلت الدفعة الأولى منها إلى خلدة في ٢١ حزيران. وبدأت الفصل بين القوات السورية والفلسطينيين. واستمرت الأحداث، وفي ٢٠ حزيران أجلى الأميركيون رعاياهم من لبنان كما دعوا الأجانب إلى الجلاء أيضاً.

استمرت الاتصالات والسعي لإعادة الأمن إلى لبنان، ومن أبرز ما حدث كان الخطاب السياسي الذي ألقاه الرئيس السوري حافظ الأسد على مدرج جامعة دمشق في ٢٠ تموز. فقد وصف العلاقات التاريخية بين لبنان وسوريا، وفصّل مطامع الصهيونية في لبنان، وسعيها لتقسيمه، ولضرب النموذج الديمقراطي اللبناني، وحذّر من استمرار الحرب في لبنان، ومن الحسم العسكري أو من التقسيم لأن ذلك يخلق حالة من القهر (ويقصد المسيحيين) ويفسح في المجال تدخل الدول في شؤون لبنان. وشدد على مسؤولية سوريا في وقف القتال وفرض الأمن في لبنان. وقال إن سوريا تدخلت بناء على نداءات متكررة من قمة عرمون الإسلامية. وحذر الفلسطينيين من انتهاج السياسة الخاطئة في لبنان. وقال إن سوريا فعلت الكثير من أجل المقاومة الفلسطينية، وسلّحتها وسلحت أعضاء الحركة الوطنية حتى يقاتلوا إسرائيل وليس المسيحيين في لبنان. وأضاف إننا نرفض أن يقول لنا فلسطيني اخرجوا من لبنان.

موجز العمليات العسكرية في حرب السنتين من خلال الجولات العسكرية

استمرت الاشتباكات العسكرية منذ ١٣ نيسان في جولات حتى آخر عهد فرنجية يمكن توزيعها في سبع جولات رئيسة:

الجولة الأولى: (١٣ نيسان – ١٤ أيار): بدأت بحادثة

عين الرمانة – عنفت على جبهة الشياح – عين الرمانة، وفي ضواحي بيروت – الحازمية – جسر الباشا – تل زعتر – الدكوانة.

الجولة الثانية: (١٥ أيار – ٢٢ حزيران): تشكيل الحكومة العسكرية – قنص – اغتيالات.

الجولة الثالثة: (٢٣ حزيران – ٢٣ آب ١٩٧٥): تجدد المعارك على جبهات الشياح – عين الرمانة. ضواحي بيروت. اعتصام الإمام موسى الصدر في الكلية العاملية احتجاجاً على مهاجمة بلدة القاع في البقاع – أحداث في البقاع وولادة منظمة أمل.

الجولة الرابعة: (٢٤ آب – ٥ ك١ ١٩٧٥): عنف القتال، استخدام المدفعية الثقيلة، امتداد الاشتباكات إلى البقاع (زحلة وضواحيها). حوادث خطف واغتيال.

الجولة الخامسة: (٦ ك ١ ١٩٧٥ – ١٣ شباط ١٩٧٦): اشتباكات عنيفة – خطف على الهوية – عمليات اجتياح وتهجير (حي الغوارنة أنطلياس – سبنيه، قرية عشاش في قضاء زغرتا – الزاوية، سقوط مخيم الضبية الفلسطيني ١٤ ك٢. الكرنتينا – المسلخ ١٨ ك٢. الدامور ١٩ و ٢٠ ك٢). تشكيل لجنة عسكرية عليا لبنانية – سورية – فلسطينية لوقف النار.

الجولة السادسة: (١٤ شباط – ٣١ آذار ١٩٧٦): هدوء نسبي بعد إعلان الوثيقة الدستورية (١٤ ك٢) ثم اشتداد التوتر بعد ١١ آذار. امتداد الاشتباكات إلى الجبل (حمانا – المتين – عينطورا – عيون السيمان) تفكك الجيش – محاصرة بلدة القبيات في عكار – قصف قصر بعبدا وذهاب الرئيس إلى الكفور.

الجولة السابعة: (أول حزيران ١٩٧٦ – ٢٣ أيلول ١٩٧٦): دخول الجيش السوري بكثافة وانتشاره حتى النبطية. اشتباكات بين السوريين والفلسطينيين وحلفائهم. أتمت قوات الجبهة اللبنانية احتلال مخيمات جسر الباشا والنبعة وتل زعتر بعد حصار دام ٥٢ يوماً. كما صدت الهجوم على شكا (٥ تموز) وشنت هجوماً معاكساً فسيطرت على شكا والكورة. حريق كبير في مصفاة الزهراني. استعمل المسلحون في حرب السنتين هذه كل أنواع الأسلحة ما عدا سلاحي البحرية والطيران. بلغ عدد التنظيمات المسلحة على أرض لبنان ٢٩ منظمة.

عهد الرئيس الياس سركيس
١٩٧٦ - ١٩٨٢

واجه العهد صعوبات قاسية في الداخل ومن الخارج. شنّت إسرائيل حربين على لبنان في آذار ١٩٧٨ وفي حزيران ١٩٨٢. واجه الرئيس الصعوبات بشجاعة، سعى لحلها فلم يتمكن. فأدار الأزمة بحكمة. واحتفظ بوحدة لبنان، وبنظامه الديمقراطي وبعملته السليمة.

انتخاب الأستاذ الياس سركيس رئيساً

بعد أن تقرر إجراء الانتخاب الرئاسي المسبق، تعددت اسماء المرشحين وبينها اثنان جدّيان هما مرشح المعارضة ريمون إده، ومرشح الموالاة الياس سركيس حاكم مصرف لبنان. اجتمع ٦٨ نائباً في قصر منصور (بين المتحف والبربير) في بيروت، في يوم أمني عاصف، وقصف مدفعي عنيف وانتخبوا الأستاذ الياس سركيس رئيساً بأغلبية ٦٦ صوتاً، بناءً على الرغبة السورية وقرار

الموفد الأميركي (دين براون) بعد أن رفض العميد إده شروط الموفد الأميركي.

والياس سركيس رجل عصامي أثبت الكفاءة والإخلاص، فقرّبه الرئيس شهاب منه، وجعله من مستشاريه، ثم أصبح حاكم مصرف لبنان.

وضع الرئيس سركيس خطة لإعادة السلام. وسعى لذلك قبل استلامه الرئاسة، وهي تقوم على التمسك بسيادة لبنان ووحدته واستقلاله، وعلى عروبة لبنان وتعاونه الوثيق مع البلدان العربية، وقيام علاقات مميزة مع سوريا، وتحقيق الوفاق الوطني، وتطبيق الاتفاقات مع الفلسطينيين بدقة، وإجراء الإصلاحات اللازمة في لبنان.

قام باتصالات واسعة مع رجال السياسة في الداخل، كذلك زار كلاً من دمشق والقاهرة وفي ٢٣ أيلول أدّى القسم الدستوري في شتورا وكانت بإشراف الجيش السوري، وجرى التسلّم والتسليم مع الرئيس فرنجية في القصر البلدي في الذوق. ألقى خطاب القسم، فوعد بالسعي لإيجاد الحل، وإجراء الإصلاحات، واستبعاد تقسيم لبنان. وأكد أن لبنان يواصل دعم القضية الفلسطينية، إنما على منظمة التحرير احترام الاتفاقات المعقودة مع لبنان. وقال إن الجيش السوري دخل لبنان بدعوة من الشرعية وباقٍ بناء على رغبتها. وانتقل إلى قصر بعبدا وكلّف الأستاذ سليم الحص بتشكيل الوزارة. والحص رجل اقتصاد، عمل في المصرف المركزي مع الياس سركيس، وتميّز بالاتزان

والاعتدال. شكل الحكومة ومنحها المجلس النيابي صلاحيات تشريعية حتى آخر حزيران ١٩٧٧.

من خطاب القسم ٢٣ أيلول ١٩٧٦

«رسالة لبنان هي أن يكون اللبناني سيد نفسه، خادم وطنه، رسول محبة ووئام. ناشر حضارة ومعرفة، نصير جاره، شجاعاً، رائداً في معارك الحق أينما كان الظلم وعلى من كان.

إن الإيمـان بلبنـان الواحد هو أقوى ما نتسلح به في مواجهة الأزمة.

أمدّ يدي إلى جميع اللبنانيين وأدعوهم إلى التلاقي في عمل وطني جامع تذوب فيه الخلافات.

إن علاقـة لبنـان مع المقاومـة الفلسطينية وما نتج عنها من تقاتل وأحداث لا تزال تتفاعل يجب أن تعالج وتُركّز على اساس من الصحة والصراحة تُحترم معها المـواثيـق والاتفاقات فتُصان مصلحة لبنان وتسلم القضية الفلسطينية».

فخامة الرئيس الياس سركيس، مجموعة خطب وكلمات
وزارة الإعلام، مركز النشر اللبناني

من تصريح للدكتور سليم الحص
بعد تكليفه بتشكيل الوزارة

«أشكر فخامة الرئيس على ثقته بتكليفي تشكيل أول حكومة في عهده. أرجو أن أتوفق بتشكيل حكومة تكون بمثابة فريق عمل واحد ينهض بالمسؤوليات.

أهيب باللبنانيين الالتفاف حول الرئيس والحكومة لكي نتمكن من قيادة لبنان إلى شاطئ الأمان. إن لبنان بحاجة إلى التوحيد بعد الأزمة التي أوقعتها الأحداث بين أبنائه.

الدكتور سليم الحص، زمن الأمل والخيبة

العمل لتأمين السلام

لاح أمل بحلّ قضية الشرق الأوسط ونهاية الأزمة في لبنان، ساد هدوء حذر وانفتحت الطرقات، وفتحت المدارس والمتاجر أبوابها، ودعت الحكومة العمال والموظفين إلى ممارسة أعمالهم. فنشط الناس يرممون ما خرّبت الحرب. وأصدرت الحكومة سلسلة مراسيم اشتراعية لإعادة الحياة الطبيعية (إنشاء مجلس الإنماء والإعمار، مصرف الإسكان، استحداث نظام لضمان التوظيفات المالية في المصارف، إعادة توحيد الإذاعة والتلفزيون، معالجة قضايا الإذاعات والمرافئ غير الشرعية).

البحث عن الحلول: من مؤتمر الرياض (١٦ – ١٨ ت١) إلى مؤتمر القاهرة (٢٥ ت١ ١٩٧٦)

تجاه تدهور الوضع في لبنان، رأت الدول العربية ضرورة إيجاد حلّ، فانعقد مؤتمر قمة عربية في الرياض بناء على دعوة من السعودية (١٦ – ١٨ ت١ ١٩٧٦) حضره ملوك وأمراء ورؤساء كل من السعودية والكويت وسوريا ومصر ولبنان ومنظمة التحرير الفلسطينية. أقرّ المؤتمرون وقف القتال في لبنان، وجمع الأسلحة الثقيلة من المتقاتلين، والتزام الفلسطينيين بالاتفاقات المعقودة مع لبنان، والانسحاب إلى المناطق التي حدّدها اتفاق القاهرة المنعقد سنة ١٩٦٩. وتقرر كذلك تشكيل قوة ردع عربية تمولها دول النفط، وتوضع تحت أمرة رئيس الجمهورية اللبنانية، واحترام استقلال لبنان وسيادته، ووقف الحملات الإعلامية، وتوحيد الإعلام الرسمي في لبنان، كذلك مساعدة لبنان لإعادة التعمير. كما تمت اتفاقات جانبية أبرزها المصالحة بين سوريا ومصر، مما ينعكس إيجاباً على لبنان. وتشكلت لجنة رباعية من كل من السعودية ومصر وسوريا والكويت لملاحقة تطبيق الاتفاق.

وبعد اسبوع انعقدت قمة عربية موسعة في القاهرة (٢٥ ت١) حيث وافق المجتمعون على مقررات مؤتمر الرياض. ووضعوا الخطة لتشكيل قوات الردع من ٣٠ ألف عنصر (٢٥ ألف سوري، ١٥٠٠ سعودي، ٨٠٠ ليبي، ١٢٠٠ سوداني، ٥٠٠ يمني، ٥٠٠ من دولة الإمارات العربية) وأصبح الضابط اللبناني العقيد الركن أحمد الحاج قائدها الأعلى (وبعد استقالته فيما بعد

خلفه اللواء سامي الخطيب) وانضمت إلى قوات الردع القوات السورية الموجودة في لبنان. وباشرت قوات الردع مهماتها. وتمت بعض الانفراجات الأمنية، وبوشر جمع السلاح الثقيل، لكن أفرقاء القتال لم يسلّموا سوى القليل من أسلحتهم. وجرى فتح مطار بيروت وتشغيل المرفأ. قررت السعودية سحب جيشها في آذار ١٩٧٩. وثم حذت حذوها الدول الباقية. وظل الجيش السوري وحده ممثلاً لقوات الردع في لبنان.

دعا الرئيس سركيس في كانون الثاني ١٩٧٧ اللجنة الرباعية إلى الاجتماع وعلى جدول الأعمال المواضيع الآتية: انسحاب جيش التحرير الفلسطيني من لبنان. انتشار قوات الردع العربية وتنفيذ اتفاق القاهرة تنفيذاً صحيحاً. لكن وقع الخلاف بين أعضاء اللجنة، وبصورة خاصة حول تفسير مضمون اتفاق القاهرة، فأوقفت أعمالها (٢٧ أيار ١٩٧٧) ودار الحديث على تدويل القضية اللبنانية. لكن سوريا رفضت التدويل.

من جهة ثانية عقدت الجبهة اللبنانية مؤتمراً في سيدة البير (في كسروان بين ٢١ و ٢٣ ك٢ ١٩٧٧) واتخذت القرارات الآتية:

١– تطوير النظام السياسي في لبنان الموضوع سنة ١٩٤٣ ووضع نظام لا مركزي.

٢– توزيع الفلسطينيين الموجودين في لبنان على البلدان العربية.

٣– التحفظ على انتشار الجيش السوري في لبنان.

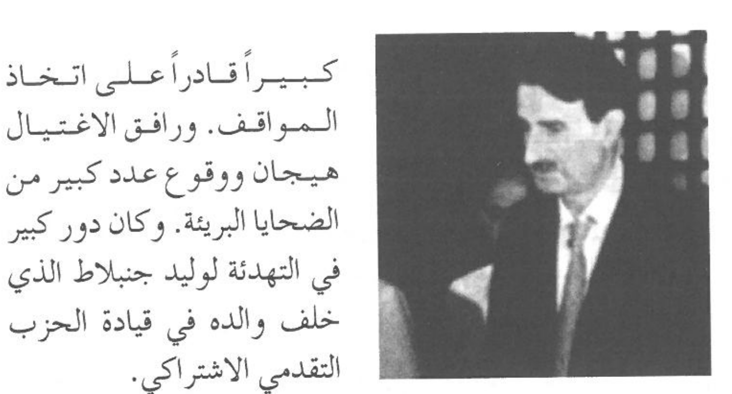
انعكاس الوضعان الداخلي والخارجي سلباً على لبنان

فيما اللبنانيون يأملون بحلّ قريب، وقعت أحداث داخلية وخارجية فاستمرت الأزمة.

تقدمت القوات السورية جنوباً، حتى وصلت إلى كفر تبنيت قرب النبطية (٢٥ ك٢ ١٩٧٧) فوجهت إسرائيل إنذاراً بواسطة الولايات المتحدة مدعية أنها تعتبر الجنوب اللبناني مدى حيوياً لأمنها، فهي لا تسمح للقوات السورية باجتياز ما سمّته «الخط الأحمر» لم تحدد موقع هذا الخط، بل اعتبرت مدينة النبطية من ضمنه.

وظل الفلسطينيون يشنّون هجمات على إسرائيل انطلاقاً من لبنان، وهي تردّ بعمليات عسكرية، ومن أهدافها تذكية الخلاف بين السلطات اللبنانية والفلسطينيين. وظلّت الولايات المتحدة تعطف على إسرائيل، وكانت الحرب الباردة مستمرة والاتحاد السوفياتي يهتم بالمنطقة فيعارض سياسة الولايات المتحدة ويعطف على الفلسطينيين وعلى سوريا.

وتلاحقت الأزمات في لبنان، استمرت سيطرة الميليشيات، وتفجير السيارات، وجرت محاولات اغتيال عدد من الشخصيات السياسية فانزوى البعض، وهاجر آخرون، فيما اغتيل في الشوف (١٦ آذار ١٩٧٧) كمال جنبلاط رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي، وزعيم الحركة الوطنية. فخسر اللبنانيون بموته قائداً



الأستاذ كمال جنبلاط

كبيراً قادراً على اتخاذ المواقف. ورافق الاغتيال هيجان ووقوع عدد كبير من الضحايا البريئة. وكان دور كبير في التهدئة لوليد جنبلاط الذي خلف والده في قيادة الحزب التقدمي الاشتراكي.

زيارة الرئيس المصري أنور السادات إلى القدس (١٩ ت٢ ١٩٧٧) وأثرها على لبنان

قام الرئيس المصري أنور السادات بزيارة مفاجئة إلى القدس، وألقى خطابا في الكنيست الإسرائيلي ودعا إلى التفاهم مع إسرائيل. أحدثت الزيارة ردات فعل في البلدان العربية. عارضتها سوريا. ودعت إلى إنشاء جبهة ضدّ مصر، واتفقت مع الفلسطينيين وبدأت تسوء علاقاتها بالجبهة اللبنانية. وتواصلت الأحداث في لبنان، ومن أخطرها قتال أمام ثكنة الفياضية بين عناصر من الجيش اللبناني وأخرى من الجيش السوري ووقع عدد من القتلى (٨ شباط ١٩٧٨)، ووقفت الجبهة اللبنانية بجانب الجيش اللبناني. ودخلت في مواجهة عسكرية مع الجيش السوري. فتدخل الرئيس سركيس وتم الاتفاق مع السوريين على إنشاء محكمة عسكرية استثنائية لمحاكمة المسؤولين عن حادث الفياضية. وقام وفد كتائبي بزيارة إلى دمشق. وتم الاتفاق إنما لوقت قصير، فقد ظلت النار تحت الرماد.

العدوان الإسرائيلي ١٩٧٨ والقرار ٤٢٥

وصل حزب الليكود إلى الحكم في إسرائيل، وحصل على موافقة أميركية لضرب المسلحين الفلسطينيين في جنوب لبنان. وكان أريل شارون وزيراً للحربية، فاستغلّ عملية قام بها الفدائيون الفلسطينيون إذ هاجموا حافلة ركاب في حيفا. فشنّ الجيش الإسرايلي عملية عكسرية واسعة (١٥ اذار) اتخذت اسم «عملية الليطاني» فاجتاح جنوب لبنان حتى نهر الليطاني. تدخل مجلس الأمن فطلب وقف القتال، وأصدر القرارين ٤٢٥ و ٤٢٦ وقرر إحلال قوات الأمم المتحدة Unifel في جنوب لبنان، وعددها ٤ الاف ثم ارتفع الى ٦ الاف. فرابطت في أماكن من الجنوب يجدد لها مجلس الأمن كل ستة أشهر.

لكن الإسرائيليين لم ينسحبوا كلياً من لبنان، بل احتفظوا بمنطقة في الجنوب عرضها ١٠ كلم أطلقوا عليها اسم «الحزام الأمني» وشجعوا على إنشاء ما عُرف بجيش لبنان الجنوبي بقيادة الرائد سعد حداد. وكان قد أرسله الرئيس فرنجية إلى الجنوب ليدافع عن القرى المسيحية ضد الفلسطينيين.وظل مرتبطاً بقيادة الجيش اللبناني. وبعد الاحتلال الإسرائيلي تعذر عليه الاتصال بالقيادة اللبنانية فقبل المساعدة من إسرائيل. وأنشأ جيش لبنان الجنوبي الذي شاركت فيه عناصر مختلفة. وبعد وفاة سعد حداد خلفه اللواء أنطوان لحد الذي استمر في الجنوب حتى تحريره في ٢٥ آذار ٢٠٠٠.

أوقعت هذه الحرب خسائر كبيرة في لبنان (١١٦٨ قتيلاً، تهجير نحو ٢٢٠ ألف مواطن، تدمير عدد من المنازل والمؤسسات).

القرار ٤٢٥ – ١٩ آذار ١٩٧٨

إن مجلس الأمن،
وقد أخذ علماً برسائل الممثل الدائم للبنان والممثل الدائم لإسرائيل، وقد استمع إلى بياني الممثلين الدائمين للبنان وإسرائيل، وإذ يساوره شديد القلق لتدهور الوضع في الشرق الأوسط ونتائجه على المحافظة على السلم الدولي، واقتناعاً منه أن الوضع الحالي يعيق تحقيق سلام عادل في الشرق الأوسط.

١- يدعو إلى الاحترام الصارم لسلامة أراضي لبنان وسيادته واستقلاله السياسي داخل حدوده المعترف بها دولياً،

٢- يدعو إسرائيل إلى وقف عملها العسكري ضد سلامة أراضي لبنان على الفور وإلى سحب قواتها حالاً من كافة الأراضي اللبنانية،

٣- يقرر، في ضوء طلب حكومة لبنان، أن ينشئ على الفور، تحت سلطته، قوة مؤقتة للأمم المتحدة في الجنوب اللبناني بهدف التثبّت من انسحاب القوات الإسرائيلية، واستعادة السلم والأمن الدوليين ومساعدة حكومة لبنان على ضمان عودة سلطتها الفعلية في المنطقة، وتتألف القوة من عناصر تُستقدم من الدول الأعضاء.

٤ – يرجو من الأمين العام للأمم المتحدة تقديم تقرير إلى المجلس خلال أربع وعشرين ساعة عن تنفيذ هذا القرار.

أُعتمد القرار بأغلبية ١٢ صوتاً مقابل لا شيء وامتناع دولتين ولم تشارك الصين في التصويت.

عفيف أيوب، قرارات ومقررات مجلس الأمن حول لبنان ١٩٤٦ – ١٩٩٠، ص١٢٣

أما داخل لبنان، وفي غياب السلطة الشرعية القادرة فاستمرت الفوضى، بل ازدادت: صراع بين اللبنانيين والفلسطينيين، بين اللبنانيين واللبنانيين، حتى داخل كل جماعة. فقد أراد كل فريق أن يكون هو الحاكم في منطقته، فدبّ الصراع من أجل السلطة. فبعد أن سيطرت الكتائب على معظم مناطق الجبل المسيحية بدأ الصراع في الشمال، وقد برز الشيخ بشير الجميل على رأس القوات اللبنانية.

دب الخلاف داخل الجبهة اللبنانية بين الرئيس سليمان فرنجية وباقي أعضاء الجبهة حول الموقف من كل من سوريا وإسرائيل. واشتد التنافس في منطقة الشمال بين عناصر من الكتائب وأنصار الرئيس فرنجية لا سيما جيش المردة، أي الميليشيا التي أنشأها فرنجية، وسقط ضحايا، منهم رئيس إقليم منطقة زغرتا الكتائبي (جود البايع) فردّت قوات الكتائب بحملة على إهدن (١٣ حزيران ١٩٧٨) قُتل فيها نائب زغرتا طوني فرنجية، وسقط أكثر

من ثلاثين ضحية. فانقسمت القيادة المسيحية على الأثر بين الشمال، يسيطر عليه آل فرنجية بدعم من السوريين، وانتشر الجيش السوري في هذه المنطقة، وبين قسم الجبل تسيطر عليه الكتائب وحلفاؤها. وشكل وادي المدفون الحدّ الفاصل بين المنطقتين، ورُفعت الحواجز على جانبيه، ووقعت اشتباكات وأعمال خطف متبادلة وسقطت الضحايا البريئة. وقد نزح كثيرون من أنصار الكتائب عن مناطق الشمال هذه.

تجدد الخلاف بين القوات اللبنانية والسوريين، وجرى تبادل القصف بين مناطق عدة: بين شطري بيروت، وعلى جبهة طويلة في الشمال تمتد من حدود منطقة جبيل حتى جرود البترون، ووقعت أحداث في البقاع. وتعرضت مناطق عدة لقصف كثيف. وحضر مندوبون من الفاتيكان، ومن فرنسا والولايات المتحدة، دون التوصل إلى حلّ. وعجز الرئيس سركيس عن فرض رأيه رغم أنه قائد قوات الردع الأعلى. فعزم على الاستقالة (٦ تموز ١٩٧٨). لكنه تجاوب مع رغبة الكثيرين ورجع عن الاستقالة حتى لا تقع البلاد في ازمة حكم. وأخيراً تدخل مجلس الأمن وتم التوصل إلى هدنة في أواخر شهر آب.

وفي أواخر شهر آب ١٩٧٨، قام رئيس المجلس الشيعي الأعلى الإمام موسى الصدر بزيارة إلى ليبيا تلبية لدعوة رئيسها العقيد معمر القذافي فاختفى هناك (وناب عنه الإمام محمد مهدي شمس الدين واستمر حتى وفاته سنة ٢٠٠١) وكان للإمام المقام الكبير والاحترام ليس عند الشيعة فحسب بل عند اللبنانيين جميعاً، فشكل غيابه خسارة كبيرة للقضية اللبنانية.

تجدد الاشتباكات ومؤتمر بيت الدين (ت١ ١٩٧٨)

تم توقيع اتفاق كمب دايفد بين مصر وإسرائيل (١٧ أيلول ١٩٧٨) دون أن يلحظ مصير اللاجئين الفلسطينيين. ويزيد عددهم في لبنان على النصف مليون. فأثار الأمر اهتماماً دولياً خلال الحرب الباردة، وأرسل الاتحاد السوفياتي سفناً حربية إلى البحر المتوسط، وكان يتعاطف مع الفلسطينيين ومع سوريا. من جهة ثانية قرب موعد التجديد لقوات الردع العربية فطالبت الجبهة اللبنانية بإعادة انتشار هذه القوات، وبانسحاب الجيش السوري من المناطق المسيحية، وبعدم رفع الأعلام السورية وشعارات حزب البعث. لكن الاتفاق لم يتم فتجددت الاشتباكات بعنف، وتعرضت مناطق عدة لقصف كثيف، وطالت القذائف العشوائية مناطق بيروت ووصلت حتى المتن وكسروان وسقطت الضحايا.

اقترحت الولايات المتحدة عقد مؤتمر دولي لدرس الأزمة اللبنانية يحضره مندوبون من كل من الولايات المتحدة وسوريا والسعودية ومصر وإسرائيل وفرنسا. لكن سوريا رفضت تدويل الأزمة. أخيراً عقد مجلس الأمن جلسة قصيرة (٧ ت١ ١٩٧٨) وأصدر قراراً يدعو الجميع إلى وقف القتال. وقام الرئيس سركيس بجولة عربية، فزار كلاً من السعودية والكويت والإمارات والأردن. وانعقد على الأثر مؤتمر في بيت الدين (بين ١٥ و ١٧ ت١) حضره وزراء خارجية الدول المشاركة في قوات الردع العربية. وطلب المؤتمرون احترام

قرارات مؤتمر الرياض، ووافق السوريون على الانسحاب من بعض المناطق اللبنانية المسيحية، لتحل محلهم قوات ردع سعودية وسودانية.

وفيما خصّ اتفاق كمب دايفد، انعقد مؤتمر عربي في بغداد (٢ – ٥ ت٢) للنظر بأمر هذا المؤتمر. وانقسم الحاضرون تجاه مصر بين متشدد يصرّ على إدانتها، ومعتدل يقول بالحوار. وأرسل المؤتمر وفداً إلى مصر برئاسة رئيس وزراء لبنان سليم الحص. لكن الرئيس السادات رفض استقبال الوفد. عندئذٍ قرر المؤتمرون طرد مصر من الجامعة العربية، ونقل مقر الجامعة من مصر إلى تونس، وقف لبنان في المؤتمر بجانب المعتدلين، وطالب بإعطائه المساعدات التي وعدت بها الدول العربية.

في هذه المرحلة تراوحت الأحوال في لبنان بين الهدوء والأزمة. جرى تقارب (في نيسان ١٩٨٠) بين الكتائب والسوريين فسحبوا قواتهم من بعض المناطق المسيحية. وراحت قوات الأمر الواقع (الميليشيات) في مناطق نفوذها، تتصرف كسلطة شرعية. تفرض الأمن على طريقتها، تجمع الضرائب، تُجري المحاكمات، حتى أن بعضها فرض الخدمة العسكرية الإلزامية على تلاميذ المدارس. وفي المناطق المسيحية، أراد قائد القوات اللبنانية الشيخ بشير الجميل، أن «يوحد البندقية» فأخضع القوى الموجودة وأقواها «نمور الأحرار» ميليشيا حزب الوطنيين الأحرار، فضربهم بقساوة (٩ تموز ١٩٨٠) وقد جمعت قوات جميع الاحزاب اللبنانية المسيحية ووحدتهم تحت قيادة واحدة. وجعل من القوات اللبنانية القوة الوحيدة في المناطق المسيحية.

قضية زحلة واتفاق بيت الدين

منذ بداية الأحداث سنة ١٩٧٥ كانت تقع في زحلة وجوارها أحداث متفرقة. ومنذ أواخر سنة ١٩٨٠ بدأت المواجهة بين القوات اللبنانية والسوريين حتى انفجر الوضع في نيسان ١٩٨١. وسيطر السوريون على التلال المحيطة بالمدينة مستخدمين سلاح الطيران. فتدخل الطيران الإسرائيلي وأسقط طوافتين سوريتين. ردّ السوريون بنشر صواريخ سام«٢» وسام«٦» في البقاع اللبناني. وهددت إسرائيل بضرب قواعد الصواريخ. خافت الولايات المتحدة من حرب بين إسرائيل وسوريا، وكانت هذه الأخيرة عقدت معاهدة صداقة ودفاع مع الاتحاد السوفياتي (ت١ ١٩٨٠) فأرسلت الولايات المتحدة الموفد فيليب حبيب وهو من أصل لبناني، فقام باتصالات مكوكية بين سوريا وإسرائيل ولبنان لإيجاد الحل.

أصبح الوضع خطراً في زحلة، فدعا الرئيس سركيس إلى اجتماع في **بيت الدين** (٦ حزيران ١٩٨١) حضره وزراء خارجية سوريا والسعودية والكويت والأمين العام لجامعة الدول العربية. ترأس الرئيس سركيس الاجتماع بحضور رئيس الوزراء شفيق الوزان، ووزير الخارجية فؤاد بطرس. ودُعي بشير الجميل إلى الاجتماع، فوعد بعدم الاتصال بإسرائيل، لقاء تطبيق اتفاق القاهرة تطبيقاً حرفياً، وانسحاب الجيش السوري حتى أول آب ١٩٨٢. وبعد مفاوضات صعبة تم الاتفاق على وقف النار، وتلا ذلك اجتماع في جدّة (٢٣ حزيران) حيث تم الاتفاق وانسحب مقاتلو الجبهة اللبنانية (القوات اللبنانية) من زحلة ودخلت إليها قوى الأمن اللبنانية.

الحرب الإسرائيلية على لبنان ١٩٨٢ وتأثيرها

بعد أن اتفقت إسرائيل مع مصر، وقد أمّنت حدودها مع مصر كذلك مع الأردن وسوريا منذ ١٩٧٣. انصرفت إلى تطبيق سياستها تجاه لبنان حتى تضرب المسلحين الفلسطينيين، وتنشئ منطقة أمنية تصل إلى عمق ٤٠ كلم. كذلك حتى تتدخل في انتخابات الرئاسة اللبنانية المقبلة. واستغلت أوضاعاً دولية أبرزها انشغال العراق بالحرب ضد إيران، والأزمة الدولية بسبب الخلاف بين بريطانيا والأرجنتين بخصوص جزر الفولكلاند، وحصلت على موافقة الولايات المتحدة، وقد حضّرت الرأي العام بنشر أخبار أعمال الفدائيين الفلسطينيين وتضخيمها. استغلت محاولة اغتيال سفيرها في لندن على يد مسلح فلسطيني، فسيّرت إلى لبنان جيشاً كبيراً (٦ حزيران) يصل إلى سبعين ألفاً يدعمه الطيران والأسطول، بقيادة وزير الدفاع أرييل شارون. اجتمع مجلس الأمن وأصدر قراراً يدعو إلى وقف النار وانسحاب الجيش الإسرائيلي. لكن إسرائيل لم تمتثل، بل تابع الجيش الإسرائيلي الزحف حتى بيروت، وهي أول عاصمة عربية يصل إليها الجيش الإسرائيلي. لم تتدخل أي من الدول العربية في القتال، حتى الجيش السوري ظلّ ملتزماً بوقف النار الذي تم التوصل إليه على يد كيسنجر ١٩٧٣. اتخذ مجلس الأمن سلسلة قرارات تؤكد على ضرورة احترام استقلال لبنان وسيادته، وانسحاب الجيش الإسرائيلي، وانسحاب المسلحين الفلسطينيين إلى المخيمات ثم إلى خارج لبنان. وأتت إلى لبنان القوات المتعددة الجنسيات (أميركية، فرنسية، إنكليزية، إيطالية) حتى تفصل بين المتقاتلين وتؤمن إجلاء

المقاتلين الفلسطينيين خارج لبنان. وقد تم ذلك بحراً في ٣٠ آب ثم نُقل ياسر عرفات إلى تونس.

أوقعت هذه الحرب خسائر فادحة في لبنان في الأرواح وفي الأملاك ومعظم الضحايا من المدنيين، وقدرت خسائر لبنان بأكثر من مليارين ونصف من الدولارات. وتدخلت إسرائيل في انتخابات الرئاسة، وتم اختيار الشيخ بشير الجميل وبموافقة المندوب فيليب حبيب ومباركة الرئيس الياس سركيس. فاجتمع ٦٢ نائباً في ثكنة الجيش في الفياضية وانتخبوا الشيخ بشير رئيساً بأغلبية ٥٧ صوتاً.

وضع اقتصادي واجتماعي صعب يرافق العهد

تقلصت سلطة الحكومة، وبدت البلاد موزعة بين احتلالات مختلفة، تفصل بينها الحواجز. وتتصرّف قوى الأمر الواقع كأنها الدولة: جمعت الضرائب، فرضت الخوات سيطرت على بعض مراكز قوى الأمن والجيش، عيّنت القضاة وأجرت المحاكمات، وحشدت الشبان في صفوفها، وفرض بعضها الخدمة العسكرية الإلزامية وأنشأت المرافئ غير الشرعية. وتعددت الإذاعات والصحف والنشرات، ونشر معظمها الأخبار المثيرة. نشطت عمليات الاستغلال مستفيدة من قلّة وجود بعض السلع الضرورية مثل الخبز والطحين والبنزين، فاستغلها البعض وجمع الثروات فيما افتقر كثيرون، وفقدوا ما كانوا يمتلكون لا سيما أصحاب المحلات في أماكن القتال. وعرفت البلاد نزوحاً داخلياً كثيفاً. كما هاجر الألوف إلى الخارج.

رغم الصغوبات ظلّ اللبنانيون يمارسون أعمالهم، يواجهون الخطر بشجاعة، يذهبون إلى أعمالهم رغم القصف، يلجأون إلى الملاجئ إذا عنف القصف، يرجعون إلى العمل متى سمح الظرف، يرممون ما خرّبت الحرب. ظلت المدارس تستقبل التلاميذ، وتقفل أثناء الخطر الشديد، طبقت برنامجاً مكثفاً، وظلت الامتحانات الرسمية مستمرة، لكن إذا تعذر إجراؤها بشكل طبيعي وجدّي، توقفها وزارة التربية وتعطي الإفادات، استمرت بيروت مركزاً مهماً للطباعة والنشر، ظلت تحتضن معارض الكتاب، وظل لبنان يرعى شؤون الثقافة، يكرم الأدباء والمفكرين، منها مثلاً تكريم الكاتب والفيلسوف ميخائيل نعيمة (أيار ١٩٧٨).

حافظ مجلس النواب على مظهر الديمقراطية، فاستمر يمارس صلاحياته، وظلّ يجدد لنفسه لتعذر إجراء الانتخابات النيابية، فتابع عمله، واقترح الحلول لحلّ الأزمة وأكد على وحدة لبنان وسلامة أراضيه.

رغم الصعوبات ظل اللبنانيون يحصلون على الضروري للعيش، واحتفظت العملة اللبنانية بقيمتها حتى آخر العهد.

عهــد الرئيــس أميــن الجميــل
١٩٨٢ - ١٩٨٨

انتخب المجلس النيابي الشيخ بشير الجميّل رئيساً للجمهورية. وبعد اغتياله انتخب أخاه الشيخ أمين. كان الوضع صعباً، عرفت البلاد ظروفاً قاسية من قتال وتهجير وانخفاض قيمة العملة. جرت محاولات لحلّ الأزمة، لكنها لم تنجح. انتهى العهد دون انتخاب رئيس جديد، فانقسمت السلطة. انعقد مؤتمر الطائف، وضع وثيقة الوفاق الوطني وانتخب النواب الأستاذ رينه معوض رئيساً.

الرئيس بشير الجميل

اقتربت نهاية عهد الرئيس سركيس، فأعلن الشيخ بشير الجميل ترشيح نفسه للرئاسة، وهو الإبن الثاني لرئيس الكتائب الشيخ بيار الجميل. كان الشيخ بشير قائد الجناح العسكري في الكتائب، ثم أنشأ القوات اللبنانية. وفتح باب الانضمام إليها

لمن يشاء من اللبنانيين، وبلغت بقيادته درجة من التنظيم والقوة. وتمكن من توحيد القيادة في المناطق المسيحية من بيروت حتى جسر المدفون.

عيّن رئيس المجلس النيابي (كامل الأسعد) يوم ١٩ آب موعداً للانتخاب، لكن المعارضة دعت إلى مقاطعة الجلسة فلم يكتمل النصاب. فأرجئ الموعد إلى ٢٣ آب ١٩٨٢، حيث انعقدت الجلسة في المدرسة الحربية في الفياضية، وقد تعذر الاجتماع في مجلس النواب، أو في قصر منصور بسبب الوضع الأمني السيء. حضر ٦٢ نائباً، وتم انتخاب الشيخ بشير بـ٥٧ صوتاً. كان الانتخاب خيبة أمل للمعارضين وفرحة عارمة لأنصار الرئيس، ولشريحة كبيرة من اللبنانيين، إذ توسم فيه الناس خيراً. وكان الرئيس سركيس يميل إلى انتخابه كذلك الموفد الأميركي فيليب حبيب. بالإضافة إلى الدعم الإسرائيلي.

بدا الرئيس بشير الجميّل رجل دولة مسؤولاً، أكد على وحدة لبنان وسلامة أراضيه، ودعا اللبنانيين جميعاً لبناء لبنان وطن محبة لجميع بنيه، ورفع شعار ١٠٤٥٢ كلم٢ مساحة لبنان تأكيداً على رفض أية فكرة تقسيمية.

أعلن حلّ الميليشيات من أجل بناء الجيش الوطني، وباشر إعداد فريق العمل من أصحاب الخبرة والسمعة الحسنة. أيده كثيرون من اللبنانيين، وزارته وفود شعبية للتهنئة من مناطق لبنانية مختلفة.

اعتقدت إسرائيل أن الرئيس المنتخب سهل الانقياد، وأن الظرف

مناسب لعقد معاهدة صلح مع لبنان. وبدون خوف ذهب إلى إسرائيل، واجتمع في نهاريا، شمال إسرائيل، بكل من رئيس الوزراء (مناحيم بيغن) ووزير الخارجية (إسحق شامير) ووزير الدفاع (أرييل شارون) فرفض مطالب الإسرائيليين، مؤكداً أنه رئيس دولة مسؤول ورجع إلى لبنان مستاءً.

وتابع الشيخ بشير التحضير لعمله الرئاسي، وكان يتنقل بعفوية وبدون حراسة، فلم يحط نفسه بالحراسة والحذر. وفيما كان يعقد جلسة عمل في بيت الكتائب في الأشرفية، يوم ١٤ أيلول ١٩٨٢، مع نخبة من رجال الاختصاص، تمهيداً لإطلاق ورشة العمل، وقع انفجار ضخم أودى بحياة الرئيس وثلاثين شخصاً من المجتمعين. لم تتبنّ العملية أية جهة، إنما اتجهت أصابع الاتهام إلى إسرائيل، وإن كانت سوريا غير راضية على انتخابه، لكن ألقي القبض على منفّذ العملية (حبيب الشرتوني) محسوب على الحزب السوري القومي الاجتماعي، وُضع في السجن طيلة عهد الرئيس أمين الجميل، دون محاكمة، كما أن اغتيالات كثيرة وقعت ولم يعقبها التحقيق اللازم ولا المحاكمات. وترك الشرتوني السجن يوم ١٣ تشرين الأول ١٩٩٠ أثناء الهجوم على قصر بعبدا ومغادرة اللواء ميشال عون.

واغتنم الإسرائيليون الفرصة، لضرب المسلحين الفلسطينيين فدبروا مجزرة صبرا وشاتيلا ١٦ – ١٧ أيلول (١٩٨٢) بإشراف وزير الدفاع الإسرائيلي أرييل شارون، فوقع نحو ١٥٠٠ قتيل معظمهم من المدنيين. وتشكلت لجنة في إسرائيل (لجنة كاهان) حققت في مذابح صبرا وشاتيلا واتهمت أرييل شارون وأجبرته

على الاستقالة من الوزارة. على أثر الأحداث هذه أرسل الرئيس الأميركي ريغن المندوب فيليب حبيب، لبحث موضوع المسلحين الفلسطينيين وحضرت القوات المتعددة الجنسيات (أميركية، فرنسية، إيطالية، إنكليزية) لتشرف على انسحاب المسلحين الفلسطينيين وخروجهم من لبنان. لم تكن القيادة موحدة ولم يكن من تنسيق بين هذه القوات. وفي صبيحة ٢٣ ت١ ١٩٨٣ تعرضت القوات الأميركية في بيروت لانفجار ضخم كذلك القوات الفرنسية فوقع عددٌ كبير من الضحايا من الجيشين. وقام الرئيس الفرنسي ميتران بزيارة إلى بيروت تأكيداً على الوجود الفرنسي.

أحدث اغتيال الرئيس بشير الجميل حزناً عميقاً، لا سيما عند الشباب، واعتبروا أن حلم لبنان الجديد قد انتهى. وقد كتب الأستاذ إيلي سالم وزير الخارجية ومستشار الرئيس أمين الجميل ما يأتي: كانت خطب بشير تُسمع عالياً في كل المناطق اللبنانية. حتى أنه أصبح سنة ١٩٨٢ شخصية محورية في السياسة اللبنانية. كان يتكلم في كل الموضوعات، وبحرية تامة، دون خوف أو تردد معرضاً نفسه للمخاطر. وهذا التحدي في أسلوبه ونهجه هو الذي أعطاه صفة مميّزة. إذ كان في تحدّيه هذا وكأنه يتحدى القدر بشيء من البطولة والمأساة.

إيلي سالم

الخيارات الصعبة، ١٩٨٢، ص ١٨

انتخاب الشيخ أمين الجميل رئيساً

جرت اتصالات سياسية مكثفة بعد اغتيال الشيخ بشير، فوافق النواب مسيحيون ومسلمون، على انتخاب شقيقه الأكبر الشيخ أمين، على أن يعمل لإنهاء الاحتلال الإسرائيلي، وانتهاج سياسة وفاقية، وإعادة وحدة البلاد واستقرارها. اجتمع ٧٧ نائباً (في ٢١ أيلول) وانتخبوا الشيخ أمين رئيساً.

مقطع من خطاب قسم الرئيس أمين الجميل يوم ٢٣ أيلول ١٩٨٢

أول ما يحتاج إليه الوطن وحدة أبنائه... الوحدة الوطنية أساس الوطن، والأولوية للبنان وللولاء المطلق.

إن همّاً يتملكني هو وقف دورة العنف والنزف. يجب أن تنتهي كل حروب الآخرين في لبنان، وعلى حساب لبنان، يجب ضمان أمن الوطن وسلامة المواطن. ولن يتحقق ذلك إلا من خلال دولة قوية.

كانت المهمة صعبة، فالجيوش الأجنبية في البلاد، والخطر الإسرائيلي قائم وبصورة خاصة في العاصمة بيروت، وكانت دول عربية وأجنبية تتدخل في لبنان ولبعضها مؤيدون. وللحرب الباردة دورها، فقد قلق الاتحاد السوفياتي من وجود قوات على أرض لبنان من بعض دول الحلف الأطلسي. كذلك كان الوضع

الداخلي دقيقاً، فالميليشيات تزيد من قوتها وسيطرتها، والخلاف مستمر بين اللبنانيين. ومسلسل الخطف والاغتيال واحتجاز الرهائن مستمر. والوضع الاقتصادي يسوء، والعملة التي احتفظت بقوتها تواجه الخطر لا سيما وأن الدولة لم تعد قادرة على جمع مداخيلها الشرعية. ولم تكن للسلطة القوة اللازمة لا سيما وأن الجيش كان مقسماً.

بدأ الرئيس العمل، كلف الأستاذ شفيق الوزان بتشكيل وزارة العهد الأولى، ثم الثانية، وخلفه الأستاذ رشيد كرامي واستمر حتى اغتياله في أول حزيران ١٩٨٧ . جرت المحاولات لإيجاد الحل، وصف الرئيس المهمة «بمغامرة الإنقاذ» أمكن إعادة توحيد الجيش، لكن محاولات المصالحة الوطنية لم تنجح. كانت المهمة الملحة تأمين انسحاب الجيش الإسرائيلي من بيروت أولاً ثم من كل لبنان، فدخل العهد في مفاوضات مع إسرائيل، لكن دون الوصول إلى الصلح. ووقعت أحداث أمنية خطيرة أبرزها عمليات تهجير جديدة، وجرت محاولات للتفاهم والمصالحة لكن دون نتيجة. زار الرئيس الولايات المتحدة (تموز ١٩٨٣) بحثاً عن الحل، قابل الرئيس ريغان. فيما استمر سقوط القنابل العشوائية ووقوع الضحايا وتم إقفال المطار كذلك المرفأ.

المفاوضات مع إسرائيل واتفاق ١٧ أيار ١٩٨٣

كانت إسرائيل تسعى لعقد معاهدة صلح مع لبنان وتطبيع العلاقات، وافق الرئيس سركيس بطلب من فيليب حبيب على

التفاوض ثم وافق الرئيس الجميل على إجراء مفاوضات حتى يؤمن انسحاب الجيش الإسرائيلي فيما رأى ريمون إده أنه ينبغي ان يكون لبنان آخر دولة عربية توقع اتفاقاً مع إسرائيل.

بدأت أول جولة من المفاوضات في ٢٨ ك١ سنة ١٩٨٢، وتواصلت، وكانت تجري مداورة في خلده في لبنان، وكريات شمونا أو ناتانيا في إسرائيل بحضور وفد أميركي، وقد رفض لبنان إجراءها في بيروت وفي القدس كما طلبت إسرائيل حتى لايعترف بالقدس عاصمة لها.

استمرت المفاوضات حتى ١٧ أيار ١٩٨٣، بعد انعقاد ٣٥ جلسة، وقّعت الوفود الثلاثة الاتفاق، وقد كُتب بأربع لغات العربية والإسرائيلية والإنكليزية والفرنسية وإذا وقع خلاف يُعتمد النصان الإنكليزي والفرنسي. أكد الاتفاق على احترام استقلال لبنان وسيادته وسلامة حدوده، وسحب الجيش الإسرائيلي من لبنـان، وإنهـاء حـالة الحرب بين البلدين، وتسوية أي خلاف بـالمفـاوضـات السـلمية، والاحترام المتبادل، وعدم التدخل بالشؤون الداخلية كذلك عدم السماح بالاعتداء عبر الحدود.

وافق الكنيست الإسرائيلي على الاتفاق، لكن لبنان تريث، وترك المجلس النيابي (يوم ١٦ أيار) للرئيس حرية التصرف. ظلّت سوريا تعارض الاتفاق، وظل الوضع الأمني متوتراً، والقذائف العشوائية تسقط وتوقع الضحايا البريئة. تريّث الرئيس حتى أعلن مجلس الوزراء إلغاء الاتفاق (٥ آذار ١٩٨٤). استاءت الولايات المتحدة من هذا الإلغاء، وغضبت إسرائيل، حتى ان أرييل شارون

أعلم الرئيس الجميل، بشكل تهديد أن «سلطته ستقتصر على قصر بعبدا».

حرب الجبل ومأساة تهجير جديدة (١٩٨٣)

منذ اغتيال كمال جنبلاط في آذار ١٩٧٧، تلاحقت أحداث متفرقة في منطقة الشوف واتخذت طابعاً طائفياً، وازدادت بعد دخول الإسرائيليين، فقد شجعوا على الخلاف وعلى الحقد، وأوحوا لكل جماعة بمساعدتها حتى تنتصر. وشجعوا على اقتنـاء السـلاح، وأدخـلـوا مـيـلـيشـيـات القوات اللبنانية إلى الشوف، لكنهم لم يسمحوا لها بإدخال السلاح الثقيل. أعلن الجيش الإسرائيلي الانسحاب من الشوف دون وضع ترتيبات أمنية، ولم يتمكن الرئيس الجميل والحكومة من إرسال الجيش إلى هناك. ساء الوضع الأمني منذ ٢٣ آب، وفي الثالث من أيلول انسحبت آخر قافلة إسرائيلية من الشوف، فاندلعت اشتباكات عنيفة بين عناصر القوات اللبنانية وهي بدون سلاح ثـقـيـل، ومـقـاتـلي الحزب التقدمي الاشتراكي، لا سيما في بحمدون ٤ أيلول وتفوق الاشتراكيون، وقد اتخذ القتال الوجه الطائفي. وبدا أن ضباطاً إسرائيليين كانوا يشجعون على تهجير المسيحيين، ليؤكدوا أن التعايش بين الطوائف أصبح متعذراً في الشرق. ترك المسيحيون قراهم، ولجأ معظمهم إلى دير الـقـمـر، فتم اتفـاق ونُقلوا إلى بيروت. وكانت سفن حربية أميركية وفرنسية في البحر بين جونية والدامور، تتفرّج على المأساة.

ترك المسيحيون قراهم في الشوف وفي بعض مناطق عاليه والمتن. وتعرضت بيوتهم وأملاكهم للنهب والتدمير. وأقام الجيش خطاً دفاعياً في سوق الغرب للدفاع عن بعبدا، حيث دارت معارك عنيفة، واستمرت حتى ١٣ ت١ ١٩٩٠.

ولم يكن الوضع في بيروت أفضل منه في الجبل، فقد شنّ المسلحون هجوماً من الضاحية باتجاه بعبدا فأمكن إيقافهم. واستمرت الفوضى، فترك الجنود الشيعة صفوف الجيش في المنطقة الشرقية وانتقلوا إلى المنطقة الغربية، وشكلوا اللواء السادس في الجيش اللبناني.

في السادس من شباط ١٩٨٤ سيطرت ميليشيات أمل والحزب التقدمي الاشتراكي على بيروت الغربية، فانقسمت المدينة من جديد بين غربية وشرقية، وارتفعت الحواجز والسواتر، وانحصر التنقل بين «البيروتين» في عدد قليل من المعابر. واستمر تبادل القصف، وسقوط القذائف العشوائية على الأماكن السكنية.

وتواصل مسلسل المشاكل والتهجير، ففي نيسان سنة ١٩٨٥ تعرّض عدد من القرى المسيحية في شرق صيدا وإقليم الخروب للضغط فغادرها أهلها، وازداد ملف التهجير تعقيداً.

وبغياب السلطة القوية والحازمة، استمرت الفوضى حتى داخل كل جماعة، فكان القتال بين «الأخوة» من أجل التسلط والهيمنة. فعرفت الكتائب بعد وفاة رئيسها الشيخ بيار الجميل سلسلة انقلابات (أو انتفاضات) فانتقلت القيادة من إيلي كرامي

إلى جورج سعادة. وارتسم الخلاف بين الكتائب والقوات، كذلك عرفت القوات سلسلة انتفاضات كان بعضها دموياً، وتنقلت القيادة من فادي افرام، فؤاد أبو ناضر، إلى إيلي حبيقة، فإلى سمير جعجع ورافق هذا الانتقال الأخير عملية عسكرية عنيفة ١٤ - ١٧ ك٢ ١٩٨٦، وانتقل إيلي حبيقة إلى المنطقة الغربية.

كذلك في بيروت الغربية، وقعت اصطدامات عنيفة ومتكررة بين ميليشيات أمل والحزب التقدمي الاشتراكي (حزيران ١٩٨٥) وبين أمل والفلسطينيين، وبين أمل وحزب الله (أيلول ١٩٨٧ وأيلول ١٩٨٨).

ولا بد من الكلام على التحولات المهمة التي عرفتها الطائفة الشيعية في لبنان. فقد ازداد عددها، وكان الكثيرون يعانون من الفقر، وقد تضررت كثيراً من اعتداءات إسرائيل في الجنوب ثم في الضاحية، كذلك عانت من منافسة الفلسطينيين.

كان الشيعة قديماً يخضعون لعدد من الأسر الإقطاعية. لكن أبناءهم أقبلوا على العلم، وتابع كثيرون منهم التحصيل العالي في جامعات أميركا وأوروبا لا سيما فرنسا والاتحاد السوفياتي. فتكونت جماعة من المثقفين (أنتيلليجنسيا) ودعت إلى التغيير. كما اغتنى عدد من مغتربي الشيعة لا سيما في أفريقيا.

وبرز في الطائفة رجل الدين الإمام موسى الصدر، هو من أصل لبناني وعاش مدة في إيران، ويتمتع بكفاءات عالية، وحظي باحترام كبير ليس بين الطائفة الشيعية فحسب بل لدى اللبنانيين جميعاً. دعا

إلى الإصلاح، وأنشأ عام ١٩٧٤ حركة المحرومين، ويتبعها جناح سياسي وعسكري «أفواج المقاومة اللبنانية» «أمل» أو «اتحاد محرومي لبنان». وبدأ شبان الشيعة ينضمون إلى هذه الحركة بعد أن كانوا موزعين في قوى خارج الطائفة. وشجع الإمام الصدر على حمل السلاح حيث قال «إن السلاح زينة الرجال» لكنه سعى إلى تلطيف الجو بين اللبنانيين. وفي صيف ١٩٧٨ غاب الإمام الصدر فيما كان في زيارة إلى ليبيا، وناب عنه الإمام محمد مهدي شمس الدين في المجلس الشيعي الأعلى، فيما خلفه في قيادة حركة أمل السيد حسين الحسيني ثم الأستاذ نبيه بري.

واعتاد اللبنانيون أن يتأثروا بالأحداث الخارجية، فإن لبنان بموقعه ووضعه الحساس يتأثر بكل ريح تهب في المنطقة. ففي سنة ١٩٧٩ وقعت أحداث مهمة في إيران فقد تمكنت الثورة الإسلامية من طرد الشاه واستلام الحكم بقيادة الإمام الخميني، وقامت الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وتعاطف معها الشيعة في لبنان، وحصلوا على مساعدات منها، ووعت الطائفة ذاتها، ورفعت الأعلام اللبنانية بكثافة لافتة كما حدث مثلاً في تشرين الثاني سنة ١٩٧٩.

وفي مطلع سنة ١٩٨٠ تدهورت العلاقة بين الشيعة والفلسطينيين، فقد احتملت الطائفة كثيراً من تصرفات الفلسطينيين سواء في الجنوب أم في الضاحية، وازداد الخلاف أثناء حرب العراق وإيران، حيث عطف الشيعة على إيران فيما عطف الفلسطينيون على العراق. وتلاحقت الاصطدامات بين مسلحي أمل والفلسطينيين، حتى عنفت (في أيار ١٩٨٥) عندما

حاصر مسلحو أمل مخيمات صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة الفلسطينية بمساعدة اللواء السادس من الجيش اللبناني، وتدخلت الدول العربية لوقف القتال، فتوقف العنف إنما استمر التوتر حتى سنة ١٩٨٨.

وتكررت الاشتباكات بين مسلحي أمل والحزب التقدمي الاشتراكي، وعنفت في تشرين الثاني ١٩٨٥ بما عرف «بحرب العلم» في عيدي العلم والاستقلال (٢١ و ٢٢ت٢) فحمل مقاتلو أمل وعناصر اللواء السادس الأعلام اللبنانية، فيما حمل الاشتراكيون أعلام حزبهم.

وفي سنة ١٩٨٢ نشأ حزب الله الشيعي، ودعمته إيران، ووصلت إلى البقاع اللبناني عناصر من الثورة الإيرانية لمقاتلة إسرائيل. وما لبث أن دب التنافس بين حركة أمل وحزب الله، والاختلاف في عدد من المواقف السياسية حتى وقعت اصطدامات مسلحة بين الحركة والحزب في أيلول١٩٨٧، وفي أيلول ١٩٨٨ وصلت إلى درجة من العنف، لا سيما وأنها بين الأخوة وداخل الأحياء والقرى والبيوت بل العائلات، وتدخل الجيش السوري للفصل بين المتقاتلين.

السعي لحل الأزمة اللبنانية: مؤتمرا جنيف ولوزان

ظلّت القضية اللبنانية همّ اللبنانيين الأكبر، فالأحداث والأزمات تتواصل، لكن بالمقابل جرت الاتصالات لإيجاد الحل، وكان

للسعودية ولسوريا دور في السعي إلى التفاهم، فتم الاتفاق على عقد مؤتمر في جنيف – سويسرا.

بدأ المؤتمر في ٢١ ت١ ١٩٨٣ برئاسة رئيس الجمهورية أمين الجميل، وحضره عدد من الشخصيات الممثلة للرأي العام: رشيد كرامي وصائب سلام عن السنّة، وليد جنبلاط عن الدروز، عادل عسيران عن الشيعة. أما عن المسيحيين فمثل الموالين كل من كميل شمعون وبيار الجميل، ومثّل المعارضين سليمان فرنجية. وقد حضر مندوب من السعودية وآخر من سوريا بصفة مراقب. ونظرت الدول إلى المؤتمر باهتمام فحضر إلى جنيف مراقبون أميركيون وفرنسيون وبريطانيون وسوفيات وإيطاليون ومصريون، كذلك كان لسويسرا دور في السعي لتقريب وجهات النظر، ولعب الشيخ رفيق الحريري دوراً بارزاً سعياً لإيجاد الحلول.

كانت أمام المؤتمرين ثلاث قضايا بارزة هي اتفاقية ١٧ أيار، الإصلاحات الدستورية والاجتماعية، وإنهاء القتال. والقضايا متداخلة وشائكة. عرض كل من المجتمعين أفكاره. ولم يتوصل المؤتمرون إلى قرار واحد، فاقترح رئيس الجمهورية أن يزور الولايات المتحدة ويقابل الرئيس ريغن، وينعقد المؤتمر مرة ثانية. فتمت الموافقة وتشكلت لجنة لدرس المواضيع وإعداد ورقة عمل. لم يصل المؤتمر إلى نتيجة حاسمة. بل تمت الموافقة على هوية لبنان العربية، والإيمان باستقلاله الدائم ووقف القتال في لبنان. لكن لم يتم الاتفاق على تعديل الدستور، ولا على صلاحيات كبار المسؤولين. وبخصوص الموقف من إسرائيل كلف المؤتمر الرئيس الجميل باتخاذ القرار المناسب.

تجددت الاشتباكات بعد مؤتمر جنيف، وبلغت الذروة في السادس من شباط سنة ١٩٨٤ عندما سيطرت ميليشيات أمل ومناصروها على القسم الغربي من بيروت، فانقسمت المدينة من جديد بين غربية وشرقية كما مرّ معنا.

وتجددت الاتصالات والوساطات حتى تم الاتفاق على عقد مؤتمر وطني ثانٍ في سويسرا، فانعقد المؤتمر في **لوزان** بين ١٢ و ٢٠ آذار سنة ١٩٨٤ والتقى فيه الذين حضروا في مؤتمر جنيف، وكان جو المؤتمر أقل توتراً، وأعطت الدول الكبرى المؤتمر أهمية خاصة فأرسل وزراء خارجيتها موفدين إلى لوزان لمراقبة ما يجري، فوصل إلى لوزان ممثلون من فرنسا وإنكلترا والولايات المتحدة وإيطاليا ومصر. بالإضافة إلى مندوبي سوريا والسعودية. بعد مناقشات حادة لم يتوصل المؤتمرون إلى الاتفاق الحاسم. فاتخذوا قرارين تغطية للفشل:

الأول: تشكيل لجنة أمنية تتمثل فيها الميليشيات المتحاربة لمراقبة وقف إطلاق النار برئاسة رئيس الجمهورية.

الثاني: إنشاء لجنة من الخبراء البارزين لوضع مسودة للدستور.

أما الوزير السوري عبد الحليم خدام فرأى أن أفضل طريقة هي الجمع بين قادة «أمل» والحزب التقدمي الإشتراكي، والقوات اللبنانية. من أجل التوصل إلى اتفاق شامل.

بعد مؤتمر لوزان تشكلت حكومة برئاسة رشيد كرامي عُرفت

بحكومة «الاتحاد الوطني» شارك فيها كل من كميل شمعون وبيار الجميل ووليد جنبلاط ونبيه بري، وقررت إنهاء الحرب «بدون غالب ومغلوب» واتخذت سلسلة قرارات لاستعادة الحياة الطبيعية. لكن الحرب استمرت، وظلّت بيروت مقسمة بين غربية وشرقية، وتواصلت الفوضى من سقوط القذائف العشوائية، وتفجير السيارات المفخخة ووقوع الضحايا البريئة وخطف عدد من الأجانب لا سيما من الأميركيين والفرنسيين والإنكليز واتخاذهم رهائن سياسية، وقد استغلت بعض الدول حالة الضعف والفوضى في لبنان، لتنفيذ مآرب خاصة فاستمر على أرض لبنان التنافس بين الدول.

وقع الخلاف بين أهل الحكم، فتوقف الرئيس رشيد كرامي عن حضور جلسات مجلس الوزراء منذ نيسان ١٩٨٥. وأصبح تصريف أعمال الحكومة يتم بواسطة «المراسيم الجوالة» أي أن البريد كان ينقل القرارات والمراسيم بين المسؤولين وهم يوقعونها. فقد تحولت «حكومة الاتحاد الوطني» إلى «حكومة الانقسام الوطني». وجرت محاولة لإيجاد الحل من خارج سلطة الحكومة اللبنانية، وبإشراف من سوريا. فقد جرت الاتصالات منذ صيف ١٩٨٥ بين دمشق وكل من قادة الأحزاب الثلاثة نبيه بري (أمل)، وليد جنبلاط (التقدمي الاشتراكي)، الياس حبيقة (القوات اللبنانية). وبعد المباحثات تم التوصل إلى صيغة حلّ عُرفت **بالاتفاق الثلاثي**. وتم التوقيع عليها في دمشق (٢٦ ت١ ١٩٨٥) واطلع الرئيس الجميل عليها رسمياً (٢ ت٢). والاتفاق هو مشروع حلّ، نصّ على ضرورة تحرير لبنان من الإسرائيليين، وفرض الأمن، وقيام نظام

ديمقراطي غير طائفي. والتمسك بوحدة لبنان وسلامة أراضيه، والإيمان بالهوية العربية، واحترام الحريات، وجعل مجلس النواب مناصفة بين المسيحيين والمسلمين وإنشاء مجلس شيوخ، ومحكمة دستورية عليا، وإعادة تنظيم الجيش وفق مبادئ وطنية جديدة، وإقامة علاقات مميّزة مع سوريا.

رفض رئيس الجمهورية ومعظم القيادات المسيحية الاتفاق الثلاثي، وعقب ذلك اشتباكات بين قوات حبيقة والكتائب (١٣ ك٢ ١٩٨٦) وقتال عنيف بين أنصار سمير جعجع والياس حبيقة (١٦ – ١٧ ك٢) وغادر هذا الأخير بيروت الشرقية إلى الغربية، وأصبح الدكتور سمير جعجع قائد القوات اللبنانية. أما سوريا فغضبت لإلغاء الاتفاق، لكن سلسلة اتصالات أدت إلى معاودة الحوار مع الرئيس الجميل. وتم وضع وثيقة جديدة بعنوان «مبادئ لحل الأزمة اللبنانية».

قدّم الرئيس كرامي استقالة حكومته (٤ أيار ١٩٨٧) لكن الرئيس كلف الحكومة بمواصلة تصريف الأعمال. وفي مطلع حزيران ١٩٨٧ اغتيل الرئيس رشيد كرامي. فاستلم رئاسة الوزارة مكانه الوزير سليم الحص بالوكالة.



الرئيس رشيد كرامي

قال الدكتور سليم الحص: «قبلت رئاسة الحكومة خلفاً للرئيس الشهيد (كرامي) نزولاً عند إلحاح لقاء إسلامي وطني موسع انعقد في دار الفتوى في بيروت أثر شيوع نبأ استشهاد الرئس رشيد كرامي [ ]. بقي الوضع الحكومي غريباً، شاذاً، حتى نهاية فترة الاستحقاق الدستوري بعد نحو سنة ونصف السنة: حكومة مستقيلة، تمارس صلاحيات كاملة، وهي منقسمة على نفسها ومقاطعة لرئيس الجمهورية منذ ما قبل استقالة الرئيس كرامي وحتى تم استشهاده، وأنا رئيس لها وكالة». فيما الوكالة لم تكن تستقيم في تلك الحالة.

وقد أكد رجل القانون النائب حسن الرفاعي أن لا وكالة عن ميت.

الدكتور سليم الحص

عهد القرار والهوى ١٩٨٧ – ١٩٩٠

تعذر انتخاب رئيس جديد فقامت حكومتان

تنتهي في الثالث والعشرين من أيلول ١٩٨٨ ولاية الرئيس أمين الجميل، ومنذ مطلع الصيف بدأ الحديث عن الاستحقاق الدستوري – أي انتخاب رئيس – في ٢٣ آب، وكثرت أسماء المرشحين وأكثرها جدية ثلاثة: الرئيس السابق سليمان فرنجية،

وقائد الجيش ميشال عون، وريمون إده عميد الكتلة الوطنية وقام عدد من النواب والمثقفين والفعاليات السياسية يطالب بانتخابه.

ووصل إلى لبنان المبعوث الأميركي (ريتشارد مورفي كما حدث ١٩٥٨) وأجرى محادثات في لبنان وفي دمشق واتفق مع السوريين على انتخاب الأستاذ ميخائيل الضاهر نائب عكار. لكن قائد الجيش ميشال عون، وقائد القوات اللبنانية سمير جعجع وعددا من النواب اعتبروا الأمر تعييناً فرفضوه. تحدد موعد جلسة النواب (١٨ آب ١٩٨٨) لانتخاب الرئيس الجديد فتعذر اكتمال النصاب، وظل الأمر عالقاً حتى آخر أيام الولاية، فأعلن الرئيس الجميل ليل ٢٢ أيلول ١٩٨٨ حكومة مؤلفة من أعضاء المجلس العسكري برئاسة قائد الجيش ميشال عون. لكن الضباط المسلمين رفضوا الاشتراك، فيما استمر الضابطان المسيحيان إدغار معلوف وعصام أبو جمرة مع العماد عون وتقاسم الثلاثة الحقائب الوزارية، وقد تولوا بالوكالة الحقائب التي خُصصت للضباط المسلمين.

لم يوافق رئيس الوزراء الأستاذ سليم الحص على ما جرى، واعتبر أن الحكومة العسكرية غير شرعية، وقرر الاستمرار في تحمل مسؤولية الحكم. هكذا أصبح في البلاد حكومتان: واحدة برئاسة العماد ميشال عون تتمتع بشرعية الدستورية، والثانية برئاسة الدكتور سليم الحص تتمتع بشرعية الممارسة والأمر الواقع.

كان الوضع صعباً، وصف العماد عون مهمته «بكتلة النار» أقام في قصر بعبدا، والأزمة اللبنانية تشتد ولا أمل لها بحلّ قريب، بدا أن وضع لبنان ينتظر حلّ قضايا الشرق الأوسط وفي طليعتها

القضية الفلسطينية. وكانت الولايات المتحدة، وهي القادرة على فرض الحلّ، ناقمة على السياسة اللبنانية منذ إلغاء اتفاقية ١٧ أيار مع إسرائيل. رغم أنها تهتم بلبنان اقتصادياً وحضارياً، وقد أنشأت في بيروت منذ القرن التاسع عشر أهم مؤسساتها العلمية في الشرق. استمرت فرنسا تهتم بلبنان لكنها لم تعد القوة الفاعلة كما كانت، كذلك اهتم الفاتيكان لكن قدرته معنوية. واهتمت جامعة الدول العربية وقد أصبح مقرها في تونس. فدعت وزراء الخارجية العرب إلى مؤتمر في **تونس** (١٢/١/١٩٨٩) حيث تم تشكيل لجنة سداسية للاهتمام بالقضية اللبنانية (ضمت كلاً من الكويت والجزائر وتونس والأردن والسعودية والإمارات العربية المتحدة بالإضافة إلى أمين عام الجامعة العربية الشاذلي القليبي).

دعت اللجنة السداسية إلى لقاء في **تونس** حضره كل من رئيس مجلس النواب حسين الحسيني والعماد ميشال عون، والدكتور سليم الحص. وتم بحث الوضع في لبنان، لكن دون التوصل إلى توحيد الموقف وقيام حكومة واحدة. إنما تم الاتفاق على الاحتفاظ بوحدة مؤسسات الدولة.

استمر انقسام الحكم، وتصريف الأعمال بواسطة القرارات الجوالة. في المنطقة الشرقية فتح العماد عون باب التطوع في الجيش اللبناني، وفي المنطقة الغربية عيّن الرئيس الحص قائداً للجيش (سامي الخطيب) وجرى إصدار مجلة جديدة للجيش. فأصبح للجيش قيادتان ومجلتان. وازدادت مظاهر الانقسام في البلاد، وتصاعد العنف.

إغراق البلاد في سلسلة حروب

بعد أن رجع العماد عون من تونس، سعى إلى استعادة سلطة الدولة، بدأ أولاً في المناطق التي يسيطر عليها – أي من بيروت الشرقية حتى جسر المدفون. فحاول أن يسترد من القوات اللبنانية ما أخذته من الدولة، وكانت قد أصبحت قوة عسكرية فاعلة، تزيد عناصرها على ١٥ ألفاً، ولديها الأسلحة والذخائر حتى المدافع الثقيلة والدبابات والسفن الحربية. وقعت جولات عنف متكررة بين الجيش والقوات، فتدخل البطريرك صفير (١٥ شباط ١٩٨٩) وتم التوصل إلى هدنة، وسلّمت القوات الحوض الخامس من مرفأ بيروت، وتعهدت بوقف جباية الضرائب والخوات. وانعقد اجتماع في بعبدا بين العماد عون وقائد القوات اللبنانية (٢٣ شباط) وأعلن الفريقان أن الاتفاق تام بينهما. لكن النار ظلت تحت الرماد.

حرب التحرير

وجد العماد عون نفسه أمام الحائط المسدود، فلم يتمكن من إخضاع القوات نهائياً، والبلاد مقسمة. حاول العماد عون التفاهم مع السوريين لكن دون نتيجة. فاتخذ خطوات حاسمة. أعلن إقفال المرافئ غير الشرعية، وتنظيم الملاحة البحرية على طول الشاطئ اللبناني، وأنشأ غرفة بحرية لذلك. ثم أعلن عزمه على تحرير لبنان من القوات السورية (١٤ آذار ١٩٨٩) فبدأت حرب قاسية عرفت «بحرب التحرير» فوقعت اصطدامات عنيفة لفّت المناطق التي يسيطر عليها العماد عون ساحلاً وجرداً. وسقطت القذائف العشوائية في عمق المناطق اللبنانية

وأوقعت الخراب والضحايا. واضطُر المواطنون حتى في عدد من القرى النائية أن يضعوا أكياس الرمل على منافذ بيوتهم وأن يحضّروا الملاجئ.

تجاه تدهور الوضع في لبنان، عقد مجلس الجامعة العربية في تونس اجتماعاً على مستوى وزراء الخارجية (٢٦ نيسان ١٩٨٩) ودعا إلى وقف النار، ورفع الحصار عن المرافق البحرية والجوية وعن المعابر. وقام موفد الجامعة العربية (الأخضر الإبرهيمي) بزيارة إلى لبنان، اتصل بالمسؤولين سعياً لإيجاد صيغة للوفاق.

في هذه الأثناء تواصلت في قصر بعبدا وساحاته احتفالات شعبية صاخبة، قلّ مثيلها، تأييداً للعماد عون. وحضر إلى بعبدا عدد من الموفدين الأجانب. أبرزهم مندوب من مجلس الأمن (جان كلود إيميه) والكاردينال (أوكونور) من الولايات المتحدة. والنائب اليميني من فرنسا (دونيو). وتحرّك المغتربون في عالم انتشارهم تأييداً للعماد عون. واهتم الفاتيكان كذلك فرنسا يأمر لبنان، ونشط سفيرها (ألا) لإيجاد الحل. لكن رغبتها اصطدمت بالولايات المتحدة وهي القوة الأعظم التي يمكنها أن تفرض الحل.

تجاه تفاعل الأحداث، والاهتمام الدولي بما يجري في لبنان، كلفت الجامعة العربية لجنة ثلاثية (الجزائر، مراكش، السعودية) بوضع مشروع، فقدمت (١٦ أيلول ١٩٨٩) مشروعاً من سبع نقاط، رحبت به سوريا وعارضه المسيحيون:

١- وقف النار فوراً،

٢- تشكيل لجنة لبنانية برئاسة مندوب الجامعة (الأخضر الإبرهيمي) لمراقبة السفن القادمة إلى لبنان ومنع استيراد السلاح،

٣- رفع الحصار عن المنطقة المسيحية،

٤- وقف الدعايات الإذاعية،

٥- وقف إرسال السلاح إلى لبنان،

٦- دعوة البرلمان اللبناني إلى الاجتماع (٣٠ أيلول) لوضع ميثاق الاتفاق الوطني،

٧- إيفاد الأخضر الإبراهيم إلى لبنان لتنفيذ المشروع.

أيدت سوريا المشروع لأنه لم يلحظ سحب جيشها من لبنان. حضر الأخضر الإبرهيمي إلى لبنان، وأجرى اتصالات ومباحثات مع الأفرقاء توصلاً إلى صيغة حل.

وضعت اللجنة العربية العليا وثيقة للوفاق استوحتها من دراسات ومشاريع توفيقية عدة سبق وضعها. وقد شارك عدد من اللبنانيين في إعدادها (منهم مثلاً رئيس مجلس النواب حسين

الحسيني، رئيس مجلس الوزراء سليم الحص، نواب مسيحيون منهم بطرس حرب، رينيه معوض، جورج سعادة، وعن اللجنة العربية الأخضر الإبرهيمي ورفيق الحريري، بإشراف الأمير سعود الفيصل ووزيري خارجية المغرب والجزائر، وعن سوريا عبد الحليم خدام)، وعرض المشروع على كل من الولايات المتحدة وفرنسا والفاتيكان.

مؤتمر الطائف ١٩٨٩ ووثيقة الوفاق

تحول مجلس النواب إلى مجلس تأسيسي واجتمع في مدينة **الطائف** في السعودية، حيث التقى ٦٢ نائباً، بدأت الاجتماعات منذ ٣٠ أيلول، واستمرت حتى ٢٢ ت١. فتم درس الوثيقة وإدخال بعض التعديلات. صوت عليها ٥٨ نائباً في ٢٢ ت١. وصادق عليها مجلس النواب في مطار القليعات ٥ ت٢ ١٩٨٩.

إن **وثيقة الوفاق الوطني** هذه أعلنت أن لبنان جمهورية ديمقراطية برلمانية وطن سيد حرّ مستقل، وطن نهائي لجميع أبنائه، عربي الهوية والانتماء، أكّد على المساواة في الحقوق والواجبات بين اللبنانيين وعلى احترام الحريات العامة. ووضع قانوناً جديداً لتوزيع مقاعد النواب مناصفة بين المسيحيين والمسلمين. وكرّس الرئاسات الثلاثة كتابة بعد أن كانت عرفاً. على أن يكون رئيس الجمهورية مسيحياً مارونياً، ورئيس مجلس النواب مسلماً شيعياً، ورئيس مجلس الوزراء مسلماً سنياً. وزاد مقاعد

النواب إلى ١٠٨ مقعداً، وأوصى بإنشاء مجلس شيوخ، وبإلغاء الطائفية السياسية، وإجراء عدد من الإصلاحات الإدارية، والقضائية، والانتخابية والإعلامية والتعليمية منها مثلاً توحيد الكتاب في مادتي التاريخ والتربية.

وأكد على بسط سيادة الدولة على كامل الأراضي اللبنانية. وتعزيز قوى الأمن الداخلي، والقوات المسلحة، وحل مشكلة المهجرين اللبنانيين جذرياً، وتحرير لبنان من الاحتلال الإسرائيلي ورفض توطين الفلسطينيين، وفيما خص سوريا ذكرت الوثيقة إعادة تمركز الجيش السوري في منطقة البقاع ومدخل البقاع الغربي في ضهر البيدر وإذا دعت الحاجة في مناطق أخرى. ونص الاتفاق على قيام علاقات مميزة بين لبنان وسوريا. وبالواقع استمرّ نفوذ سوريا في لبنان.

بعض ما ورد في وثيقة الوفاق الوطني

أ- لبنان وطن سيد حرّ مستقل، وطن نهائي لكل أبنائه. واحد أرضاً وشعباً ومؤسسات، في حدوده المنصوص عنها في الدستور اللبناني والمعترف بها دولياً.

ب- لبنان عربي الهوية والانتماء، وهو عضو مؤسس وعامل في جامعة الدول العربية، وملتزم بمواثيقها. كما هو عضو مؤسس وعامل في

> منظمة الأمم المتحدة وملتزم بمواثيقها. وهو عضو في حركة عدم الانحياز. وتجسّد الدولة اللبنانية هذه المبادئ في كل الحقول والمجالات دون استثناء.

بعد مؤتمر الطائف

رفض العماد عون تبني دستور الطائف، وطالب بإدخال تعديل بسيط عليه. فلم يأخذ النواب برأيه. فأعلن حلّ المجلس النيابي، لكن حكومة الحص، كذلك النواب لم يأخذوا برأيه. رجع النواب من السعودية، نزلوا في مطار القليعات في عكار، وعقدوا جلسة نيابية (٥ ت٢ ١٩٨٩). وانتخبوا رئيساً لمجلس النواب وهيئة مكتبه، فأعادوا انتخاب حسين الحسيني. ووافقوا على وثيقة الوفاق الوطني التي تم الاتفاق عليها في الطائف. وانتخبوا الأستاذ رينه معوض نائب منطقة زغرتا رئيساً للجمهورية.

الرئيس رينه معوض

لاقى انتخابه ارتياحاً عاماً، فهو يوحي الثقة بكفاءته ونزاهته، وتفكيره الهادئ والرصين، ووطنيته الصادقة. وقد برزت كفاءاته زعيماً سياسياً، ونائباً، ووزيراً أكثر من مرة. قدم الرئيس الحص استقالة حكومته وكلفه الرئيس معوض بمتابعة تصريف الأعمال.

انتقل الرئيس معوض إلى بيروت (٨ – ١١ – ١٩٨٩) وأقام في بيروت الغربية لأن العماد عون لم يخل قصر بعبدا. وأجرى الاستشارات النيابية في القصر الحكومي وكلف الدكتور سليم الحص بتشكيل الوزارة.

في مساء ٢١ ت٢ ١٩٨٩ وجه الرئيس معوض رسالة إلى اللبنانيين بمناسبة عيد الاستقلال، وفي اليوم التالي حضر إلى السراي الكبير – مركز الحكومة يتقبل التهاني بعيد الاستقلال بحضور رئيسي المجلس والحكومة. ثم رجع إلى بيته. وفيما كان في الطريق استهدفه انفجار ضخم أودى بحياته مع ١٣ مواطناً معظمهم من مرافقيه. ولم تتبنّ العملية أية جهة. ونعاه رئيس الوزراء المكلف وأعلن الحداد العام لمدة أسبوع. وبعد ٤٨ ساعة تم في شتورا انتخاب الأستاذ الياس الهراوي رئيساً للجمهورية.

> بعد انتخابه رئيساً ألقى الرئيس معوض خطاباً شاملاً أكد على التزامه وثيقة الميثاق الوطني ودعا إلى المصالحة الشاملة ومما قاله:
>
> إن الوطن في حاجة إلينا جميعاً، فلنضع حداً نهائياً للعنف والاقتتال، وليكف الجميع عن الاحتكام إلى السلاح، ولنعد إلى الكلمة السواء، فمن حق شعبنا أن يستعيد فرح الحياة ومن حق أطفالنا أن يولدوا ويشبوا في أجواء الأمن والحرية والسلام، وأن نعيش كلنا في هناء وصفاء.
>
> **الموسوعة اللبنانية – نوبليس – ج٢٤ ص٢٢٧.**

ووجه ليلة عيد الاستقلال ٢١ ت٢ رسالة إلى اللبنانيين جاء فيها

«لا وطن، ولا دولة، ولا كيان دون وحدة الشعب، ولا وحدة دون وفاق ولا وفاق دون مصالحة، ولا مصالحة دون تسامح وتضحية، ولا شيء من كل هذا دون إيمان ومحبة، لذلك فإن دعوتي الأولى هي المصالحة لتعميم الوفاق، لم يعد أحد منا يطيق صبراً على المحنة المأساة. ولم يعد أحد منا يقبل العيش وكأننا في القرون الوسطى، دون ماء ولا كهرباء، دون مسكن تهجرنا منه أو تهدم بعيداً عن القرية التي كانت مهداً لأبائنا وأجدادنا».

الموسوعة اللبنانية – نوبليس – ج٢٤ ص٢٢٩.

عهـد الرئيـس اليـاس الهـراوي ١٩٨٩ - ١٩٩٨

بعد اغتيال الرئيس رينيه معوض، انتخب النواب الأستاذ الياس الهراوي رئيساً، فتم تطبيق مضمون اتفاق الطائف. توحدت السلطة من جديد، توقف القتال، وبدأت إعادة البناء.

ترك اغتيال الرئيس رينه معوض موجة حزن عارمة، وجرى له مأتم حافل في زغرتا. وبدأ السعي فوراً لانتخاب خلف له. فذهب رئيس المجلس النيابي السيد حسين الحسيني إلى دمشق، حيث تباحث مع المسؤولينن ولدى عودته إلى لبنان دعا النواب إلى الاجتماع في بارك أوتيل في شتورة بعد ٤٨ ساعة على اغتيال الرئيس معوض، وجرى انتخاب الأستاذ الياس الهراوي رئيساً، وهو من أبناء زحلة، ولد سنة ١٩٢٦، ينتمي إلى عائلة تتعاطى السياسة، والزراعة، انتخب نائباً سنة ١٩٧٢، وأصبح وزيراً للأشغال العامة (١٩٨٠ – ١٩٨٢) وكان من كتلة نواب الموارنة المستقلين.

هو أول رئيس من منطقة البقاع، كلّف الدكتور سليم الحصّ بتشكيل الوزارة، ظل النواب كذلك الوزراء يجتمعون في شتورة، وفي ثكنة الجيش في أبلح حتى انتقل الرئيس إلى بيروت الغربية. وبدأ يخطط مع الحكومة لإعادة توحيد لبنان دون إراقة دماء.

ألقى الرئيس خطاباً بعد إدائه اليمين الدستورية (٢٤ ت٢ ١٩٨٩) وصف فيه وضع لبنان الممزّق، الغارق في الانقسام والتقاتل. وأعلن أن فرصة الخلاص لاحت مع وثيقة الوفاق الوطني، فدعا اللبنانيين إلى نبذ الخلافات والتعاون من أجل بناء الوطن، وفتح صفحة جديدة مع سوريا، وأكد أنه مصمم على تأمين السلام مهما عظمت الصعاب.

بعض ما جاء في خطاب القسم

«الظرف عصيب ولبنان اليوم مهدد أكثر من أي يوم مضى بعظيم الأخطار [...]

تُتاح اليوم (للبنانيين) فرصة سلام حقيقية متمثلة بوثيقة الوفاق الوطني التي أجمع العالم على دعمها».

«خيار اللبنانيين بين وحدة لبنان وشعبه ومؤسساته، وبين تقسيمه واقتسامه وشرذمته وزواله. وقد اخترنا باسمهم الوحدة للبنان».

«إن يدي ممدودة بكل محبة وإخلاص إلى الجميع من أجل التعاون الصادق لإنقاذ لبنان [...] وإن مسيرتنا لن تتوقف مهما عظمت الصعاب».

الموسوعة اللبنانية – نوبليس – ج٢٤ ص٢٣٣.

لم يعترف العماد ميشال عون بشرعية ما جرى، وظل في قصر بعبدا، وتواصلت التظاهرات العفوية حول القصر في أعياد شعبية صاخبة، فاعتبر الكثيرون العماد عون رمزاً للكرامة الوطنية والعنفوان. وهو يلقي الخطب الوطنية الحماسية، مؤكداً لـ «شعب لبنان العظيم» أنه سيواصل السعي من أجل خلاص لبنان، وتحقيق عظمته، سيقاتل حتى «النصر» أو حتى «الموت».

كانت المنطقة الشرقية تخضع لحصار سوريا وحلفائها، والوضع المعيشي صعب، فُقدت مواد كثيرة من السوق، الكهرباء في انقطاع شبه دائم، والبنزين نادر الوجود، والقذائف العشوائية تتساقط، وتحصد المواطنين الأبرياء الذاهبين إلى عملهم سعياً لقوتهم اليومي.

رغم الوضع المعيشي الصعب، ساءت العلاقات بين الجيش الموالي للعماد عون، والقوات اللبنانية، وتلاحقت الأحداث، وكان سمير جعجع قائداً للقوات اللبنانية ترك الجامعة منذ السنة السادسة في كلية الطب والتحق بالقوات وبرز فيها حتى أصبح قائدها منذ ٢٩ ك٢ ١٩٨٥ ويعرفه أنصاره بالحكيم، وقد ازدادت القوات في عهده عدداً وقوة (أصبحت ١٧ ألفاً) وأوجد لها نشاطات منوعة، فتم إنشاء محطة التلفزة L.B.C التي حققت

نجاحاً كبيراً، وقويت إذاعة لبنان الحر، وأسس مشاريع مالية واقتصادية مختلفة، ووضع مشروع ضمان اجتماعي لأفراد القوات وعائلاتهم. وسعى لمركز سياسي، فاصطدم بالعماد عون من أجل القيادة في المناطق المسيحية. وأقام كل من العماد عون والقوات علاقات حسنة مع النظام في العراق وحصلوا على السلاح والذخائر.

انطلقت الشرارة الحادة من القتال بين عون والقوات في ٣٠ كانون الثاني سنة ١٩٩٠ وقد أعلن العماد عون أكثر من مرة أن «لا بندقية إلا بندقية الجيش». على الأثر بدأت حرب فعلية عنيفة (٣١ ك٢ ١٩٩٠) عرفها القواتيون بحرب الإلغاء، وسماها أنصار عون «حرب توحيد البندقية». انفجر الوضع في ذلك اليوم بصورة مفاجئة أربكت المواطنين، حصرت العمال والموظفين في أماكن عملهم، والتلاميذ في مدارسهم وأقفلت الطرقات وعرفت أماكن القتال ازدحاماً ورعباً شديدين. سيطرت القوات على مناطق جبيل وكسروان، واحتفظت بمنطقة الأشرفية فيما وصلت سلطة الجيش حتى نهر الكلب، تحول القتال إلى حرب مواقع، فأقام المقاتلون الحواجز، وتبادلوا القصف فطالت القذائف أماكن بعيدة، وأوقعت الخسائر.

كانت هذه الحرب من أبشع المراحل التي عرفتها المناطق الشرقية – أو المسيحية. قصفٌ ورعبٌ وقلّة المواد الغذائية، لا سيما الخبز وأصبح البنزين شبه مفقود، ازداد وقت انقطاع الماء والتيار الكهربائي، تعذر على الموظفين والعمال الحصول على رواتبهم. واستمر هذا الوضع حتى سقط العماد عون.

في هذه الأثناء جرت محاولات لوقف القتال، بذل البطريرك الماروني جهدا كبيرا لإعادة السلام. وقام السفير الفرنسي (ألاّ) بمحاولات يائسة، وكان الأميركيون يشجعون ضد العماد عون، فإن السفير الأميركي يوم ذهب إلى إهدن لتهنئة الرئيس رينه معوض، تساءل أمام عدسة التلفزيون «ما بال سمير جعجع لم يتحرك بعد ضد العماد عون». وكان السوريون يراقبون الوضع، والرئيس الياس الهراوي يسعى لإيجاد حل دون إراقة دماء... أخيراً قرر استخدام القوة، والاستعانة بالجيش السوري. فتم لذلك تحضير سياسي، وموافقة من الدول الأجنبية الفاعلة في المنطقة ومن الهيئات في الداخل. وفي الساعة السادسة من صباح يوم السبت (١٣ ت١ ١٩٩٠) بدأ الهجوم. ثم أغار الطيران السوري على قصر بعبدا عند الساعة السابعة. كان العماد عون قد صرّح أنه سيقاتل حتى النصر أو الموت. لكنه غيّر رأيه تجاه الوضع الخطير، فقد شارك الجيش السوري في القتال كذلك الجيش اللبناني الموالي للرئيس بقيادة العماد إميل لحود بالإضافة إلى القوات اللبنانية. وفي تمام الساعة التاسعة والنصف، طلب العماد عون إلى جنوده وقف القتال والانضمام إلى الجنرال لحود. لكن الحكومة اشترطت أن يعلن العماد عون ذلك بصوته وأن يسلّم الدولة المؤسسات التي سيطر عليها. ولجأ عون إلى السفارة الفرنسية ونُقل منها إلى فرنسا. رافق تلك المرحلة الخطيرة أعمال عنف، ودخل الجيش السوري والجيش اللبناني إلى مناطق بعبدا والمتن. وتوحّد جيش لبنان، كذلك توحدت مناطق لبنان بإشراف شرعية واحدة على رأسها الرئيس الياس الهراوي وحكومة الدكتور سليم الحص.

الوضع الاقتصادي والاجتماعي

بعد هذه الحرب الطويلة والمخرّبة أصبح لبنان في وضع دقيق اقتصادياً واجتماعياً، وسياسياً. فإن المؤسسات الاقتصادية الإنتاجية أصيبت بضرر كبير، وتوقف أو تعرقل عن العمل معظمها أو بسبب التخريب والدمار، أو بسبب التهجير أو تكرر انقطاع الكهرباء والماء والفيول وقلّة المواد الأوليّة. وتضررت الزراعة بدورها، فقد خربت حقول كثيرة بسبب الحرب، سيطرت إسرائيل على منطقة في الجنوب عرفت بالشريط الحدودي، تعرّضت قرى كثيرة للتهجير فبارت الأرض، كذلك غزت المنتوجات الزراعية الأجنبية أسواق لبنان فزاحمت الإنتاج المحلي.

سيطرت الميليشيات على المؤسسات، أنشأت المرافئ غير الشرعية، فرضت الخوات وجمعت الضرائب، ونصّبت نفسها محلّ الدولة. اغتنى كثيرون على حساب غيرهم، فيما افتقر الذين بارت أرضهم أو خربت مؤسساتهم ومتاجرهم. عرف لبنان اختلالاً اجتماعياً صعباً، بسبب التهجير أو النزوح الداخلي، فإن قرى كثيرة نزح أهلها لأسباب أمنية، كذلك عرفت البلاد نزفاً بشرياً خطيراً بسبب الهجرة إلى الخارج، فذكرت التقارير أن أكثر من مليون لبناني هاجروا إلى الخارج بينهم نسبة مرتفعة من الكفاءات (هجرة الأدمغة) حتى المدارس تعثرت واضطُرت وزارة التربية في أواخر الثمانينات أن توقف الامتحانات الرسمية وتمنح الإفادات لتلاميذ الصفوف النهائية. وإن عدداً من الأسر الميسورة أرسلت أبناءها إلى مدارس وجامعات في الخارج

وفضّل الكثيرون منهم ألا يرجعوا إلى البلاد.

شكل موضوع المهجرين قضية صعبة بحاجة إلى حلّ. كذلك موضوع المخطوفين من اللبنانيين الذين فُقدوا في ظروف غامضة. وبرزت قضية ذات أبعاد دولية تمثلت بالمخطوفين الأجانب، الذين أخذتهم بعض المنظمات رهائن لأسباب سياسية. جرت أول عملية خطف في ١٦ آذار ١٩٨٤، واستمرت عمليات الخطف في أوقات متفرقة، حتى نهاية الحرب. وبلغ عدد المخطوفين الأجانب نحو الخمسين فُقد بعضهم وأُطلق سراح الباقين فيما بعد.

أوقعت الحرب خسائر ضخمة فقُدّر عدد القتلى بـ١٥٠ ألفاً وعدد كبير من الجرحى والمشوهين. وقُدّرت الخسائر المادية بأكثر من ٢٥ مليار دولار اميركي، وإذا أدخلنا البطالة القسرية التي فُرضت، والتوقف عن العمل المنتج، وضياع فرص التنمية تصل الخسائر إلى مئة مليار دولار. وصلت إلى لبنان بعض المساعدات من الخارج، لكن توزيعها لم يكن دائماً منتظماً. ولم يصل منها إلى المحتاجين إلا القليل.

بالنتيجة كان لبنان هو الخاسر الأكبر، كذلك الفلسطينيون إذ انشغلوا في لبنان عن قضيتهم العادلة وأرضهم فلسطين. فيما كانت إسرائيل المستفيد الأكبر. فهي تريد أن تؤكد أن البلاد لا تعيش إذا تعددت فيها الطوائف والعناصر البشرية، كذلك استفادت استراتيجياً بإبعاد المسلحين الفلسطينيين، واقتصادياً من السيطرة وقتاً على جزء من لبنان وبعض أسواقه. واستفادت سوريا بتثبيت وجودها في لبنان. كما استفادت دول وعواصم في

المنطقة إذ انتقل إليها النشاط الذي كان يحتفظ به لبنان وبصورة خاصة بيروت.

يمكن أن نجد شيئاً من الإيجابية في التهجير يتمثل بالعودة إلى القرى، وتنميتها، وتنمية الريف، وانتقال النشاط والازدهار إلى مناطق خارج بيروت.

رغم الصعوبات، واصل اللبنانيون نشاطهم، استمرت العلاقات الطبيعية بين أبناء الشعب بقطع النظر عن المناطق والطائفية، ظلت المصارف تعمل بدقة وأمانة، ظل اللبنانيون مؤمنين ببلدهم يرممون ما تخرّبه الحرب، واحتفظ لبنان بوحدته. ظلّت الدولة تقوم بمسؤولياتها الضرورية، تدفع أجور الموظفين، وتسيّر المصالح الحيوية. فيما لم تعد قادرة على جباية الضرائب، وفرض الرسوم إلا في مناطق قليلة من لبنان. فانخفضت قيمة العملة اللبنانية انخفاضاً كبيراً لا سيما منذ سنة ١٩٨٢. (كان الدولار الأميركي يساوي ٣ ليرات سنة ١٩٧٥، وثلاث ليرات وثمانمئة قرش في آخر سنة ١٩٨٢. وثمان ليرات و٨٩٠ قرشا آخر سنة ١٩٨٤ ليرتفع الى ٥٣٠ ليرة آخر سنة ١٩٨٨ فإلى ٢٣٩٠ ليرة في آذار ١٩٩٣ ليستقر فيما بعد على نحو ١٥٠٠ ليرة) جميع هذه المصاعب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كان على العهد أن يواجهها.

أصبح الرئيس الهراوي على رأس الدولة، يمثل وحكومته الشرعية، اعترفت الدول بعهده واتصلت به. كانت أمام العهد مسؤوليات كبيرة ومهمات صعبة لتطبيق مضمون اتفاق الطائف

ونقل البلاد من الشرذمة إلى الوحدة، وإعادة الأمن والنظام، والعودة إلى ورشة العمل لإزالة الخراب وتعويض البلاد ما فاتها من عمران، كذلك لاستعادة مركز لبنان الدولي.

في السياسة الداخلية

استمرت وزارة الدكتور سليم الحص، ثم خلفتها حكومة برئاسة عمر كرامي واستمرت حتى واجهتها إضرابات العمال والتظاهر (٦ أيار ١٩٩٢) بسبب الأزمة الاقتصادية، وخلفتها وزارة برئاسة رشيد الصلح فأشرفت على الانتخابات النيابية (١٩٩٢) ثم تولى رفيق الحريري رئاسة الوزارة (منذ أول ت٢ ١٩٩٢) واستمر رئيساً حتى آخر العهد.

ظلّ الرئيس في منطقة الرملة البيضاء قرب بيروت الغربية حتى انتهى ترميم قصر بعبدا. حقق العهد إنجازات عدة، فقد تقرر فتح المعابر، وحلّ الميليشيات، وجمع السلاح، وبسط سلطة الدولة على المرافق والمرافئ، واستعادة حقوق الخزينة ووارداتها.

سحبت القوات اللبنانية عناصرها وسلاحها من منطقة الأشرفية ٣ ك٢ ١٩٩٠، فبسطت الدولة سلطتها وأعادت توحيد العاصمة. واتخذت الحكومة قراراً بحلّ الميلشيات المسلحة، وجمع السلاح، وسمحت لها أن تبيع من سلاحها إلى الخارج، ووافقت الميليشيات. وتم جمع السلاح. كذلك جرت المحادثات مع الفلسطينيين لجمع السلاح والتخلي عن المناطق التي سيطروا

عليها، والعودة إلى المخيمات.

واتخذت الحكومة قراراً بتعيين ٤٠ نائباً (٦ حزيران ١٩٩١) لملء المراكز الشاغرة بوفاة عدد من النواب، كذلك لرفع العدد إلى ١٠٨ كما ورد في اتفاقية الطائف.

واتخذت الحكومة بعد مشاورات طويلة (١٤ آب ١٩٩١) قراراً بالعفو العام عن الجرائم السياسية التي وقعت خلال الأحداث، إنما يسقط العفو عن الذين يرتكبون مخالفات جديدة. كذلك تم وضع قانون جديد للانتخاب (١٦ تموز ١٩٩٢) ورفع عدد مقاعد النواب إلى ١٢٨، وجرت الانتخابات لكن فعاليات سياسية عدة اعلنت مقاطعة الانتخاب معتبرة أن الظرف لا يسمح باجراء انتخابات ديمقراطية. (كانت الكتلة الوطنية، والوطنيون الأحرار، والكتائب اللبنانية، كذلك الزعيم البيروتي تمام سلام في طليعة المقاطعين). وانتخب المجلس الجديد الأستاذ نبيه برّي رئيساً له. وانتقل الرئيس الهراوي إلى قصر بعبدا (٢٨ تموز ١٩٩٣) بعد أن تمّ ترميمه.

وفي سنة ١٩٩٦ جرى انتخاب مجلس نيابي جديد وكانت المشاركة في الانتخابات أكثر مما كانت ١٩٩٢ ذلك أن نسبة مقاطعي الانتخاب قد انخفضت.

وفي سنة ١٩٩٨ جرت انتخابات الهيئات البلدية والاختيارية، وقد أصبح إجراؤها ضرورة، ذلك أن آخر انتخابات لها جرت ١٩٦٣.

حاول العهد البدء بإلغاء الطائفية فاقترح وضع قانون اختياري للزواج المدني، لكن معارضة شديدة واجهت الاقتراح، فلم يتحقق، وتم إلغاء الألقاب والاستعاضة عنها بكلمة السيد (١٦ ت١ ١٩٩٧).

لا بد من الاهتمام بالوضع الأمني بعد حرب طويلة وما رافقها، وما يخطط الكثيرون بعدها. بالواقع عرفت البلاد أحداثاً أمنية عدة أمكن ضبطها. منها مثلاً اغتيال رئيس حزب الوطنيين الأحرار داني شمعون وعائلته، تفجير مبنى مكتبة الجامعة الأميركية (كولدج هول في ٨ ت٢ ١٩٩١)، انفجار استهدف بيت الكتائب المركزي في وسط بيروت (٢٠ ك١ ١٩٩٣). وعرفت البلاد سنة ١٩٩٤ موجة انفجارات كان أشدها انفجار استهدف كنيسة سيدة النجاة في الزوق (٢٧ شباط ١٩٩٤). اتُهمت به القوات اللبنانية، لم تثبت مسؤولية القوات ولا قائدها الدكتور سمير جعجع، إنما فُتح الباب لإجراء محاكمات أخرى، فأدانت المحكمة الدكتور جعجع بالتخطيط لاغتيال كل من داني شمعون، والدكتور الياس الزايك، وحكمت عليه بالإعدام، إنما تحول حكم الإعدام إلى السجن المؤبد. كذلك اتُهم الدكتور جعجع بالتخطيط لاغتيال رئيس الوزراء المرحوم رشيد كرامي.

ونذكر بالمناسبة، أن الحزم كان ضرورياً لفرض النظام، وقد تم خلال العهد تنفيذ ١٤ حكماً بالإعدام.

ومن الأحداث الأمنية المهمة كانت الاعتداءات الإسرائيلية، فإن اللبنانيين في الجنوب - وبصورة خاصة المقاومة الإسلامية -

قاموا بأعمال ضد القوات الإسرائيلية التي ظلت تسيطر على شريط في جنوب لبنان. فقامت إسرائيل بعملية عسكرية واسعة سمتها «عناقيد الغضب» في نيسان ١٩٩٦. ولجأ جمع من المواطنين إلى مركز القوات الفيجية في قانا الجنوب. لكن الجيش الإسرائيلي قذف المركز فأوقع ١١١ قتيلاً مدنياً، مجزرة بشرية رهيبة، ورفع لبنان الشكوى أمام هيئة الأمم، وقام الأمين العام بطرس غالي بدور مشكور دفاعاً عن حق لبنان. ولاقى إجرام إسرائيل انتقادات واسعة. وحضر إلى لبنان وزير خارجية فرنسا هرفه ده شارت Hervé de charette وأمضى عشرين يوماً متنقلاً بين بيَروت ودمشق وإسرائيل. حتى توصل إلى «اتفاق نيسان» الذي يقضي بعدم تعريض المدنيين للخطر. وتشكلت لجنة لمراقبة هذا التفاهم تمثّل فيها كل من فرنسا والولايات المتحدة وسوريا ولبنان وإسرائيل.

ومن الإنجازات التي تحققت نذكر قانون **الجنسية**. فإن الألوف كانوا يعيشون في لبنان وليست لهم هوية، وظلوا لمدة طويلة يسعون للحصول عليها لكن دون نتيجة. قرر العهد حلّ هذه القضية فشكّل لجنة، وضعت الدراسة اللازمة. وجرى توقيع مرسوم التجنيس (٢١ حزيران ١٩٩٤) وكان المفروض أن يحصل على الهوية اللبنانية من يستحقها. لكن انتقادات كثيرة ارتفعت فيما بعد، تؤكد أن تجاوزات وقعت، وحصل على الهوية كثيرون لا تنطبق عليهم الشروط، أو هم ليسوا بحاجة إلى الهوية اللبنانية.

كذلك كانت دوائر النفوس قد أوقفت إعطاء الهويات (أو تذاكر النفوس) منذ ١٩٧٦. حتى تم وضع نموذج جديد للهوية.

وصدر النموذج الأول لها (١٧ أيار ١٩٩٧) وأصبحت للبنانيين هويات جديدة.

كانت قضية المهجرين تشكل مشكلة إنسانية شائكة، فأنشأ العهد وزارة خاصة بالمهجّرين – تولّت إجراء المصالحات الوطنية، وإعطاء التعويضات والمساعدات لترميم البيوت، وإعادة البنى التحتية. فتحققت المصالحة بين أبناء عدد من القرى – لا سيما في الشوف – وانفتح أمام المواطنين باب العودة إلى قراهم. لكن ملف المهجرين لم يقفل نهائياً بعد. وان بعض القرى في الشوف لم تتم فيها المصالحة بعد.

وكانت البنى التحتية في البلاد بحاجة إلى تأهيل بعد إهمالها مدة طويلة. فجرى العمل في عدد من المناطق لتأهيل شبكات الماء والهاتف والكهرباء والطرقات. وحظيت بيروت وضواحيها بقسط وافر، فتم إنجاز شبكة من الطرقات والجسور حلّت مشكلة السير، كانت كلفةالإصلاحات كبيرة، وتحدّث الناس عن الهدر في الإنفاق. واستدانت الحكومة مبالغ كبيرة، حتى أصبح الدّين قضية شائكة كما سنرى.

السياسة الخارجية

أصبحت علاقات لبنان بالخارج محدودة خلال الأحداث، فلم يعد له الوجود العالمي الذي كان سابقاً. أصبح لبنان «الرجل المريض» في المنطقة، يتصل به مسؤولو العالم إشفاقاً أكثر منه

احتراماً. أما بعد عودة الاستقرار فعمل العهد لاستعادة دور لبنان في الخارج، فقام الرئيس بزيارة معظم الدول العربية وعدد من الدول الأجنبية. وكان لوزير الخارجية المحامي فارس بويز دور كبير في بلورة سياسة لبنان الخارجية واستعادة احترامه.

زار الرئيس الدول العربية أكثر من مرة (السعودية وباقي دول الخليج، المغرب، الجزائر، ليبيا، مصر وسوريا مرات عدة) زار نيويورك وألقى كلمة لبنان أمام هيئة الأمم، زار واشنطن وقابل المسؤولين، زار باريس وروما والفاتيكان... زار البرازيل حيث جالية كبيرة من أصل لبناني تزيد على السبعة ملايين. حضر مؤتمرات عربية ودولية، منها مؤتمر الفرنكوفونية في باريس (ت٢ ١٩٩١) والمؤتمر الإسلامي في دكار (ك١ ١٩٩١) مؤتمر مدريد (ت٢ ١٩٩١) لتنسيق الموقف العربي تجاه إسرائيل، ومؤتمر القمة الإسلامية في طهران.

واستقبل لبنان عدداً من كبار المسؤولين، فقد زاره في أوقات مختلفة كل من وزراء خارجية الولايات المتحدة (جميس بيكر، وارنر كريستوفر، مادلين أولبرايت)، الرئيس الفرنسي جاك شيراك، الرئيس الأميركي السابق جورج بوش، رئيس جمهورية إيطاليا، رئيسة الجمهورية الإيرلندية، مسؤولون إيرانيون. وكان لزيارة قداسة البابا يوحنا بولس الثاني وقع كبير، وكان الفاتيكان دائماً يعطف على لبنان ويتابع أخباره. وصل قداسته إلى مطار بيروت (١٠ أيار ١٩٩٧) انتقل إلى بعبدا ثم إلى حريصا وأقام قداساً في منطقة مرفأ بيروت حضره أكثر من نصف مليون شخص، خص اللبنانيون من كافة الطوائف والمناطق قداسته

باستقبالات حافلة. وإن قداسته يعتبر لبنان أكثر من وطن عادي، يعتبره تجربة إنسانية ونموذجاً لتعايش البشر وحوار الحضارات.

معاهدة الأخوة والتعاون والتنسيق مع سوريا

رافقت سوريا أحداث لبنان منذ بدايتها، واختلفت الأراء تجاه الدور السوري. من قائل بأن سوريا أفادت لبنان، حالت دون تقسيمه، وشاركت في إعادة الأمن إليه. إلى قائل بأن لسوريا مطامع تاريخية في لبنان، شجّعت على التقاتل فيه، وعلى شلّ قواته الأمنية والعسكرية حتى تسيطر عليه. مهما كان من أمر، إن لبنان تجاه المصاعب المعقدة التي واجهها كان بحاجة إلى قوة قادرة أن تفرض النظام، وقد أمنت سوريا هذه القوة بموافقة الدول الكبرى والإقليمية، ووافقت الولايات المتحدة، بصورة خاصة على تزايد قوة سوريا في لبنان، مكافأة لها للدعم المعنوي الذي أمنته خلال الحرب على العراق «عاصفة الصحراء» سنة ١٩٩١.

بعد محادثات بين لبنان وسوريا تم وضع مشروع معاهدة، وافقت عليها الحكومة اللبنانية ووقعها في دمشق رئيسا الدولتين (٢٢ أيار ١٩٩٢) بحضور عدد من كبار رجال السياسة في البلدين.

تكونت المعاهدة من مقدمة وخمس مواد تحوي كل منها عدداً من البنود. تنص المعاهدة على أن تعمل الدولتان لتحقيق أعلى

درجات التعاون والتنسيق في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والأمنية والثقافية والعلمية والعسكرية... وذلك في اطار السيادة والاستقلال. ولا يجوز أن يكون أيٌّ من البلدين مصدراً للمس بأمن البلد الآخر واستقراره واستقلاله وسيادته، تعمل الدولتان على تنسيق سياستهما العربية والدولية، وتحقيق التعاون في مختلف المجالات والقضايا. وتقرر أيضاً إعادة تمركز القوات السورية في منطقة البقاع، ومدخل البقاع الغربي وفي ضهر البيدر حتى خط حمانا – المديرج – عين داره. وفي مناطق أخرى إذا دعت الحاجة.

وتقرر إنشاء عدد من الأجهزة لتنفيذ المعاهدة وأبرزها

مجلس أعلى يتألف من رئيسي الدولتين، ورئيسي مجلس النواب، ورئيسي الحكومتين، ينعقد هذا المجلس مرة في السنة.

هيئة متابعة وتنسيق تتألف من رئيسي مجلس الوزراء، ومن الوزراء المعنيين تجتمع مرتين في السنة.

لجان وزارية للشؤون الخارجية، والاقتصادية والاجتماعية، والدفاع والأمن.

إنشاء أمانة عامة لمتابعة تنفيذ أحكام المعاهدة.

وافق مجلس النواب على المعاهدة، إنما اختلفت المواقف

منها، جاء في تعليق البطريرك صفير عليها «أن معاهدة بين فريقين غير متساويين في القوة تعني سيطرة القوي على الضعيف».

بعد توقيع المعاهدة ردّد الرئيس حافظ الأسد قوله: «إن اللبنانيين والسوريين شعب واحد في دولتين». وقال الرئيس الهراوي إنها أفضل خيار للبنان.

وأضاف فيما بعد: «إنها وثيقة موقعة بين الجمهورية العربية السورية والجمهورية اللبنانية وهي اعتراف متبادل بكيان دولتين مستقلتين ومنفصلتين.

الياس الهراوي
عودة الجمهورية – من الدويلات إلى الدولة
كميل منسى

باستشراف المستقبل والافاق المتاحة أمامنا على عتبات القرن الجديد. نرى ان في استطاعة لبنان تجاوز التحديات الاقتصادية التي يواجهها. وهو الذي تعرّض عبر تاريخه لمصاعب أكبر بكثير من المصاعب الراهنة. وتمكن، برغم ذلك من التصدي لها بكل ثقة.

رفيق بهاء الدين الحريري. الحكم والمسؤولية. الخروج من الحرب والدخول في المستقبل
الشركة العربية المتحدة للصحافة. ٩٩٩. ص٥٩.

عهد الرئيس إميل لحود
١٩٩٨

لم يتم تمديد ولاية الرئيس الياس الهراوي مرة ثانية، فانتخب مجلس النواب قائد الجيش العماد إميل لحود رئيساً للجمهورية، لاقى انتخابه فرحة عارمة. فقد أمل اللبنانيون بمستقبل أفضل للبلاد. تسلّم الرئاسة في ٢٤ ت٢ ١٩٩٨. وكلف الدكتور سليم الحص بتشكيل الوزارة. في خطاب القسم الدستوري جدّد رئيس الجمهورية ثقة اللبنانيين بوطنهم، ووعد بإقامة دولة «القانون والمؤسسات في ظل النظام الديمقراطي البرلماني» ووعد بمعالجة الوضع الاقتصادي، ومراقبة النفقات، وتنظيم الإدارة، وتأمين العدالة الاجتماعية بصورة أفضل، والتعاطي بالشفافية والصدق في أمور السياسة، وتسيير السياسة اللبنانية الخارجية عربياً ودولياً بما فيه مصلحة لبنان وكرامته. وتوضيح العلاقة، بصورة خاصة، بسوريا. كذلك تحرير الأراضي اللبنانية التي تسيطر عليها إسرائيل.

كانت مسؤوليات كبيرة تنتظر العهد: متابعة مسيرة الاستقرار والأمن في الداخل، مواصلة العمل في المشاريع العمرانية حتى تعوّض البلاد ما فاتها. وفي السياسة الخارجية السعي لاستعادة دور لبنان العالمي الذي تقلّص خلال الأحداث.

في السياسة الداخلية

استمر الاستقرار، والعمل في المشاريع الإنمائية، وتجديد البنى التحتية من طرقات وجسور وكهرباء، وشبكات توزيع مياه الشفة... وجرت الانتخابات النيابية (صيف سنة ٢٠٠٠) فازدادت نسبة المقترعين، وفازت في بيروت لائحة الشيخ رفيق الحريري. وفي الجبل لائحة الحزب التقدمي الاشتراكي بقيادة وليد جنبلاط، وفي الجنوب اللوائح المشتركة بين حركة أمل وحزب الله...

وتواصلت عملية المصالحة في الجبل وعودة المهجرين، وقام البطريرك الماروني مار نصر الله بطرس صفير بزيارة إلى الشوف (٣١ آب ٢٠٠١) ولاقى ترحيباً واسعاً تأكيداً على العودة إلى العيش المشترك. وسبق أن أقام قداساً في كنيسة مار جرجس المارونية وسط العاصمة بيروت تكريساً لعودة الاستقرار (٢٤ نيسان ٢٠٠٠).

وقد استعادت الدولة قصر بيت الدين، وذهب إليه الرئيس لحود (١٢ حزيران ١٩٩٩). ومع الاستقرار، تجدد النشاط

الاقتصادي من زراعة وصناعة وحركة بناء، كذلك استعاد لبنان الكثير من نشاطه في حقل الاصطياف والسياحة.

لكن الأمر لم يخل من الخروقات الأمنية، إنما لم يؤثر ذلك على السلم العام، بل استمر الاستقرار بصورة عامة.

وتم إقفال ملف المخطوفين أي الذين فقدوا أثناء الحوادث، فكل مخطوف مضى على فقده أكثر من عشر سنوات ولم يصل خبر عنه يُعتبر متوفياً. وكان عدد من اللبنانيين في سجون سوريا، جرى إطلاقهم على دفعات، آخرها في ١٢ ك١ سنة ٢٠٠٠ وقال السوريون أنه لم يعد موجوداً لبنانيون في سجونهم.

وتم الاتفاق بين لبنان وسوريا على تقاسم مياه نهري الليطاني والكبير الجنوبي، وحقّ لبنان بإنشاء سدود على كل من النهرين. وتكرس الاتفاق خلال زيارة قام بها الرئيس بشار الأسد إلى لبنان (٣ آذار ٢٠٠٢).

رغم مظاهر الاستقرار، فإن الوضع الاقتصادي العام ليس مريحاً، فالدّين العام يزداد والضرائب ترتفع كذلك الأسعار. وتضيق مجالات العمل لا سيما أمام الجامعيين وغيرهم من المتعلمين، علماً أن في لبنان أكثر من مليون عامل أجنبي.

كانت إسرائيل منذ ١٩٧٨ تحتل مناطق واسعة من البقاع الغربي وجنوب لبنان حتى جزين ضمناً فتكونت المقاومة اللبنانية والإسلامية. وقامت بأعمال جريئة لتحرير الأرض، وعطف

عليها اللبنانيون حكومة وشعباً ودعموها. وراحت إسرائيل تردّ على أعمال المقاومة. يحلق طيرانها الحربي في سماء لبنان ويخرق جدار الصوت. تخطف المواطنين، وتسجنهم، تدمر البيوت، تضرب البنى التحتية من جسور ومعامل كهرباء (شن طيرانها غارات جوية في ٢٤ حزيران ١٩٩٩ على محطات الكهرباء في الجمهور وبصاليم والجيّة، وعلى أربعة جسور على نهري الليطاني والدامور، كذلك على بعلبك. وفي ٨ شباط ٢٠٠٠ اعتداء آخر على محطة الجمهور، وعلى محطة دير نبوح في الضنيّة، واعتداء على بعلبك، وغارة أخرى في ٥ أيار سنة ٢٠٠٠ على محطة كهرباء بصاليم، ومحطة البداوي، واعتداءات على بعلبك وتعلبايا...).

قابلت الاعتداءات الإسرائيلية إدانةٌ واسعة من لجنة نيسان ومن الدول العربية، وتمكن لبنان من إصلاح ما تخرّب وقد أتته مساعدات من فرنسا ومن الدول العربية وبصورة خاصة من سوريا ومن مصر والسعودية والكويت والإمارات... وكان مجلس الجنوب يعطي المساعدات، ويعوّض على المتضررين، ورغم الاعتداء والتهديد استمرت المقاومة، فاضطرّت إسرائيل على الانسحاب تدريجاً، انسحبت من جزين (٣ ك٢ ١٩٩٩) وانسحبت من الجنوب ومن البقاع الغربي في ٢٥ أيار سنة ٢٠٠٠، وظل لبنان يطالب بمزارع شبعا. وقد أُعتبر يوم ٢٥ أيار عيداً وطنياً، وقام اللبنانيون، من كافة المناطق، بزيارات وتظاهرات فرحة إلى الجنوب. وتسلّمت الحكومة الأمن، وراحت ترمم البنى التحتية من ماء وكهرباء وهاتف وطرقات. أما جيش لبنان الجنوبي، الذي تعاون مع إسرائيل، فقد انحلّ،

وهاجر بعضٌ من قيادييه، فيما استسلمت عناصره تدريجياً وخضعت لمحاكمات عادلة، وقد أخذت المحكمة ظروفهم بعين الاعتبار.

في السياسة الخارجية

استعاد لبنان الكثير من وجوده العربي والعالمي. قام المسؤولون بزيارات إلى معظم الدول العربية، وإلى الدول الأجنبية لا سيما الكبيرة منها، سعيا للدفاع عن مصالح لبنان. كما استقبل لبنان كبار المسؤولين من الدول العربية والدول الأجنبية والمؤسسات الدولية.

وشارك لبنان في مؤتمرات عدة، كما استضاف المؤتمرات العربية والدولية. فقد تم اعتبار بيروت مركزاً عالمياً للإعلام (شباط ٢٠٠٠)، كما أُعلنت عاصمة ثقافية عربية. واستضافت بيروت (٢٥ حزيران ٢٠٠٠) حفلة انتخاب ملكة جمال أوروبا، وخصص ريعها للمساهمة في إصلاح ما تخرّب إسرائيل. وقد شارك الرئيس لحود في مؤتمر الدول الفرنكوفونية في كندا (أيلول ١٩٩٩) كما شارك في مؤتمر القمة العربية في القاهرة (٢١ ت١ ٢٠٠٠) لتوحيد الموقف العربي من إسرائيل. وانعقد في لبنان (١١ آذار ٢٠٠٠) مؤتمر لوزراء الخارجية العرب دعماً للبنان في مواجهة إسرائيل. وانعقدت في بيروت (٢٧ آذار ٢٠٠٢) قمة عربية بحضور الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان، والأمين العام لمنظمة الفرنكوفونية بطرس غالي. وتمت

الموافقة على مشروع سعودي للصلح مع إسرائيل، يقوم على مبدأ الأرض مقابل السلام، ويقضي بانسحاب إسرائيل من جميع الأراضي التي احتلتها في حزيران ١٩٦٧.

كذلك انعقد في بيروت المؤتمر التاسع للفرنكوفونية، وهو يُعقد لأول مرة في دولة عربية. وقد جرى التحضير له بدقة، حضره ممثلو ٥٥ دولة منهم رئيس الجمهورية الفرنسية، والرئيس الجزائري، ورئيس وزراء كندا وغيرهم...

ارتفع دين لبنان العام إلى ٣١ مليار دولار، وشكلت خدمة الدّين عبئاً كبيراً. فانعقد مؤتمر باريس «٢» (٢٣ ت٢ ٢٠٠٢) بسعي رئيس الوزراء رفيق الحريري، ودعم الرئيس الفرنسي جاك شيراك، وتقرر إعطاء لبنان مساعدات وقروضاً بقيمة نحو أربعة مليارات وثلاثمئة مليون دولار بفوائد مخفضة، وذلك تسهيلاً لخدمة الدّين. مما يشكل دعماً مادياً ومعنوياً، ويوحي بثقة دولية تجاه لبنان في حاضره ومستقبله.

لبنان الدائم

قرأنا في هذا الكتاب موجزاً لتاريخ لبنان. رافقنا الأحداث منذ عصور ما قبل التاريخ حتى اليوم. تعرّفنا إلى الأحداث البارزة في المراحل التاريخية التي عرفها لبنان في عصور ما قبل التاريخ كذلك في العصور القديمة والوسيطة والحديثة حتى والمعاصرة.

تعرفنا إلى إنسان ما قبل التاريخ، وإلى الفينيقيين وعلاقاتهم بشعوب عصرهم من مصر الفرعونية، إلى شعوب بلاد ما بين النهرين والفرس، إلى اليونان والرومان والبيزنطيين. وتعرفنا إلى العصور العربية وتسلسلها من عهد الخلفاء الراشدين، إلى الأمويين، فالعباسيين، فإلى عهد الدويلات من فاطميين وحمدانيين وسلاجقة، فإلى مرحلة الصليبيين والأيوبيين فالمماليك. وأخيراً إلى العهود العثمانية منذ مطلع القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين، أي ما يزيد على الأربعة قرون مع ما رافقها من أحداث. احتفظ لبنان خلالها جميعاً بشخصية

معيّنة، فتمسك بحكم وطني، ولو كان خاضعاً لأجنبي، نعم خضع للعثمانيين ولغيرهم، لكنه لم يصبح منهم. فكما احتفظ بشخصية مميزة عبر العصور، ظل متمسكاً بهذه الشخصية، يأخذ من عادات غيره، يتقن لغة أو أكثر من لغات العصر، دون أن يتخلى عن لغته القومية.

منذ مطلع العهد العثماني، في الربع الأول من القرن السادس عشر، حكمته الأسر الإقطاعية، أُسرٌ لبنانية أصيلة، أو تلبننت. عملت من أجل لبنان وأخلصت. برز منها المعنيون ثم الشهابيون. وفي أواسط القرن التاسع عشر، ازداد التدخل الأجنبي في شؤون السلطنة العثمانية، وانعكست خلافات الدول ومطامعها على لبنان، واستغلّت الدول غياب السلطة المركزية القوية، وتطورات اجتماعية عرفها العالم في القرن التاسع عشر، فانفجرت الخلافات الاجتماعية واتخذت طابعاً طائفياً، لكن المحنة انتهت، وظلّ اللبنانيون متمسكين بالشخصية المميزة، ورفضوا أن يصبحوا مواطنين عثمانيين، فقام نظام المتصرفية، ضاقت مساحة البلاد، إنما استمرت نواة بلاد ذات شخصية مميّزة، تحولت إلى لبنان الكبير سنة ١٩٢٠.

تنوعت آراء اللبنانيين ومواقفهم تجاه قيام دولة لبنان الكبير، رحّب بها البعض، فيما اعتبر البعض الآخر أنها مفروضة فرضاً. فدار نقاش، واختلاف في الرأي، إنما لم يصل الأمر إلى قتال. بل استمر التشاور حتى توصل اللبنانيون، بمرونة، إلى صيغة عيش مشترك، من خلال الميثاق الوطني. وبالتفاهم والاتحاد تحقق الاستقلال.

في لبنان شعب قديم، وحضارة عريقة تشهد عليها الآثار الغنية المنتشرة على أرض لبنان، والتي تروي قصة الحضارات التي عرفها حوض المتوسط والشرق الأوسط. في هذه المنطقة بالذات نشأت أقدم بل أهم الحضارات. ومن تسلسل حضارات الشرق وحوض المتوسط، نشأت حضارات عالم اليوم. وقد رافق لبنان تطور الحضارات هذه وشارك فيها.

رغم ما في لبنان من مقومات، فإننا نجد في اللبنانيين مظاهر متناقضة. ففيما نجد حضارة عريقة، وميلاً جامحاً إلى العلم واقتباس كل جديد، وانفتاحاً على العالم، وطموحاً واسعاً، وتحدّياً للمصاعب بحثاً عن العمل، وعن النجاح الواضح في مجالات العمل، نجد من جهة ثانية بروز الروح الفردية، النجاح في العمل الفردي والنفور من عمل الجماعة. وحبّ الظهور حتى لو كانت المظاهر مصطنعة. نجد الميل إلى عدم احترام القوانين، حتى التهرّب من الواجبات الوطنية، كأن الفرد يعمل لنفسه ولأهله، أكثر مما يهتم بمجتمعه وبوطنه. لعل ذلك يرجع إلى كون لبنان يحتضن شعباً قديماً، عريق الحضارة، لكنه دولة فتيّة بل حديثة العهد. لم يمرّ الوقت الكافي بعد لتكوين المواطنية الكاملة. أو لأن اللبناني انشغل بالعمل وأهمل أمور السياسة وارتاح إلى قوة خارجية تشرف على سلوكه السياسي.

حقق اللبنانيون الاستقلال، المهم أن يرعوا هذا الاستقلال. أصبح لبنان المستقل بلد الاستقرار والأمن، أرض الحرية، مثال الحيوية والازدهار. رغم ضيق مساحة البلاد، وقلّة مواردها الطبيعية، أمّن اللبنانيون وضعاً اقتصادياً لائقاً، طبّقوا قدر الامكان

النظام الديمقراطي. وفيما، بعد الحرب العالمية الثانية، اجتاحت معظم بلدان العالم الثالث موجات الانقلابات وعدم الاستقرار، وغياب الديمقراطية، ظلّ لبنان بلد الاستقرار، ومثال الوعي، وموطن طوائف متعددة تعيش بوئام.

استقر اللبنانيون في بلادهم، وانطلقوا منها منتشرين في أنحاء الأرض، فأعطوا وأخذوا، وجمعوا في لبنان من ثروات العالم المادية والحضارية، من فضائل الشرق وقيمه الإنسانية، ومن منطق الغرب وحيويته في العمل.

تغيّر واقع لبنان في مطلع الربع الأخير من القرن العشرين، غزته إرادات خارجية، استغلت أوضاعاً اجتماعية واقتصادية، وانجرفت معها مجموعات من اللبنانيين، فغرقت البلاد في حرب مخرّبة، لكن معظم اللبنانيين حافظوا على الاستقامة في التعامل. ورغم غياب الدولة وتغييب القوانين، ظلّ اللبناني يدفع ما عليه ويأخذ ما له، استمرت الممارسة الديمقراطية. واصل البرلمان أعماله، ظلّت الأحزاب تمارس نشاطها، استمرت الصحافة بتنوعها وبحريتها رغم التضحيات، واصلت المصارف عملها ومسؤولياتها، ظلّت حرية الاقتصاد والمبادرة الفردية، تمكن اللبناني أن يؤمن الضروري من العيش، ورغم الهجرة والتهجير ظلّ اللبناني مؤمناً بأرضه، واثقاً بمستقبل وطنه، حتى انتهى ليل الحرب الطويل، ورجعت البلاد إلى حياتها الطبيعية.

رجع اللبنانيون يرممون ما خرّبت الحرب، يجدّون ليعوضوا ما فاتهم، رجعوا إلى سابق عهد التعايش، وإلى زمن الاستقرار

والازدهار. قدم إلى لبنان مئات الألوف من العمال الأجانب، وهم يجدون مجال العمل فيه أرقى مما هو في بلدانهم.

اللبناني اليوم، مدعو إلى متابعة رسالة لبنان الدائم، التي تلتزم تأمين العيش الكريم والحر، التي تحترم إنسانية الإنسان. وحتى يظل لبنان أرض التفاعل الفكري والحضاري، أرض لقاء الحضارات والديانات، وحوار الثقافات، لبنان رسالة أكثر منه مجرد أرض، إنه تجربة إنسانية رائدة، وتأكيد لكون الإنسان أخا للإنسان؛ لبنان مختبر للتعايش، إن استمراره ضرورة لذاته وللمنطقة. وحتى يستمر، على اللبناني أن يظلّ مؤمناً بوطنه لبنان، وأن ينقل هذا الإيمان إلى أولاده فأحفاده. ويستمر لبنان ما دام أبناؤه يتوارثون الإيمان والثقة به.

حكام لبنان من القرن السادس عشر حتى اليوم

عهد الإمارة ١٥١٦-١٨٤١

مرحلة انتقالية

- **عمر باشا النمساوي**

١٦ كانون الثاني – ١٦ كانون الأول ١٨٤٢

عهد القائمقاميتين ١٨٤٢– ١٨٦١

عهد المتصرفية ١٨٦١ – ١٩١٨

المتصرفون الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى

- **علي منيف** (آب ١٩١٥ – شباط ١٩١٧)
- **اسماعيل حقي** (٢٦ آذار ١٩١٧ – حزيران ١٩١٨)
- **ممتاز بك** (تموز ١٩١٨ – أيلول ١٩١٨)

المرحلة الانتقالية من الحرب إلى الانتداب

- **مالك شهاب وعادل أرسلان** من ١ إلى ٧ تشرين الأول ١٩١٨
- **حبيب باشا السعد** من ٧ إلى ٩ تشرين الأول ١٩١٨
- **الكابيتان بوشر، ثم القومندان سيشه، ثم القومندان لابرو** من ٢٠ تشرين الأول ١٩١٨ إلى أيلول ١٩٢٠

عهد الانتداب ١٩٢٠ – ١٩٤٣

- **الحكام الفرنسيون** حتى ١٩٢٦
- **القومندان ترابو** (من أول أيلول ١٩٢٠ إلى ١٢ أيار ١٩٢٣)
- **المسيو أوبوار** بالوكالة (من ١٢ أيار إلى ٢٧ حزيران ١٩٢٤)
- **الجنرال فندنبرغ** (من ٢٧ حزيران ١٩٢٤ إلى ٣ كانون الثاني ١٩٢٥)
- **المسيو كابلا** (من ١٣ كانون الثاني ١٩٢٥ إلى ٢٥ أيار ١٩٢٦)

المفوضون السامون الفرنسيون حتى ١٩٤٦

- **جورج بيكو** (٩ نيسان ١٩١٨ – تشرين الأول ١٩١٩)
- **الجنرال غورو** (٨ تشرين الأول ١٩١٩ – أيار ١٩٢٣)
- **الجنرال ويغان** (٩ أيار ١٩٢٣ – كانون الثاني ١٩٢٥)
- **الجنرال ساراي** (٢ كانون الثاني ١٩٢٥)
- **هنري ده جوفنيل** (٢ كانون الأول ١٩٢٥)

- **هنري بونسو** (١٢ تشرين الأول ١٩٢٦)
- **دميان ده مارتل** ١٢ تشرين الأول ١٩٣٣
- **غبريال بيو** (١٢ كانون الثاني ١٩٣٨)
- **هنري دانتز** (٣٠ كانون الأول ١٩٤٠)
- **الجنرال جورج كاترو** (١٤ تموز ١٩٤١)
- **الجنرال جان هللو** (٩ حزيران ١٩٤٣)
- **الجنرال بينيه** (١٠ حزيران – ٣١ كانون الأول ١٩٤٦)

رؤسـاء الجمهوريـة في لبنـان
منذ ١٩٢٦ حتى سنة ٢٠٠٢

شارل دباس

رجل إدارة وسياسة. رئيس جمهورية من (٢٦ أيار ١٩٢٦ حتى ك٢ ١٩٣٤) انتخبه النواب والشيوخ ثم مدد المفوض السامي ولايته في أيار ١٩٣٢.

حبيب باشاالسعد

عيّنه المفوض السامي هـ. بونسو (٣٠ ك٢ ١٩٣٤ - ٢٠ ك٢ ١٩٣٦).

إميل إده

انتخبه مجلس نيابي استمرت ولايته من ٢٠ ك٢ ١٩٣٦ حتى استقال ٤ نيسان ١٩٤١.

ألفرد نقاش

عينه المفوض السامي دانتز (١٥ نيسان ١٩٤١ استمر حتى ١٨ آذر ١٩٤٣).

أيوب تابت

عيّنه المفوض السامي كاترو (١٨ آذار ١٩٤٣ استمرّ حتى ٢١ تموز ١٩٤٣).

بترو طراد

عيّنه كاترو في ٢١ تموز ١٩٤٣ استمرّ حتى ٢١ أيلول ١٩٤٣.

بشارة الخوري

انتخبه المجلس النيابي استمر من ٢١ أيلول ١٩٤٣ وجدد ولايته واستمرّ حتى ١٨ أيلول ١٩٥٢.

كميل شمعون

انتخبه النواب امتدت ولايته من ٢٣ أيلول ١٩٥٢ حتى ٢٣ أيلول ١٩٥٨.

فؤاد شهاب

من ٢٣ أيلول ١٩٥٨ حتى ٢٣ أيلول ١٩٦٤.

شارل حلو

من ٢٣ أيلول ١٩٦٤ حتى ٢٣ أيلول ١٩٧٠.

سليمان فرنجية

٢٣ أيلول ١٩٧٠ – ٢٣ أيلول ١٩٧٦.

الياس سركيس

٢٣ أيلول ١٩٧٦ – ٢٣ أيلول ١٩٨٢.

بشير الجميل

اغتيل قبل أن يتسلّم سلطاته الدستوريّة.

أمين الجميل

٢٣ أيلول ١٩٨٢ حتى ٢٣ أيلول ١٩٨٨.

مرحلة انتقالية

(كان العماد ميشال عون رئيس حكومة عسكرية موقتة. فيما ظلت حكومة الرئيس الحص تمارس اعمالها).

رينه معوض

٥ تشرين الأول ١٩٨٩، اغتيل في ٢٢ تشرين الثاني.

الياس الهراوي

تشرين الثاني ١٩٨٩ حتى سنة ١٩٩٨.

العماد إميل لحود

.١٩٩٨

توالى في رئاسة الوزارة
منذ ٢٥ أيلول سنة ١٩٤٣
حتى اليوم ٦٣ رئيساً هم

١ – **رياض الصلح:** ١٩٤٣/٩/٢٥ حتى ١٩٤٤/٧/٢.
٢ – **رياض الصلح:** حتى ١٩٤٥/١/٩.
٣ – **عبد الحميد كرامي:** ١٩٤٥/٨/٢٢.
٤ – **سامي الصلح:** ١٩٤٦/٥/٢٢.
٥ – **سعدي المنلا:** ١٩٤٦/١٢/١٤.
٦ – **رياض الصلح:** ١٩٤٧/٦/٧.
٧ – **رياض الصلح:** ١٩٤٨/٧/٢٦.
٨ – **رياض الصلح:** ١٩٤٩/١٠/١.
٩ – **رياض الصلح:** ١٩٥١/٢/١٤.
١٠ – **حسين العويني:** ١٩٥١/٦/٧.
١١ – **عبد الله اليافي:** ١٩٥٢/٢/١١.
١٢ – **سامي الصلح:** ١٩٥٢/٩/٩.
١٣ – **ناظم عكاري:** ١٩٥٢/٩/١٤.
صائب سلام: ١٩٥٢/٩/١٤ (أزمة أيلول ١٩٥٢).

١٤ – فؤاد شهاب: ٣٠/٩/١٩٥٢.
١٥ – خالد شهاب: ٣٠/٤/١٩٥٣.
١٦ – صائب سلام: ١٦/٨/١٩٥٣.
١٧ – عبد الله اليافي: ١/٣/١٩٥٤.
١٨ – عبد الله اليافي: ١٦/٩/١٩٥٤.
١٩ – سامي الصلح: ٩/٧/١٩٥٥.
٢٠ – سامي الصلح: ١٩/٩/١٩٥٥.
٢١ – رشيد كرامي: ١٩/٣/١٩٥٦.
٢٢ – عبد الله اليافي: ٨/٦/١٩٥٦.
٢٣ – عبد الله اليافي: ١٨/١١/١٩٥٦.
٢٤ – سامي الصلح: ١٨/٨/١٩٥٧.
٢٥ – سامي الصلح: ١٤/٣/١٩٥٨.
٢٦ – سامي الصلح: ٢٤/٩/١٩٥٨.
٢٧ – رشيد كرامي: ١٤/١٠/١٩٥٨.
٢٨ – رشيد كرامي: ١٤/٥/١٩٦٠.
٢٩ – أحمد الداعوق: ١/٨/١٩٦٠.
٣٠ – صائب سلام: ٢٠/٥/١٩٦١.
٣١ – صائب سلام: ٣١/١٠/١٩٦١.
٣٢ – رشيد كرامي: ٢٠/٢/١٩٦٤.
٣٣ – حسين العويني: ٢٥/٩/١٩٦٤.
٣٤ – حسين العويني: ١٨/١١/١٩٦٤.
٣٥ – حسين العويني: ٢٥/٧/١٩٦٥.
٣٦ – رشيد كرامي: ٩/٤/١٩٦٦.
٣٧ – عبد الله اليافي: ٦/١٢/١٩٦٦.
٣٨ – رشيد كرامي: ٨/٢/١٩٦٨.

٣٩ – عبد الله اليافي: ١٢/١٠/١٩٦٨.
٤٠ – عبد الله اليافي: ٢٠/١٠/١٩٦٨.
٤١ – عبد الله اليافي: ١٥/١/١٩٦٩.
٤٢ – رشيد كرامي: ٢٥/١١/١٩٦٩.
٤٣ – رشيد كرامي: ١٣/١٠/١٩٧٠.
٤٤ – صائب سلام: ٢٧/٧/١٩٧٢.
٤٥ – صائب سلام: ٢٥/٤/١٩٧٣.
٤٦ – أمين الحافظ: ٨/٧/١٩٧٣.
٤٧ – تقي الدين الصلح: ٣٠/١٠/١٩٧٤.
٤٨ – رشيد الصلح: ٢٣/٥/١٩٧٥.
٤٩ – نور الدين الرفاعي: ١/٧/١٩٧٥.
٥٠ – رشيد كرامي: ٩/١٢/١٩٧٦.
٥١ – سليم الحص: ١٦/٧/١٩٧٩.
٥٢ – سليم الحص: ٢٥/١٠/١٩٨٠.
٥٣ – شفيق الوزان: ٨/١٠/١٩٨٢.
٥٤ – شفيق الوزان: ٢٩/٤/١٩٨٤.
٥٥ – رشيد كرامي: استشهد في حزيران ١٩٨٧ ناب عنه سليم الحص
٥٦ – سليم الحص: ٢٣/١٢/١٩٩٠.
٥٧ – عمر كرامي: ١٥/٥/١٩٩٢.
٥٨ – رشيد الصلح: ٣٠/١٠/١٩٩٢.
٥٩ – رفيق الحريري: ٢٥/٥/١٩٩٥.
٦٠ – رفيق الحريري: ٧/١١/١٩٩٦.
٦١ – رفيق الحريري: ١٤/١٢/١٩٩٨.
٦٢ – سليم الحص: ٢٦/١٠/٢٠٠٠.
٦٣ – رفيق الحريري: منذ ٢٦/١٠/٢٠٠٠.

المصادر والمراجع

- وهيب أبي فاضل: حضارات الشرق القديم، مكتبة حبيب.
- وهيب أبي فاضل: عالم التاريخ والحضارة، (١٠ أجزاء) دار نوبليس.
- فيليب حتي: لبنان في التاريخ، ١٩٥٩.
- فيليب حتي: تاريخ العرب المطول.
- البطريرك اسطفان الدويهي: تاريخ الأزمنة، دار لحد خاطر ١٩٨٣.
- الأمير حيدر أحمد الشهابي: لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٦٩.
- عيسى اسكندر المعلوف: تاريخ الأمير فخر الدين الثاني، ١٩٣٤.
- بولس قرألي: فخر الدين المعني الثاني، ١٩٣٨.
- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه فارس ومنير بعلبكي، ١٩٦٥.
- حسين غضبان أبو شقرا: الحركات في لبنان، ١٩٥٢.
- فيليب وفريد الخازن: المحررات السياسية، من ١٨٤٠ إلى ١٩١٠.
- أسد رستم: عهد المتصرفية.

- طنوس الشدياق: أخبار الأعيان في جبل لبنان، مكتبة العرفان، ١٩٥٤.
- اميل خوري: عادل اسماعيل، السياسة الدولية في الشرق العربي.
- مركز الحريري الثقافي: لبنان في تاريخه وتراثه، (جزآن).
- د. عادل اسماعيل (سفير لبنان): السياسة الدولية في الشرق العربي، الجزء الخامس، بيروت ١٩٧٠.
- محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار النفائس.
- ملحم قربان: تاريخ لبنان السياسي الحديث، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٠.
- د. كمال سليمان الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر.
- ستيفن هامسلي لونغريغ: تاريخ سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، ترجمة بيار عقل، دار الحقيقة بيروت ١٩٧٨.
- تيودور هانف: مركز الدراسات العربي الاوروبي، باريس. لبنان تعايش في زمن الحرب، من انهيار دولة إلى انبعاث دولة، نقله عن الالمانية، موريس صليبا.
- أحمد مصطفى حيدر: الدولة اللبنانية، ١٩٢٠-١٩٥٣.
- صلاح عبوشي: تاريخ لبنان الحديث من خلال ١٠ رؤساء حكومة، دار العلم للملايين.
- زين نور الدين: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، دار النهار للنشر.
- يوسف الحكيم: سوريا والعهد الفيصلي، دار النهار للنشر.
- بشارة خليل الخوري: حقائق لبنانية، منشورات أوراق لبنانية.
- وليد عوض: رؤساء لبنان، الأهلية للنشر والتوزيع.
- الخوري أسقف بطرس حبيقة: اميل بك اده رئيس الجمهورية ١٩٣٩.
- فؤاد مطر: رؤساء لبنان، من شارل حلو إلى شارل دباس.
- كميل شمعون: مراحل الاستقلال، مكتبة صادر ١٩٤٩.

- كميل شمعون: مذكراتي.
- هلال الصلح: تاريخ رجل وقضية، رياض الصلح ١٨٩٤-١٩٥١.
- سامي الصلح: احتكم إلى التاريخ، دار النهار للنشر.
- الدكتور جورج حنا: لبنان في ربع قرن، من الاحتلال إلى الاستقلال.
- منير تقي الدين: ولادة الاستقلال، دار العلم للملايين.
- منير تقي الدين: الجلاء، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٦.
- باسم الجسر: ميثاق ١٩٤٣، دار النهار للنشر.
- يوسف سالم: ٥٠ سنة مع الناس، دار النهار للنشر.
- جوزف أبو خليل: لبنان وسوريا، ١٩٩١.
- باسم الجسر: فؤاد شهاب ذلك المجهول.
- واكيم بو لحدو: فؤاد شهاب، القائد والرئيس، ١٩٩٦.
- الدكتور سليم الحص: زمن الامل والخيبة، دار العلم للملايين.
- الدكتور سليم الحص: عهد القرار والهوى، دار العلم للملايين.
- الدكتور سليم الحص: ذكريات وعبر، دار العلم للملايين.
- بيار زياده: التاريخ الدبلوماسي لاستقلال لبنان، طبعة ثانية ١٩٨٧.
- انطوان خويري: مجموعة الحرب في لبنان.
- عبدالله بوحبيب: الضوء الأصفر، السياسة الأميركية تجاه لبنان.
- سيمون شيفر: كرة الثلج، اسرار التدخل الاسرائيلي في لبنان.
- كريم بقردوني: السلام المفقود، عهد الياس سركيس، ١٩٧٦-١٩٨٢.
- باتريك سيل: الاسد، الصراع في الشرق الأوسط، ١٩٩٧.
- حرب السنتين: دار النهار للنشر ١٩٧٥-١٩٧٦.
- شارل حلو: حياة في ذكريات، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٩٥.
- نقولا ناصيف: آخر العمالقة، كميل شمعون، دار النهار للنشر.
- نقولا ناصيف: ريمون اده، جمهورية الضمير، دار النهار للنشر ٢٠٠٢.
- إيغور تيموفييف: كمال جنبلاط، الرجل والأسطورة، دار النهار ٢٠٠٠.

– رفيق بهاء الدين الحريري: الحكم والمسؤولية، ١٩٩٩.

– الياس الهراوي: عودة الجمهورية، دار النهار للنشر ٢٠٠٢.

- A. Moret: Histoire Ancienne de l'Orient, 1941.
- G. Conteneau: La Civilisation Phénicienne, 1949.
- Gerhard Herm: Les Phéniciens, Fayard 1976.
- Pareja: Islamologie, Imp. Catholique 1957.
- H. Lammens: La Syrie, 1921.
- E. Rabbath: La Formation Historique du Liban Politique et Constitutionnel, 1973.
- R. Grouset: L'epopée des Croisades, Paris 1952.
- Le Liban et l'Expedition Française en Syrie 1860-1861, Paris 1921.
- Jouplain: La Question du Liban.
- Adel Ismail: L'histoire du Liban.
- Adel Ismail: Fakhr Eddin II.
- Adel Ismail: Le Liban 1840-1860.
- Raymond O. Zouk: Les Etats du Levant sous Mandat Français.
- Jean-Albert Sorel: Le Mandat Français, 1929.
- La Syrie et le Liban sous l'Occupation Française 1920-1929, Berger-Levrault.
- V. de Saint Point: La Vérité sur la Syrie, 1928.
- Philippe Gouraud: Le Général Henri Gouraud au Liban et en Syrie 1919-1923.
- E. Rabbath: L'Evolution de la Syrie sous Mandat, 1928.
- Jaques Nantet: Histoire du Liban - Les Editions de Minuit.
- Georges Catroux: Bataille de la Méditerranée.

- G. Puaux: Deux Année au Levant, Souvenir de Syrie et du Liban.
- Weygard: Rappelé au Service.
- Général Degaulle: Mémoires de Guerre.
- Kamal Joumblat: Pour le Liban.
- Thierry Des Jardins: Le Martyre du Liban, Plon 1976.
- A. Jabre: La Guerre du Liban.
- C. Chamoun: Crise au Moyen-Orient, Gallimard 1963.
- Sir E. Spears: Mission to Syria and Lebanon 1941-1944.

رؤســاء الجمهوريــة






شارل دباس | حبيب باشا السعد | اميل اده | ألفرد نقاش






أيوب تابت | بترو طراد | بشارة الخوري | كميل شمعون






فؤاد شهاب | شارل حلو | سليمان فرنجية | الياس سركيس







بشير الجميل | أمين الجميل | رينيه معوض | الياس الهراوي | أميل لحود

فهــرس

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ظ

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي



للمؤلـف

- حضارات الشرق القديم، مكتبة حبيب ١٩٨٥
- تطور تعليم التاريخ في لبنان، مكتبة انطوان ١٩٩٣
- هنيبعل، مكتبة حبيب ١٩٩٢
- لبنان في مراحل تاريخه الموجزة، مكتبة انطوان ١٩٩٤
- شارل ديغول رجل الرؤية والمواقف ١٨٩٠-١٩٧٠، مكتبة حبيب ١٩٩٥
- تاريخ لبنان المعاصر، دار نوبليس ٢٠٠٢
- موسوعة عالم التاريخ والحضارة، ١٠ اجزاء، دار نوبليس ٢٠٠٣
- Histoire Générale des Civilisations (Cours)
- عدد كبير من الدراسات والمقالات التاريخية

شكر خاص لمكتبة انطوان. وقد عرفتها منذ كنت تلميذاً. أمنت لي – كما أمنت وما تزال لكل من يطلب – ما احتاج اليه في حقل العلم والثقافة. وجدت فيها دائماً افضل التسهيلات. أقدر ما لها من فضل على نشر العلم والمعرفة. أقدر حرصها الدائم على مواصلة رسالتها الكبيرة، ومنها الاهتمام بتاريخ لبنان. أتمنى لها استمرار النجاح خدمةً للعلم وللوطن.

د. وهيب أبي فاضل

لبنان

في مراحل تاريخه الموجزة

هذا الكتاب يروي باختصار قصة وجود الانسان على ارض لبنان منذ عصور ما قبل التاريخ حتى صيف ٢٠٠٣. نعرف ان لبنان دولة فتيّة، لكن شعبه قديم، ويغرق تاريخه في القدم حتى عصور ما قبل التاريخ. عرف شعوب المتوسط وحضاراتها. عايش شعوب بلدان الشرق الاوسط، وهو واحدٌ منها. عرف الاحداث الكثيرة، والمعقدة احياناً. هاجر كثيرون من ابنائه واستقبل الكثيرين... ومؤلف هذا الكتاب عمل في حقل التاريخ معلماً ومؤلفاً منذ اكثر من نصف قرن، قرأ الاحداث بعمق، وكتب فيها. لم يقتصر عمله على الاحداث السياسية، بل تناول - بما يسمح المجال - الاعمال الحضارية من اوضاع اجتماعية واقتصادية وفكريّة وفنيّة. استعان بعدد من الصور والمستندات للمزيد في توضيح الاحداث. تناول الحقبات التاريخية التي عرفها لبنان، اختصر في القديم والوسيط، ليتوسع اكثر في التاريخ الحديث والمعاصر. كتب بطريقة علمية، وباسلوب واضح وموجز، حتى لا يغرق القارىء في التفاصيل. بل وصف الاحداث الاساس التي تلاحقت وتفاعلت، حتى وصل لبنان الى ما هو عليه اليوم.



